مجلة مجمع اللغة العربية





مجمع اللغة العربية بالقاهرة
١٥ شارع عزيز أباظة
(المعهد السويسرى سابقا) بالزمالك

اهداءات ٢٠٠٣

أ.د / شوقى ضيف
رئيس مجمع اللغة العربية

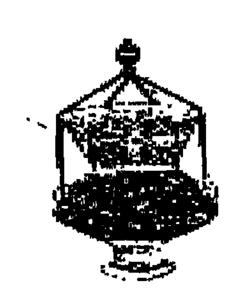
مجلة مجمع اللغة العربية

(تصدر مرتين فى السنة)

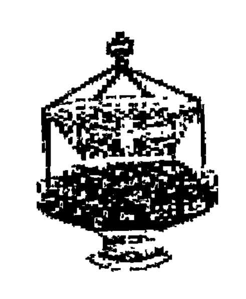
الجزء الحادى والثمانون

جمادى الآخرة ١٤١٨هـ / نوفمبر ١٩٩٧م





الفهرس



الفهرس

بحوث ومحاضرات ألقيت في المؤتمر



بمناسبة مرور مئة سنة على ميلاده :

السير هاميلتون جيب عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة
عطاؤه الجَمُّ للدراسات العربية والإسلامية *

للأستاذ الدكتور عبد الهادى التازي

نرى من واجبنا فى بداية الحديث أن ننوه بالجهود التى قامت بها طائفة من المستشرقين الأكفاء الذين ساعدتنا دراساتهم وبحوثهم على استجلاء الحقيقة التى تظل الهدف الأسمى للباحثين، وكذا لتصحيح بعض المعلومات حول عدد من الموضوعات التى تتناول بعض القضايا التى قد لاتخطر على البال.

لقد وجدنا فى المستشرقين من تخصص فى أبي عُبيد البكري أمثال البارون دوسلان. ومن اهتم بالشريف الإدريسي كالأستاذ دوزى ودوخوى (De Goeje). ومن اهتم بابن جبير كالأستاذ رايت (Wright). ومن اهتم بالعُمرى كالأب دوكينيس (De Guignes). ومن كتب عن علاقات المشرق بالمغرب من أمثال ماريوس كارنار (M.canard) بل ومن اهتم بمصنفاتنا الإسلامية كالأستاذ ليون بيرشير (L.Berchère) الذى ترجم رسالة الشيخ أبي زيد القيروانى، وأمثال الدكتور بيرون Perran الذي أقدم على ترجمة المختصر فى الفقه المالكى للشيخ خليل بن إسحاق المصرى، علاوة على أعماله الأخرى. ولكأنما قيّضت الأقدار لكل تراثٍ من يهتم به من هؤلاء، أو يدل على أماكن وجوده فى مختلف جهات الدنيا.

وسينصبُّ حديثي فى هذه المناسبة على عَلَم من أعلام الاستشراق فى العصر الحديث ، ويتعلق الأمر بعضوٍ من أعضاء مجمعنا ومن المؤسسين للمجمع، اختفى عنا منذ نحو من ربع قرن، وما يزال الحديث عنه سائراً إلى الآن.

ولد جيب فى مدينة الإسكندرية منذ ثاني يناير ١٨٩٥ أي قبل مائة سنة، كان والده مديرًا لمصنع الأجبان فى أبي قير،

(*) ألقيت هذه المحاضرة فى الجلسة الثانية العلنية المسائية من جلسات مؤتمر المجمع بتاريخ ٢٦من شوال سنة ١٤١٥هـ الموافق ٢٧ من مارس (آذار) سنة ١٩٩٥م)

وقد توفي وتركه من سنتين ، وبينما بقيت والدته بالإسكندرية تمارس التدريس أرسل الطفل - وهو ابن خمس سنوات - إلى سكوتلاندا لتلقي تربيته ، وهناك في المدرسة العليا بإدينبورغ EDINBURGH قضى سنيه من عام ١٩٠٤ إلى عام ١٩١٢، ثم التحق بجامعة إدينبورغ ولم ينقطع عن الدراسة إلا عندما شبت الحرب العالمية العظمى، حيث وجدناه يلتحق بإيطاليا وفرنسا لأداء واجبه الوطني.

وبعد الحرب درس اللغة العربية في معهد الدّراسات الشرقية بجامعة لندن حيث حصل على الدبلوم في عام ١٩٢٢، وهي السنة التي اقترن فيها بزوجته هيلين التي كانت له نعم المعين.

وقد درّس اللغة العربية في المعهد المذكور ابتداءً من عام ١٩٢١ إلى عام ١٩٣٧ كمحاضر . ولم يلبث أن أصبح أستاذاً مساعداً ابتداءً من عام ١٩٢٩، على أن يمسي أستاذاً ابتداءً من عام ١٩٣٠ خلفاً لأستاذه المعروف السير طوماس أرنولد (T.ARNOLD) ، وقد قام بزيارة مصر، وتردد عليها على نحو ما كان بالنسبة لبلدان عربية أخرى ، ومن هنا أصبح أحد المعروفين بإسهاماته في الموسوعة الإسلامية (Encyclopedia of islam) ، في الوقت الذي قام بتأليف بعض الكتب وتحرير عدد من المقالات، ظهر من خلالها عمق معارفه، كما ظهرت موهبته في البحث وأصالته في الأسلوب ... وكان من أوائل تلك البحوث التي ظهرت له سنة ١٩٢٦ كتابه في الأدب العربي (ARABIC LITERATURE).

وقد قام عام ١٩٢٩ بترجمة (مختارات) من رحلة ابن بطوطة : الأقسام الخاصة بآسيا وأفريقيا ، وهو التأليف المعروف تحت اسم (Selections) ، ومن المضحك أن نعرف أن هذا التأليف في طبعته الثالثة الأخيرة التي ظهرت عام ١٩٨٤،أي بعد وفاته بثلاث عشرة سنة - أقول ظهرت هذه الطبعة وهي لا تحمل اسم السير هاميلتون جيب ، وهكذا صدر الكتاب غُفلا بدون اسم !!

ثم ظهرت للسير جيب عام ١٩٣٢ ترجمة لتأليف باللغة العربية يتعلق بفترة الحروب الصليبية ، ويتعلق الأمر بكتاب لحمزة بن أسد المعروف بابن القلانسي

(ت ٥٥٥=١١٦٠) وهو مؤرخ ثقة من أهل الشام صاحب ذيل تاريخ دمشق.

كما صدرت له فى هذه الأثناء سلسلة من المقالات التي تعالج الأدب العربي المعاصر وبعض الموضوعات الإسلامية التى كانت من الأعمال الجدّية الأولى التى ظهرت لأحد رجال الاستشراق.

وقد أسهمت تلك الأعمال فى تعريف القراء الغربيين بالدراسات العربية والإسلامية فى العالم الغربى، حيث أصبح فى متناولهم الوقوف على بعض الموضوعات التى كانوا يتوقون إلى معرفتها فيما يتصل بالقرآن الكريم، وبالرسول عليه الصلوات وبالأمةِ الإسلامية، وما يتصل بمسيرتها عبر التاريخ. وفى عام ١٩٣٧ تبوأ منصب أستاذ كرسى للغة العربية فى أكسفورد خلفاً للأستاذ ماركوليوت (MARGOLIOUTH) ، كما انتخب عضواً بمجلس كوليج جوهن... واستمر بأكسفورد لفترة أربعة عشر عاماً زادت فى إثراء معارفه، ومكنته من فهم القضايا العربية والإسلامية أتم تمكّنٍ، علاوةً على فهمه الثاقب لقضايا الشرق الأوسط.

وقد ساعده الوضع بعد الحرب العالمية الثانية فى أثناء الأربعينيات ، على تشجيع هذه الدراسات فى أكسفورد، الأمر الذى مكّن هذه المؤسسة من رصد اعتمادات سخية خاصة لتطوير دراساتها لقضايا الشرق الأوسط ، وهكذا فقد أُسند الأمر كله إلى السير جيب الذى كان يجد الوقت ، مع كل هذا لمواصلة نشاطه كأستاذ، ولمتابعة كتاباته وتأليفاته..

وقد أخرج بمشاركة زميله الأستاذ هارولد بووين HL. Bowen كتاب ISLAMIC Society and west (القسم الأول ١٩٥٠ والقسم الثانى عام ١٩٥٧) وقد تبع هذا تأليف عن العثمانيين أواخر القرن الثامن عشر ، كان له صدًى لدى الذين كانوا يهتمون بأحوال الأمة الإسلامية ، وقد تبعت هذا أعمال له أخرى وخاصة منها ماظهر عام ١٩٤٩ حول الإسلام تحت عنوان (MOHAMMEDANISM) الذى كان تتمةً لما ظهر له قبل سنتين عام ١٩٤٧ حول النَّزَعات العصرية فى الإسلام (MODERN TREND IN ISLAM) ،

وقد عالج فيه مشاكل المجتمع الإسلامي في العالم الجديد.

وفى عام ١٩٥٥ غادر جيب أكسفورد ليمسى أستاذاً للعربية فى جامعة هارفارد ، ويحمل كذلك لقب "أستاذ الجامعة" ، وهو اللقب الذى لا يعطى إلا نادراً لبعض عيون العلماء المتميِّزين بطول الباع والكفاءة فى الدراية.

و لم يلبث أن أصبح مديراً لمركز دراسات الشرق الأوسط فى هارفارد ، وقد فتحت أمامه – وهو يعيش الستّين – آفاق جديدة ظهر فيها نشاطه وبرز فيها حماسه ، وقد أمسى من أبرز رجال الفكر الذين اعتمدتهم الجامعات الأمريكية للاسترشاد بهم من أجل إنشاء مراكز جهوية، تعنى بالدراسات فى شتى حقول المعرفة وعلى مختلف الأصعدة ، لتكوين الأساتذة والباحثين.

وهكذا استعاد السير هاميلتون نشاطه الأول وعاد إلى التأليف فى ميدان التاريخ والأدب . وهنا وجدناه يُقدم على عملٍ ضخم ، ذلك هو القيام بترجمة رحلة ابن بطوطة إلى الانجليزية، بعد أن كان قد ترجم منها بعض (المختارات) مما يتصل بآسيا وأفريقيا على ما أسلفناه . وكان مما شجعه على ذلك بطبيعة الحال مقدرته على استيعاب اللغة العربية بدقائقها، وتضلعه كذلك من شتى أنواع المعرفة ، كلُّ ذلك جعل منه ترجماناً كفئاً، وبصيراً، ومتذوقا لما يؤلف العربية..

وعندما قررتُ فى بداية الستينيات القيام بنشر مخطوطة ابن صاحب الصلاة حول تاريخ الدولة الموحدية(*) استشرته حول الإقدام على ذلك العمل–وكان وقتها يتردد بين بوسطن ولندن – وكان بلغنى أنه يعتزم نشر المخطوطة المذكورة ، وقد كانت قريبة منه في مكتبة بُودليان بأكسفورد ... فكتب إلىّ يؤكد لى أنه بالفعل كان قد برمج تحقيق المخطوطة المذكورة لكنه عدل عن الفكرة.

وقد ظهر أنه أعطى الأولوية فعلاً لترجمة رحلة ابن بطوطة إلى الإنجليزية عن النص العربي والفرنسى الذى قام به المستشرقان الفرنسيان ديفريميري DEFREMERY وسانكينتّي (Sangunetti) على ماسنرى فى نهاية العرض.

---

* المنّ بالأمانة: تاريخ بلاد المغرب والأندلس فى عهد الموحدين تأليف عبد الملك بن صاحب الصلاة تحقيق د. عبد الهادي التازى الطبعة الثالثة.دار المغرب الإسلامى ١٩٨٧.

ولقد عاد السير جيب بعد عام ١٩٦٤ إلى أكسفورد .. وأخذ يعيش أكثر وقته مع ترجمة ابن بطوطة . وبالرغم مما أصابه بسبب وفاة عقيلته عام ١٩٦٩ فقد تحامل على نفسه، وأخذ فى إعداد الجزء الثالث من الرحلة الذى ظهر له سنة ١٩٧١ وهى السنة التى انتقل فيها إلى منزله فى شير نكطون Cherngton شمالىّ أكسفورد ، حيث كان يُمنّى نفسه بترجمة الجزء الرابع الباقى من رحلة ابن بطوطة ، وهنا نأتى بشهادة البروفيسور بيكينكام Beckngham الذى قدّر له أن يكون هو القائم بذلك العمل ، يقول بيكينكام:

إن السير هاميلتون جيب أخذ يشعر وهو يترجم المجلد الثالث بمتاعب صحية كادت تحول دون إنهاء العمل .. وإنه – أي بيكينكام – كان يقدم له بعض المساعدة فقد أخذ جيب ينسى بعض الكلمات وبعض الجمل !!

ويعترف بيكينكام بأن العمل العظيم الذى قام به جيب وخاصة فى (المختارات) (Selections) التى ترجمها عن آسيا وأفريقيا ، سهّل عليه المهمة التى ألقيت على كاهله لإعداد الجزء الرابع الذى ظهر أواخر عام ١٩٩٤.

ولم يكن غريباً علينا ، بعد كل ذلك الجهد أن نجد السير هاميلتون ينعم بعضوية عدد من الأكاديميات ذات المرتبة السامية الرفيعة، وعلى رأسها مجمع اللغة العربية. وقد كان إلى جانب ذلك عضواً فى الأكاديمية البريطانية، وفى الأكاديمية الدانماركية، وفي أكاديمية الفنون والعلوم التابعة للولايات المتحدة الأمريكية . هذا إلى انتسابه إلى عدد من المؤسسات والمعاهد العلمية. وقد حصل على الدكتوراه الفخرية من جامعات إيدينبورك، وهارفاد، والجزائر ... هذا إلى ما عرفناه عن نيله عام ١٩٥٤ لأسمى لقب علمى رفيع فى المملكة المتحدة.

وقد تصدّى تلامذته ومحبّوه ومقدّروه ، وهم كثير، لجرد سائر انتاجاته، وهي بالفعل إنتاجات متنوعة الجوانب ، ويحار المرء حقيقة فى تصور تلك الطاقة التى كان السير جيب يتوفر عليها ، وفى ذلك الفراغ الذى كان يجده، بل ويخلفه لإرضاء سائر طموحاته ورغباته فى المعرفة.

وأرجو أن أشيد هنا بالفعل الجليل الذى طبع فى ليدن (هولندا) عن مؤسسة E.J. Brill سنة ١٩٦٥ والذى نشر لدى جامعة هارفرد: قسم الشرق الأدنى للدراسات اللغوية والأدبية ، وكان يتمثل فى مجلد من نحو سبعمائة صفحة: "دراسات عربية وإسلامية على شرف هاميلتون جيب"(*) وهو يعبر أولاً عن التقدير الكبير الذي يكنه العلماء فى مختلف جهات العالم لهذا الباحث الذى وهب حياته للاطلاع وكشف الغامض ، ثم هو ثانياً عبارة عن مجموعة بحوث كانت قمة فى موضوعاتها وأصيلة فى أسلوبها ، وتكفى الإشارة هنا إلى التقديم الذى توجه به إلى السير هاميلتون صديقه (ليفي ديلاّفيدا) وإلى التقرير البيوغرافي الذى كتبه الزميل جورج مقدسي المشرف فى ذات الوقت على إعداد المجلد المذكور، ثم إلى التصنيف المفصل الذى قام به السيد سطانفورد ج.شاو Stanford J SHAW عندما دقق القول فى كل ما نشره السير هاميلتون من سنة ١٩٢٣ إلى سنة ١٩٦٤.

وأرجو هنا أن أقتصر فى تدخلى على إبراز الجهد المتميّز للسير جيب فيما يتصل خاصةً بترجمته لرحلة ابن بطوطة إلى اللغة الإنجليزية ، وعندما أقول "الجهد المتميّز" فإنى أعنى ما أقول ، وأحب، لكى أوضح فكرتى، أن أذكّر هنا بأن الفضل الأكبر فى إخراج رحلة ابن بطوبطة من حيز المخطوط إلى حيز المطبوع يرجع بالدرجة الأولى إلى المستشرقَيْن الفرنسيين سالفى الذكر : ديفريميرى وسانكينيتي قبل نحو من قرن ونصف من الزمن عام ١٨٥٣-١٨٥٨.

وقد اعتمد الاثنان فى إنجاز هذا العمل الجليل على المخطوطات التى كانت تتوفر عليها الخزانة الملكية فى العاصمة الفرنسية والمحفوظة اليوم بالمكتبة الوطنية بباريز.

ونذكر بالمناسبة أنه اعتماداً على نص الرحلة المنشور فى باريز قامت بعض الدور فى مصر بإعادة نشر الرحلة "وقد تم هذا النشر الأول بمطبعة وادى النيل بتصحيح أبى السعود أفندى فى منتصف جمادى الثانية ١٣٨٨ أول شتنبر ١٨٧١ اعتماداً على أصله المطبوع مع ترجمته بالفرانساوية بمدينة باريز فى سنة ١٨٥٨ ميلادية"، كما تقول هذه الطبعة ... ثم

١ – نشر هذا المجلد من لدن جامعة هارفرد: قسم الشرق الأدنى للغات والأدب.

تحركت همم عددٍ من الناس ابتداء من أول هذا القرن لإعادة طبع الرحلة فى مصر وفى لبنان من غير أن يزيدو حرفاً واحداً على ما عرفناه من الطبعة الباريزية ، وهكذا وجدنا أن جميع ما ظهر من رحلات ابن بطوطة إنما كان صورةً لما أصدره الاثنان ، بما فيه من أخطاء إملائية وأخطاء تاريخية ... ولم يكلف أحد من هؤلاء الناشرين – مع كثرة عددهم ، وبدون استثناء – شدّ الرحلة إلى باريز حيث توجد المخطوطات المعتمدة من لدن الناشرَيْن الأولَيْن !!

وكان "الجهد المتميز" الذى قام به السير هاميلتون جيب أنه فكر قبل القيام بترجمة ما نشره الاثنان .. فى أن يرجع إلى المخطوطات التى نقل عنها الاثنان ، بل وسعى إلى البحث عما يمكن أن يكون ظهر من مخطوطات أخرى !!

ومن هنا كان عمله فى الرحلة عملاً أصيلاً ورفيعاً وذا مصداقية .. وللتدليل على هذا أذكر – وباختصار شديد – بعض الهفوات التى تثير الانتباه ، وفى صدر هذه الهفوات نسبة المقدمة لابن بطوطة مع أنها لابن جزىّ كما هو واضح!

وقد أطبقت النسخ المطبوعة ، اعتماداً على النسخة الباريزية التى وقعت فى الخطأ بسبب اقتصارها على مخطوطةٍ غير مصححة – أقول أطبقت على نسبة المقدمة لابن بطوطة ! لكن السير هلميلتون جيب وهو المحقق المتمكن .. عاد إلى المخطوطات ليستشيرها جميعها ، وهكذا أدرك نسبة المقدمة إلى ابن جزيّ وليس لابن بطوطة!!.

وحديث المقدمة ليس الأولَ والأخير ، ولكن الرحلات المنشورة ، وكلها كما قلنا اعتمد فيها أصحابها على النسخة الباريزية من غير أن يكلفوا أنفسهم عناء العودة إلى الأصول – كلّها وقعتْ فى الخطأ: فقرأنا مثلاً "الحجازى" بدل الحجّار! وقرأنا النجدى بدل البجدى! وابن شيرين بدل ابن شبرين! والسبتى عوض البستى!

ولقد كان جيب علاوةً على ضبط الأعلام الشخصية مهتما بالأعلام الجغرافية فضبطها ما أمكنه ذلك ، وبالتحديد، وأحيانا بخطوط الطول والعرض.

أكثر من هذا وجدناه يقوم بمراجعة الترجمة الفرنسية التى قام بها الناشران

السابقان: D.S ، فهو لا يتردد فى تصحيح القصد من الكلمات التى استعملها الرحالة المغربى ، وبذلك أعطانا برهاناً جديداً على هيمنته على اللغة العربية ، وتمكّنه من أسرارها.

لقد قال ابن بطوطة وهو يجد نفسه لأول مرة يطوف بالكعبة فى خضم أمواج البشر:"إنها دلالة تقوى بصيرة المستبصر وتسدد فكرة المتفكر" ، كان جيب أكثر عمقاً فى إدراك عبارة الرحالة المغربى من سابقَيْه العالمين الفرنسيين .. وسأكتفى بالإحالة هنا على الجزء الأول من الرحلة الصفحة رقم ٣٠٢.

ولكى نعرف مكانة السير جيب في استيعابه لعلوم البلاغة والبيان ينبغى أن لا نغفل عن أنه فى بعض الأحيان يحاول أن يبرز التّوريات التى فى النص.

ومن هنا وجدناه يقف مع قول الشاعر:

وسلاطينُهم سَلِ الطين عنهم
فالرؤوس العظام صارت عظاما

ولقد استفاد جيب من كل المصادر من غير أن يكلّ ويكسل ، وكان مثلاً للباحث الأمين فى هذا التراث الجليل الذى يُعرّف برحلة ابن بطوطة .. وكانت مراجعه لا تقتصر على ما كتب باللغة العربية ولكنها تتجاوز ذلك إلى كتب باللغة الفارسية والتركية والبربرية ، إضافة بطبيعة الحال إلى المراجع الفرنسية والإنجليزية والأسبانية وغيرها،على ما نقرأه له عند نهاية كل جزء من الأجزاء الثلاثة .

وقد وثّق الأجزاء الثلاثة التى أخرجها بعدد من الخرائط والصور والرسوم حتى يجعل القراء فى الصورة التى كان يرجوها لهم.

وحرصاً من جيب على تيسير الفائدة لمن يريد المقارنات والمفارقات بين الترجمة الفرنسية والإنجليزية عمل على ترقيم صفحاته ، على أساس أن يجد القارئ أمامه وعلى كل صفحة رقم الطبعة الفرنسية بالإضافة إلى رقم الترجمة الإنجليزية ، وهكذا لم تكن عنده (عقدة) إزاء الذين سبقوه وتلك خصلة من خصال العلماء الاجلاء !!

وإن قراءةً عابرةً فى ترجمته لفصول الرحلة مع ما صحب تلك الفصول من تعليقات جدّ مفيدة ليعطينا فكرةً عن مدى شعور الرجل بعظم المسؤولية الملقاة على كاهله وهو يقوم بتلك المهمة الشاقة.

وقد كنت أحياناً أفضل أن أقوم بمتابعة ما يُورده من أفكار ومعلومات وأقضى فى ذلك الساعات ، بل والأيام . ولكنى كنت أعود إلى ما قدمه إلينا من حقائق ودقائق مما كنت أتذكر معه قول الشاعر العربي:

إذا قالت حَذامِ فصَدِّقوها

فإن القول ما قالت حَذامِ!!

وبالجملة فإن الإلمام بما ورد فى الرحلة دون العودة إلى ما دونه السير هاميلتون جيب يعتبر مجرد ادعاء مقرون بكثير من الغرور والمغالطة ، وعلى قياس رحلة ابن بطوطة أتصور أن أعماله جميعَها كانت ترتكز على أساس من تقديره لما يُعهد إليه به .

ولم أستطع أن أسجل عليه من تساهلات فى نظرى إلا ما يتصل بأمر "الزاوية" التى أشاد بها الرحالة المغربى فى مدينة فاس ، وكانت من المنشآت الحضارية للسلطان أبي عنان خارج مدينة فاس ... هذه الزاوية التبست على السير هاميلتون جيب بالمدرسة العنانية التى تقع داخل المدينة ، على مقربةٍ من أحد الأبواب الرئيسية فى مدينة فاس .

وهناك بعض التعقيبات الأخرى لكنها كانت من البساطة بحيث أنها تتضاءل أمام ما قدمه الرجل لنا من حقائق كان يعتمد فيها على أصول لا تحتمل الشك ولا تقبل التردد .

وقد بذل بيكينكام جهداً كبيراً فى إعداده للجزء الرابع من الرحلة ، حتى لا يظهر أن هناك فرقاً بين أعمال السابقين واللاحقين ، لكنَّه مع ذلك شعر نفسه بالفرق الشاسع بين ما كتبه بالأمس هاميلتون جيب وبين ما كتبه هو اليوم ، ولذلك فقد ابتدأ الجزء الرابع بحديثه عن المؤلف الراحل على أنه نسيج وحده ، وأن أحداً لا يمكنه أن يقلده فى أسلوبه ولا فى طول نَفَسه فى البحث والتنقيب ولو أنه – أى بيكينكام – مع كل ذلك أحسن الصنع فيما قدمه لفائدة اللغة العربية عن رحلة ابن بطوطة .

تلك هى التحية التى أردت تقديمها للزميل الراحل هاميلتون جيب فى هذه الدار التى عَرفت له قدره فنسبتْه إليها وجعلته ضمن أعضائها المرموقين.

عبد الهادى التازى

عضو المجمع من المغرب

نعـــــم : لقفـــزة علمية رائدة مبـــــدعة
لا : لقفـــزة عَلمانية فلتانة غير مُحكمة *

للأستاذ الدكتور عدنان الخطيب

إذا كان المثقفـــون فى المجتمعـــات المعاصرة يُجمِعون على ضرورة الأخـــذ بـــ(التكنولوجيا) التى تقفز بالمجتمعات إلى الأمام حتى تحسن استقبال القرن الحـادى والعشرين ، وهو على الأبـــواب يـــهم بالدخول ، فهل من عـــاقل لا يرحـــب بالفكرة أو ينفى عنها ضرورتها؟

ولكن ما هى تلك (التكنولوجيـــا) التى يجمع العلماء على ضرورة الأخذ بها؟ إنى لم أعثر على أى تعريف لها ، تعريـفٍ يحدد معالمها أو شروطها أو دروبهـــا أو المسالك التي تحققها ، حـــتى أن علمـــاء منظمة الأمم المتحدة للتربيـــة والعلـــوم والثقافة ، أو ما يطلـــق عليـــها رمـــزًا (اليونسكو) (**) لم يتفقوا على تعريـــف واضح إلى أن توصلوا إلى القول بأنهـــا " مجموعة للمعارف التى تؤدى إلى إنتـــاج سلعة ، أو خدمة مّا، وتوزيعها خدمة مّا، وتوزيعها وتسويقها".

إن تعريف (التكنولوجيا) الملمع إليــه يعنى بالنسبة إلى مصر ، أُمِّ الأقطار العربية ومن ورائها تلـــك الأقطـــار وكلـــها مُجتمعاتٌ نامية، بالتعبير المهذب الـــدال على تخلفها ـــ يعنى بالنسبة إلى جمعـــها، فى الظاهر البرىء ،

وجوب مبادرة كل منها إلى التغلب على جميع مشاكلها وقضاياهـــا المؤديـــة إلى التنمية والتقدم تلقائيا ، بدون اللجوء إلى خبرات المجتمعات الأخرى المتقدمة عليها حضاريا كلما أمكن الاستغناء عن ذلك، معتمدة على عقول المبدعين فيها ونبـــوغ الناهين من أبنائها والجـــادين فى العمـــل على نهضتها للحاق بالمجتمعات المتقدمـــة حضاريا والمشهود لها بالنجاح فى مختلـــف العلوم الكونية.

لكن ما هى تلك العلوم؟ إننا نـــرى أفذاذ العلماء فى مختلف أنحاء العـــالم لا يزالون جادين فى تصـــنيف تلك العلوم

---

* القى هذا البحث فى الجلسة الثالثة لمؤتمر المجمع بتاريخ ٢٧من شوال سنة ١٤١٥هـــ الموافق ٢٨من مارس (آذار) سنة ١٩٩٥م.

** أسست في ٤/١١/١٩٤٦ لدعم التعاون بين الأمم عن طريق التربية والعلوم والثقافة ، ولتعزيـــز الاحترام العالمى للعدل وحكم القانون والحريات ، ومقرها باريس .

وتحديد ما ينتج عن كل منها من فروع وذيول.

إن سعة ما يحمل العلماء أعباءه الملقاة على كواهلهم يدعو كل عاقلٍ من المثقفين إلى الاشتراك مع المنادين بضرورة القفزة العلمية الرائدة التى تعتمد على إبداع من يحسن الإبداع ، وتفكير من يستقيم لديه الفكر ، حتى نقفز مما نحن عليه من تخلف مُهين إلى تقدم نطمح إلى السمو فيه تجاه مجتمعات متقدمة، آخذين منها أفضل ما عندها من أنظمة ساهمت فى تقدمها ، أو تقاليد دعمت التقدم أو دفعت إليه ، غير ساهين عن المثبطات فيه صحية كانت أو نفسية،أو نتاج بيئة خاصة كانت أو عامة ، محلية قاصرة كانت أو دولية جارفة.

ولا أظن أن أحدا ممن سمعنى أو ممن سيقرأ كلامى يخالفنى فيما رأيته ، أو حددته أو اشترطته ، أو استدركته إن لم يزد علّيه بما يدعمه أو يؤيده.

ولكن ، قيل قديماً عن أحد علماء النحو الأفذاذ أنه مات وفى نفسه شىء من(حتى) .وأنا أقول إن كثيرا من العلماء سيموت وفى صدره غصة من (لكن) هذه وما سيتلوها من كلام!

لكن لا : لقفزة عَلمانية غير مُلجَمة ولا مُحكمة.

أقولها بملء فمي : لا !

لا لأى قفزة عَلمانية لا ضابط لها ولا لجام يحدّ من رغبتها في الجموح ، ولا حكَم يمنعها عن الجنوح أو عن خلعها العنان قيداً على تحركاتها كي لا تنطلق فلتانة يأخذ بها الهوى عن اليمين تارة وعن الشمال تارات.

من الغرائب التى نمر بها نحن العرب أو المسلمين (على ما نزعم) ، بل من أهم هذه الغرائب وأشدها خطرًا وسوءاً استبدال المتحركات بالثوابت ، حتى بتنا وكلّ شىء من حولنا يتحرك.

لقد كتب أديب عربى كبير كان من مُنَظِّرِى جامعة الدول العربية وأحد واضعي ميثاق المثقفين العرب عهداً يحول به بين العرب وبين التمادى فيما هم عليه من انقسام فى الرأى وتخبط فى المسير.

صَوَّر الأديب الكبير مسير الأمة العربية وجموع بنيها أجسادا مبطوحة مخدرة بخدر الاستكانة لما يخطط لها فى هذه الدنيا ، وهى دار للعمل الصالح أو الطالح وكل سيلقى جزاء ما عمل فى الغد ، والغَد مغيّب فلا موجب للتفكير

فيه كما تفعل أمم كثيرة ، إلى أن يقول: "والشطحات الدينية الساذجة تجعل الغد قدراً إلهياً لا يتغير وتجعل همها فى حجر العقل واتباع النص القرآنى"(١)

أليس هذا ما يطالب به الكاتب المعروف (عبد المعاطي) وشلته (المبدعة الحمراء) وكلهم أحرار يسعون في بلاد (ما وراء النهر) كما تطالب به الكاتبة الشهيرة (تسليمة نسرين) من فك قيود العقل ، وتحديث النصوص التراثية ، مما استوجب في بنجلادش محاكمتها ، ولكن القوة التي تدعمها استطاعت تحدى غضب المسلمين فهربتها إلى بلاد أحسنت استقبالها لأنها كانت تدعو إلى تحقيق الحلم الذى يراودها وشقيقاتها طعناً بالقرآن المجيد خطوة نحو القضاء على الإسلام!

فى العام الماضي في أثناء ندوتنا الستين نظم لنا الزميل المحترم الأستاذ إبراهيم الترزى الأمين العام مع أعوانه مشكورين رحلةً إلى مدينة الغردقة،وكانت رحلة موفقة فيها كل المتعة وكل التخفف من أعباء ما كنا فيه، وكان مما يستحق أن يذكر اليوم الزيارة التى هُيئت لنا لنعاين جهود زميلنا المغفور له عاشق البحر(الأستاذ جوهر) وما خلق الله سبحانه وتعالى فيه من مخلوقات فى عهد قديم سبق لنا أن تمتعنا بما صنف من مخلوقات وما شرحه لنا عنها ، ثم فى عهد مستحدث مستفيداً من أحدث وسائل عرض مخلوقات بارئ هذا الكون العظيم.

لقد بكينا جميعا فى زيارتنا الثانية ما وجدناه من إهمال وتقصير أدى إلى ضياع جهود فقيد المجمع (جوهر) وما كان يحلم به من حسن عرض، وبيان روعة الإبداع الإلهى المعجز.

واتفق أن عرض علينا الخبير المرافق لنا فى رحلتنا إمكانية الاشتراك فى رحلة بحرية ننزل بها إلى أعماق البحر ضمن غواصة أعدت لهذه الغاية مشترطاً على من يود الاشتراك فيها الشجاعة ، محذراً ضعاف القلب من عدم الاستعداد للغوص.

ومع تحذير الخبير رفض كثير من الزملاء الكرام الاشتراك برحلة الغوص ، أما أنا فتوكلت على الله عز وجلّ مرددا قوله تعالى:"(لكل أمةٍ أجلٌ إذَا جَاءَ أجَلُهُم فلا يستأخِرون ساعةً ولا يَسْتَقْدِمونَ"(٢)

(١) مجلة العربي العدد ٤٣٥ رمضان ١٤١٥ الصادرة فى الكويت بعد نكبتها التى روعت العرب والمسلمين على تباعد أوطانهم، والكاتب بقلمه المصور من أركان الناطقين بنهجها الحديث.

(٢) ~ يونس ٤٩/١٠ .

وكان غوصنا مع الأسف الشديد إلى مسافة دون عمق البحر ، حيث تزاحم أنواع من الأسماك، كل منها ينشد غذاءه بما كان يقدمه لها العمال الغواصون من طعام.

وإذا كان توقف الغواصة بنا عند ارتفاع حُدِّد لها فنيًّا حرَمنا من الهبوط إلى الأعماق لمشاهدة المخلوقات التي تعيش فيها ، فإن عشاق الأعماق وتصوير حياة تلك المخلوقات ، متَّعونا بالآلات التي يحملونها بجهاز (الفيديو) الذى نقل إلينا ما استطاع أولئك العشاق تصويره وتسجيله على الأشرطة بفن مارسوه فأتقنوه.

تعيش المخلوقات في أعماق البحار وكلها تتوالد وتتكاثر بسرعة غالبًا بجماع ذكورها وإناثها ، ثم تحيا على التهام مخلوقات أخرى تستضعفها، إلى أن تقع فريسة لمخلوق أقوى منها أو فى شراك نصبه مخلوق ضعيف بحيلة تنجح مرة وتخيب مرات،وكلها آكل في أول حياته ومأكول في نهايتها.

إن مخلوقات أعماق البحار بألوانها المختلفة تبهر الأنظار بروعتها وتحير الأفكار بأشكالها، ويعجز كبار أهل الفنون عن إبداع ما يماثلها ، ترى جميعها يسعى بسرعة فائقة أو ببطء شديد وراء طعامه، بابتلاع أو مصّ مخلوق ضعيف، يدب بعضها وغيرها يزحف وأُخرُ تسبح، ومنها ما يرقص ميلاً إلى اليمين ثم إلى الشمال، أو صاعداً إلى فوق ثم هابطًا إلى أسفل ، فيها الرائع الرشيق، وفيها الدميم المخيف.

لاشك أننا نعيش فى عصر نستطيع أن نطلق عليه عصر التحدى الغربى الكبير لعالمنا العربى بل العالم الإسلامي على تباعد أقطارهما ، فلنتساءل: ماذا كانت ردود الفعل لهذا التحدى عند كل من النخبة العربية والنخبة الإسلامية؟

لقد ولدت عند النخبتين الملمع إليهما فكرة "التجمع العربى والإسلامى" فظهرت "العروة الوثقى" لجمال الدين الأفغانى فى باريس؟ ثم ظهر كتاب "أم القرى" لعبد الرحمن الكواكبى، ثم جاء اقتراح الشيخ محمد مصطفى المراغى بوجوب الدعوة إلى عقد "مؤتمر" يقرر السُّبل الواجب اتباعها تجاه ذلك التحدى العدواني.

ثم حلت بالعالمين العربي والإسلامي في نهاية الحرب العالمية الأولى طامة، إذ فرضت دول الغرب هيمنتها على جميع بلاد العرب وبلاد المسلمين تقريبا.

لقد قام اليهودى "مارتن كرامر" بوضع رسالة لنيل درجة دكتوراه بإشراف المستشرق اليهودى الكبير "برنارد لويس" طبعت ككتاب قلّ نظيره.[1]

ينتهى "كرامر" فى كتابه إلى أنّ جميع جهود العرب والمسلمين كانت "صفرا"، وجميع الطرق التي سلكلوها كانت "مسدودة"، وإلى أنهم لا يستطيعون أن يتفقوا إلا على شيء واحد هو الاختلاف على كل شيء.

كم واحداً من المثقفين العرب أو المسلمين عرف "العروة الوثقى" وشخصية جمال الدين الأفغاني معرفة "كرامر"؟

ولنتساءل أيضًا : كم واحدًا من مثقفى العرب أو المسلمين عرف عبدالرحمن الكواكبي أو قرأ بإمعان كتاب "أم القرى"، أو قرأ عن محمد مصطفى المراغى وعن اقتراحه وجوب الدعوة إلى عقد "مؤتمر" يقر السبل التي على العرب والمسلمين سلوكها تجاه التحدى الغربى؟

بل لنتساءل: كم واحدًا قرأ كتاب الرئيس البوسني الذى تعلم في أعرق الجامعات الغربية، وحاز على جائزة الملك فيصل عن كتابه "الإسلام والغرب"[2]

بل لنتساءل: كم واحدا منا قرأ ما كتبه تولستوى الروسي عن عبقرية الإسلام فى حل مشاكل العالم العرقية؟

وأخيرا لنتساءل: كم واحدًا قرأ ديوان شاعر ألمانيا العظيم "غوته" الذى عرف فضل الإسلام،والتصوف الإسلامى الذى نقل إليه وأثره فى راحة نفسه واطمئنان قلبه؟![3]

قد يحلو لبعض من يسمعني من الأساتيذ الكرام ، أو لمن سيقرأ ما كتبت أن يبادر إلى سؤال وجيه ومقبول: ما هو العلم الذى تخصصت به يا سيد، حتى تأتي بالأسئلة التي رددتها آنفا؟

١-قام أحمد عمارة مشكورا بتلخيص الكتاب عن الإنكليزية ونشره في مجلة المنهل التي تصدر في جدة بالعدد ٥١٢ من المجلد ٥٥ الصادر عن شهرى كانون الثاني وشباط ١٩٥٤.

٢- طبع أخيرا في مصر وبالعربية وهو في الأسواق.

٣- صدر كتاب "جوته والعالم العربي" عن "عالم المعرفة" في الكويت برقم ١٩٤ تأليف كاتارينا مومزن وترجمة عدنان عباس علي ومراجعة عبد الغفار مكاوى.

أقول بمنتهى الصراحة والشجاعة ، شجاعة لا حدود لها ولا سدود، والزمن يجرى بسائر المخلوقات من عالم الوجود هذا إلى دار الخلود:

إنى لست متخصصًا فى أى علم من العلوم التى تخطر على البال، إذ لم تتح لى الظروف أن أتخصص فى الفيزياء، أو الكيمياء، أو الفلك، أو فى أى علم من علوم البيئة المختلفة.

إنى مجرد إنسان لو تبدلت فى مسيرته الحياتية عجلات الزمن لكان من أهل الفن مثلا، يمارس الرسم أو الحفر فى الصخر ، لقد أدمنت القراءة فقط ثم تولعت بالمعارف العامة،كما أحببت التعمق في البحث الجاد عن الأسباب والعلل ، لقد قرأت لأفذاد من العلماء المتخصصين فلم أجد بينهم من يدعى أنه قمة في العلم الذى تخصص فيه بل ما مقتضاه أنه يعرف آخر ما كشفه علم العصر الذى يعيش فيه ولا يعرف ما يمكن أن يكتشفه العلم بعدئذ. وهذا مصداق قوله عزّ من قائل: ".. وفوق كلّ ذى علم عليم"[1]

نعم أنا مؤمن بالله العظيم مبدع هذا الكون الرائع الذى يقول:"وما خلقنا السماء والأرضَ وما بينهما لاعبين"،[2] خلقه بإتقان معجز وهو القائل جلّ وعلا: ".. صُنْعَ اللهِ الذى أتقن كلّ شيء .."[3]

وأخيراً لابد لنا فى ختام بحثنا من كلمة موجزة عن مايطلق عليه كثير من الكتاب، وطائفة ممن يحاربون الالتزام بالواجبات الدينية، أو ينادون بالعَلمانية (بفتح العين) التحْديث أو التجديد وهم يُسفهون من يدعى بأن باب الاجتهاد فى الدين قد انغلق.

نعم إن باب الاجتهاد في الدين مغلق إلا إذا تحققت شروطه، ونادراً ما تتحقق، أُغلق خوفا من تسرب من لا يُحسن الاجتهاد وهم كثيرون ، أُغلق خوفاً من ولوج عبدة الحكام أو المال أو الشهوات.

إن أحكام الشريعة فى الإسلام على ضربين:

الأول- أحكامَ لاتبديل فى نصوصها الملزمة وردت فى القرآن المجيد أو فى الحديث الصحيح الثابت صدوره عن الرسول الكريم.

الثانى- أحكام استنبطها الفقهاء من النصوص بحسب ما منحوا من فهم لها

١- يوسف ١٢/٧٦ ٢- الأنبياء ٢١/١٦ ٣- النمل ٢٧/٨٨

وتعليل لحكمتها ، وهذه أحكام يمكن تبديلها كلما تغير الزمن، إذا ما تبدلت القيم، أو جدّت ظروف تؤثر فى تعليل حكمتها.

فمثلا من أفتى بأن دية العضو عند المرأة يساوى نصف ديته عند الرجل؟

إن المرأة اليوم قد تتولى أعلى المناصب، وقد تكون عميدة إحدى الكليات فى الجامعة، أو تكون فى عداد الوزراء أو رئيسة عليهم، فهل يقبل عقل منصف تلك الفتوى؟

لابد للحكم في الدية من معرفة عمل المرأة ومقدار حاجتها للعضو المصاب قبل تقرير مقدار ديته.

نعم إن العِلم في هذا العصر الذى نعيش فيه مهما سما يبقى عاجزًا عن معرفة خفايا الكون، فأى شيء يمكن أن نقوله ونحن نقرأ صحف اليوم الأول من هذا العام أو نسمع أخبار صباح ذلك اليوم الخبر التالى: أعلن مسؤول فى مختبر الدفع النفاث فى إدارة الطيران الأميركية أنهم اكتشفوا مجرات جديدة، فأطلقوا عليها اسم المجرات الحلزونية القزمة التى كان اكتشافها قبل اليوم مستحيلاً، بسبب ضوئها الخافت وعجز الأجهزة المستعملة وتقتذ عن ذلك، وقد حددنا قطرها بما يزيد كثيراً عن قطر مجرة (التبانة) التى نحن نعيش فى بعض نواحيها.

هل نستطيع شيئاً غير الإيمان بالخالق العظيم جلّ وعلا.

هذا، ولابد لنا من التفكير العميق فى قوله سبحانه وتعالى يخاطبنا نحن البشر: "وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرض ولا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مافرَّطنا فِي الكِتَاب مِن شيء .."*

وخاصة عندما نقرأ فى المجلات التى تعنى بأخبار العلم والعلماء أنهم مازالوا يواصلون جهودهم في دراسة طبقات أنغام الطيور، لكشف أنواعها ودوافعها إلى الصراخ، أو أسباب إصدارها مختلف أصواتها وأنغامها التى لا حصر لها.

أو عندما نقرأ في تلك المجلات أن في بعض الأصقاع الباردة يتولى الذكور من الطيور فقط مهمة الدفاع عن الصقع الذى تعيش فيه وطرد الطيور الغريبة التى تحاول النزول فيه، بينما تلتزم إناثها البقاء فى أعشاشها لحماية أفراخها وتهدئة روعهم.

إلى جانب دراسات مهمة عن أعمال كل من الذكور والإناث عند أنواع الطيور فى مختلف الأحوال.

* الأنعام ٦/٣٨

ومن قال بأن التعامل مع المصارف (البنوك) إذا كانت تسجل الفائدة للمودع أو على المقترض هو حرام بيّن التحريم، قبل أن يدرس كيف يجرى هذا التعامل.

وأخيراً: لابد لنا من أن نتساءل: كم من كبار المثقفين قرأ تعليل ابن القيّم في "زاد المعاد" للحديث الذى رواه أصحاب السنن الخمسة عن عبد الله بن عمرو بن العاص فى شأن القيّم على إبل الصدقة؟

والأمثلة على الأحكام التى يجرى تبدلها بتبدل الزمان كثيرة، يمكن معرفتها بعد البحث والتدقيق ".. وآخِر دعواهم أن الحمد لله ربّ العالمين".

عدنان الخطيب

عضو المجمع من سورية

الخرجات المسماة بالأعجمية فى الموشحات الأندلسية لغة ودلالة(*)

للأستاذ الدكتور فيدريكو كورينتي كوردوبا

من المعروف أن الأبحاث في الأدب وغيره من العلوم الإنسانية قلما تتجاوز مجال المجلات، والكتب العلمية المخصصة لها، فتحظى بنصيب من العناية في مطبوعات أعم وأروج كالكتب المقررة في المدارس، فضلا عن الجرائد اليومية والمجلات المصورة، ويترتب على ذلك أن أسماء الباحثين في هذا الميدان، مهما كان شأنهم، أقل شهرة بكثير من كواكب فن التمثيل أو أبطال الرياضة مثلا، وأن المصطلحات التي يضعونها تنبو عن مسامع الجماهير وألسنتهم عادة، وهذا أمر معقول لا يجهله أحد ولايستغربه، لأن معظم الناس في أية بقعة من العالم مكتفون بمقدار بسيط جدا من العلم والمعرفة، بالنسبة إلى ما يطلبونه في كل ساعة فراغ من لذات الراحة والفرحة التي تنسيهم الكدح وتلهيهم عن هموم المعيشة.

ولكنَّ لكل قاعدة استثناءات ولكل استثناء سببا، وقد لا تصدقوننا إذا ما قلنا لكم إننا رأينا في مدن أسبانيا مقاهي وملاهي تسمت بلفظة "الخرجة" تسمت بلفظة "الخرجة"، وقد سمعنا بأجواق موسيقية تدعى كذلك، بل وشاهدنا يوما فتاة تنادى كلبتها، وإذا باسمها "خرجة" أيضا، فماذا ياترى أدرى أصحاب تلك المقاهي والأجواق وحتى أصحاب الكلاب، من غير مؤاخذة، بخفايا فن التوشيح وبخرجاته التي ليس أكثر العلماء البصراء على يقين تام منها؟

إن السبب البين في هذا الاستثناء الواضح للقاعدة المطردة المذكورة أن بعض كبار بحّاث الأدب الأسباني القديم قد علقوا على اكتشاف الخرجات الأعجمية في أواخر عدد من الموشحات الأندلسية مزيدا من الأهمية، فجعلوها مستهل الأدب الأسباني وسابقة لجميع الآداب الأوربية الدارجة اللغة في العصور الوسطى، فأجروا ذكر تلك الخرجات وتفاسيرهم لها في مئات من الكتب والمقالات والمحاضرات العامة، ولم يقصروا في إدراجها في كتب التدريس

* القى هذا البحث فى الجلسة الثالثة لمؤتمر المجمع بتاريخ ٢٧من شوال سنة ١٤١٥هـ الموافق ٢٨من مارس (آذار) سنة ١٩٩٥م.

المقررة وفي الملحقات الثقافية للصحف اليومية، حتى صار كل أسباني يدعي حَظًّا من الثقافة لا يجهل وجود الخرجات وبعض نصوصها باعتبارها حجر أساس للحضارة الأسبانية ، ولا بأس بذلك فإن العلم خير من الجهل على كل حال ، إلاّ أن علمهم ذلك يحبب إليهم التراث الأندلسي في نفس الوقت ، فيوسع آفاقهم العمرانية والبشرية، ويبعدهم عن التجافي العنصرى والعقائدى، وعن الاقتناع الخاطئ الشائع عند كثير من الغربيين بأن كل اختراع وتقدم وتفوق إنما أصله في أراضيهم.

إلا أننا غير مَعْنيِّين الآن بانتشار خبر الخرجات لدى الجماهير الأسبانية ، مع كونها ظاهرة اجتماعية وتربوية جديرة بالدراسة ، وذلك لأنها لا تعدو أن تكون فرعا لم يتقن أصله بعد ، حيث لم تُعرف حقيقة هذه الخرجات الأعجمية التي مُوِّهت وشُوِّهت وصُحِّفت، وأسيء فهمها لقصور علمي أو لدواع عقائدية أو لأغراض شخصية، حتى لم تعد تتبين تلك الحقيقة للعلماء، فضلا عن غيرهم ، فتحولت الخرجات الأعجمية — مع قلتها ، إذْ لا تبلغ السبعين ولا يزيد أكثرها عن سطرين ، مع غموض معانيها في مواطن كثيرة — إلى أعظم جدال أدبي في هذا القرن. ومن علامات ماالتسم به هذا الموضوع من الإشكال والالتباس مثلا أن الأستاذ المرحوم سيد غازى في تأليفه النموذجي حول الموشحات الأندلسية التي قطعها تقطيعاً عروضيًّا خليليًّا بحتا ، على غرار الشعر المقصد، اعتمد تحقيق الأستاذ الأسباني غارسيا غوميس لخرجاتها الأعجمية ، وهو مشهور بتقطيعه الرومنسي لها المخالف للعروض الخليلي خلافاً جوهريا. ولم يخف على الأستاذ غازى التعارض المنهجي الناتج عن ذلك ، إلا أنه لم يكن في متناول يده إذ ذاك تحقيق أحرى بالثقة لتلك النصوص المستغلقة، ولم تتسن له مطالعة أهم أصولها ، لاسيما مجموعتها الرئيسية الآتية ضمن مخطوطة "عدة الجليس"لابن بشري الوحيدة المحجوبة إذ إذاك عن عيون الناس إلا أقل من القليلين.

نحن راغبون عن ذكر مظاهر هذا الجدال الكريهة ، من أمثال حجب بعض الأساتذة للأصول عن زملائهم، حرصا على الانفراد بالبحث فيها، وخوفا من

سبق غيرهم إياهم إلى توضيح غوامضها، فضلا عن السباب والتهم والاستهزاء التي تنزّل إليها بعضهم ، وإنما قصدنا الالتفات إلى المظاهر المفيدة ، منها تلخيص قصة اكتشاف الخرجات الأعجمية ومحاولة التفرقة بين الحق والباطل فيما قاله العلماء عنها.

كان أول من انتبه إلى وجود الخرجة ، أى آخر قفل فى موشح ، باللغة الرومنسية من بنات اللاتينية ، وهى العامية الإسبانية ، هو الأستاذ الإسباني مينينديس بيلايو في أواخر القرن الماضي ، إلا أن تلك الخرجة الأعجمية كانت ملحقة بموشح عبرى ، وليس عربيا ، لبعض الشعراء اليهود الإسبان المقلدين فن التوشيح بالعبرية تقليداً تاما، ثم أتى عقب مينينديس أساتذة آخرون متخصصون في الادب العبري أثناء العصور الوسطى ، فاكتشفوا نصوصا أخرى من نفس النوع ، مع أن محاولاتهم لتفسيرها لم تنجح، فلم يكن لأبحاثهم كبير صدى.

ثم نشر الأستاذ شترن في ١٩٤٨ والأستاذ غارسيا غوميس في ١٩٥٢ أول الخرجات الأعجمية في موشحات عربية أندلسية ، فأحدثت أبحاثهما انطباعا عظيما في الدوائر العلمية، وتكاثرت الأعمال المخصصة لهذا الموضوع بصورة عجيبة الى درجة أن الأستاذ هيتشكوك الإنكليزى ذكر في ١٩٧٧ أكثر من ٢٠٠ مرجع له.

والعجيب في القصة أن أكثر هذه الأبحاث لا أساس لها غير التحقيقات الثلاثة الصادرة ، أى تحقيق الأستاذ الألماني هيكير في ١٩٦٠ ، وتحقيقي الأستاذين الإسبانيين غارسيا غوميس في ١٩٦٥ وسولا سوليه في ١٩٦٠ ، مع أن المرجع الرئيسي ، أى مخطوطة عدة الجليس التي صارت ملكا للمستشرق الفرنسي كولان في المغرب ، لم يطلع عليه إلا غارسيا غوميس بإذن من مالكه، ثم صار بعد وفاة كولان محفوظاً في بنك إنكليزى تحت تصرف الأستاذ جونز الذى نشره في ١٩٩٢.

وعلى مثل هذا الأساس الضئيل كم بني من بناء ركيك، وكم وضع من نظريات فيها نظر، وكم استهلك من ورق وحبر في أغراض باطلة! وقد قال بعضهم إن الخرجات الأعجمية تثبت وجود تراث شعرى وافر باللغة الأسبانية

القديمة بعروض أهلي كـامل الـذات، وبموضوعات مطروقة لدى الأندلسـيين المولدين وإخوانهم من أهل الذمة استلهمه مخترعو التوشيح المنسوج على منواله وفقاً لهذا النظر ، وقال بعضهم إن ذلك الشعر الرومنسي القديم إنما كان مـن إنتـاج القيان المسيحيات المجلوبات إلى الأندلس أسيرات من جليقية ، وسمى بعضهم هـذه الأشعار بشعر مستعرب إلماحـاً منـهم بذلك إلى أن أصحابـه ليسـوا غـير المستعربين ، أى النصارى الذميـين دون الأندلسيين المسلمين ، وقـالوا وقـالوا وقالوا، و لم يثبت معظم اقوالهـم ، إذ لم يؤت بحجج قاطعة ، وإنما صدرت تلـك الأقوال عن أوهام وأضغاث أحلام.

ومما زاد في إشكال هـذا الموضوع، علاوة على ماذكرنـاه ، أن النصوص الأصلية المختلطة اللغة في أكثر الحالات قليلة محرفة في مواطن كثـيرة، نتيجة لاستنساخها المتعاقب على أيـدى نساخ لم يعودوا يفهمون لغتها، بحيث أن كل باحث تصرف في قراءتها كما شـاء، مطابقاً بين حروف المخطوطة المبهمـة وبين ما ارتضاه هو من المعاني المحتملـة ، وقد آل الأمر بهذه القضية إلى درجة أننـا عندما حضرنا الندوة المخصصة لدراسـة الخرجات بإيكسيتير في إنكلـترا سـنة ١٩٨٨ لم يجز لنا أن نعتمد غـير تسـع خرجات لكون غيرهـا مشـكوكاً في تفسيرها شكا فادحا ، وبمـا أن الأمـر كذلك بالفعل ، فكيـف تكـون الآراء والنظريات المبنية على نصوص من هـذا الصنف صحيحة أو موثوقا بها؟

ولكن هذه الأوضاع تغيرت تغيراً جوهريًّا، وتحسنت إلى غايـة لم نكـن نتصورها عندما نشر الأستاذ جونز تأليفه عن الخرجات الأندلسية المحتـوى علـى تصوير شمسي لكل واحدة منها ملتقـط من جميع المخطوطات التي وردت فيـها ، والحقيقة أنه لم يقطع شوطاً جديـداً في تفسيرها إلا أن توخيه الصـارم لمبدأ التمسك بواقع النصوص المقيدة، وعـدم التلاعب بها بواسطة التصويبات من غـير ضرورة قد مهد الطريق لتفسيرها الأدق، وللرجوع إلى الجهد العلمي فيما كـان قبلئذ مجالاً للهزل، أو على الأقل للعبـث والاعتباط!

•وصادف صدور ذلك الكتـاب آخر مراحل مناقشة القضية العروضية التي أسفرت عن نتيجة واضحة ، وهـي أن

الموشحات والأزجال على حد سواء غير خاضعة لتقطيع الشعر الرومنسي ، وإنما تقطيعها تقطيع خليلي مع بعض الضرورات المستحدثة، أو مع بعض التحوير على اختلاف آراء الباحثين ، فقضى الاعتراف شبه العام بهذا المبدأ على جميع التصويبات المحدثة لنصوص الخرجات الأصلية بقصد المطابقة بينها وبين مقاييس العروض الرومنسي ، وصفا الجو ثانياً لمحاولة تحقيقها وفقاً للعروض الخليلي الذى يجب تطبيقه على الأزجال والموشحات مع خرجاتها لكونها جزءا من أجزائها ، وهذا جليٌ وعن البيان غنيّ ، إن اهتدينا إلى أن الخرجات بالعامية الأندلسية ، وهي الغالبة، وأخواتها الأعجمية، وهي قليلة جدا نسبيًّا، إنما هي قطع مقتبسة عن أزجال سابقة قد اشتهرت لدى الجميع، فربما حلى الوشاحون أشعارهم بها على سبيل الهزل والاستطراد إلى ملح الفنون الشعبية الملحونة، بعد طرقهم باب الجدّ بقولهم الفصيح المُعْرَب.

بناء على هذه الأسس الجديدة وعلى غيرها مما لايقلُّ أهمية عنها كالبحث في خصائص الحزمة اللهجية الأندلسية التي لم يخالفها الزجالون إلانادرا وللضرورة ، قد تمكنا من دراسة الخرجات الأعجمية من جديد مجهزين في هذه المرة بمناهج أفضل ، فسرعان ما لاحظنا أن ٣٠% تقريبا من القراءات المتداولة بين أيدى الناس كانت خاطئة ، ومما زاد في خطورة بعض هذه الأخطاء أنها منبعثة عن نزعات عقائدية تُضْفِى على تلك النصوص صبغة مختلفة من التشرب بعناصر الحضارة الإسبانية أو الذهنية النصرانية ، في حين أن بعض الملامح العربية أو الإسلامية المميزة للأندلس بحكم إسلام أهلها وتعربهم التدريجي قد أمست متلاشية أو متضائلة في تلك القراءات المعتمدة لدى الجميع أو غالبهم.

وهنا يحسن بنا أن نوضح أمرين مُهمَّيْن جدًّا لكيلا يساء فهم كلامنا وهدفه، أولهما أننا لانتهم أصحاب تلك القراءات بتزوير مُتَعَمَّد لهذه النصوص، بل نحسبهم منحرفين على غير وعي عن الحياد المفروض على كل باحث علمي، بسبب ميول عقلية وعاطفية لم يسعهم التحكم فيها ، وثانيهما أننا لاننكر وجود رصيد كبير من العناصر السابقة للفتح

الإسلامي في حضارة الأندلس ، ولم يكن ذلك نظرًا للظروف المعروفة ، إلا أننا نستنكر المبالغة والحماس العقائدى والتحزب ، كلما تخللت المناقشة العلمية وغشيت أبصار المشاركين فيها.

وكانت نتيجة أبحاثنا المذكورة سلسلة من المقالات قد صدرت أولاها في مجلة فقه اللغة الأسبانية سنة ١٩٩٣ وستليها مقالتان أخريان على وشك الصدور، نعالج فيها نصوص الخرجات الأعجمية معالجة متميزة بأقصى الحرص على تفسيرها بدون اللجوء إلى تصويبات، وبالطبع يضيق بنا الوقت لإيراد تعاليقنا على ٤٥ خرجة لمجموعة الموشحات العربية، و٢٦ خرجة للمجموعة العبرية ، ونحن عازمون على تأليف كتاب في هذا الموضوع ، إن أطال الله أجلنا ، إلا أن في وسعنا الآن ضرب بعض الأمثلة لمنهاجنا ونتائجنا، وفيها دليل على سائرها.

ومنها مثلا الخرجة رقم ٣ في المجموعة العربية ، ونصها المرسوم:

يا فاتِنْ افتِنْ وُشْ يَتَنْرَادْ

كِنْدَرْ خالِشْ كارِذْ

حقق غارسيا غوميس كلمتيه الأوليين على أنهما عربيتان وفسر الباقية os y entrad kando gîlos keded أى، "ادخل هنا إذا نام الغيور"، مع تغيير ١٣% من الرسم المخطوط ، في حين أن قراءتنا بدون تغيير أى حرف هي ya vet-en I vet-on, wus ya tenrad! Ki-ndar xales kered? اى ، "اذهب اذهب ، ماأصفقك وجهاً ، ما الحاجة إلى إنذار الأخوال؟" ومن الجدير بالملاحظة أن الغيور المقحم هنا على حساب تحريف "خالش" ، أى ، خال بعلامة الجمع الرومنسي ، إنما أتى ضيفاً غير مدعوٍّ لأن له دورًا مشهودًا في الشعر البروفنسالي المفروض تداخله مع الشعر الدورى الأندلسي ، وهو افتراض غير بعيد ، إلا أنه لايبرر هذا التحريف المتكرر مرتين أيضا في تحقيق هذا الباحث بدون أساس نصيّ.

مع أن هذا الغيور ليس وحيدًا في باب المواضيع المزعومة وهما في متون الخرجات الأعجمية ، فإن مفسريها لايحجمون عن فرنجة مضمونها عن طريق إيجاد مالا يوجد فيها حقًّا من أدوار وأساليب أدبية مميزة للشعر الرومنسي في العصور الوسطى ، وفي هذا الباب يدخل ماذهبوا إليه من ورود أناشيد الصبح في

الخرجات على سبيل ماتسمى بالـalbada بالإسبانية ، من خلاف المعهود في الشعر الغنائى العربي من التذمر على الفجر المفرق للعشاق ، مما جعلوه برهاناً قاطعا على صحة نظرية رجوع التوشيح إلى أصل رومنسي ، ونحن قد راجعنا الموطنين اللذين زعموا أن فيهما لفظة "ألبا" الأعجمية ، ومعناها الصبح ، في الخرجتين رقمي٤ و ٧ من المجموعة العربية ، فلم نلف فيهما سوى "أَلْبُ" أى ، أشقر أو أبيض ، صفة لحبيب غير أسمر. ومن الطبيعي أن يذكر في هذه النصوص الشقر كما يذكر السمر.

ثم إننا إذا طرقنا باباً آخر ، وجدنا أن بعض المواطن الدالة مثلا على رسوخ العقيدة والتقاليد الإسلامية في البيئة الأندلسية قد فسرت تفسيرًا غير صحيح يغمّض أو يخفي تلك المعلومات المهمة الضرورية لحل قضية نسبة أصحاب الخرجات أوصواحبها إلى طائفة أو أخرى من طوائف سكان الأندلس. هذا ما اتفق في تفسير الخرجة رقم ١٢ من المجموعة العربية المقاربة لرقم ٥ من المجموعة العبرية، ونصهما:

بَنَدْ لَيَشْقَه أيُونْ شِنَلِ

حَسْرَاي مَوْ قُرَجُونْ بُرَلِ

وهو نص واضح غير مضطرب لم يشك المفسرون في ترجمته "قد جاء العيد وأنا بدونه ، ياحسرة قلبي عليه" ، ولم يُبَيِّن أهذا العيد إسلامي أم مسيحي أم يهودى ، ذلك مع أن لفظة أيون معناها الصوم ، فالترجمة الدقيقة لهذا النص "أن العيد بدونه بمثابة صيام رمضان الخ"، ولا أدل من هذا على الميزة الإسلامية الغالبة على البيئة التي نشأت فيها الخرجات الأعجمية ، وإن كانت نصوصها لاتزال تنم عن التعرب التدريجي ، وتخلف بعض الناس عن تملك زمام العربية.

وفي هذا الباب نفسه كثر النقاش حول موضوع شكوى الفتيات إلى أمهاتهن آلام غرامهن في الخرجات ، وقد قيل إن استعمالهن لكلمة "مَمَّا" الأعجمية عوضا عن "ياأمت" العربية من أقوى الأدلة على أنهن أمهات نصرانيات شماليات حديثات العهد بالأسر والإقامة في الأندلس ، وهي نظرية غريبة ، إذ ليس معقولا أن يشترى الإنسان الجارية مع أمها ، ولم نلبث أن تعرضنا لهذه الأبحاث حتى عثرنا على ما يدحض ذلك البرهان في الخرجة ٣٠ ونصها.

يامَمَّ شُو يس للجنّة إلاّ شِمُورِّى تَرَى

خَمْرِي مِنَ الْحاجِبْ (أو جَعْفَر) عَسَى شَتَرَىْ.

وقد فسرها كل من غارسيا غوميس وسولا سوليه بفوارق تافهة علي أن معناها "يا أمي ، إن لم يزل جنون عشقي أمت ، فأحضرى خمرى من الحاجب (أو من جعفر) لكي أشفى منه". و لم ينتبه أحدهما إلى أن "يس" إنما هي سورة ياسين القرآنية التي يقرأها المسلمون مُستغيثين بالله على البلايا ، فإن معنى هذه الخرجة الصحيح "يا أمي ، ما الفائدة من تلاوة سورة يس في حال الجنون؟ بل أحضرى لي الحاجب (أو جعفر) خمرا ، أى ، دواء"، ولاشك أن القضية أوضح بكثير بهذا التفسير الجديد ، ومضمونها أن العاشقة اليائسة فى الموشحة ترفض نصيحة أمها في طلب الفرج عن همومها في الصلاة ، وتطلب منها إحضار معشوقها علاجا لما بها من ذلك. وهذه القصة ، مع ما فيها من الكفر بالدين بسبب اليأس، ومن جسارة البنت على أمها مما جرى مثله في تلك الظروف الاجتماعية ، ما كانت لتحدث في غير بيئة عريقة الإسلام ، وإن كانت لاتزال سطحية التعرب.

على أن جميع الأخطاء في تفسير الخرجات الأعجمية ليست من هذا النوع اطراداً ، فإننا نجد في بعض الأحيان أخطاء لغوية بحتة صادرة عن سوء فهم الكلام العربي العامي أو الفصيح أو اللغة الرومنسية القديمة المنعكسة في هذه النصوص، نضرب مثلا لها ما يلاحظ في رقم ١١ ونصه:

شِكارَشْ كُمْ بُونَ مِيبْ بَيْجَمِ إِذّا النَّظْم
ذُوكْ بُكالّه ذا حَبَّ الْمُلُوكْ.

وهو كلام لم يشكل أكثره على المفسرين ما عدا كلمة "ذوك" التي لم يفهمها أحد منهم، فنسبوها إلى العامية العربية على غير صواب ، والحقيقة أنها لاتينية الأصل كثيرة الاستعمال بمعنى الأمر من السياقة ، ومعنى الخرجة "ان تحبني حبا حسنا فقبلني واسقني من النظم ، أى العقد ، يا فويهة من الكرز".

ومن نفس القبيل عدم فهم الخرجة رقم ١٧ من المجموعة العبرية ، ونصها:

الصَّبّاحْ بُونُو غارْمي دُونْ بانَشْ يا لُوشِ
كَأُوتْرِى اَمَشْ أَمِيبِ طُنْ قارَشْ

وقد فسرها غارسيا غوميس هكذا "أيها الصباح الجميل ، قل لي من

أين أتيت فقد عرفت أنك تحب غيري ولاتحبني أنا". وهي ترجمة سليمة ما عدا كلمتيه الأوليين اللتين يمكن أن تعنيا "صباح الخير"، ومن العجب أن هذه العبارة اليومية في كلام العرب لم تخطر بباله، ولاببال غيره من مفسري الخرجات الأعجمية.

وقد قلنا آنفا إننا لا نرميهم بالتعمد في انحرافهم المتواتر عن قراءة متونها الصحيحة ، و لم يصدر قولنا ذلك عن مجرد مراعاة خاطر، أو تقدير آثارهم أو فضلهم علينا ، كما لم يرجع انتقادنا لبعض آرائهم عن كره أو احتقار لهم أو لأعمالهم. إننا ، على الرغم من هفواتهم ، مدينون لهم، إذ بذلوا جهدا كبيرًا في دراسة هذه القضية خصوصًا، وفي أبحاثهم في الحضارة الأندلسية عموما ، ولهم لذلك علينا فضل لا يجوز أن نغمط حقه ، على أنهم قصدوا مرمى بعيدا، ومهدوا طرقًا غير مسلوكة، فلا غرو إذن أن لا يكون نجاحهم كاملا. وعلينا ألا ننسى أن المتصدى لمثل هذه الدراسة محتاج إلى إتقان العربية الفصحى وأوجه كلام الأندلسيين الدارجة، وإجادة الإسبانية الحديثة وسائر اللغات واللهجات الرومنسية الأيبيرية القديمة والحديثة ، مع غموض ملامح بعضها التي لا تنعكس إلا في هذه النصوص فقط ، ولا يغنيه ذلك العلم كله عن الاطلاع على أحوال الأندلس التاريخية والاجتماعية والعمرانية وعلى المعيشة اليومية في بلاد الإسلام فيما يتعلق بدينها ودنياها ، ولا يتيسر جمع مثل هذه المعارف والخبرات في الإنسان الواحد، فلذلك ما أخطأ سابقونا أحيانا ، ولذلك عسى أن لا نسلم نحن أيضا من بعض الغلط ، وقد لا يخلو منه أو من بعضه لاحقونا في المستقبل، وسبحان من تعالى عن الضلال.

فيدريكو كورينتي كوردوبا
عضو المجمع المراسل من إسبانيا

العربية بين الإقليمية والعالمية(*)

للأستاذ على رجب المدنى

حضرات الزملاء الأجلاء :

من الحقائق التى آن لها أن تفلت من براثن الطمس، وأن تبرز قوية ناصعة، وترتفع فوق دواعى التعتيم والتبهيم، حقيقة تميز اللغة العربية وعالميتها.

لقد علمنا من قراءة التاريخ وتتبع أحداث التطور الإنسانى أن الحضارات هى التى تعكس بريقها ورونقها على أذواق أصحابها والسنتهم وأساليب نطقهم.

أما أن يتحقق العكس، فتعكس الألسن والمشاعر والأحاسيس بريقها على الحضارة ، فتلك هى المعجزة والاستثناء. وهذا ما تحقق فى المجتمع العربى طوال الحقب التى سبقت نزول القرآن بلسان عربى مبين، ووسط مجتمعات تكفلت ألسنتها كأداة تعبير عن بواعثها الأدبية والمعنوية والنفسية، بصنع حضارة متميزة لاشأن للمؤثرات المادية والروحية فى صنعها إلا فى أقل القليل.

وهذه مفارقة تستدعى أن نقف عندها، ونبحث المنابع التى استمدت منها تلك المجتمعات ذلك الرصيد الضخم المتميز من التراث الأدبى الذى شكلت فيه القصيدة الواحدة (وحيناً البيت الواحد) صورة لحضارة تبهر الألباب وتلهب المشاعر، على الرغم مما اعتورها من هنات وعيوب بررت وصمها بالجاهلية.

ولعلنا نستشعر صروحا حضارية شامخة فى كثير من مقاطع الشعر الجاهلى جعلته مثار دهشة وإعجاب لدى من تعاقب من أجيال بشرية حتى عصرنا هذا. ويكفينا مثالاً لذلك ما تخلل شعر المعلقات من صور جف معين مثلها فيما تعاقب بعدها من شعوب وحضارات.

أخلص من هذا التحليل الموجز إلى القول بأن معجزة علوية صنعت كل الذى ذكرت ، وهيأت للكتاب الذى أنزل للناس جميعاً على قلب الرجل الذى بعث للناس جميعاً أن تُدرك معانيه ومراميه وبلاغتُه من خلال لغة أولئك الذين سلكوا فى بداوتهم وجهالتهم مسلكاً لا يدع مجالا للقول بأن ما قالوه شعرًا أو نثرًا يتفق مع

* ألقى هذا البحث فى الجلسة الرابعة لمؤتمر المجمع بتاريخ ٢٨ من شوال ١٤١٥هـ الموافق ٢٩ من مارس (آذار) سنة ١٩٩٥م.

مستوى حضارى مادى أو علمى اعتيادى من شأنه أن يؤهلهم لكل ماخلفوه شعرًا أو نثرًا.

وهنا تزدوج الحكمة العلوية فيما اختارت من تلك القبائل وتلك البيئة لتكون مهبطًا لخاتمة النبوات وآخر الكتب السماوية ، فهى - مع تميزها تعبيرا وبلاغة ودقةَ نسج فى القول - مستودع لأكبر قدر من تلك الجهالة التى تستوجب إرسال الرسول وإنزال الكتاب.

ذلك الكتاب-الذى كان وحده معجزه ذلك الرسول بما تميز به من منهج بلاغى لايقدر على استيعابه وإدراك مضامينه والتأثر به إلا أولئك الذين اجتمع لديهم النقيضان: سمو الذوق البلاغى والإغراق فى الجهالة التى قال واحد من أكثر المغرقين فيها عندما سمع بعض آياته: ((إن فيه لحلاوة وإن عليه لطلاوة)).

فلا غرو إذن أن يكونوا الأنموذج للأمة التى استهدفتها رسالة القرآن بالدعوة لمنهجه القائم على الكثير من قيم الروح والأخلاق والقليل النظيف من قيم المادة.

ولعل قصة إسلام عمر بن الخطاب كانت بحق صورة من صور الإعجاز السماوى فيما تحقق فيها من تحول خاطف من أعلى قمم الجهالة والضلالة إلى أعلى قمم الهداية واليقين والإحاطة بمثل الحق والعدل،خلال فترة زمنية لم تتعد الساعات الست تأثرًا بما وقع عليه بصره وعقله من آيات من سورة طه فى رقعة من الجلد ملقاة، كان خباب يعلم منها أخته وزوجها فى سرية قُدر لها أن تفضح وأن يعلم عمر بأمرها فيتمنطق بسيفه ويسرع إلى منزل شقيقته، ليفتك بمن يستميل أخته وزوجها إلى دين محمد ، إن فى تلك القصة التى بهرت شهرتها التاريخ مثالاً حيًّا على سرعة التأثير لمعجزة البلاغة القرآنية فى نفوس أناس لقنتهم السماء ذلك اللسان العربى المغرق فى بلاغته وتأثيره وإبداعه للصور الشعرية المتميزة.

ومن عجب أن تستقر اللغة العربية على ما عرف من أسلوب النطق بها عند العرب فى الجاهلية، وتتوافق مع مانزل به القرآن من نصوصها، وتكون فى مأمن التحريف واللحن إلى أن قدر للإسلام أن يطرق أبواب الأعاجم، ويتيح لهم بحق الإسلام الاندماج فى المجتمع العربى ، ذلك الاندماج الذى أدى إلى ما بدأ ينخر جسم

اللغة من اختلال فى سلامة النطق استدعى الاستنجاد بالبادية العربية التى لم تطأها أقدام الأعاجم، واستقاء قواعد النطق الصحيح من أفواه أهلها، واستنباط قواعد النحو من ذلك الأسلوب الذى درج عليه العرب منذ جاهليتهم ، واستقرت قواعده حتى عصرنا هذا.

أما وقد انتشر الإسلام ذلك الانتشار المعجز فقد كان بديهيا أن يضطرب النطق وينتعش اللحن وإن كان ذلك فى حقيقته ثمنا لامناص من دفعه نظير ما تحقق لهذا الدين من انتشار لم يهمل خلاله جانب التعليم والتلقين للغة العرب وقواعد النطق بها على نحو جعل من الأعاجم أئمة وأعلاما فى اللغة وفقهها إلى جانب تمكنهم فى علوم أخرى كسيبويه وابن ينى (المعروف بابن جنى) والكثير ممن لايتسع المجال لسرد أسمائهم وآثارهم فى تراث اللغة العربية طوال القرون التى تلت انتشار الإسلام فى آسيا الوسطى، وبلاد فارس والشام والغرب الإفريقي والأندلسي.

والتسليم بتلك الحقيقة التاريخية التى برزت بانتشار الإسلام فى عصره الذهبى على مساحة تمثلت فيما بين أسوار الصين شرقًا ومشارف باريس غربًا آنئذ يستتبع التسليم أيضًا بعالمية اللغة العربية طوال تلك القرون لسبب واضح كل الوضوح وهو أنها إلى جانب كونها لغة الدواوين الرسمية فهى لغة القرآن، الذى هو الملاذ الأول لكل من اعتنقوا الإسلام عن إيمان وعقيدة والذى لم يكن بوسع احد أن يدرك حقيقة مرامية وإعجازه إلا من خلال اللغة التى نزل بها، بل ربما كان التهافت على تعلمها حتى من قبل من دفعتهم مصالحهم ومآربهم إلى تعلمها باعتبارها لغة الفاتح.

ولئن كان هناك الكثير من أتباع الإسلام ممن لم يقووا على تعلم الفصحى والنطق بها إلا أنهم لا يَعْدُون أن يكونوا استثناءً مشوبًا بالضعف ، فلقد قرن الله إلا انه فى القرآن بعربية لسانه (نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين) (بلسان عربى مبين).

والعذر كل العذر لمن لا يقوى على فهم الإسلام الفهم الصحيح الأمثل، ويعتنقه عن اقتناع إذا كان لا يتكلم العربية ولا يتأثر ببلاغتها.

فإذا وضعنا أمامنا هدف الرسالة الإسلامية المتمثل فى استئصال أدران الجاهلية التى حالت بين المجتمع العربى خصوصا والمجتمعات البشرية بوجه عام وبين كل قيم الاستقامة والمحبة والسلام والتآخى والإيثار واحترام الحقوق والتناهى عن المنكر. وهى القيم التى استهدفتها رسالة الإسلام لتعود بالبشرية إلى رباط الأسرة الذى أشارت إليه الآية الأولى من سورة النساء فى قول الله تعالى:

" يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرًا ونساءً واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام".

أقول: إذا وضعنا ذلك الهدف نصب أعيننا تكشفت لنا حقيقة الصلة العضوية بين القرآن واللغة التى نزل بها على النبى محمد عليه الصلاة والسلام ، خصوصا إذا قدرنا الخصائص البلاغية التى استأثر بها القرآن ككتاب منزل من عند الله، وتَضَمَّنَتْها العربية كلغة نزل بها ذلك الكتاب، وتلقنها القوم الذين أُنزل القرآن على واحد منهم ، واستهدف مخاطبتهم.

فلا غرو إذن أن تكون عالمية اللغة العربية جزءًا من عالمية الكتاب الذى أنزل بها ، وأن يشمل التزام الدعاة للإسلام التزامهم بنفس القدر بتعليم هذه اللغة للأسرة البشرية التى يراد لها أن تنتهى إلى لقاء حول مُثُل الإخاء والوفاق والسلام التى نزل هذا الكتاب لإرسائها والدعوة إليها.

لقد قُدر للعربية أن تراوح بين الإقليمية والعالمية تبعاً لمراحل الجزر والمد السياسيين، اللذين لابسا تاريخ العالم منذ نزول القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم.

ولقد كان لتلقائية الغرائز البشرية تأثيرها الواضح على كل مراحل الجزر والمد تلك ، وما انتهى إليه أمر العربية العليا من انكماش لحساب عاميات هزيلة، لعبت أطماع القوى المعادية للإسلام والطامعة فى طمس ميراثه الحضارى والإنساني دورها الفاعل والمؤثر فى دعمها وإضعاف حماس أبناء العربية حيالها، وجعلهم ينصرفون عن فصحاهم بمقولة إنها لا تتيح للاهث خلفها العيش الناعم الذى تتيحه لغة القوى الغازي الذى لم يتردد (على الدوام) فى أن يبذر بذور الانتقاص لها والاستعداء عليها،

مما ظل ديدناً لما تعاقب على الأمة الإسلامية من غُزاة، منذ سقوط بغداد وحتى بدايات النصف الثاني من هذا القرن الذي يوشك أن ينصرم.

ولقد كان لليقظة الفكرية التي ولدتها النهضة العلمية الحديثة، ولبروز مجامع اللغة العربية (وفى طليعتها مجمعنا العظيم هذا) ولاشتداد وطأة العدوان الاستعماري على الشعوب العربية والإسلامية ، كان لكل ذلك الأثر البين فيما نأمل أن يتنامى من وعي لحقيقة الفصحى وأهمية العودة إليها ونشرها فى ربوع الأرض لتحقيق الأمل فى مخاطبة العقول الراشدة فى كوكبنا من خلال القرآن وفهمه، والتأثر بإعجازه بالقدر الذي يمكنها من تفهم رسالته على حقيقتها التي تتركز فى أهداف (الإخاء والسلام والتعايش بين بني الأسرة الإنسانية الكبرى انطلاقا من الرجاء فى مرضاة الله والخوف من عقابه).

وعندئذ تستعيد العربية مجدها المنهزم وتعود لها عالميتها فتبرز رباطاً إنسانيًا مقدساً فى عصر تصبو فيه المدارك لاستيعاب كل ما تضمنه التراث الإسلامي والعربي من خصائص ومزايا فى كافة الحقول الإنسانية سواء منها ما اتصل بقيم الروح والأخلاق، أو ما اتصل بالتنظيم الاجتماعي والاقتصادي والسياسي الأمثل.

حضرات السادة الزملاء :

لئن كنت قد انصرفت عن المراجع فيما قدمت من بحثي هذا مكتفيًا بما ضمنته الذاكرة، وما ألهمني الله تدوينه من محصلة آراء وأفكار ظللت أعتنقها منذ الثلاثينيات من هذا القرن ، فإني لا أعفي نفسي من واجب الاستدلال فى هذا المقام بما أورده مرجع من عديد المراجع التي أكرمني الله بحيازتها ، والتي عزفت عن اللجوء إليها حتى لا أكون أمام حضراتكم كسائق التمر إلي هجر.

لقد قرأت باعتزاز للزميل الراحل المرحوم الأستاذ أحمد حسن الزيات فى مقدمة كتابه (تاريخ الأدب العربي) الذي سعدت باقتنائه وقراءته منذ أواخر الثلاثينات الجمل التالية:

((فما كانت لغة مصر بعد الإسلام لغة أمة واحدة ، وإنما كانت لغة لجميع الشعوب التي دخلت فى دين الله، أو فى كنفه ، أو دعوها معانيهم وتصوراتهم ،

وأفضوا إليها بأسرار لغاتهم ، ثم جـــابت أقطـــار الأرض تحمـــل الديـــن والأدب والحضارة والعلم ، فصرعت كـــل لغـــة نازلتها، ووسعت علـــوم الأولـــين وآداب الأقدمين ، من يونان وفرس ويهود وهنـــود وأحباش، واستمسكت على عرك الخطوب تلك القرون الطويلة ، فشهدت مصـــارع اللغات حولها وهى مرفوعة الرأس رابطـــة الجأش، ترث نتاج القرائح وثمار العقول من كل أدب ونحلة ، فكانت لغات الأمم على اختلافها كالجداول والأنهار ، تتـــألف ، ثم تتشعب، ثم تتجمع، ثم تصـــب فى محيـــط واحد هو اللغة العربية". رحم الله الأســـتاذ الزيات.

حَرِىٌّ بنا أن نلتمس الوسائل المتاحة فى هذا العصر مـــن مرئيـــة ومســـموعة ومقروءة، ترجمة وتلقينا للقواعـــد، حـــتى يتمكن كل إنسان من خلالها إن يطل على بحر اللغة العربية الفصحى، ويتمرن علـــى الغوص فى أعماقه واكتشاف مـــا يحويـــه جوفه من لآلئ تبـــهر العقـــول وتجـــذب النفوس إلى الإيمان بالإســـلام وبرســـالته الخالدة، وتعاليم المحبة والإخاء والسلام التى جعلها السبيل الأقوام لمرضاة الله وغفرانه.

وإنى لآمل أن يتحقق لهذه الأمـــة رجاؤها فى أن ترى الخيرين مـــن رجالهـــا القادرين لغويًا وتقنيًا وماديًا يســـارعون إلى تجنيد أنفسهم للوصول بـــــها إلى هـــذا الهدف العظيم الذى يجعل من فصحاها لغة يشدو بـــها كل الناس فى أرجـــاء هـــذا الكوكب الذى اختاره الله بيتا لأســـرة آدم الكبرى، ملتزمة فى علاقاتها بقيم الأســـرة الواحدة التى لا يشهر فيها أخ الســـلاح فى وجه أخيه ولا يسطو على حق من حقوقه، انصياعا لعاطفة الأخوة والرحم.

((يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعناكم شـــعوبًا وقبـــائلَ لتعـــارفوا إن أكرمكم عند الله أتقـــاكم)). صـــدق الله العظيم

إن العرب والمسلمين لا يمكنـــهم أن يحتلوا فى عصرنا هذا المترلة اللائقة بـــهم وبتاريخهم الحضارى إلا بتجنيد عقولهـــم وحوافزهم للإسهام فى النهضـــة العلميـــة الكبرى التى تتواصل مسيرتها على نحـــو لم يشهد التاريخ لسرعته مثيـــلا، وأن يبنـــوا علاقاتهم فيما بينهم أولا، ثم فيما بينـــهم وبين غيرهم من الأمـــم، علـــى أســـس حضارية متينة يتم فيها إخضـــاع المـــادة

لسلطان الروح حتى لا تطغى المادة على البشرية، فتقودها إلى حيث تفقدها كرامة الإنسانية، وشرف العمل على إقامة دولة المدنية الفاضلة، التى تحكمها نواميس الإخاء والسلام والمحبة والترفع عما لا يليق بالإنسان.

على رجب المدنى

عضو المجمع من ليبيا

المصطلحات الحضارية والعلمية
في كتاب " نهاية الرتبة في طلب الحسبة " للشيزري[*]

للأستاذ الدكتور عبد الكريم خليفة

تعددت الروايات في تحديد عنوان هذا الكتاب(١)، واضطربت اضطرابا شديداً في ذكر اسم مؤلفة، ولقبه وكنيته ومذهبه. وليس من شأن هذا البحث وضع ترجمة لصاحب هذا الكتاب وقد قام المحقق في تقديمه للكتاب، بجهد كبير لإلقاء الضوء على هوية مؤلف كتاب "نهاية الرتبة ..،" (٢)

وربما كان من المفيد أن أشير إلى قضية ربما أوقعت اللبس عند الباحثين المحدثين. فقد ذكر صاحب كتاب "هدية العارفين "(٣) أسماء المؤلفين وآثار المصنفين من كشف الظنون، تحت عنوان: الطبري، ما نصه:"الطبري – عبد الرحمن بن نصر بن عبد الله العدوي الشيزرى، قاضي طبرية المتوفى سنة ٧٧٤هـ أربع وسبعين وسبعمائة له: الإيضاح في أسرار النكاح. خلاصة الكلام في تأويل الأحلام. روضة القلوب، نهاية الرتبة الظريفة في طلب الحسبة الشريفة. النهج المسلوك في سياسة الملوك.

ولدى تتبعي لعنوانات هذه المؤلفات في كتاب"كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون"لحاجي خليفة، وجدته يعرض هذه المؤلفات كلا على حدة في الأبواب المخصصة لها على الوجه التالي:

الإيضاح في أسرار النكاح – أي في الباه – للشيخ عبد الرحمن بن نصر بن عبد الله الشيزرى، المتوفى سنة ٧٧٤هـ، وهو مختصر، أوله: الحمد لله، الذي خلق الإنسان من طين ... إلخ (٤)

(*)ألقى هذا البحث فى الجلسة الرابعة لمؤتمر المجمع بتاريخ ٢٨من شوال سنة ١٤١٥هـ الموافق ٢٩من مارس (آذار) سنة ١٩٩٥م.

١– انظر : عبد الرحمن بن نصر الشيزري، كتاب نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحقيق ومراجعة الدكتور السيد الباز العريني، الطبعة الثانية، بيروت، سنة ١٤٠١هـ – سنة ١٩٨١م.

٢– انظر: الشيزري، مقدمة الناشر.

٣– إسماعيل باشا البغدادي، هدية العارفين، أسماء المؤلفين وآثار المصنفين من كشف الظنون، بيروت، ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م/ المجلد الخامس، ص٥٢٨

٤– حاجي خليفة، كشف عن أسامي الكتب والفنون، مصطفى بن عبد الله الشهير بحاجي خليفة، وبكاتب جلبي، مكتبة المثنى، بغداد / المجلد الأول، ص٢٠٩.

وفي مكان آخر في المجلد ذاته يقول: " الإيضاح – للإمام عبد الرحمن بن أحمد الطبري"[1]. ومما له دلالة في هذا الباب أن نتوقف أيضا عند عرض كتاب "روضة القلوب – لعبد الرحمن بن نصر الله الشيرازي ، قاضي طبرية ،.." [2]

وفي باب الخاء يذكر حاجي خليفة: خلاصة الكلام في تأويل الأحلام ، لعبد الرحمن بن نصر بن عبد الله ، وهو مختصر على أربعة وعشرين باباً ، أوله: الحمد لله الذي سلك بنا المنهج اليقين... إلخ[3]

وفي المجلد الثاني ، يورد حاجي خليفة أيضاً:"نهاية الرتبة الظريفة في طلب الحسبة الشريفة ، للشيخ عبد الرحمن بن نصر بن عبد الله العدوي. أوله الحمد لله على نعمه ... إلخ، وهي على أربعين باباً[4] وبعد ذلك بصفحات يورد مانصه:" النهج المسلوك في سياسة الملوك ، للشيخ عبد الرحمن ، رتبه على عشرين باباً ، وهو كتاب لطيف مفيد:"أوله ، الحمد لله الذي عجزت العقول عن معرفة ذاته ... إلخ ، صنفه للملك الناصر صلاح الدين.[5]

ونحن إذا استعرضنا هذه النصوص، نستطيع أن نخلص إلى القول إن ما استخلصه صاحب كتاب هدية العارفين،في عزو هذه الكتب لمؤلف واحد ، ربما كان وراء هذا اللبس الذي وقع فيه المحدثون ، ومنهم محقق هذا الكتاب الذي اعتمدنا تحقيقه(٦). فإن اسم "عبد الرحمن ابن عبد الله" كثير الشيوع ... وكذلك فإن بعض الروايات رأيناها تجعل وفاة المؤلف سنة ٧٧٤هـ ... وأمام هذه المعطيات ، فإننا نميل إلى الاعتقاد ، بأن صاحب كشف الظنون يتحدث عن شخصيات مختلفة ، وإن الإجماع على اسم"عبد الرحمن"لا يعني شيئاً كثيرا...إلخ ، وفيما يخص كتاب "نهاية الرتبة.." ، فإنني أرجح ما ذهب إليه الأستاذ المحقق في نسبته إلى عبد الرحمن بن نصر بن عبد الله بن محمد الشيزري الشافعي ، وأنه قد عاصر الناصر صلاح الدين الأيوبي وربما وضع كتابه بناء على تكليف من السلطان.

لقد أشرت منذ البداية إلى أنه ليس من مهمة هذا البحث ، دراسة حياة "الشيزري" صاحب كتاب " نهاية الرتبة

١– كشف الظنون ، المجلد الأول ، ص ٢١٤ .

٢– المصدر نفسه ، ص ٩٣١ .

٣– كشف الظنون ، المجلد الأول ، ص ٧١٩ .

٤– كشف الظنون ، المجلد الثاني ، ص ١٩٨٧ .

٥– المصدر ذاته ، ص ١٩٩٣ .

٦– انظر: الباز العريني ، المقدمة ، ص ك.

في طلب الحسبة" ، وتحقيق مؤلفاته ، ولكني أردت أن أوجه انتباه الباحثين إلى القيمة اللغوية لهذه النصوص التراثية الحيَّة التي تصور النواحي الاجتماعية ، والحياة اليومية لمختلف شرائح المجتمع العربي الإسلامي ، ولاسيما في بلاد الشام ومصر. يتحدث كتاب "نهاية الرتبة في طلب الحسبة عن أصحاب الحرف والصناعات ، وما يقوم به بعضهم من أنواع الغش في مبيعاتهم ومعاملاتهم. وإلى جانب كشفه عن كثير من مظاهر الحياة الاجتماعية ، فإنه يوفر لنا مصدراً مهماً من مصادر اللغة العربية في حياتها العملية بين مختلف الشرائح الاجتماعية ، ولاسيما بين أصحاب المهن على اختلاف ألوانهم.. ونَسْلِكُ في هذا المجال اللغوي جميع ماكتب في "الحسبة" وفي كتب "الخراج"... والأحكام السلطانية والفقهية، وما صنف في النوازل إلخ. فإلى جانب كونها مصدراً مهما من مصادر كتابة التاريخ الاجتماعي، فإنها مصدر أساسي من مصادر الذخيرة اللغوية العربية. فهي تعبِّر عن مختلف الفعاليات في حياتها اليومية بألفاظ عربية فصيحة ومولدة ومعرَّبة ، اكتسب بعضها رونق العربية وبقي بعضها الآخر بصيغته الأعجمية ناطقاً بالحروف العربية... وإن مثل هذه الذخيرة التي من شأنها أن تمد العربية بالحياة والاتساع في مسيرتها الحضارية والعلمية عبر التاريخ ، لم تسجل معظمها المعاجم اللغوية التراثية ... وذلك لاختلاف في المناهج والأهداف. وبات لزاماً على المجامع اللغوية العربية والجامعات العربية وعلمائها، أن تنهد لإنجاز "مشروع الذخيرة العربية ، ومعجمها التاريخي" ، من أجل نهضة عربية أصيلة ، كثر عثارها وطال انتظارها ، للحاق بركب الأمم المتقدمة ، والمشاركة المبدعة في بناء حضارة القرن الحادى والعشرين. وسيكون "المعجم التاريخي" للغة العربية أحد الأعمال اللغوية المهمة التي سَتَنْبَثِقُ عن مشروع "الذخيرة العربية"(*) وفي هذا الإطار نعرض كتاب " نهاية

(*) يجدر بي أن أشير إلى أن ندوة مشروع "الذخيرة العربية" قد عقدت في مدينة الجزائر في الثاني من حزيران ١٩٩٢"...وتكونت لجنة للمتابعة... ولكنها مع الأسف توقفت عند هذا الحد... وفي شباط (فبراير)سنة ١٩٩٣ ، طرح الموضوع في مجلس اتحاد المجامع اللغوية العربية ، واتخذ قرار بشأن تبني "الاتحاد العمل على إنجاز العمل على إنجاز هذا المشروع... ولكن ما لبث مع الأسف أن تخلى الاتحاد عن هذا المشروع ، لثقل المهمة وعدم وجود الإمكانات المادية!!!

الرتبة في طلب الحسبة". وهو على صغر حجمه يُسْلَكُ في قائمة أهم المصادر لدراسة الألفاظ الحضارية والمصطلحات العلمية في القرن السادس الهجري في المجتمع الإسلامي ولاسيما في بلاد الشام ومصر.

عرض الشيزري أرباب الحروف والصنائع، وتحدث عما كان يقوم به هؤلاء من أنواع الغش في مبيعاتهم ومعاملاتهم،ووصف فروع الطب المختلفة وأسهب في شرح غشوش العقاقير. وصنَّف أصحاب المهن هؤلاء على الشكل التالي:

١:الحُبوبيّون ٢:الدَّقّاقون ٣:الخبَّازون
٤:الفرّانون ٥:صنّاع الزّلابية
٦:الجزّارون(الجزّار هو الذي يذبح الماشية للبيع) ٧: القصّابون(القصّاب هو الذي يبيع اللحم للنّاس) ٨:الشوّاؤون
٩:الروّاسون ١٠:قلاّئو السمك
١١:الطبّاخون ١٢:الهرائسيون
١٣:النّقانقيون ١٤:الحلوانيّون
١٥:الصيادلة ١٦:العطّارون
١٧: الشّرابيّون(الشّرابيُّ هو صانع الأشربة، وهي الأدوية السائلة على اختلافها)
١٨:السمّانون
١٩:البقالون، وباعة الخضراوات
٢٠:البزّازون(والبزّاز هو بائع الثياب)
٢١: الحاكة ٢٢: الدلاّلون والمنادون
٢٣:الخيّاطون ٢٤:القطّانون
٢٥:الكتّانيون ٢٦:الحريريون
٢٧:الصبّاغون ٢٨:الأساكفة
٢٩:الصيارفة ٣٠:الصّاغة
٣١:النحّاسون ٣٢:البياطرة
٣٣:نخّاسو العبيد والدواب
٣٤: الحمّامات وقَوَمَتها
٣٥:الفصّادون والحجّامون
٣٦:الأطباء والكحّالون والمجبّرون والجرائحيون.
٣٧:مؤدّبو الصبيان.

ويتحدث صاحب كتاب نهاية الرتبة... أيضاً عن باعة الخزف والكيزان والأواني والغسّالين والسَّقّائين وأصحاب الرّوايا والقِرب ، والمكاريّة وحمّالي الحطب..الخ، مما يجعل من هذا المؤلف مصدراً مهماً من مصادر التعريف بأحوال المجتمع الإسلامي عامة والمجتمع الشامي والمصري خاصة في ذلك العصر ، إلى جانب قيمته اللغوية في التعبير عن جميع جوانب الحياة الحضارية.

ونحن إذا استعرضنا نصوص هذا الكتاب نجده يولي اهتماماً خاصاً ببلاد الشام ومصر. وربما كان من المفيد أن نعرض بعض هذه المصطلحات في سياقها اللغوي.

يقول صاحب كتاب نهاية الرتبة في طلب الحسبة:"وقد اصطلح كل إقليم وبلد في المعاملة على أرطال تتفاضل في الزيادة والنقصان ، سيما أهل الشام خاصة"[1] ويولي مدينة " شيزر[2] " أهمية خاصة من بلاد الشام حيث يقول:"وأما القنطار المتعارف فهو مئة رطل ، والرطل ستمائة وأربعة وثمانون درهماً ، وهو اثنتا عشرة أوقية ، والأوقية سبعة وخمسون درهماً. هذا رطل شيزر ، الذي رسمه بنو منقذ" (٣).

وفي مكان آخر يقول:"الدرهم الشامي ستون حبة . وقد اختلفت صَنَجُ أهل الشام أيضاً ، فالمثقال بشيزر يزيد على مثقال حلب نصف قيراط ، ومثقال حماة مثل الشيزري ومثقال دمشق يزيد على الشيزري ، ومثقال المعرَّة مثل الدمشقي"(٤) فهو يولي عناية كبيرة ببلاد الشام وخاصة "شيزر" ، مما يلقي ضوءاً على نسبته "الشيزري". ويقول في موضع آخر:

"فالقفيربشيزر ستة عشر سنبلاً ، وهو مكيال متعارفٌ فيها ، يسع رطلاً ونصفاً بالشيزري"(٥). وهذا نصٌّ أخر يفيد بأن المؤلف كان في مدينة "حلب" التي لا تبعد كثيرا عن "شيزر" يقول: و لم أرَ في

١- نهاية الرتبة ، ص١٥.

٢- شَيْزَر: قلعة تشتمل على كورة بالشام قرب المعرَّة، تُعَد في كورة حمص وهي قديمة ، ذكرها امرؤ القيس في قوله:

تقطع أسباب اللبانة والهوى عَشية جاوزنا حماة وشيزرا

وقال عبيدالله بن قيس الرقيات:

فواحَزناً إذ فارقونا وجاوروا سوى قومهم أعلى حماة وشيزرا

قال البلاذري: سار أبو عبيدة من حماة بعد أن فتحها صلحا على الجزية ، إلى شيزر فتلقاه أهلها وسألوه الصلح على مثل صلح حماة ففعل ، وذلك في سنة١٧هـ. وينسب إلى شيزر جماعة منهم الأمراء من بني منقذ وكانوا ملوكها...

انظر: ياقوت ، معجم البلدان ، ج٣ ص٣٧٣.

٣- نهاية الرتبة ، ص١٥

٤و٥- نهاية الرتبة، ص١٧.

صناعة الفَصْدِ أحذق من رجلين رأيتهما بمدينة حلب..."[1].

وإلى جانب حديثه عن بلاد الشام، يتحدث عن مصر ، فنجده بعد أن يتحدث عن رطل حلب... ورطل دمشق ، ورطل حمص ، ورطل حماة... ورطل المعَّرة يقول: "ورطل مصر – حرسها الله تعالى – مئة وأربعة وأربعون درهماً وأوقيتها اثنا عشر درهماً..."[2] .وفي موضع آخر يقول: "والقبّان الرومي أصحُّ من القبان القبطي."[3] . ويجعل من حبوب بعض النباتات التي كانت تكثر زراعتها في مصر والشام معياراً للمكاييل ، ومنها: الخردل والبزر قطونا ، إذ يقول:"وأجود ما عُيِّرَتْ به المكاييل الحبوب الصغار التي لا تختلف في العادة مثل: الكسفرة والخردل والبزرقطونا"[4].

ومما يجدر ذكره أن كثيرًا من هذه المكاييل والموازين ، مازالت حيَّة في الوقت الحاضر في أوساط العامة في بلاد الشام ومصر... على الرغم من المنهجية الرسمية الحديثة التي أخذت بتعريب ألفاظ الموازين والمكاييل العالمية مثل: الغرام والكيلو غرام والطن...الخ.

ويعنى المؤلف في كثير من الأحيان بإيراد وصف دقيق لأجزاء بعض الأدوات ، وأسمائها التي تعرف في ذلك الوقت ، مما يشكل ثروة لغوية مهمة ، لم تسجلها المعاجم اللغوية ، ولاسيما من حيث معانيها الاصطلاحية ودلالاتها على جوانب الحياة الحضارية ، والمهنية. فقد أورد الشيزري وصفاً دقيقاً لأجزاء الميزان وأسمائها المعروفة في عصره ، فيشير إلى: الكَفَّة والعلاَّقة ، ووسط القصبة ، وثلث السمك ، وميْرود العلاَّقة ، واللّسان ، وقبٌ العلاَّقة والشواهين... وهي ، كما نُلاحظ، ألفاظ عربية فصيحة ، قد اكتسبت معاني اصطلاحية للتعبير عن أجزاء أداة لها شأنها في الحياة الحضارية في ذلك العصر... ومازال كثيرٌ من هذه الأسماء حياً في الوقت الحاضر.

ويمدنا الشيزري أيضاً بذخيرة مهمة تتناول أسماء العقاقير والنباتات وأسماء الأطعمة والأشربة... الخ ، وربما كان من المفيد في هذا البحث أن نتوقف عند أمثلة من ألفاظ الحضارة ومصطلحات الطب والصيدلة في هذا المصنَّف. وإن دراسة لغوية لهذه الألفاظ ودلالاتها ، تقودنا إلى

١– نهاية الرتبة ، ص٩١.
٢– نهاية الرتبة ، ص١٦.
٣– نهاية الرتبة ، ص١٩.
٤– نهاية الرتبة ، ص٢٠.

استقراء الملامح الأساسية للمنهج العام الذي وضعت في إطاره هذه الألفاظ الحضارية والمصطلحات العلمية. ونحن نستطيع أن نصنفها بصورة عامة إلى ألفاظ عربية فصيحة وأخرى مولدة وقسم أخر أعجمي مُعرَّب ، سواء أكان قد أُضْفِي عليه رونق العربية أم أُخذ بلفظة الأعجمي. وسنحاول أن نقتصر على إيراد الأمثلة ، من خلال النصوص الواردة فيها ، مما يكون له دلالة لغوية مفيدة.

ففي الحديث عن الحسبة على البزّازين يقول الشيزري:

"وينبغي ألاّ يتّجر في البزّ إلا من عرف أحكام البيع وعقود المعاملات ، وما يحلُّ له منها وما يُحَرَّمُ عليه ، وإلا وقع في الشبهات وارتكب المحظورات. وقد قال عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – "لايتَّجر في سوقنا إلا من تفقه في دينه ، وإلا أكل الربا ، شاء أو أبى". وقد رأيت في هذا الزمان أكثر باعة البزّ في الأسواق يفعلون في بياعاتهم مالا يحل عمله"[1].

وهو يتحدث عن "البز" و "الاتجار" وأحكام البيع وعقود المعاملات ، وعن الأسواق والنفقة والرِّبا والبياعات... وجميع ذلك يعتبر في باب العربية الفصيحة ، سواء أكان ذلك وفق معانيها اللغوية أم كان وفق معانيها الاصطلاحية... والأمثلة على ذلك كثيرة ، ومنها:

"فإن منهم (أي الباعة) ، من يأخذ حبّات الشعير والحنطة فينقعها في بعض الأدهان المعروفة ، ثم يغرس فيها رؤوس الإبر، ثم يجففها في الظل ، فتعود إلى سيرتها الأولى ، ولا يظهر فيها شيء من ذلك"[2]... إنه يورد هذا النص في مجال حديثه عن اتخاذ حبات الشعير والحنطة... معياراً للوزن. ولاسيما في وزن الذهب والفضة.

وفي مجال الألفاظ العربية الفصيحة نورد هذا النص أيضاً ، إذ يقول:

"والمصلحة أن يجعل المحتسب عليهم (أي الدقاقين) وظائف يرفعونها إلى حوانيت الخبازين في كل يوم"(٣) فهو يتحدث عن "المصلحة" و"المحتسب" و "الدقاقين" والوظائف (جميع وظيفة وتعني هنا كمية يتفق عليها) والحوانيت والخبازين... وقوله أيضاً:" وينبغي له (أي البائع)... ولا يُحَلِّق البضاعة من يده في الكفة تحليقاً، ولايهزُّ حافة الكفة بإبهامه ، فإن ذلك كله بخس..."[4].وعندما يتحدث

١- نهاية الرتبة ، ص٦١.
٢- نهاية الرتبة ، ص٢٠.
٣- نهاية الرتبة ، ص٢١.
٤- نهاية الرتبة ،ص١٨ .

عن الدقاقين (وهم الطحانون) يقول: "يلزم (أي المحتسب) الدقاقين غربلة الغلة من التراب ، وتنقيتها من الزوان ، وتنظيفها من الغبار قبل طحنها..."(١)

وفي حديثه عن "الحبوبيين" يقول:"يُحرَّم عليهم احتكار الغلة على ما بيناه ، ولا يخلطون رديء الحنطة بجيدها، ولا عتيقها بجديدها ، فإنه تدليس على الناس"(٢)... ومن الواضح أن الشيزري يقصد بالحبوبيين هنا "تجار الحنطة".

ويتحدث عن الصنج الطيّارة: وتُعَيَّرُ الأرطال والأواقي من الحديد ، على الصنج الطيّارة..."(٣)فإن كلمة"الصنج" و"الصنجات" لفظة عربية جاهلية... قد ولد منها أصحاب المهن ،حضاريًّا ، بحسهم اللغوي الأصيل ، معنى اصطلاحيًّا توليداً صحيحاً ، لا يمكن أن يعتبر خارج دائرة العربية السليمة.

وربما كان من المفيد أن نتوقف أيضاً عند هذا النص. إذ يقول الشيزري: قال (المحتسب)، مخاطباً سلطان دمشق ، بعد أن ولاّه أمر الحسبة على الناس: فقم عن هذه الطرّاحة ، وارفع هذا المسند ، فإنهما من حرير... قال:فنهض السلطان عن طرّاحته وأمر برفع مسنده"(٤) . فالطرّاحة جمعها طراريح وهي مايفترش للجلوس...ومازالت لفظة حية حتى يومنا هذا في الأوساط الشعبية الشامية ، وكذلك "المسند" وهو الوسادة التي يستند إليها.

ومن الألفاظ العربية الفصيحة والمولدة الصحيحة ، قوله أيضاً في الحديث عن العجانين:"فلا يعجن إلا عليه ملعبة أو بشت مقطوع الأكمام ، ويكون مثلما أيضاً".(٥) فهو يتحدث عما يجب أن يرتديه العجان من الثياب ، مثل:"الملعبة"و"البشت"... واللفظة الأخيرة مازالت شائعة ، بين أصحاب المهنة في وقتنا هذا.

وكذلك يورد "القُرمية والقُرمة" ، وجمعها "قُرَم" وهي قطعة من الخشب يقطع عليها اللحم فيقول:"وإذا فرغ القصاب من البيع...أخذ ملحاً ونثره على القرمية التي يقصب عليها اللحم."(٦) فإن لفظة القرمية ولفظة القصاب... شائعة معروفة في الوقت الحاضر ، بهذه المعاني المحددة... ولنتوقف عند هذا النص الذي يتحدث عن آلة من آلات النجار ، وعما يخرج منها من النجارة الدقيقة التي تسمى

١- نهاية الرتبة ، ص٢١.
٢- المصدر نفسه.
٣- نهاية الرتبة ، ص١٩.
٤- نهاية الرتبة ،ص٨ .
٥- نهاية الرتبة ، ص٢٢.
٦- نهاية الرتبة، ص٢٨.

"القنداس" ، إذ يقول: "ومنهم من يخلط القنداس – وهو ما يخرج من السَّرّاقة – بالكتان الناعم بعد مشطه...وجميع ذلك تدليس"(*)... فإن لفظة "القنداس" توحي بأعجميتها ، وقد أضفى عليها رونق العربية ، واضطر الشيزرى أن يشرح معناها ، فقال:"وهو مايخرج من السَّرّاقة...ومن الواضح أن لفظة "السَّرّاقة عربية فصيحة وهي اسم آلة على وزن "فَعَّالة" ، قد وضعت على سبيل الاشتقاق... ثم نقلت إلى معنى اصطلاحي.

وإن الألفاظ العربية الفصيحة والمولدة الصحيحة التي وضعت عن طريق الاشتقاق أو النحت أو المجاز أو النقل كثيرة جداً ، ونكتفي هنا بإيراد بعض الأمثلة الأخرى ، خارج النصوص كي لا نثقل هذا البحث. فمنها ما هو وصفي فصيح العبارة مثل: السكين الكالة ، الزيت المعاد ، تبييض الحرير ، جبل الطين ، جماجم العنبر ، حبل الذراع ، حجر الدم ، حجر الزئبق ، حجر الكحل ، خاتم المحتسب ، داء الفيل ، أجراء الصانع ، احتكار الطعام ، احتكار الغلة ، أهل الأسواق ، بنيقة الثوب ، بوار النساء (آلة طبية) ، تكوكب اللبن...الخ ومنها ما وضع اشتقاقا أو مجازاً أو تركيباً أو نحتاً ، وكان إمّا عربيًّا فصيحاً وإما مولدًا صحيحاً... والأمثلة على ذلك كثيرة نذكر منها:"التطريب ، التفاصيل (اصطلاح فقهي) ، التفرق (اصطلاح فقهي) التعزير (فقه) ، الثريدة (طعام) ، جُبة (ثوب) ، الجرائحي (طب)، جرن (حضارة) الحوارى (دقيق)،الخابية(حضارة)، الخبائص(جمع خبيصة)،الخز(الحرير) الداخس، الإبطي،الاستسقاء (مرض)،الأعدال (جمع عدل)، الأقحاف (جمع قحف) ، الأكحل، الإكليل ، الأنابيب ، الباطنية ، البطين...".

وفي مجال الألفاظ المولدة نذكر أيضا:

"التخاريص (جمع تخريص ، توالي اللحم) ، ثقاثيل الرصاص ، حباشة الإهليلج ، الجلاوات ، حمى الدق ، حمى الربع ، حمى يوم ، زراقات الفولنج...".

وفي مجال الألفاظ الحضارية المعربة نذكر:

الكناشات (والمفرد كناشة) ، والأفراباذينات (ومفردها أقراباذين). يقول الشيزري:"ولا يركبها الشرابي إلا من الكناشات المشهورة ، والأقراباذينات

* نهاية الرتبة ، ص٧٠.

المعروفة"[1] وكذلك "القطارميز" ومفردها "قطرميز". يقول الشيزري:" وينبغي أن تكون بضائعهم مصونة في البراني والقطارميز"[2] والعامة اليوم في عصرنا هذا تقول "القطرميز" وتجمعه جمع مؤنث سالم "القطرميزات" وهو من الألفاظ الحضارية الدالة على الوعاء المصنوع من الزجاج لحفظ بعض الأطعمة.

ولكي نوضح استعمال هذه المصطلحات الحضارية والعلمية ، في ذلك الوقت ، في لغة التأليف للتعبير عن الحقائق العلمية والمهنية ، نتوقف عند هذين النصين: أخذ أحدهما من باب "في الحسبة على العطارين" والآخر من باب "في الحسبة على الأطباء والكحالين والمجبرين والجرائحيين".

فالنص الأول يتحدث عن "غش" الكافور وهو من أنواع العطارة ، يقول: "وأما الكافور ، فإن منهم من يعمله بنخالة رخام الخراطين المُدبَّر ، ومنهم من يعجن الكافور بماء الصمّغ الأبيض ، ويَنْجُرُه على الغَرَابيل. ومنهم من يعمله من حجارة النوشادر ، ويكسره صغاراً ثم يخلطه به ، ومنهم من يعمله من ذريرة غير مفتونة ، وجبسين غير مشوي وصمغ أبيض ، ومثل الجميع كافور. ومنهم من يعمله من خشب الخروع النَّخر،والأرز المدبَّر، ومنهم من يعمله من نوى البلح بدقّه حتى يصير مثل الزُّبْد ، ويجعل عليه مثله كافور ، ثم يعجنه بماء الكافور ، ويبسطه رقيقاً ، فيبقى مثل الكافور. ومعرفة غشوش الكافور التي ذكرناها وما لم نذكرها ، هو أن يُلقى منه شيء في الماء ، فإن رسب فهو مغشوش ، وإن طفا فهو خالص ؛ وأيضا يلقى منه شيء علي خرقة ، ثم يجعل على النار ، فإن طار و لم يلبث فهو خالص ، وإن احترق وصار رماداً فهو مغشوش."[3]

فالكافور ، مازال معروفاً عند العطارين في وقتنا هذا ، وكان يستعمل في الطب العربي قديماً ، ومازال مستعملاً في الطب أيضاً في الوقت الحاضر.

وإذا ألقينا نظرة على هذا النص ، نجده قد عبر تعبيراً دقيقاً واضحاً عن الفكرة التي أراد شرحها ، بلغة عربية سليمة، فاستعمل ألفاظاً ومصطلحات، بعضها معروف عند أصحاب المهنة ، ومعظمها يفهمه عامة الناس. وإذا استثنينا كلمة "كافور" التي دخلت العربية ، على

١- نهاية الرتبة ، ص٥٦.
٢- نهاية الرتبة ، ص٦٠.
٣- نهاية الرتبة،ص٥١ .

سبيل التعريب ، وكذلك بعض الكلمات مثل "جبسين" و"نوشادر" نجد الألفاظ الأخرى عربية الأصول والدلالة ، سواء أكانت باقية على فصاحتها أم أنها نقلت للتعبير عن معان جديدة. وفي جميع الأحوال نرى هذه الألفاظ تعبر عن تلك المعاني العلمية أو الحرفية تعبيراً دقيقا لاتخرج عن إطار العربية السليمة النامية والحية في الاستعمال ، لاستيعاب كل ما يجد من معارف إنسانية. فقد استعمل هذا النص ألفاظاً منها:

"الكافور"و"النوشادر"و"جبسين"و"الخروع" والأرز" وجميع هذه الألفاظ التي دخلت العربية منذ قرون طويلة ، مازالت حية ، تعيش بيننا في الوقت الحاضر ، وفي جميع الأوساط.. وإلى جانب الألفاظ الحضارية ، في مجال العطارة والطعام ، نجد النص يستعمل ألفاظاً فصيحة الأصول ، باقية على ما وضعت له ، وبعضها قد ولد منها على مناهج العربية ، صيغ أو تراكيب للدلالة على معان جديدة...مثل: "الخراطين"و"المدبر"و"ماء الصمغ الأبيض"و"ينجره"و"حجارة النوشادر "و "ذريرة غير مفتونة" و "جبسين غير مشوي" و "خشب الخروع النخو" و"الأرز المدبر"و"يعجنه بماء الكافور" و"غشوش الكافور"...الخ

وهذا نص آخر من باب "في الحسبة على الأطباء والكحالين والمجبرين والجرائحيين" يقول الشيزري:

"وينبغي للطبيب أن يكون عنده جميع آلات الطب على الكمال ، وهي كلبات الأضراس ، ومكاوي الطحال ، وكلبات العلق ، وزرّاقات القولنج ، وزراقات الذكر ، وملزم البواسير ، ومخرط المناخير ، ومنجل النواصير ، وقالب التشمير ، ورصاص التثقيل ، ومفتاح الرحم ، وبوار النساء ، ومكمدة الحشا ، وقدح الشوصة ، وغير ذلك مما يحتاج إليه في صناعة الطب ، غير آلة الكحالين والجرائحيين ، مما يأتي ذكره في موضعه وللمحتسب أن يمتحن الأطباء بما ذكره حنين بن إسحاق في كتابه المعروف "محنة الطبيب". وأما كتاب "محنة الطبيب" لجالينوس ، فلا يكاد أحد من الأطباء يقوم بما شرطه جالينوس فيه.

فهذا نص ، يشتمل على أسماء آلات الطب ، وهي خاصة بأصحاب

صناعة الطب على حد تعبيره ، وهي معروفة شائعة في أوساطهم ، ويمدنا الزهراوي في مؤلفاته ، ولا سيما في كتابه المشهور في الجراحة الموسوم "التصريف لمن عجز عن التأليف" بذخيرة لغوية علمية ثرة في مجال أسماء الآلات والأمراض والمصطلحات الطبية... وكذلك الأمر في مصنفات الرازي وابن سينا ، وأبي الوليد ابن رشد ، وابن زهر وابن وافد، وغيرهم من أعلام الطب في تراثنا العلمي العربي(*).

ونحن إذ عدنا إلى هذا النص ، الذي أوردناه ، نجد أن كل اسم من أسماء الآلات يتكون من لفظة عربية سليمة أضيفت إلى اسم العضو ، للدلالة على معنى علمي محدد فذكر"كلبات الأضراس"، (ومفردها:كلبة) ، وكذلك "كلبات العلق"، وذكر "زرّاقات القولنج" ، (ومفردها:زراقة) ، وذكر "ملزم البواسير" على وزن "مفعل" و "مخرط المناخير" على وزن "مفعل" و "منجل النواصير" و "مفتاح الرحم" على وزن "مفعال". وذكر "مُكمدة الحشا" على وزن اسم الفاعل من الرباعي... ونجد بين أسماء الآلات هذه يتكون من إضافة اسم إلى المصدر مثال ذلك:"رصاص التثقيل"، أو إضافة اسم أداة معروفة إلى العضو كي تكتسب معنى اصطلاحيًا جديداً. مثال ذلك:"قدح الشوصة"...الخ... وجميع هذه المصطلحات معلومة عند أصحاب الصنعة ، وقد صيغت بعربية أصيلة، وعبر عنها المؤلف بأسلوب لغوي سهل وواضح ودقيق.

وقد أشرنا في بداية هذا البحث إلى أن المصطلحات الحضارية والعلمية ، كانت شائعة عند أصحاب الحرف وصناعات العلوم المختلفة ، وقد حاولنا من خلال هذه الأمثلة أن نبين مدى شيوع هذه المصطلحات الحضارية والعلمية وخاصة في مصر وبلاد الشام.

ونجد لزاماً علينا أن نتساءل أخيراً عن مصادر هذه المصطلحات ، وعن منهج وضعها وطرق إشاعتها وتوحيدها في ذلك الوقت ، عند أصحاب الحرف والصناعات الطبية والعلمية ، وعلى ألسنة الخاصة والعامة ، وذلك في إطار معطيات الزمان والمكان، وعلى ما كانت عليه وسائل الاتصالات.. من فقر وبدائية إذا ما قورنت بما بلغته وسائل الاتصالات الجماهيرية في الوقت الحاضر.. وربما نحتاج

(*) نهاية الرتبة ، ص ٩٩-١٠٠ .

للإجابة العلمية الدقيقة عن هذه التساؤلات إلى إقامة بحوث علمية لغوية متخصصة.

ومهما يكن من أمر فقد اكتفينا في هذا البحث بأن حاولنا تحديد معالم منهجية وضع المصطلح الحضاري والعلمي، فوجدناها تقوم بصورة رئيسة على استعمال الفصيح والمولد توليداً صحيحاً والمعرب وفق أصول العربية وقواعدها. ورأينا كيف استطاع المؤلف أن يُعبر عن ذلك كله بلغة عربية سليمة تتميز بالدقة والسهولة والوضوح ، وكيف أن أصحاب الصنعة بما لديهم من إحساس لغوي ومعرفة دقيقة ، كان لهم دور كبير في وضع هذه المصطلحات.

ونحن إذا اطمأنت النفس إلى المقولة ، بأن كتاب "نهاية الرتبة في طلب الحسبة" ، قد ألفه صاحبه في القرن السادس الهجري، وأنه أهداه إلى السلطان صلاح الدين الأيوبي المتوفى (٥٨٩هـ) أو أنه ألفه بناءً على طلب منه ، فإننا نستطيع القول بأن المصادر التي استقى منها هذه المصطلحات العلمية والألفاظ الحضارية ، كانت بمعظمها عن ذوي الحرف وأصحاب المهن والصناعات الطبية والعلمية.. وإن أكثر هذه المصطلحات الطبية ، والعلمية ، بمعناها الشامل في ذلك الوقت ، كانت مدونة في مصنفات مشهورة ، مثل مصنفات ابن سينا والزهراوي والفارابي والكندي... وغيرهم ، فإن مصطلحات أصحاب الحرف والمهن ، لابد أن استقاها صاحب "نهاية الرتبة في طلب الحسبة" بصورة أساسية من مصادرها الميدانية... عن هؤلاء الحرفيين وأصحاب الصنعة التي يمارسونها في حياتهم اليومية ومعاشهم... ومن ناحية أخرى ، فإننا نعتقد بأن منصب الحسبة ، الذي يشكل دعامة أساسية في إدارة الحكم كان السبب الرئيسي في إشاعة استعمال هذه المصطلحات ونشرها وتوحيدها. ولاشك أن صاحب الحسبة كانت له دواوين وسجلات. وتفيد الروايات بوجود أعوان له في مختلف الأسواق ، يمدونه بمعلومات ضافية عن أحوال الحرفيين وأصحاب الصنعة... ومن البدهي أنهم كانوا يقدمون له تقارير مكتوبة في جميع الأحوال.. هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن وضع كتب "الحسبة" التي تخص الدولة بشكل أو بآخر لتسهيل مهمة

المحتسب ، تكون الى جـــانب مؤلفـــات أصحاب صناعة الطب وعلوم الأوائـــل ، عاملا أساسياً في إشاعة هذه المصطلحـــات وتوحيدها.

وأخيراً. فإن هذا البحث يطرح لأول مـــرة أمام الجامعات العربية واتحاذ مجامعنا اللغوية أهمية إنجاز "مشروع الذخـــيرة العربيـــة" و"المعجم التاريخي اللغوي" عسى أن ينـــهد لهذا العمل الجليل ، من يتكفل بـــه. والله يهدي لنوره من يشاء.

عبد الكريم خليفة

عضو المجمع من الأردن

مشـــــروع الذخـــيرة اللغـــوية العربيـــة
وأبعـــاده العلميـــة والتطبيقيـــة(*)

للأستاذ الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح

كان لى الشرف أن عرضت على مؤتمـــر التعريب الذى انعقـــد بعمـــان فى ١٩٨٦ فكرة الذخيرة اللغوية العربيـــة وفوائدهـــا الكبـــيرة بالنســـبة للبحـــوث اللغويـــة والعلميـــة عامـــة وبالنســـبة لوضـــــع المصطلحات وتوحيدها(**). وحـــاولت أن أقنـــع زملائـــى البـــاحثين بأهميـــة الرجوع إلى الاستعمال الحقيقـــى للغـــة العربية، واستثمار الأجـــهزة الحاســوبية الحاليـــة، وإشـــراك أكـــبر عـــددٍ مـــن المؤسسات العلميـــة لإنجـــاز المشـــروع لامتيـــازه بأبعـــاد تتجـــاوز المؤسســـة الواحدة بل البلد الواحـــد . ثم عرضـــت الجزائر على المجلس التنفيـــذى للمنظمـــة العربية للتربية والثقافـــة والعلـــوم هـــذا المشـــروع فى ديســـمبر ١٩٨٨ فوافـــق أعضاؤه على تبنيه في حـــدود إمكانيـــات المنظمـــة.

وبادرت المنظمـــة بعـــد ذلـــك بمراســـلة المؤسســـات العلميـــة العربيـــة والجهات الرسمية المعنيه بالتربية والتعليـــم العـــالى تطلـــب منـــها إدلاء الـــرأى فى جدواه وطريق تنفيـــذه فتوالـــت علـــى المنظمة إجابات كثيرة جدا ومفيدة مـــن قبل المؤسسات منـــها المجـــامع اللغويـــة كلها والجامعـــات ومراكـــز البحـــوث والجـــهات والمعنيـــة في وزارات التربيـــة وأجمعت هذه الإجابـــات علـــى أهميـــة المشروع الكبيرة وضـــرورة الشـــروع في إنجازه فى أقرب الآجـــال.

وعلى إثر ذلك نظمـــت جامعـــة الجزائر بالاتفاق مع المنظمـــة نـــدوة أولى لدراسة المشروع واتخاذ القرارات اللازمة مع خبراء المؤسسات العلمية العربية،وساهم فى هذه الندوة عدد من الخبراء والمسؤولين وخرجوا بتوصـــيات تخص تنظيـــم العمل

(*) ألقى هذا البحث فى الجلسة السادسة لمؤتمر المجمع بتاريخ غرة ذى القعدة سنة ١٤١٥هـ الموافق الأول من أبريل (نيسان) ١٩٩٥م.

(**) انظر مجلة المجمع الملكى الأردني للغة العربية لسنة ١٩٨٦ وكذا مجلة المجمع العلمى العراقى لسنة ١٩٨٨. وقد تفضـــل الدكتـــور إبراهيم مدكور بالتنويه بالمشروع بصفته رئيسا لاتحاد المجامع العربية فى رسالة بعث بها إلى صاحب البحث.

والمشاركة،وإنشاء اللجان لمتابعة المشروع.

وقد قرر المشاركون فى هذه الندوة الأولى أن تعقد ندوة ثانية يجتمع فيها جميع الممثلين للمؤسسات الراغبة فى المشاركة فى إنجاز المشروع، وتكرم مركز البحوث والدراسات العلمية بدمشق باقتراح استضافته للندوة فى دمشق وستعقد هذه الندوة إن شاء الله فى سنة ١٩٩٥.

فالمقصود من البحث الذى لنا الشرف أن نعرضه على مجمع اللغة العربية الموقر هو التحديد الدقيق لمفهوم الذخيرة اللغوية والأهداف العلمية التى رسمت لمشروع الذخيرة، والتحديد أيضاً لجميع وظائفها، والفوائد العلمية التى سيحصل عليها المستثمرون لها، وغير ذلك مما يخص كيفية إنجازها وتنظيم العمل العلمى والتقنى المشترك.

– أهداف المشروع

(١) الذخيرة كبنك معلومات آلى

إن الهدف الرئيسى لمشروع الذخيرة هو أن يمكن الباحث العربى أيا كان وأينما كان من العثور على معلومات شتى من واقع استعمال اللغة العربية بكيفية آلية وفى وقت وجيز.

وهذا سيتحقق بإنجاز بنك آلى للغة العربية المستعملة بالفعل يتضمن أمهات الكتب التراثية الأدبية والعلمية والتقنية وغيرها، وعلى الإنتاج الفكرى العربى المعاصر فى أهم صوره بالإضافة إلى العدد الكبير من الخطابات والمحاورات العفوية بالفصحى في شتى الميادين.

وعلى هذا فهو بنك نصوص لا بنك مفردات ،ثم إن هذه النصوص تمثل الاستعمال الحقيقى للغة العربية فليست نصوصا يصطنعها المؤلفون بل نصوص من اللغة الحية الفصحى المحررة ، أو المنطوقة. وأهم شيء فى ذلك هو أن يكون هذا الاستعمال الذى سيخزن بشكل النص كما ورد فى ذاكرة الحواسيب هو استعمال العربية طوال خمسة عشر قرنا فى أروع صوره، ثم هو يغطى الوطن العربى أجمعه فى خير ما يمثله من هذا الإنتاج الفكرى.

(٢) الذخيرة كمصدر لمختلف المعاجم والدراسات

سيستخرج من هذا البنك (المسمى عند المهندسين بقاعدة المعطيات النصية) العديد من المعاجم نذكر منها:

١- المعجم الآلى الجامع لألفاظ العربية المستعملة . وسيحتوى على جميع المفردات العربية التى وردت فى النصوص المخزنة قديمة أو حديثة. وتحدد فيه معانى كل مفردة باستخراج هذه المعانى من السياقات التى ظهرت فيها ثم يضاف إلى ذلك تحديدات العلماء. وسيأتى وصف هذا المعجم فيما يلى .

٢- المعجم الآلى للمصطلحات العلمية والتقنية المستعملة بالفعل
سيحتوى على المصطلحات التى دخلت فى الاستعمال ولو فى بلد واحد أو جهة معينة لأنها وردت فى نص واحد على الأقل ويذكر مع كل مصطلح ما يقابله فى اللغتين الإنجليزية والفرنسية. أما ما لم يدخل فى الاستعمال وورد فقط فى معجم حديث فيشار إليه فقط مع ذكر مصدره. وسيجزأ هذا المعجم العام إلى معاجم متخصصة بحسب فنون المعرفة ومجالات المفاهيم.

وكل واحد من هذين المعجمين آلى مثل الذخيرة فى شكلها الأول ومعنى ذلك أنه يقوم على ركيزة متصلة بالحواسيب فى أحدث صورها مثل الأقراص البصرية أو المغناطيسية التى يمكن أن تحتوى على ملايين النصوص.

كما يمكن أن ينشر كل واحد منهما وكذا المعاجم المتخصصة على الشكل التقليدى. والفضل الذى تمتاز به الذخيرة كبنك آلى ومعاجمها هو أنها مفتوحة وقابلة للإضافة لأى معلومة جديدة ويدخل فيها أى كتاب جديد هام أو أى كتاب يعثر عليه فى التراث وهى قابلة لأى تصليح فى أى وقت كان.

٣- المعجم التاريخى للغة العربية

٤- معجم الألفاظ الحضارية (القديمة والحديثة)

٥- معجم الأعلام الجغرافية

٦- معجم الألفاظ الدخيلة والمولدة

٧- معجم الألفاظ المتجانسة والمترادفة والمشتركة والأضداد

وغير ذلك من المعاجم المفيدة.

فكما رأينا كل ما يذكر من الألفاظ فى هذه المعاجم فهو مأخوذ لا من القواميس الموجودة بل من الاستعمال الحقيقى قديما كان أم حديثا. أما ما لم يرد فى نص فيشار إلى ذلك حتى يعرف (وهذا

يقتضى أن تدخل فى الذخيرة جميع القواميس وقوائم المصطلحات التى وضعتها المجامع أو المؤسسات العلمية).

أما الدراسات العلمية فسنتحدث عنها فى الفقرة التالية إن شاء الله.

II–مزايا الذخيرة وفوائدها

١– المزايا الرئيسية للذخيرة

وما سيستخرج منها هى كما رأينا:

أنها هى الاستعمال الحقيقى للغة العربية لاما تأتى به بعض القواميس من أمثلة مصطنعة.

استفاضتها وشموليتها بتغطية هذا الاستعمال لجميع البلدان العربية، وامتدادها من عهد الشعر الجاهلى إلى عصرنا الحاضر.

تمثيلها لهذا الاستعمال بوجود كل النصوص ذات الأهمية فيها، المحررة منها والمنطوقة الفصيحة فى الأدب والحضارة والدين والعلوم والثقافة العامة والفنون وكذا الحياة اليومية.

اعتمادها على أجهزة إلكترونية فى أحدث صورها وهى الحواسيب وما إليها من الوسائل السمعية البصرية وهى الوسيلة الوحيدة التى يمكن أن تجمع وتسع هذه الكمية الهائلة من النصوص (الملايين من الجمل والألفاظ) والوسيلة الوحيدة التى تستطيع أن تجيب عن مختلف الأسئلة بسرعة النور أى فى بضع ثوان أو دقائق. والوسيلة الوحيدة التى تستطيع أن تقوم بعمليات تعالج بها النصوص ،وذلك مثل الترتيب الآلى الأبجدى للكلمات والصيغ والجذور وغيرها، والترتيب التنازلى الترددى لهذه العناصر، والترتيب الآلى لمجالات المفاهيم. هذا زيادة عن الاستخراج الآلى لجذور الكلم أو أوزانها الواردة فى نص من النصوص. وغيرها من العمليات العلاجية المفيدة.

إمكانية طرح الآلاف من الأسئلة على الذخيرة عن بعد، وفى نفس الوقت عبر العالم (وسرعة الإجابة كما قلنا) بعرضها على الشاشة وإمكانية طبعها بالطابعات بالليزر وغيرها فى وقت وجيز، والحصول عليها فى أى مكان وذلك بفضل شبكة الاتصالات التى ستخصص للذخيرة إن شاء الله.

٢– أما الدراسات التى يمكن القيام بها انطلاقا من الذخيرة

وبالنظر فى محتواها فيمكن أن تخص اللغة العربية فى

ذاتها، لأن الذخيرة هي بمنزلة ما دُون من كلام العرب في عهد اللغويين العرب الأولين، فقد جمعوا العدد الهائل من النصوص النثرية والشعرية وأمثال العرب وكلامهم العفوي بالإضافة إلى النص القرآني، وانطلقوا من هذه المدونة اللغوية العظيمة لاستنباط قوانين العربية وأوصافها من الاستعمال الحقيقي لها، كما استخرجوا منه المعجم العربي. وعلى هذا فإن أنواع الدراسات اللغوية التي يمكن أن تقام على الذخيرة كثيرة جدا، مثل دراسة تطور معاني الكلمات عبر العصور، ودراسة ترددها بالنسبة لعصر واحد أو مؤلف واحد، ودراسة تردد المواد الأصلية وأوزانها في كتاب واحد أو عدة كتب، ودراسة صيغ الجمل بحسب الأغراض والموضوعات ودراسة أساليب الكتاب في كل عصر، ودراسة اتساع رقعة الاستعمال للمصطلحات في عصرنا هذا، ودراسة الأصوات العربية (من خلال الذخيرة الآلية الصائتة) ودراسة مجالات المفاهيم الحضارية أو العلمية خاصة، ودراسة المترادف والمشترك من الألفاظ في الاستعمال في وقت معين، ودراسة الغريب والشواذ إفراداً وتركيبًا كيفًا وكمًّا ، وبالنسبة إلى كل مؤلف أو نص وكل عصر، ودراسة صيغ الجمل وظواهر الفصل والوصل في الخطاب ودراسات في المجاز والاستعارة والكناية وغيرها من الصور البيانية، ودراسة تطور كل هذا وغير ذلك مما يخص اللغة كلغة قديما أو حديثا وعبر العصور والبلدان(*).

كل هذا قد قام به الكثير من العلماء قديما وحديثا، ولكن مزية الاستفاضة الزمانية المكانية لمحتوى الذخيرة وآليتها يسهل على الجميع الخوض في أعماق الواقع التعبيري والاتصالي ومن ثم الفكري المعيشي للأمة العربية في القديم والحديث.

وفيما يخص الميادين الأخرى غير اللغوية كثير جدًا أيضًا، نذكر منها الدراسات التاريخية وخاصة تاريخ

(*) ويمكن أن يخصص جزء من الذخيرة للهجات العربية إذا وافق على ذلك المشاركون ، فيوكل إلى بعض المعاهد العربية المتخصصة القيام بمسح كامل لاستعمال العربية في مستواها اللهجي بالمنهجية المتعارف عليها في هذا الميدان، ويمكن أن تقام على هذه المدونة اللهجية دراسات مفيدة جدا بالنسبة للفصحى والعلم عامة، منها : ١- تحديد القدر المشترك بين الفصحى ولهجاتها القديمة والحديثة في اكتشاف أسماء الحيوانات والنباتات في الأقاليم المختلفة ٢- اكتشاف المصطلحات العفوية الحضارية والحرفية والصناعية والفلاحية وغيرها الجارية في اللهجات ٣- تحديد أوصاف النطق اللهجي ودراسة ظواهر الخلفة في اللهجات ٤- دراسة مقارنة بين الفصحى واللهجات (في جميع مستوياتها) .

الحضارة العربية وتاريخ الفكر العربي الاجتماعي والعلمي والديني وغيرها. وكذلك الدراسات الاجتماعية والنفسية الاجتماعية، بحصر مجالات التصورات الخاصة بكل فئة (من خلال استعمال الألفاظ والأساليب وغيرها) في كل قطر أو إقليم وعبر العصور ودراسة تفاعلها ومدى تأثيرها وما ترتب على ذلك، وكذلك بالبناء جزئيا على العناصر اللغوية ذات الدلالة ومعرفة مدى اتساع رقعتها ومعرفة ترددها في الخطابات الرسمية وغير ذلك. وكذا الدراسات الاقتصادية والعمرانية والحضارية من خلال استعمال الناس للغة .

III. وظائف الذخيرة الأساسية

رأينا المزايا التي تمتاز بها الذخيرة فماذا ياترى يمكن أن تقوم بها من وظيفة بناء على هذه المزايا، أو بعبارة أخرى كيف يمكن أن تستثمر الذخيرة وتوظف عمليا؟ إن الإجابة عن هذا السؤال ستفسر لماذا التزمنا بأهم الأوصاف التي سبق أن ذكرت وهو صفة الحيوية النابعة عن الاستعمال الحقيقي، ثم الصفة الآلية في مباشرة الذخيرة والتفاعل معها.

فهذه بعض الوظائف التي ستقوم بها الذخيرة أو أحد معاجمها:

١- تحصيل معلومات تخص الكلمة العربية عادية كانت أم مصطلحا.

الأسئلة التي يمكن أن يطرحها الباحث:

١- هل توجد كلمة (س) الآن في الاستعمال (المكتوب أو المنطوق (أو كليهما) ؟ وأين ظهرت (*) وبأي معنى في كل واحد من مصادر وجودها وماهي عامة السياقات التي وردت فيها وبالنسبة فقط لكل كتاب أو نص أو بالنسبة لكل عصر أو كل بلد.

٢- هل وردت (س) قديما مع نفس الأسئلة السابقة؟

٣- ما هو المجال المفهومي الذي تنتمي إليه (س)وهل لها مرادفات وما هي؟ ثم ما هو المقابل أو المقابلات لها بالإنجليزية أو الفرنسية إن وجدت.

٤- متى وردت لأول مرة بالمعنى الفلاني أو معنى آخر؟ ومتى اختفت لآخر مرة إن

* بذلك نعرف أولا درجة شيوع الكلمة جغرافيا في وقت معين، وثانيا ترددها بالنسبة إلى عصر واحد أو مؤلف واحد. ويمكن أن يحصر السؤال: هل وردت (س) في العصر العباسي وأين؟ أو عند الجاحظ وأين؟ وما هي السياقات في كل حالة وغيرها من الأسئلة ؟

خرجت عن الاستعمال بهذا أو بهذه المعانى؟ الخ.

٢- تحصيل معلومات تخص الجذور وصيغ الكلم:

١- هل وردت المواد الأصلية أ ب ج د... فى الاستعمال عند مؤلف أو متكلم خاصة وما هى الكلم التى صيغت عليها واستعملها هذا المؤلف؟

٢- نفس السؤال بالنسبة إلى الصيغ أَ بَ جَ دَ ...

٣- اذكر جميع الكلم التى صيغت على صيغة ا أو ب أو ج أو د مع الإشارة إلى مدلول كل واحد من هذه الكلم (صيغة فُعْلة بضم الفاء وسكون العين أو فَعالية بفتح الفاء وغير ذلك)(*)

٣- تحصيل معلومات تخص أجناس الكلم

١- ما هى أسماء الإعلام أو المصادر أو الأفعال الثلاثية أو الرباعية المجردة والمزيدة وغيرها) والصفات الخاصة بمجال مفهومى (الألوان والعيوب وأى حلية) وغير ذلك من أجناس الكلم؟ الواردة فى نص معين أو عدة نصوص وعبر الزمان.

٢- ما هو تردد كل واحد منها بالنسبة إلى نص واحد أو عدة نصوص؟ وما هى سياقاتها؟

٤- تحصيل معلومات تخص حروف المعانى

نفس الأسئلة (وإحصاؤها بالنسبة إلى عصر واحد أو نص واحد أو عدة نصوص)

٥- تحصيل معلومات تخص المعرَّب عامة الذى ورد فى الاستعمال.

أسئلة عن قائمة المعربات (وميادينها) التى وردت فى عصر معين أو مؤلف معين أو عبر العصور.

٦- تحصيل معلومات تخص صيغ الجمل والأساليب الحية والجامدة منها (والصور البيانية العربية)نفس الأسئلة.

٧- تحصيل معلومات تخص بحور العروض والضرورات الشعرية والزحافات والقوافى وغيرها، وغير ذلك من الأسئلة.

٨- تحصيل معلومات تخص المفهوم الحضارى أو العلمى (البحث عن ألفاظ عربية لتغطية مفاهيم علمية):

(*) وبذلك يمكن أن تعرف المعانى الأساسية الشائعة لكل صيغة بدون استثناء .

١- هل توجد كلمة عربية للدلالة على مفهوم معين (خاص بالطب أو البيطرة أو الهندسة المعمارية أو غير ذلك) المعبر عنه بالإنجليزية أو الفرنسية بكذا، وذلك في الإنتاج العلمى العربى المعاصر.

٢- هل يوجد هذا المفهوم وما يقاربه فى نص قديم معين (كتاب من كتب ابن سينا أو ابن الهيثم أو..)؟ وذلك من خلال الكلمة العربية التى جاءت فى الجواب السابق (ويمكن على هذا أن تبين الفوارق الدلالية بين مفهوم الكلمة العربية عند القدماء والمفهوم الحديث بالسياقات).

٣- ما هى الألفاظ العربية التى كانت تدل عند القدامى على مفاهيم ربما لا يكون لها مقابل باللغات الأجنبية (وهو شىء كثير مثل الحركة والسكون وحروف المد فى صوتيات العربية)

٤- ما هى الألفاظ الدخيلة التى لها ما يقابلها فى العربية وماذا كانت درجة شيوع هذه وتلك.

وفى كل واحد من هذه الأسئلة يمكن أن تكون الإجابة مرفوقة بذكر جميع السياقات التى ورد فيها العنصر اللغوى أو مجموعة خاصة منها فى عصر أو مؤلف، وذكر مصدر كل واحد منها أو كل مجموعة منها (اسم الكتاب والصفحة والجزء وتاريخ الطبع).

ويحسن ههنا أن نلفت نظر القارئ الكريم إلى الأهمية الكبرى التى تكتسبها السياقات **وحصرها باستفاضة فإنها تمكن الباحث اللغوى هى وحدها** من تحديد مقصود مستعملها فى فقرة معينة من نصه أو فى أكثر من مكان وقد يكون مقصوده منها شيئا آخر فى مكان آخر.

وهذا يتعذر أن يجده الباحث فى المعاجم العادية لكثرة المقاصد بل لعدم تناهيها، والمقصود غير المعنى المعجمى العادى، ولا سبيل إلى تحديد المقصود أو المقاصد إلا بالرجوع إلى جميع السياقات التى ورد فيها العنصر اللغوى والمقارنة بينها بالاعتماد على منهجية التحليل الدلالى الذى يعرفه بعض علماء اللسان المعاصرين وعلماؤنا القدامى وخاصة أهل التفسير والبلاغيين الأولين. ولا يمكن أن يحصل الباحث على جميع سياقات المفردة فى نص كبير أو فى آلاف النصوص إلا باللجوء إلى ذخيرة آلية

ليس غير (وإلا قضى الباحث فى جميع ذلك عمره كله).

ومن فوائد الذخيرة زيادة على شموليتها هو موضوعيتها لأنها مجموعة أحداث كلامية مدونة كما وردت وهى مثل شواهد اللغة والنحو **لا يجوز ردها إذا كانت كثيرة فى الاستعمال** وعلى هذا الأساس يمكن أن تكون **كثرة ورود الكلمة واتساع رقعتها** (بمعنى من المعانى) أو عنصر لغوى **مقياسا موضوعيا لاختيار المصطلحات وإقرارها**. فإن كل المقاييس الأخرى مثل خفة الكلمة فى النطق وتركيب حروفها وقابليتها للاشتقاق،وعدم تضمنها لمعنى منفور منه أو محظور اجتماعيا وعدم غرابتها، وغير ذلك من المقاييس الثانوية، فإن كل ذلك تستلزمه كثرة الاستعمال وهو إقبال الناطقين الكثيرين على استعمال الكلمة لاجتماع كل هذه الصفات الإيجابية فيها. وبذلك تبتعد المجامع وجميع المؤسسات العلمية من الذاتية فى اختيار المصطلح الأنسب، بل ويحصل التوحيد المنشود للمصطلحات العربية.فلا ينغلق كل قطر بل كل مؤسسة على نفسها بسبب عدم اكتراث أهل البلد أو أصحاب المؤسسة بما يروج وما يشذ فى استعمال غيرهم للعربية.

وفائدة أخرى للذخيرة أنها تمكن الباحث من تتبع تطور معانى الألفاظ عبر العصور، ولا يمكن أن يتتبع أى باحث هذا التطور من خلال مطالعاته لجميع النصوص التى ظهرت منذ العصر الجاهلى وأنى له ذلك؟ وقد تستغرق المدة التى يقضيها لتصفح الآلاف من النصوص عشرات السنوات، فالحاسوب هو الوحيد الذى يمكن الباحث من اكتشاف تحول المعانى بأن يضع تحت تصرفه كل النصوص التى ورد فيها بالفعل العنصر اللغوى الذى يهمه ولا يعطيه إلا تلك النصوص فهذا الاختيار للنصوص المعنية لا سبيل إلى تحقيقه إلا باللجوء إلى الحاسوب وحده.

ومن ثم فإنه لا يتصور أبدا أن يوضع معجم تاريخى للغة العربية إلا بالاعتماد على مدونة نصية تغطى كل العصور وكل البلدان العربية . فكيف يمكن أن نضمن شمولية ما يقرره الباحث من التحولات الدلالية إن لم يعتمد على عدد هائل من القرائن والسياقات تنتمى إلى كل عصر. ولهذا كانت المحاولات لوضع مثل

هذا المعجم قاصرة أو جزئية تقتصر على عصر واحد، أو على عدد محدود جدا من المصادر.

IV– أوصاف المعجم الجامع لألفاظ اللغة العربية المستعملة

يستخرج هذا المعجم كما قلنا من الذخيرة الآلية فهي المصدر من المعطيات التي ينطلق منها ويعتمد عليها الواضعون لهذا المعجم الكبير، فإنه لا يختلف عن الذخيرة إلا بالترتيب الأبجدي وغيره لمحتواها المعجمي وبالدراسات والتحليلات الخاصة بكل مدخل من مداخلها فكل مفردة ثبتت في الذخيرة (في نصوص معينة) فلابد أن يحرر لها بحث لغوي مستفيض.

إن لهذا المعجم الآلي عدة أشكال فهو ينقسم قبل كل شيء إلى مجموعات مرتبة لألفاظ الذخيرة، ثم إلى معجم موسوعي لغوي يخصص لكل لفظة دراسة علمية مستفيضة.

أما المجموعات المرتبة فهي عبارة عن جذاذات آلية كل واحدة منها تختص بترتيب معين وهي بحسب الترتيب كالتالي:

١– ترتيب أبجدي عام (الانطلاق من اللفظ)

٢– ترتيب أبجدي بحسب مجالات المفاهيم (الانطلاق من المعاني).

٣– ترتيب بحسب تردد الكلمة (عدد المرات التي ظهرت في النصوص) وتجزأ إلى ترتيبات بحسب العصور وفي مرحلة أخرى بحسب المؤلفين وأصحاب النصوص.

٤– ترتيب بحسب شيوع الكلمة أي ذيوعها في البلدان العربية في الوقت الراهن وفي كل حقبة (٥٠ سنة) مما مضى.

٥– ترتيب بحسب العلوم والفنون.

وعنصر آخر للمعجم هو الخرائط الجغرافية التي تبين فيها ذيوع الكلم العربية في مختلف الأقاليم (وكذلك في مرحلة أخرى ذيوع التنوعات الصوتية في الأداء وغير ذلك).

أما المعجم المحرر فسيكون على غرار ما وضع من الذخائر اللغوية للفرنسية أو الإنجليزية فهو موسوعة يحرر فيها العلماء بحوثا حول كل لفظة فكل بلب أو مدخل من هذا المعجم يحتوي على ما يلي:

١– تحليل دلالي للفظة انطلاقا من السياقات وحدها ثم تحديدات علماء اللغة القدامى إن وجدت وذلك بـ:

- التوضيح الدقيق:

. للمعنى الوضعى للمادة الأصلية (الجذر).

. للمعنى الوضعى والمعانى الفرعية لكل كلمة اشتقت من تلك المادة (بالتمييز بين المعانى الفنية وغير الفنية).

- ذكر المقابل الإنجليزى والفرنسى لكل كلمة إن وجد أو مايقرب منه مع بيان الفوارق التصورية.

٢- تعليق نحوى صرفى وجيز (وصوتى وهجائى إن اقتضى الحال)

بالاعتماد على ما ذكره علماء اللغة والنحو قديما (مع ذكر المراجع)

٣- تعليق تاريخى للمادة وفروعها

(انطلاقا من تحليل النصوص أو المقارنة بينها):

- بيان أصل الكلمة إن كانت من الدخيل وتفسير تكيفها.

- ذكر تاريخ أول ظهور الكلمة فى النصوص التى لدينا (الأصيلة والدخيلة).

- ذكر تاريخ أول تحول دلالى للكلمة (والسياقات التى ظهرت فيها المعانى المستحدثة).

- ذكر تاريخ آخر ظهور لها إن اختفت فى الاستعمال.

- وصف إجمالى تفسيرى للتطور اللفظى والدلالى للكلمة.

- بيان نظائر الكلمة فى اللغات السامية (مع ذكر المواد الأصلية)

٤- ذكر درجة تردد الكلمة بحسب العصور والبلدان وبالنسبة للآثار العلمية أو الأدبية إن اقتضى الحال.

٥- بيان شيوع الكلمة الجغرافى (بحسب العصور أيضا)

٦- ذكر المتجانسات والمترادفات والأضداد إن وجدت للكلمة.

٧- ذكر الدراسات التى خصصها العلماء لها قديما وحديثا إن وجدت.

٧- كيفية إنجاز الذخيرة : اقتراح منهج معين

١- الكيفية المثلى والأقل تكلفة

- مبدأ المشاركة الحرة

نظرا للضخامة المهولة التى تتصف بها الذخيرة، وبالتالى ضخامة الجهد المطلوب والتكاليف الباهظة التى يتطلبها إنجاز مثل هذا العمل الجبار، ومن ثم أيضا عدم وجود أى منظمة فى العالم تستطيع أن تتكفل

بإنجاز هذا المشروع، فإن المشاركين فى الندوة الأولى التى عقدت في الجزائر من أجل إرساء المبادئ الأساسية لإنجاز مشروع الذخيرة (فى جوان * ١٩٩١) قد أجمعوا على ما بدا لهم بأنه الحل الأنسب **وهو إشراك أكبر عدد من المؤسسات العلمية العربية في إنجاز المشروع على أساس التمويل الذاتي**. فكل مؤسسة علمية فى الوطن العربى مثل المجامع اللغوية والجامعات بكلياتها ومعاهدها ودوائرها المتخصصة، ومراكز البحوث والشركات ذوات النشاط العلمى أو التقنى والتطبيقى ترغب فى المشاركة فى إنجاز جزء من العمل تختص به دون غيرها، فعليها أن تخصص فى ميزانيتها بندًا لإنجاز الجزء المخصص لها فى كل سنة حتى ينتهى العمل .

– تكوين الفرق وإعداد التجهيز اللازم

كما اقترحت الندوة الأولى العدد الأدنى من الوسائل البشرية والمادية التى ينبغى لكل مؤسسة متطوعة توفيرها من اعتماداتها المالية وهى كالتالى:

١– إنشاء فريق من الممارسين والاختصاصيين يفرغ بعضهم أو كلهم للمشروع ويمكن أن يتكون من خمسة إلى عشرة ممارسين يكلفون بإدخال المعطيات فى ذاكرة الحاسوب (أى تفريغ الكتب والدراسات والخطابات وغيرها فى الأقراص الذاكرية). ويشرف عليهم مهندس فى الحاسوبيات من الناحية التقنية ودكتور فى اللغة العربية.

٢– اقتناء مجموعة أجهزة تتكون من خمسة إلى عشرة حواسيب صغيرة (ميكرو) وعدد كاف من الركائز الذاكرية المنقولة (الأقراص) وإن أمكن اقتناء آلة ماسحة للقراءة الآلية للنصوص (سكانير) وهذه الآلة تجعل الفريق يستغنى عن الملامس التى يدخل بواسطتها المعطيات مثل الآلة الكاتبة، وبالماسحة ستوفر الكثير من الجهود ومن المال لدخول المعطيات فى الذاكرة بكيفية آلية.

وكلما كثرت الوسائل–في حدود هذه الأعداد الدنيا–كان المردود طبعا أكبر والعمل التخزينى أسرع وأفيد وأصح.

وكل هذا قليل فى حق لغة القرآن .

٣– توزيع الحصص

لكل مؤسسة الحق فى أن تختار المعطيات التى تريد تخزينها وهى بذلك أولى ولها أن تختار بعض أمالى أساتذتها

* جوان : هو شهر يونية .

ودراسات باحثيها والكتب والمنشورات التي يرتبط محتواها بتخصصها أو اهتماماتها عامة، وذلك لتتمكن من استثمارها وعلاجها كمعطيات علمية للاستفادة منها بمجرد ما يتم تخزينها لها، وهذا سيكون حافزا لها في العمل التخزيني .

ونقترح بهذا الصدد المبدأ التالي:

تتكفل كل مؤسسة تشارك في إنجاز المشروع بتخزين عدد من الكتب التراثية تقترحها اللجنة المؤقتة للمشروع من بين المؤلفات التي تعالج موضوعات لها علاقة باختصاص المؤسسة . وذلك لمدة خمس سنوات، وعلى هذا الأساس تقترح اللجنة المؤقتة للمشروع مخططا عاما يشتمل على قائمة عامة للكتب التراثية والمعاجم اللغوية والاصطلاحية وغيرها من الوثائق مما ينبغي أن يخزن في ذاكرة الحواسيب وقوائم التخزين .

أما فيما يخص الخطابات المنطوقة مثل المحاضرات العلمية في الجامعات وغيرها والمحاضرات العمومية المهمة في شتى الموضوعات، كالأدب ومختلف الفنون (المسرح والسينما وغيرها) والرياضة والخطابات السياسية والاجتماعية المهمة وغيرها مما هو منطوق فنرجو من المؤسسات المتخصصة الراغبة في تدوين المحاضرات الشفاهية، وكذا المؤسسات التي تهتم بتسجيل الخطابات الشفاهية أن تخبر اللجنة المؤقتة باستعدادها للمشاركة في تدوين المعطيات المنطوقة بعد تسجيلها.

٤- تنظيم العمل وتخطيطه وتنسيقه

تنشأ لجنة محلية دائمة في كل دولة من الدول العربية التي تتواجد فيها مؤسسات علمية مشاركة،وتتكون من ممثل واحد لكل مؤسسة، وينتخب هؤلاء الممثلون رئيسا للجنة لمدة خمس سنوات (بحسب مدة التخطيط المشروع)

وتكون مهمة اللجنة المتابعة العلمية والفنية للعمل والتنسيق بين المؤسسات المشاركة، ودورها الرئيسي ينحصر في السهر على استمرار العمل في أحسن الظروف، وبالنوعية المطلوبة، وذلك بتبادل الآراء والخبرات واقتراح الحلول للمشاكل الطارئة وخاصة التقنية منها، وكذا تفادى التكرار لنفس العمل بين مؤسسة وأخرى في داخل البلد الواحد. وتجتمع كل لجنة في كل بلد مرة واحدة في السنة على الأقل، وتقدم على أثرها تقرير للجنة العامة.

وتنشأ لجنة عامة دائمة على مستوى الوطن العربي تتكون من رؤساء اللجان المحلية، وينتخب هؤلاء رئيسًا لهم لمدة خمس سنوات.

هذا ومن المعروف أن تخزين النصوص في ذاكرة الحواسيب هو عمل قد بادر إلى ممارسته عدد من الباحثين العرب والمؤسسات أو الشركات منذ زمان،وذلك مثل الشعر الجاهلي المنشور ، والقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، والمعاجم الاصطلاحية وغير ذلك . ولهذا نرجو من المؤسسات العلمية أن تتكرم بإعلام اللجنة إن كانت تقوم بعمل مثل هذا أو قامت بها فيما مضى.وستقوم اللجنة بدورها بإحصاء جميع الأعمال التخزينية التي تمت في الوطن العربي أو هي بصدد الإنجاز . ونأمل أن نتجنب بذلك تكرار الأعمال إن شاء الله.

وستقام شبكة اتصالية بين المؤسسات لتبادل المعلومات في هذا المشروع، وسيخصص مركز البحوث والدراسات العلمية السوري من جهة ومركز البحوث العلمية والتقنية الجزائري للغة العربية من جهة أخرى جهازاً حاسوبيًا كاملا لتجميع كل ما سيخزن في مختلف البلدان العربية.

عبد الرحمن الحاج صالح

عضو المجمع المراسل من الجزائر

الأسماء العربية لأجناس الحيوان وأنواعه *

للأستاذ الدكتور عبد الحافظ حلمى محمد

أسماء الأعيان،ومنها أسماء أنواع الحيوان ، هى فى جوهرها رموز يُتفق عليها للدلالة على كل عين بذاتها ، حتى إن تجردت ألفاظ تلك الرموز من أىّ معنىً مرتبط بذواتها.والمهم أن تكون تلك الرموز محدَّدة ، معروفة بين مستعمليها، لا يكتنفها تداخل أو غموض.

والاسم – على إيجازه وبساطته وتجرُّده – ينقل إلى سامعه أو قارئه صورة مركبة من شتى الأوصاف والتفاصيل ، بل إنه قد يستدعى إلى وعيه ألوانا من الأحاسيس والمعلومات المحفوظة في ذاكرته. فالاسم ، على هذا النحو ، هو المسمَّى ، كما يقولون. وهذا هو بعض ما نستشعره حين نقرأ قوله تعالى:"وعلَّم آدم الأسماء كلَّها..."(البقرة:٣١) ، على أرجح ما قاله المفسرون.

ونشأت أسماء الحيوانات فى المجتمعات الإنسانية المختلفة ، وأصبح لكل قوم "قاموس" لرموزهم ، حفظوه فى صدورهم وتوارثوه ، ثم سجَّلوه ، منقوشا أو مكتوبا ، فى أزمنة تالية من تاريخهم. وكان الطبيعى أن تختلف القواميس.

ولما أراد الناس أن يدرسوا أنواع الحيوان دراسة علمية وضعوا لكل نوع تعريفا طويلا ، للاقتراب من التحديد العلمى المطلوب. ولكنهم ما لبثوا أن ضاقوا ذرعا بثقل هذه التعريفات، حتى خلَّصهم منها ، فى أواسط القرن الثامن عشر ، الشاب السويدى الألمعى كارل لينيوس ، فابتدع "التسمية الثنائية " لأنواع الأحياء ، التى تقضى أن يسمَّى كل نوع منها باسم جنسه يليه اسم نوعه ، وكفى. وكانت هذه الأسماء العلمية لاتينية أو ملتَّنة. فالأسد ، مثلا *Felis leo*(**) ، أما البَبْر والقط الأليف فيتفقان معه فى جنس السنانير أو القطط *Felis* ، ويختلفان عنه فى الشق الثانى من اسميهما: فالبَبر *Felis tigris* والقط الأليف *Felis domestica*، وهكذا .

وفرح العلماء بهذه الطريقة الجديدة البسيطة ، وانطلقوا يسمّون الحيوانات وفقا لأسلوبها . ولكن سرعان ما عمَّت

* ألقى هذا البحث فى الجلسة الثامنة لمؤتمر المجمع بتاريخ ٣من ذى القعدة سنة ١٤١٥هـ، الموافق ٣من أبريل (نيسان) سنة ١٩٩٥م.

(**) على الرأي المشهور .

الفوضى ، فقد اتضح أنه لابدَّ من وضـــع قواعدَ لتنظيم إطـــلاق تلـــك الأسمـــاء. ونشطت الهيئات والجمعيات العلميـــة فى أوروبا يضع كلٌّ منها قواعده ، ولكنـــهم سرعان ما اكتشفوا أن هذا لا يكفـــى ، وإنما يجب أن تكون هذه القواعد عالميـــةً مُتَّفَقًا عليها دوليا. وهنا انعقـــد المؤتمـــر الدولى الأول لعلم الحيوان فى باريس عـــام ١٨٨٩ ووضع مجموعة مـــن القواعـــد ، أخذوا ينقحونها حتى أقرَّها المؤتمر الـــدولى الخامسُ المنعقد فى برلين عـــام ١٩٠٢ ، فظهرت الطبعة الأولى من قانون التســـمية الحيوانية عام ١٩٠٥ ، وظلّت سارية نحو ٧٠عاما حتى نقحها المؤتمران الدوليـــان الخامس عشر (فى لنـــدن عـــام ١٩٥٨) والسادس عشر (فى واشنطن عام١٩٦٣)، فظهرت الطبعة الثانية من القـــانون عـــام ١٩٦٤. أما الطبعة الثالثة فقد ظهرت عام ١٩٨٥ ، بعد أن أقرته هذه المرة الجمعيـــة العامة للاتحاد الدولى للعلوم البيولوجية التى عقدت فى هلسنكى عام ١٩٧٩. وهـــذا القانون يضم "تقنينا" - كما علمنا الأستاذ الدكتور أحمد عز الدين عبد الله - فيه سبعٌ وثمانون مادةً مفصَّلَة ، وســـتةُ ملاحـــق.

وعالِم الحيوان الأصيل يجب عليه أن يُلـــمَّ إلماما حسنا بهذا التقنين ويلتزمَ التزاما دقيقا بقواعده الصارمة. أما الجهة القضائية الـــتى تحكم فيما قد ينشأ بين العلماء من خلاف أو حلِّ ما قد يصادفهم من مشـــكلات فى تطبيقهم القانون ، فهى اللجنة الدوليـــة الدائمة للتسمية الحيوانية ، ومقرُّها لندن.

ومن أبرز مبادئ هذا القانون أنـــه لا يكون للجنس الواحد أو النوع الواحـــد من الحيوان إلا اسم علمى صحيح واحـــد، وأنه إذا تعددت الأسماء تكون الأحقيـــة لأسبقها نشراً وفقا لأحكـــام القـــانون ، ويكون حقُّ التـــأليف لصـــاحب ذلـــك الاسم. ومنها أيضا أنه لا يطلق الاســـم المعيَّن إلا على جنسٍ واحد أو على نـــوع واحد ، فإذا تعدَّد السَمِيُّون استقل بالاسم الجنسُ أو النوع الذى أطلق عليه ذلـــك الاسم أولا ، وكان على العلماء أن يجـدوا أسماء بديلة للمنافِسات الأخرى. ويـــترتب على هذين المبدأين أنه لا يتكـــرر اســـم الجنس فى عالم الحيوان أبـــداً ، وأنـــه لا يتكرر البتَّةَ اسم النوع فى الجنس الواحـــد. ومشاكل ترادف الأسماء وتطابقـــها مـــن أعقد مشاكل المصنِّفين.

والتحديد العلمي الدقيق لمدلولات الأسماء كثيراً ما تكون له أوجه كثيرة من الأهمية. فمثلا ، ما هي "السَّلْوَى" التي أنزلها الله على بني إسرائيل في التيه بين مصر والشام؟ أرجحُ أقوال المفسرين إن السلوى هي الطيور المعروفة بالسُّمَّانَى. وهذا هو ما يراه القزويني في "عجائب المخلوقات" وواضعو "قاموس الكتاب المقدس" أيضا. أما الدَّميرى فقد نقل في موسوعته البديعة عن ابن سيده:"السلوى:طائر أبيض مثل السُّمانى...". وذكر المعلوف ، في معجمه القيِّم عن الحيوان ، أن "السلوى" التي تكلم عنها الدميرى طائر آخر ، لعله الواقُ الصغير الذي يسمَّى "السلوى" في حلب ، أو الصِّفْرِد الذي يسمَّى أيضا "السلوى" في لبنان. ولكن هذا التشكك الذي أثاره الدَّميرى قد تسرب إلى "معجم ألفاظ القرآن الكريم" لمجمعنا ، الذي جاء فيه أن السلوى "طائر يشبه السُّمانى". وهناك من الدلائل القوية ما يرجِّح أن سُمانى بني إسرائيل هي النوع المعروف باسم "السُّمانى" ***Coturnix coturnix***.

وكلما فكرتُ في الأسماء العربية للحيوان تطوف بذاكرتي قصة طريفة مشهورة عن أبي العلاء ، فلما أردت توثيقها خفَّ إلى نجدتي أخي الكريم الدكتور محمد يوسف حسن ، حبيبُ أبي العلاء ، فأمدني بكتاب أحمد تيمور باشا عن أبي العلاء ، الذي قدَّم له المجمعيّ العلامة الدكتور بدوى طبانة ، فوجدت فيه الخبر اليقين. وذلك أن عبقريَّ المعرَّة دخل على مجلس الشريف أبي القاسم المرتَضَى ، وهو ببغداد ، فلما تقدم عَثَرَتْ قدمه بأحد الجالسين ، فصاح الرجل الصَّلِف: من هذا الكلب؟

ولم يكن هذا الرجل – الذي نسي التاريخ اسمه – سيِّئَ الخلق فحسب ، بل إنه كان سيئ الحظ أيضا ، فإن عثرة لسانه كانت أضرَّ به من عثرة قدم أبي العلاء ، الذي ردَّ عليه في ثقة واعتداد بالنفس : الكلبُ من لا يعرف للكلب سبعين اسما! فأُفحم الرجل وسُقِط في يده . وسمع المرتضَى ردَّ أبي العلاء فأدناه واختبره ، ولما وجده عالما فطنا ذكيا ، أقبل عليه إقبالا كثيرا. ولا تحكي القصة أن أبا العلاء ذكر أسماءَ الكلب السبعين في ذلك المجلس.

ولكن هذه السُّبَّةَ ظلت قائمة ، على أية حال. وتصدَّى لهذا التحدِّى "بلدياتى" جلال الدين السّيوطى، بعد ذلك بأكثر من أربعة قرون ، فألف أرجوزة أسماها "التبرِّى من معرَّة المعرِّى" تضمنت سبعين اسما للكلب، وأوردها أحمد تيمور فى كتابه وشرحها ، بعد أن رجع إلى القاموس واللسان والمخصص وحيوان الجاحظ ، وحياة الحيوان الكبرى للدَّميرى وغيرها ، ثم استدرك عليها.

وقد فحصت هذه الأسماء فوجدتُ منها ما يصف الكلاب ببعض ألوانها ، كالباقع والأبقع والأعنق ؛ أو وفقا لأحجامها ، كالعُرَبّج والفُرنَّ للضخام ، والقُطرُب أو القَطرَب للضئال؛ أو بعض خصائصها ، كالدِّرباس للعَقور والعوَّاء والصُّمات ؛ أو نسبةً إلى بلد ، كالسَّلوقى والنَّصيبيىّ ؛ ومنها أيضا الدِّرسُ (مثلثة الدال) والجِرو (مثلثة الجيم) لأولاد الكلاب. وفى القائمة أسماء لهجائنَ حقيقية أو متوهَّمة بين الكلب والذئب والثعلب بل والدُّب أيضا ، كالسِّمع والدِّيسم . بل إن فيها أيضا:الهراكلة والقندس والقُضاعة، وهى لواحم تعرف فى العربية بكلاب الماء، ليست من جنس الكلب *Canis* ، بل ولا حتى من فصيلته Canidae ، وإنما هى من فصيلة السراعيب أو بنات عِرْس Mustelidae. وتضم القائمة أيضا خمسة عشر اسما لبنات آوى jackals ، وهى بضعة أنواع من جنس الكلب ، ولكنها ليست من الكلاب أو الذئاب. وقد زاد أحمد تيمور على قائمة السيوطىّ خمسةً وثلاثين اسما للكلاب وبنات آوى وأولادهما وكُنى ذكورها وإناثها ، وأكثرَ من عشرين عَلَما لكلاب مشهورة فى كتب التراث.

وهذا الولع الشديد بالمكاثرة فى أسماء الحيوان ، مع الشعور بالزهو بسعة العلم اللغوى وثراء اللغة العربية نفسها ، فيه كثير من التغالى ، ولا يبرأ – كما رأينا – من التخليط ، ولكنه قد نفعنا – بعد تمحيصه – فى وضع المقابلات العربية لأسماء سلالات الكلب أو أصنافه التى نجح فى استنباطها المربُّون ، وتربو على المئة ، وهى كلها أصناف من نوع الكلب المألوف أو المستأنس *Canis familiaris*.

وهذا الأمر ليس مقصوراً على الكلب. فالدَّميرى ، مثلا ، يبدأ موسوعته

الفريدة قائلا إن للأسد أسماءً كثيرة ، وإن كثرة الأسماء تدل على شرف المسمَّى. ونقل عن ابن خالَويه أن للأسد خمسمئة اسم وصفة ، وذكر أن عَليَّ بنَ القاسم بنَ جعفرَ اللغوىّ زاد عليها مئةً وثلاثين اسما . وذكر الدّميرى من هذه الأسماء خمسة وعشرين ، ولكنه – لحسن الحظ – لم يسبّ من يجهل سائرها.وقل مثل ذلك أو بعضه عن الإبل والخيل والذئاب، وغيرها. وهم يخلعون على الحيوانات المشهورة شتَّى الكُنى ، فالثعلب أبو الحصين وأبو نوفل ، والذئب أبو جعدة ، والهدهد أبو الأخبار ، وهكذا.

وعندنا فى الطرف الآخر من تراثنا اللغوىّ ، أسماء لانكاد نحدِّد لها مسمىً. وذلك من قبيل: "الجِلْف" : طائر معروف؛ و "الحَرَقْصَى": دويّبة ؛ و"الحُرْقُوفَة: دويّبة من الحشرات. و"دويّبة" لا تعنى إلاّ كائنا صغيرا يدب على الأرض، فهى لا تكاد تفيد إلاّ الحيوانيةَ وصغر الحجم ، وتتسع حتى تشمل القنافذ من الثدييات ، مثلا. وهذا بعضٌ مما يُحال إلى لجنة علوم الأحياء من لجنة المعجم الكبير ، فى حرصها المشكور على التحقيق والتوثيق والشمول. ولكننا كثيرا ما نعتذر ، فى مثل هذه الأحوال ، عن عدم تمكننا من الاستدلال على تحديد مسميَّات تطمئن إليها نفوسنا. وأمثال هذه الأسماء كأنها تقابل ما يدعوه قانون التسمية الحيوانية "أسماءً عارية" (*nomima nuda*) ، أى أسماءً أصبحت بلا مسمّى ، سوف تظل محفوظة فى كتب اللغة التراثية ، كما أننا نرى أن تسجل كما هى فى المعجمات الحديثة الواسعة ، كالمعجم الكبير ، إلى أن يُهتدى إلى تحديد مسمياتها ، فى ضوء بعض الشواهد والقرائن ، أو أن تخصَّصَ لمسميات محددة ، وهذا – فيما نظن – أولى من الابتداع ، وفيه إحياء لتلك الألفاظ.

ولكننا نوفق فى أحوال أخرى ، بفضل الله ، إلى التوصل إلى تحديد علمى مقبول معتمد على شئ من الاجتهاد والتأويل . ويكفى أن نضرب لذلك بعض الأمثلة:

١- الجَلَعْلَعَة: "خنفساء زعموا أن نصفها طين ونصفها حيوان". ونستطيع أن نتقصَّى أصل هذه الخرافة: فالمعروف أن الجِعلان حشرات من غمديات الأجنحة

تُعَدّ من الخنافس ، وأن من أنواعها جعلانَ الرَّوْث ، التي تصنع إناثها كرات كبيرة من الرَّوث (أو"الجُعْر") لتضع فيها بيضها، ثم تمسك بها وتدحرجها أمامها ، فتبدو وكأن نصفها من الطين ، ولذا تكنّى بأبي جعران وتعرف بالجعارين. ولذلك نستطيع أن نلحق بالتعريف المأثور قولنا:"ويحتمل أنها أنثى الجُعَل بكرة الروث التي تضع فيها بيضها".

٢- جمل البحر: ينقل الدَّميرى عن ابن سيده أنه "سمكة طولها ثلاثون ذراعا" ، ويشير إلى حديث أبي عبيدة ، رضى الله عنه ، أنه أُذن فى أكل جمل البحر ، وهو سمك شبيه بالجمل. ثم يشير أيضا إلى رجز للعجاج مذكور فى كتاب "البيان والتبيين" للجاحظ. ويقول صاحب القاموس إنه "سمكة طولها ثلاثون ذراعا". أما المعلوف، فى معجم الحيوان، فيدور مئة وثمانين درجة ويقول، نقلا عن جفروى ، إن جمل الماء " نوع من السمك صغيرٌ رقيق جدا كأنه الشفرة" ، ولكنه يضيف ، وهو أيضا حوت عظيم اسمه الكُبَع.وعن الكبع، ينقل الدميرى عن ابن سيده أن الكُبْعَةَ: دابَّة من دوابّ البحر.

ويتجه الفكر بعد هذه الجولة إلى حوت طوله ثلاثون ذراعا يشبه الجمل. ويتركز النظر فى الحوت الأحدب (humpback whale) ، له زِعْنفَة كالسنام ، ويبلغ طوله بين ١٥ و ١٩ مترا. والذراع الهاشمية تساوى اثنتين وثلاثين إصبعا أى ٦٤سنتيمترا. وعلى هذا تكون الثلاثون ذراعا مساوية لتسعة عشر مترا. وهكذا نستطيع فى النهاية أن نقول ، بدرجة مقبولة من الرجحان ، إن جمل البحر هو الحوت الأحدب *Megaptera novaeanglia* من فصيلة Balaenopteridae . ويؤيد هذا الرأى أن الحوت الأحدب يجوب المحيطات كلّها، ومن ثم كان متاحا لأن يراه العرب.

٣- الجَيْهَر: لانجدها عند الدّميرى ولاعند المعلوف ، ولكن القاموس المحيط يفسرها بأنها:"الذباب الذى يفسد اللحم". ونستطيع أن نعتمد على هذا فى قولنا: الجيهر اسم يدل على أنواع الذباب من جنس *Sarcophaga* من فصيلة Sarcophagidae (أى:آكلات اللحم) ، من رتبة الحشرات ذوات الجناحين ، يضع يرقاته فى اللحم أو فى جثث الحيوانات أو

فى الجروح المكشوفة، حيث تحلل اللحم وتذيبه لتغتذى به.

٤-الحصانيَّات:"ضرب من الطير ، يصيد الذباب اختطافا واختلاسا". وينطبق هذا الوصف على أنواع كثيرة من الطيور منها جنسٌ خاطف الذباب *Muscicapa* الذى يضم أكثر من عشرين نوعا. تعيش فى آسيا وإفريقيا وأوروبا ، وتصيد الذباب وغيره من الحشرات وهى طائرة .

وتسجل كتب اللغة حالات صارخةً من الكائنات السَّمِيَّة ، فتذكر مسمَّيات متعددةً لبعض الأسماء ، فمن ذلك:"الأطوم" ، فهو سلحفاة بحرية غليظة الجلد ، والزرافة ، والبقرة ، والصَّدَف ، والقنفذ (المعجم الكبير ، الجزء الأول ، ص:٣٥٤). ولكن المعجم الكبير يضيف إلى هذه المعانى تخصيصا حديثا ، فيقول:"وفى علم الأحياء: حيوان بحرى من الفصيلة الأطومِيَّة ، من رتبة الخِيلان ، أى بنات الماء ، من الثدييات...إلخ". والمعجم لا يبرر هذا التخصيص ، الذى يبدو كأنه لون يجوز أن نصفه بالاعتساف الاصطلاحى المقبول. فهٰذه الحيوانات ، التى تعرف أيضا باسم "بقر البحر" و "عرائس البحر" ، لها جلد غليظ كجلد السلحفاة ؛ فالمعجم الكبير يذكر أن البقرة [أى بقرة اليابسة ، من الأنعام] سُميت أطوما على التشبيه بالسلحفاة البحرية لغلظ جلدها. ولكننى وجدت سنداً آخر تحت اسم "الحنفاء"- فى جزء آخر من المعجم – التى من معانيها: "سلحفاة الماء"، و "سمكة بحرية ، يقال لها الأطوم ، وهى سمكة فى البحر كالملكة". ومن المعروف أن عرائس البحر ثدييات تشبه الأسماك شبها ظاهريا. ولكن العجيب أن كتابا مترجما عن الحيوانات اللافقارية ، يطلق اسم "الأطوم" على حيوانات قشرية (barnacles) تلتصق بالصخور والسفن والحيوانات وغيرها من الأجسام المغمورة فى ماء البحر ، وتفرز قشوراً جيرية سميكة(رالف بكسباوم،١٩٦٠) . ولعل المترجم ــ رحمه الله ــ تعلّق بشأن من معانى الأطوم " الصَّدَفَ " ، كما تقدم ، ولكن الأفضل أن يُعَرَّبَ هذا الاسم إلى "برنقيلات " ، إذا لم نعثر على اسمها فى ذخيرتنا العربية.

وقد أثارت الضِّفْدِع الشائعة فى مصر ، والتى يدرس تشريحها كل طالب

لعلم الحيوان فى مصر ، مشاكل لغوية علمية معقدة . على هامشها أولا ضبط الاسم : المفرد : ضِفدِع ، وضِفدَع (وينقل الدَّميرى عن ابن الصلاح أن أشهرهما من حيث اللغة كسرُ الدال ، أما فتحها فهو أشهر فى ألسنة العامة وأشباه العامة من الخاصة ، وقد أنكره بعض أئمة اللغة) وهى أيضا : ضُفدُع ، وضُفدَع ، وضَفْدَع ؛ والجمع فيها كلها : ضفادع، وضفادى .

والضفادع ، بصفة عامة ، برّمائيات بتراوات قوافز ،تنقسم قسمين: مجموعة جلدها رطب أملس ، ورجلاها الخلفيتان طويلتان ، وبطرف لسانها ثلمة ، ومعظمها مائى . وتعرف أنواعها الكثيرة (نحو ٥٠٠ نوع) فى الإنجليزية باسم frogs وتنسب إلى الجنس *Rana* والفصيلة الرانية Ranidae أما المجموعة الثانية ، فجلدها جاف خشن ذو ثآليل ، وبه غدد تفرز سما ، ورجلاها الخلفيتان أقصر ، ومعظمها أدرد الفكين . ويعيش معظم أنواعها ـــ فى طور البالغ ـــ على اليابسة أو فى الطين. وتعرف الأنواع الكثيرة من هذه المجموعة (نحو ٣٠٠ نوع) فى الإنجليزية باسم toads، تنتسب إلى الجنس *Bufo* وأجناسٍ أخرى من الفصيلة البوفوية *Bufonidae*.

فعندنا فى الإنجليزية إذن: frogs وtoads(وفى الفرنسية grenauilles و crapauds)وكان علينا أن نجد لفظين مقابلين لهما فى اللغة العربية . أما frogs فقد حظيت باسم "الضفادع" الشائع على الألسنة ، وإنْ لم تكن هى البرّمائيات الشائعة فى مصر ، مثلا. وأما toads فقد أسماها بعض المؤلفين "العلاجيم" ، وانتشرت هذه التسمية فى بعض المؤلفات الجامعية باللغة العربية.

فإذا رجعنا إلى معنى "علجوم" فى كتب اللغة ، وجدنا فى القاموس ، مثلا، : "الضفدع الذكر ، والقراد ، والظبى الآدم، والظليم ، والكبش ، والوَعْل ، والثور المسِنّ ، والبطة الذكر ، وطائر أبيض ، والماء الغمر الكثير". ويأخذ الوسيط بعض هذه المعانى ويزيد عليها:" الأتان الكثيرة اللحم". ولا يورد الدَّميرى "العلجوم" فى موسوعته ، ولكنه يذكر فى مُدخل "ضفدِع " أن العلجوم هو ذكر الضفدِع . ويبدو أن هذا هو أشهر المعانى، وهو المعنى

الأول فى القائمة الطويلة التى أوردها القاموس ، فهو اختيار له ما يبرره.

أما ترجمة toads بعلاجيم ، فالذى ابتدعها هو المعلوف ، فى معجمه القيِّم ، حيث يقول إن معنى العلجوم الضفدِعَ الذكر ، ولكنه يضيف (ص:١٠٩):"... وأرى أن العلجوم حيوان آخر من الرتبة نفسها". (وموضع التساؤل ليس حيوانا واحدا). ويوضح فى موضع آخر: (ص:٤١) وجهة نظره قائلا:"... ولاشبهة أنهم أرادوا فى قولهم الضفِدعَ الذكرَ أنه جنس من الضفادع الكبار لا أنه الذكر بالمعنى المفهوم. وهذا الاستعمال كثير عندهم". وأرى أن المعلوف قد جانبه التوفيق فى هذا التخريج. فليس كل حيوانات المجموعة الثانية (toads) أكبرَ أحجاما من حيوانات المجموعة الأولى ، ثم إن الضفادع من الحيوانات التى تتميز ذكورها من إناثها تميزا واضحا ، فهى التى تنق دون الإناث ، فضلا على بعض الفروق فى الشكل. (وكذلك الحال فى البط ، فذكوره فى معظم الأنواع أجمل وأبهى ريشا من إناثه ، وإلا لزم أن نقول – على هذا القياس – إن العلجوم هو نوع أو جنس معين من البط أيضا). فواضح أن العلجوم اسم للذكر ، كالديك والثور والكبش ، ونحوها.

وقد فكرت فى الأمر منذ سنين ، فلم أجد مندوحة من تعريب toads إلى "تودات". وهكذا يكون عندنا ضفادع وتودات ، فلسنا أقل فطنة ودقة من الذين يفرقون بين هاتين المجموعتين فى اللغات الأخرى. وقد أعلنت هذا فى عملين بناكرين (فى الموسوعة الذهبية:١٩٦٤/٦٣، وفى موسوعة الأهرام:١٩٦٤). والذى يؤيد هذا المنحى أن لفظ toad فى الانجليزية اسم جامد من اللغة الانجليزية القديمة ، وليس له معنى يترجم. وليس تعريب الأسماء فى عالم الحيوان بغريب ، فأسلافنا قد أدخلوا، مثلا: الأخطبوط، الإسقَمرى ، الأنكليس، البلبل ، الجرِّى ، السقنقور ، القريدس ، والقندس.

وهذه التفرقة بين الضفادع والتودات واجبة فى الكتابات العلمية ، على وجه الخصوص. أما فى الحديث العادى فيمكن استعمال لفظ "ضفدع" و"ضفادع"للإشارة للبرّمائيات البتراوات،

بصفة عامة. وشبيه بهذا قدرنا فى ترجمة مجموعتى حرشفية الأجنحة: الفراش وأبى دقيق ، ففى كلامنا المعتاد ، ونثرنا، وشعرنا، لا نتحدث إلا عن الفراشات.٠بل حتى فى الأسماء العلمية التى لا يقصد فيها التفرقة بين المجموعتين ، نستعمل لفظ "الفراش" أيضا لترجمتنا لاسم butterfly fishes إلى الأسماك الفراشية ، دون حرج.

وعكس ما ذكرناه بشأن التُّودات، حدث عند ترجمة لفظ "skunks" التى تدل على أنواع من اللواحم الأمريكية لها غدتان عند قاعدة الذيل ، تنقبض العضلات المحيطة بهما ، إذا أثير الحيوان ، قاذفةً إفرازها السائل رذاذاً دقيقا له رائحة خانقة كريهة لا تطاق ، تقزز النفس وتثير الغثيان ، كما أن له فعلا كاويا قد يصيب العينين بعمى مؤقت. ويحرص الحيوان على ألا يعلق بجسمه من هذا الإفراز شىء ، ويمضى "طاهر الذيل" بعد أن يفعل فَعلته النكراء . وهذه الأنواع تشبه أنواعا أخرى مماثلة فى العالم القديم، منها ما يعرف فى مصر والسودان بأبى عفن وأبى المَنْتَنْ (مع أنه لا ينفرد بهذه الوصمة)، وفى بلاد العرب باسم الظَّربان (عبد الحافظ حلمى محمد،١٩٦٥)، ويعرِّفه الدَّميرى بأنه "دويبَّة فوق جرو الكلب ، منتنة الريح ، كثيرة الفسو"! وهكذا كان من الطبيعى أن يسمى المعلوف الـ "skunks"الظَّرابىَّ الأمريكية" (معجم الحيوان ، ص :٢٣١).

وكذلك نلجأ أحيانا إلى ترجمة معانى الألفاظ الأجنبية إلى اللغة العربية ، كما فعلنا فى ترجمتنا للأسماء: puffbirds إلى الطيور المنتفشة ، و hornbills إلى قرنية المناقير، button quails إلى السُّمانى الزِّرِّيَّة ، و caecilians إلى العمياوات ، وfrogfish إلى الأسماك الضفدعية ، و toadfish إلى الأسماك التُّودية ، وهكذا.

والحذر الحذر من الأخطاء الشائعة عند وضع المقابلات العربية لأسماء الحيوان الأجنبية. فمن ذلك ترجمة tiger إلى "نمر"، وصحته: "الببر" ومن ذلك أيضا ترجمة swans إلى بجع ، كما يحدث فى ترجمة الباليه المشهور Swan Lake إلى "بحيرة البجع". وانتقل هذا الخطأ إلى الفلاسفة والمناطقة فى مثالهم المشهور: كل البجع أبيض ، بل إنه تسرب إلى بعض معاجمنا ، فهى تورد مقابل لفظ "بجع" وصفا ورسما لطائر آخر هو التُّمُّ (المشهور

فى مصر أيضا بالوَزّ العراقى) وهو الـذى يسمّى بالإنجليزية swan ، أمـا البجـع فمقابله بالإنجليزية هو pelicans، وقـد برئ المعجم الكبير من هذا الخطأ الشـائع فأورد أمام لفظ "بجع" الوصف والرسـم الصحيحين لهذه الطيور التى تُعرف أيضـا باسم "الحوصل" أو "جمل الماء". وبهـذه المناسبة ، من مآثر المعجم الكبـير أيضـا إثباته للأسماء العلميـة لأنـواع النبـات والحيوان وأجناسهما وفصائلهما ، أيضا.

وبعدُ.. أيها العلماء الأجلاء

لا أزعم أننى قد شفيت الغليل فى هذا الموضوع المتشـعب الطويـل ، وكـان قُصارى جُهدى أن أعرض عليكـم - فى حدود الوقت الضيـق المتـاح للإعـداد والإلقاء - بعض ما عَرَض لى منه فى أثناء عملى المتواضع فى الترجمة أو التحقيـق ، وقد يكون لنا إليه عود ، إن شاء الله. وإنما يكفينى أننى بثثتكم بعض ما نكـابده فى هذا الباب من عناء يعذبنا ونسـتعذبه ، فى سبيل خدمة لغتنا الشريفة ، وإرساء قواعدِ نهضة علمية عربية شاملة.

عبد الحافظ حلمي

عضو المجمع

المراجع

أحمد تيمور ، ١٩٧٠ . "أبو العلاء المعري : نسبه وأخباره، شـــعره، معتقـــده" . ط ٢ . الأنجلو المصرية : القاهرة .

أمين المعلوف ، ١٩٣٢ . " معجم الحيوان " . دار الرائد العربي ، بيروت .

الدَّميري ، كمال الدين محمد بن موسى ، ١٩٦٥ . " حياة الحيوان الكـــبرى" ـ الجـــزء الأول. دار التحرير للطبع والنشر ، القاهرة .

الدَّميري ، كمال الدين محمد بن موسى ، ١٩٦٦ . الجزء الثاني .

رالف ، بكسباوم ، ١٩٦٠ " الحيوانات اللافقارية " . ترجمة : محمود محمـــد رمضـــان، مراجعة : كامل منصور . الأنجلو المصرية ، القاهرة .

عبد الحافظ حلمي محمد ، ١٩٦٤/٦٣ . " ضفدع " ، في : الجزء السابع من "الموســوعة الذهبية " ، إشراف إبراهيم عبده . سجل العرب ، القاهرة .

عبد الحافظ حلمي محمد ، ١٩٦٤. " الضفدع " " دائرة معارف الأهرام . جريدة الأهرام. القاهرة ، عدد ١٩٦٤/١٠/١٥ .

عبد الحافظ حلمي محمد ، ١٩٦٥ . " الظربان " : دائرة معارف الأهرام ، جريدة الأهرام، القاهرة ، عدد ١٩٦٥/٥/٢٣ .

الفيروزابادي ، مجد الدين ، ؟." القاموس المحيط " ، مجلدان . المكتبة التجاريـــة الكـــبرى، القاهرة .

" قاموس الكتاب المقدس " ، ١٩٩٤ . تأليف نخبة من الأساتذة ذوي الاختصاص ومـــن اللاهوتيين . الطبعة التاسعة . دار الثقافة ، القاهرة .

القزويني ، ذكريا بن محمد ، ١٩٦٥ . " عجائب المخلوقات وغرائب الموجـــودات". دار التحرير للطبغ والنشر ، القاهرة .

"معجم ألفاظ القرآن الكريم " ، ١٩٨٩ . الجزء الأول (طبعة منقحة) . مجمـــع اللغـــة العربية ، القاهرة .

"المعجم الكبير" ، ١٩٧٠ . الجزء الأول ـ حرف الهمزة . مجمع اللغة العربية ، القاهرة .

المعجم الكبير ، ١٩٨١ . الجزء الثاني – حرف الباء . مجمع اللغة العربة ، القاهرة.

المعجم الوسيط " ١٩٨٥، . جزءان (الطبعة الثالثة) . مجمع اللغة العربية ، القاهرة .

The International Commission on Zoological Nomenclature, 1985. International Code of Zoological Nomenclature , 3rd ed. International Trust for Zoological Nomenclature, London.

بين الفصحى والعامية المصرية *

للأستاذ الدكتور شوقى ضيف

الزملاء الأجلاء :

السيدات والسادة :

اللغة هى المرأة التى تحمل شخصية الأمة وهويتها على مر التاريخ ، إذ تستوعب جميع جوانب حياتها العملية والدينية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية . وهى تتطور من الزمن صوراً مختلفة من التطور على نحو ما تطورت العربية فى الجاهلية ، وتفرعت منها لهجات كانت أسماها لدى العرب لهجة قريش حامية دينهم الوثنى ، وتآزرت مع الدين عوامل اقتصادية وسياسية جعلتها تسود فى الجاهلية جميع لهجات العرب القبلية كما تسود ألسنتهم فى الشعر والخطابة.وما هذه اللهجة القرشية إلا الفصحى التى ننطقها اليوم ، وقد نزل بها القرآن الكريم ، فزادها تمكينًا فى ألسنة العرب وأضفى عليها بيانًا رائعًا ببلاغته المعجزة. وأخذت منذ الفتوح الإسلامية تكتسح لغات البلدان التى افتتحها المسلمون شرقًا وغربًا ببلاغتها الآخذة بمجامع القلوب، واكتسحت الفارسية فى إيران، والنبطية والآرامية فى العراق، والسريانية واليونانية فى الشام والقبطية واليونانية فى مصر، والبربرية واللاتينية فى المغرب ،واللاتينية وفرعها من الرزمانية فى الأندلس. وكل هذه اللغات قهرتها الفصحى فى جميع تلك الأقطار وحلت مكانها فى ألسنة سكانها فهم يتكلمون بها ويتخذونها للتعبير بها عن مشاعرهم وعواطفهم وعقولهم وأفكارهم.

وأكبَّ العرب – ومعهم الشعوب الإسلامية المستعربة – على وضع العلوم تلبية لدعوة القرآن والحديث النبوي إلى العلم والتعلم ، وأخذت توضع العلوم الإسلامية من تفسير للقرآن وفقه وغير فقه، وبالمثل العلوم اللغوية من نحو وغير نحو. ونقلوا إلى الفصحى كل ما لدى الأمم الأجنبية من علوم الكيمياء

* ألقيت هذه المحاضرة فى الجلسة التاسعة لمؤتمر المجمع بتاريخ ٣من ذى القعدة سنة ١٤١٥هـ الموافق ٣من أبريل (نيسان) سنة ١٩٩٥م.

إلهية لا تنفصم عراها ، استقرت فى ضمائرهم وضمائر أسلافهم على تعاقب العصور ، وحدة لها قداسة تستمدها من القرآن الكريم الذى أكرم الفصحى باتخاذها لغته ، وأضفى عليها من جلاله ما جعلها خالدة بخلوده ، وإنها لعنوان حضارتنا ، ولسان علومنا وآدابنا،وستظل الأمة العربية – فى مصر وغير مصر – تضمها – كما ضمتها طوال أربعة عشر قرنا أو تزيد – إلى قلوبها وأفئدتها ، وستظل تعتزُّ بها فى المستقبل كما اعتزت بها فى الماضى ، لأنها جوهر كياننا القومى العربى الإسلامى ، جوهر ثابت إلى أبد الآبدين.

وإن العامية المصرية لترمقها فى تجلة، وتتطلع – منذ أوائل القرن الحاضر – للحاق بها مستعيرة منها كثرة من ألفاظها ، وهى كثرة ازدادت كلما قطعنا شوطا من السنين ، ومن المؤكد أن عاميتنا – الآن فى جيلنا – أقرب إلى الفصحى مما كانت عليه فى الجيل الماضى،وستظل تقترب منها جيلا بعد جيل متخطية إليها الفوارق والفواصل حتى تذوب فيها نهائيا. وإن واجب وزارات الإعلام فى الديار العربية : مصر وغير مصر أن تتسع فى استخدام الفصحى بجميع وسائلها الإعلامية، وخاصة فى مسلسلاتها الإذاعية والتليفزيونية، وبذلك تستجيب تلك الوزارات لرغبا عميقة فى نفوس الشعب المصرى والشعوب العربية.

شوقى ضيف

نائب رئيس المجمع

الأحزاب فى العشرينيات من القرن الحاضر، وعنيت من حينئذ بشئون الأدب والثقافة ، وأفردت للأدب مجلات أسبوعية وشهرية ، وعنيت مجلة المقتطف منذ ظهورها بالعلوم الغربية. وقد استطاعت الصحف أن تبسط فصحانا الحديثة إلى أقصى حد ، وأن تقترب بها قربًا شديدًا من لغتنا اليومية.

وازدهرت للفصحى الحديثة الخطابة السياسية وما تناولته من مبادئ فى الحريات وحقوق الشعب السياسية على لسان زعمائنا وخطباء الأحزاب النابهين. ونشأ فى مصر نظام القضاء الحديث ومعه نظام المحامين والمدعمين العامين ، ونشأت معهما للفصحى الحديثة الخطابة القضائية ، واشتهر فيها كثير من الخطباء القانونيين ، ونشأت الخطابة الاجتماعية فى النوادى والحفلات العامة.

ولم يكن بمصر في العصور الوسطى قصص بالفصحى سوى قصص الأنبياء والمقامات ، وهى قصص قصيرة مسجوعة، فلما اطلع المصريون – فى العصر الحديث – على ما فى الآداب الغربية من قصص طويلة أخذوا ينقلون بعضها إلى الفصحى مع محاولة تمصيره ، وأمضوا فى ذلك فترة ، ثم أخذوا – فى القرن الحاضر – يضعون قصصا طويلة على غرارها. ونشط وضع هذه القصص مع نهضتنا الأدبية ، فتكاثر كتاب القصة الاجتماعية والنفسية والتاريخية. وتكثر بجانبها مجموعات الأقاصيص الفصيحة القصيرة ، ويبرز فيها وفى القصة الطويلة أسماء كثيرين من القصاص النابهين.

وبدأنا – منذ أواسط القرن الماضى– بإقامة مسارح على شاكلة المسارح الأوربية وظللنا طويلا نمثل عليه مسرحيات غربية محصرة ، ثم أخذ كتابنا – فى القرن الحاضر – يؤلفون بالفصحى مسرحيات تراعى أصول الفن المسرحى ، وازدهر هذا الفن منذ الثلاثينيات فى هذا القرن – وكثرت الأعمال المسرحية القيمة التى تُعَدُّ بالعشرات، وكثر معها الكتاب المسرحيون البارعون.

وعلى نحو ما حدث لنثر الفصحى فى العصر الحديث من نهضة أدبية كبرى كذلك حدثت لشعرها نهضة مماثلة، كان رائدها محمود سامى البارودى الذى رد للشعر المصرى حيويته، وخلصه من أثقال البديع وقيوده، وخلفه حافظ وشوقى

وشعرهما يفيض بالعواطف الوطنية والدينية والقومية . وتحدث فى الشعر المصرى موجة متأثره بالمترع الرومانى الغربى ، وتعقبها موجه ثانية هى موجه شعر التفعيله المتحرره من الإيقاع المتكامل للشعر العربى. والفصحى فى هاتين النهضتين الكبيرتين لشعر مصر ونثرها حققت لها أعمالا أدبية عظيمة.

واقترنت بالفصحى فى البلدآن العربية المختلفة عاميان تفرّعت منها متخذة طوابع خاصة فى كل بلد، نشأت من التقاء الفصحى بلغات تلك البلدان المحلية وأوضاعها فى نطق الكلام مما أدخل على ألفاظ الفصحى صوراً مختلفة من التحريف، وأيضا فإن تلك العاميات لم تكن تعرف الإعراب الذى تتميز به الفصحى ، فأهملته فيها. وبذلك أصبحت لكل بلد عربى عاميه متميزة ، بها بعض ألفاظ استبقتها من لغاتها المحلية الأصلية ، وخاصة أسماء البلدان وبعض المواضع. ولا نعرف بالضبط التاريخ الذى شاعت فيه عامية كل قطر عربى على لسان أهله وشعبه، ومن المؤكد أنها بدأت فى مصر منذ القرن الثالث الهجرى، غير أن أول نصوص وصلتنا منها إنما وصلتنا من القرن السادس الهجرى، إذ نجد ابن سناء الملك شاعر صلاح الدين يودع كثيرًا من نهايات موشحاته أو أقفالها الأخيرة بعض ألفاظ عاميه مصرية ، ويكتب أسعد بن مماتى الشاعر الموظف فى دواوين صلاح الدين وخلفائه من أبنائه "كتاب" الفاشوش فى حكم قراقوش" محافظ القاهرة لعهد صلاح الدين ، وفيه كتب باللغة الدارجة المصرية بمجموعة نوادر ساخرة مضحكة من أحكام قراقوش الدالة على حمقه وعقلته المفرطة.

ونلتقى فى مصر – منذ القرن السابع الهجرى – بسير للبطولة العربية ، منها سيرة الهلالية ورحيل بنى هلال وبعض القبائل القيسية إلى المغرب فى القرن الخامس ونشوب حروب بينهم وبين المغاربة، ويستولون على بعض مدنهم ، ويقودهم فى تلك الحروب بطلان عربيلن: أبو زيد الهلالى ودياب بن غانم والأحداث فى السيرة غائمة ، وهى مكتوبة باللغة اليومية شعرًا ونثرًا ، وتعلق بها الشعب المصرى فى حضره وريفه ، وعاده يلقيها منشد على ربابة وتسميه العامة الشاعر . ومما كتبته مصر بالعامية سيرة سيف بن

ذى يزن وبطولته فى حروبه مع الأحباش فى أواخر العصر الجاهلى ، وسيرة عنترة ، وهى ملحمة كبرى للبطولة العربية وفيها يحارب عنتر كما يسمّى فى السيرة – بجميع الميادين التى حارب فيها العرب منذ الفتوح الإسلامية، وتمتد بطولاته وحروبه إلى عصر الحروب الصليبية وميادينها وإلى إسبانيا وبعض المدن الأوربية. وتكتب بالعامية سيرة الظاهر بيبرس سلطان مصر المملوكى ساحق التتار والصليبيين ، مصورة بطولاته العظيمة. وكتبت فى عصر المماليك بالعامية المصرية ألف ليلة وليلة مع إضافة طائفة كبيرة من القصص المصرية إليها مثل قصه علاء الدين وعلى الزيبق والمصباح العجيب وحكاية الصعيدى وزوجته الإفرنجية وهى تصور الصراع بين المسلمين والصليبيين. وكل من أضافوا القصص المصرية الكثيرة إلى ألف ليلة وليلة وكذلك كل من كتبوا سير البطولة والقصص الشعبية السالفة لا تعرف أسماؤهم لأنهم من أبناء الشعب. المصرى الذين يقدمون أعمالهم للشعب ، ولا يهمهم أن تعرف أسماؤهم إذ لا يبتغون بها شعره ولا ما يشبه الشهرة.

وكانت تمثل بالعامية بعض مسرحيات هزلية على مسرح خيال الظل ، وهو مسموح دمى متحركة متحاورة ، ومن أطرفها مسرحية طيف الخيال التى كانت تمثل فى عصر السلطان الظاهر بيبرس، وهى مسرحية شعرية نثرية تعرض مشكلة الخاطبة – حينئذ – وما كان ينشأ عنها من أغلاط ومفارقات فى حقائق الزوجين ، وتكتظ بالهزل والفكاهة والدعابة. وتكثر الأزجال بمصر منذ القرن الثامن الهجرى ويشتهر فيها غير زجال. ونلتقى فى القرن التاسع الهجرى بإمام واعظ فى أحد المساجد بالقاهرة وكتابه نزهه النفوس ومضحك العبوس وهو يموج بأزجال وأقاصيص ونوادر عامية فكهة. ويكتب فى العصر العثمانى شيخ واعظ كتابا عاميا يسميه هز القحوف يصور فيه ظلم العثمانيين للمصريين فى نوادر لاذعة لذعا شديدا ونمضى إلى العصر الحديث ويخرج يعقوب صنوع صحيفته العامية "أبونضارة" ويصبها نارا كاويه مملوءة بالسخرية المرء على الخديوى إسماعيل وسياسته الحمقاء وعلى الخديوى توفيق والامتيازات الأجنبية والإنجليز . ويخرج

عبد الله نديم فى عهد توفيق صحيفته "التنكيت والتبكيت" ثم "الأستاذ" ويفرد فيهما صحفا عامية لمحاورات وأزجال تعرض عيوبنا الاجتماعية والسلوكية، والانسياق الشديد نحو الحضارة الأوربية بصور ساخرة متهكمة تهكما شديدا. وتكثر المجلات العامية الهزلية منذ أوائل القرن الحاضر ، وتكتظ بالأزجال والنوادر والنكت والقفش مثل الأرغول والسيف والمسامير وخيال الظل ، ثم الكشكول ومجلة الفكاهة ، وكان يرأس تحريرها حسين شفيق المصرى مبتدع شخصية الشاويش شعلان عبد الموجود وابتدع أبوابا كثيرة فكهة. ويتكاثر الزجالون من مثل محمود رمزى نظيم وبديع خيرى ، وله تمثيليات عامية فكهة مثلها نجيب الريحانى، ومن أبدع الزجالين – منذ العشرينيات – فى القرن الحاضر – بيرم التونسى، ولا يزال زجالون بارعون يطرفوننا – اليوم – بأزجالهم.

وفى القرن الحاضر – وخاصة منذ منتصفه – يكثر الكتاب الذين يؤثرون العامية فى كتابه قصصهم وأقاصيصهم وكأنهم يعيدون لنا ذوق أسلافهم فى الحقب الماضية حين اختاروا العامية لكتابة السير والقصص الشعبية. وينشئ يعقوب صنوع – لعهد الخديوى إسماعيل مسرحا بالقاهرة على شاكلة المسارح الأوربية ، وألّف له فرقة مثلت عليه بالعامية ما زوّدها به من مسرحيات غربية ممصرة. ولم تلبث الفرق المسرحية السورية واللبنانية أن وفدت على مصر ومثلت مسرحيات فرنسيه ممصرة كثيرة. ويعنى المصريون منذ أوائل القرن الحاضر بتأليف الفرق المسرحية، ويأخذون فى تأليف مسرحيات كثيرة ، ويزدهر التأليف للمسرح منذ منتصف القرن الحاضر ، ويرى كثيرون من المؤلفين له أن تكون العامية أداة التعبير فى مسرحياتهم على ألسنة شخوصها المختلفين.

ومن حين إلى حين منذ أواخر القرن الماضى إلى اليوم يدعو بعض أصحاب العامية إلى استبدالها بالفصحى فى الكتابة الأدبية محتجين بأنها لغة التخاطب والحديث فى الحياة اليومية وأنها ألصق بالنفوس وأصدق فى التعبير عن الخواطر ، وفاتهم أن ذلك إنما يشعر به من لا يُتقن الفصحى ولا يستطيع الإنابة بها عن

بخوالجه، ومن المؤكد أن العامية على الرغم من طواعيتها لنا فى الحديث كل الطواعية لا تحمل لنا علما ولا فكرا عميقا ولا نظريات سياسية أو اقتصادية ولا تشريعات وقوانين ولا دراسات سيكولوجية أو اجتماعية ولا دينا وأعمالا روحية،إنها لهجة قلما تحمل لنا أعمالا وراء مطالب الحياة والفكر اليومى ، وفيم إذن هذه الخصومة التى يثيرها فى الحين بعد الحين ضد الفصحى بعض كتاب العامية؟ وفيم هذا النضال؟. وأنا موقن أن هذه الخصومة لم تحدث فى العصور والحقب السالفة قبل العصر الحديث فلم يحدث أن أحدا ممن كان يكتب الأزجال أو يكتب السير والقصص الشعبية فى العصور الوسطى لهج ضد الفصحى مطالبا بأن تحل العامية فى أدب أسلافنا محلها ، وبالمثل لم يدع أحد من أصحاب الفصحى ضد العامية وأعمالها، بل كانت دائما الطائفتان من الكتّاب بالفصحى والكتّاب بالعامية يتعايشان فى وئام وسلام. وظل أهل الفصحى إلى عصرنا يرتضون من الكتّاب بالعامية ما يكتبونه أزجالا أو أشعارا عامية أو قصصا وأقاصيص أو مسرحيات ، فلهم حريتهم كاملة فيما يكتبون ولا يتعرضون لهم أىّ تعرض، وكان ينبغى أن يجاريهم مَنْ يدعون للكتابة بالعامية فلا يثيرون ضد الفصحى أى خصومة لأنها هى الأم وهى الأقوى بكنوزها الأدبية والعلمية ، وهى التى تملك من أفراد الشعب المصرى – ومن أفراد دعاة العامية أنفسهم فى رأينا – أفئدتهم وعقولهم وقلوبهم ، بدليل نراه تحت أبصارنا ولا يغيب عنا ، وهو أن الصحف التى تخاطب الشعب المصرى – منذ أواسط القرن الماضى إلى اليوم – تتخذ الفصحى أداة فى مخاطبته ، ويقرؤها يوميا فى مصر صباح مساء أعداد وفيرة تعد بالملايين.

ويزعم دعاة العامية أن الفصحى وافدة غريبة على مصر ، وهى لغة المصريين منذ ألف وأربعمائة عام ، وليس فى العالم كله لغة حيه اليوم أطول حقبا تاريخية من تاريخ الفصحى فى مصر ، وهم فى ذلك الزعم كأنهم لا يعرفون أن العامية التى يطالبون بأن تحل محل الفصحى هى بنفسها نشأت من التقائها بالشعب المصرى الذى لم يكن يعرف الإعراب فى لغته الديموطيقية الشعبية القديمة ، ودخلتها تحريفات فى قواعدها ونطق بعض حروفها بسبب سليقة

المصريين الموروثة وبسبب لهجات بعض القبائل النجدية التي استوطنت مصر ، وهى بذلك لهجة عربية أحدث من الفصحى تداولا على ألسنة المصريين.

ويقول أصحاب الدعوى إلى العامية إن التمسك بالفصحى يؤول بنا إلى أن تكون لنا دائما ازدواجية أو ثنائية فى اللغة التى نستخدمها ، وينبغى أن نكتفى باللغة اليسيرة السلسة وهى العامية الخالية من الإعراب ومشكلاته ، والتى لا تحتاج معها إلى تعلم، والتى يجيدها أفراد الشعب سليقة وطبعا ، والتى نستطيع أن نصور بها كل ما يجرى فى نفوسنا وخواطرنا دون أى مشقه ، والتى يستعملها أفراد الشعب ويتفاعلون معها مباشرة.

والقول بأن وجود العامية مع الفصحى عندنا يحدث ازدواجية لغوية أو ثنائية قول من لا يعرفون أن اللغات العالمية قديما وحديثا كانت فيها ولا تزال هذه الثنائية ، فقديما كان للغة اللاتينية فى إيطاليا التى كتب بها فرجيل وسنيكا وشيشرون لهجة عامية يتخاطب بها أفراد الشعب فى روما ، وحديثا كان راسين وكورنى وموليير وفيكتور هيجو يكتبون أعمالهم بالفرنسية الأدبية لا باللهجات الفرنسية السوقية ، تماما مثل أدبائنا حين يرتفعون عن العامية ويكتبون بالفصحى.

وأما ما يقولونه من أن العامية لا تحتاج إلى تعلم مثل الفصحى، وأنها تعيش فى الأفواه والأسماع دون الفصحى التى تحتاج معها إلى الدرس والتعلم ، فهو قول غير دقيق لأن كل اللغات الحية يدرسها أبناؤها ويتعلمونها تعلما صحيحا،ويتذوقون أدبها.وأيضا فاتهم أن الفصحى تمرنت طوال أربعة عشر قرنا على أداء الأفكار، وأنها لم تستعص يوما على أداء فكرة علمية أو فلسفيه ، وقد اتسع مجالها واتسعت ليونة ألفاظها وأساليبها على أيدى كبار كتابنا وشعرائنا طوال العصر الحديث، سوى ما أحدثته الصحف فيها منذ أواسط القرن الماضى حتى جعلتها اليوم تقترب قربا شديدا من لغتنا الدارجة اليومية.

ويقول دعاة العامية إن الفن يقوم على محاكاة الواقع ، ومحاكاته فى الأزجال والقصص وحوار المسرحيات إنما يتم - بدقة - عن طريق التعبير بالعامية التى تحاكى الواقع فى المجتمع المصرى محاكاة تامة فى أحاديث أهله . والقول بأن المحاكاة

فى الأدب تستلزم أن ينقل الواقع فيه بلغته العامية قول غير صحيح ، لأن المحاكاة فى الأدب والفن لا تقتضى دقة النقل فيهما عن الواقع بحيث يكون العمل الفنى أو الأدبى مطابقا له تمام المطابقة ، بل إن اكتمال الدقة فى المطابقة فيهما قد يفسدهما،إذا قد يتحولان إلى ما يشبه النقل فى التصوير الفوتوغرافى إذ هذا النقل الآلى لا يعد فنا ، فالفن دائما تحرير فى الواقع على نحو ما يعرف فى لوحات الرسامين وألحان الموسيقيين،لأن الفنان دائما – ومثله الأديب – لا ينقل الواقع نقلا أصم وإنما يستوعبه ويتمثل روحه ويضفى عليه من خياله وذهنه ما نتمثله به ونجد فيه متاع فنيا أو أدبيا ، وكأنما يرفع عنه حجابا كان يغلقه ويستره عن أبصار الناس العاديين ، والفنان بذلك – ومثله الأديب – كأنما يصنع الواقع من جديد. ليس عمل الأديب – إذن – نقل الواقع وإنما صناعته صناعة جديدة ، تحاكيه بصورة أقوى ، وما قوتها إلا ما يضيفه إليها الأديب من مخيلته وفكره وأدواته الأدبية ، فالزجال – مثلا – حين يحاول نقل واقع شعورى أو حدث اجتماعى يبرزه فى عبارات سائغة موقعه بنغم يؤثر به فى قارئه بحيث يصبح عملا فنيا تاما ، ومثله الوشّاح صانع الموشحات، غير أنه يتفوق عليه من حيث الفن الخالص، لأنه ينظم موشحه بالفصحى التى طالما بث فيها الوشاحون والشعراء على مدى أربعة عشر قرنا من السمات والصفات الجمالية ما يعوز الزجل إلى حد كبير. وما يقال فى الزجل والموشحة يقال مثله فى القصة الفصيحة والعامية ، وقد يُظنُّ أن العامية تستحب فى القصة بأكثر من الفصحى ، لأنها تتناول جوانب الحياة فى المجتمع وهى فى متناول الأفواه والشفاه ولا مشقه فيها ولا عُسْرَ ، ومن يقولون ذلك يتناسون ما فى القصة الفصيحة من البيان العربى القويم الذى تُصْغى إليه القلوب: قلوب المثقفين والعامة جميعا ، وأيضا فليس الأساس فى روعة القصة قائما على اللغة وحدها ، فأهمُّ منها بناء القصة بناءً فنيا محكما بحيث تترابط جزئياته ووحداته ترابطا عضويا بما تعتمد عليه من أحداث مثيرة وحبكة قصصية متقنة ، وهى تختلف من قَصَّاص إلى قصاص بما يُضْفِى عليها من ومضات شعوره وفكره. وقد يُظَنُّ أن لغة المسرحية تناسبها العامية لا

الفصحى لأنها شفوية مثلها ، أما الفصحى فلسفة التعبير الكتابي ، والعامية لذلك أكثر مواءمة للمسرحية، غير أن من ينعم النظر في فن المسرحية يراها تلتزم قواعد فنية كثيرة ينبغي توفرها فيها ، كما ينبغي أن تتوفر فيها الألفاظ الموحية، والفصحى تتفوق على العامية فيما تحمل من هذه الألفاظ ، وأيضا فإن العامية لا نظام لها في التعبير يجعلها سهلة الانقياد للممثل بينما الفصحى مذللة لما يحتاجه الممثل من أوضاع مختلفة في الصياغة.

فقول دعاة العامية بشأن الحوار المسرحي والقصصي ينبغي أن يكتب بالعامية طلبا لدقة المحاكاة بجانب حقائقهما الأدبية – وقد نقل إلى الفصحى كبار المترجمين من المصريين مسرحيات شكسبير وراسين الشعرية وأعمال القصاص الفرنسيين والإنجليز وغيرهم من أدباء الغرب ، وأدوا معانيها وأفكار الشخوص المختلفين فيها بفصحى سديدة أدتها أداء دقيقا – وبذلك تسقط دعوى دقة المحاكاة في العامية بالقياس إليها في الفصحى كما سقطت الدعاوى السابقة.

ويقول دعاه العامية إنها لغة الشعب بينما الفصحى لغة فئة مثقفة محدودة ، والعكس هو الصحيح إذ العامية لا تطرد بصورة واحدة لا في الشعب المصرى ولا في غيره من الشعوب العربية ، وفي مصر عاميتان كبيرتان : عامية صعيدية لأهل الصعيد ، وعامية بحرية لأهل الدلتا ، وللمدن المصرية عامية تختلف كثيرا أو قليلا عن عامية أهل الريف ، وللقاهرة عامية تختلف عن عامية أهل الإسكندرية ، بينما كل أهل العاميات في مصر تتخذ الفصحى لغة لها لا في التعليم والثقافة فحسب ، بل في جميع شئونها الدينية وفيما تقرأ من الصحف اليومية ، فهي اللغة الجديرة بأن تسمى لغة الشعب المصرى لا العامية المحصورة في فئة محدودة تستخدمها أزجالا أو قصصا وأقاصيص أو تمثيليات مسرحية.

ومن المؤكد أن كل ما ينتجه أدباؤنا في العامية أدب محلى لا يعدو انتشاره أسوار مصر، إذ لكل بلد عربي عاميته بحيث لا يفهم الشامي ولا العراقي ولا المغربي فهما واضحا ما يكتب بالعامية المصرية ، بينما كل ما ينتجه أدباؤنا الفصحى أدب عربي يخترق هذه الأسوار

إلى البلدان العربية منتشرا فيها من الخليج إلى المحيط ببيان واضح تمام الوضوح، ولو كان أدباؤنا الكبار اصطنعوا العامية فيما كتبوا من آثار لأعرض الناس من الشرق الأوسط جميعه عن قراءتهم ، ولما أقبلوا هذا الإقبال العظيم على اقتناء أعمالهم نثرا وشعرا ، ولما حظيت مصر بزعامتها الأدبية بين البلاد العربية ، كما تحظى بها اليوم وهى زعامة تتبوؤها طوال العصر الحديث، ولن تتنحى عنها فى أدبها ،لأن أدباء العامية لا تعنيهم هذه الزغامة وهمهم فى شىء ، بل ستظل - بكل ما تستطيع - تحافظ عليها بفضل الفصحى وما ينتجه أدباؤنا الأفذاذ فيها من أعمال أدبيه قيمة.

وإن فى تمسك أدبائنا الكبار وصحافتنا بالفصحى التى تجمع بيننا وبين البلاد العربية فى لسان عربى واحد لشعورًا قويًّا بأننا جميعا أسرة واحدة وهى أسرة فى حاجة إلى التعاون فى مضمار المصالح والمنافع وما قد يلم بنا من أحداث وخطوب. وان شعب مصر والشعوب العربية اليوم لفى حاجة قصوى لتوثيق هذه الرابطة اللغوية حتى تحسب الدول الغربية فى عصرنا حسابهم ، وقد أصبح واضحا أن الدول الغربية لا تعيش اليوم منعزلة بعضها عن بعض ، إذ تجمع شملها فى تكتلات على فكر اقتصادى أو سياسى واحد، على نحو ما نرى من تكتل الدول الأوربية فى السوق الأوربية المشتركة، وفى اتحاد التعاون الأوربى، وتكتلها مع أمريكا فى حلف الأطلنطي. ومن المؤكد أن تكتل مصر والدول العربية فى لسان عربى واحد من شأنه أن يجعلهم قوه متحدة كبرى فى مضمار السياسة العالمية، ولنا عبره بالوحدة اللغوية بين إنجلترا والولايات المتحدة، فإن الرابطة اللسانية بينهما هى التى جعلت الولايات المتحدة فى القرن الحاضر تدخل فى الحربين العالميتين اللتين اشتعلتا فيه ضد ألمانيا لحماية إنجلترا شقيقتها الناطقة بلغتها. وفى ذلك ما يصور بقوه حاجة مصر وشقيقاتها العربية إلى التمسك بالفصحى حتى تحميها فى معارك السياسة وتنازع البقاء.

أيها السادة :

إن الفصحى أوثق الروابط التى تربط أبناء الأمة العربية مصريين وغير مصريين فى جميع بقاع الأرض شرقًا وغربًا، وإنها لتجمعهم فى وحدة روحية


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مخطوطة فريدة مجهولة
للأستاذ الكبير فهمى المدرس(*)

للأستاذ الدكتور يوسف عز الدين

فهمى المدرس وبخط يده ، أراد جمع شعره مرة واحدة ولكن ظروفه لم تسمح له بذلك ، لأنى وجدت بعض القصائد فى أوراق متفرقة معها لم يدونها فيها.. من هذه القصائد قصيدة عنوانها ((فى مدح صاحب السماحة والسيادة السيد داود أفندى قادرى زاده)) منها:

برزت بمنظرها البهى الأنور
ورنت بطرف ناعس متكسر
كشفت نقاب الحسن عن وجناتها
ومشت بفرط دلالها بتبختر

وهى قصيدة أقرب إلى شعر القرن التاسع عشر أسلوبًا ومعنى .. أو من شعر عبد الغفار الأخرس .. وقصيدة أخرى نظمها إبان معركة السفور والحجاب التى ثارت عندما أصدر قاسم أمين كتابه ((تحرير المرأة)) ولكنه لم يتخذ موقفًا واضحا إنما جاء برأي جديد هو الدعوة إلى نبذ أمية الرجل قبل البحث فى سفور المرأة لأن تعليم الرجل الأمى أولى من سفور المرأة ، ووقّع هذه القصيدة بتوقيع (بنت فهر)[1].

وصف المخطوطة:

كتبت على ورق صقيل ودفتر ممتاز مجلد سميك مبطن. طول المخطوطة ١٩سم، وعرضها ١١,٥سم. ولصغر حجم المخطوطة كتب كل شطر فى سطر واحد ، وأكثر الصفحات فيها ١٦سطرا.

المدرس:

كان(١٩٤٤م)سياسيًّا مشهوراً وتربويًّا معروفا.ولم يعرف عنه أنه شاعر،كان رئيس أمناء بلاط الملك فيصل الأول [٢] ، وأصبح مديراً عاماً للمعارف وأول أمين لمشروع جامعة حديثة فى العراق.

فى المخطوطة اتجاه واضح فى ذم الاتحاد والترقى الذى قام بالانقلاب العثمانى

(*) ألقى هذا البحث فى الجلسة العاشرة لمؤتمر المجمع بتاريخ ٤من ذى القعدة سنة ١٤١٥هـ الموافق ٤من أبريل (نيسان) سنة ١٩٩٥م.

(١) الحديث عن السفور والحجاب موجود فى كتابى ((الشعر العراقى الحديث والتيارات السياسية والاجتماعية)).

(٢) عين في ٣١ آب ١٩٣١م .

وأعلن الدستور سنة ١٩٠٨م وغير الاتجاه الإسلامى إلى القومية الطورانية ومحاربة الإسلام والعرب بعنف .

فى العراق:

بعد سقوط الدولة العثمانية ذهب إلى دمشق لبناء الدولة العربية الجديدة التى شكلت برئاسة الملك فيصل، ولكنها أسقطت بيد الجنرال (غورو).

وكان المدرس فى باريس مع الوفد السورى للدفاع عن حق العرب وبقى فيها، وأخذ يجمع شعره فيها ... ثم عاد إلى العراق ، وعين فى بلاط الملك فيصل ورأى العراق تحت سيطرة الإنكليز ، واختلف معهم فأبعد عن البلاط . أحس بنفسه أثر معاهدة "سايكس بيكو" فى تمزيق الدولة العثمانية والعرب..وأحس بوطأة الاستعمار على بلده فلم يرض عن الحكم البريطانى.

محتويات المخطوطة:

بدأ جمع شعره فى باريس وأرخ بعض هذه القصائد ، وحوت المخطوطة سبع قصائد، وأول قصيدة هاجم فيها العهد الطورانى مطلعها:

سارت تؤم سراة القوم مرقال

أدماد دلعبة ضاقت بها الحال

وعدد أبياتها ١٨٢ بيتًا. أما القصيدة الثانية فمطلعها:

جَسِّرْ حسامَك واركب هامة الخطر

واضرب رقاب العدا إن كنت من مضر

وترك خمس صفحات بيضاء وكتب القصيدة الثالثة ومطلعها:

يا أنجما فى سماء العلم قد طلعت

لنشر نور على الآفاق فى الظلم

وعدد أبياتها ١٢٧ ، ثم قطع خمس ورقات وترك ثلاث صفحات بيضاء على صفحة منها بالقلم الرصاص:

يا بنت باريس تنحى واذهبى

عنى وكُفّى يا فتاة ملامى

ولكن القصيدة لا وجود لها فى المخطوطة ويظهر أنها قصيدة غزلية أتلفها فيما أتلف من شعره. ووجدت فى بقايا الصفحات المتطوعة(وأبيت ليلى لا) وكلمة (ألا تفوزا)وقطع أربع ورقات وترك صفحة بيضاء وكتب القصيدة الرابعة وعنوانها (من المستنصرية إلى صوربون) ومطلعها:

سلام على ربع العلوم وأهله

سلام على عهد الولاء يجدد

وغدد أبياتها ٢٢ بيتًا وترك ٧ ورقات وصفحة واحدة وكتب قصيدة بلا

عنوان، لكنه كتب فى أعلاهـــا ((١٩٢٠-١مـــارس (Paris 14 Rue Lalo) ، وفى السطر التالى "تليت بمحضر سادات العرب فى باريس قبل الاســـتقلال فى الشـــام" ، ومطلعها:

حَيِّ الطلول الدارسات دهورا

وقِفَنْ قلوصَك عندها والعِيرا

وعدد أبياهًا ٤٦ بيتًا وهى القصيدة الخامسة ، ثم قطع ثلاث ورقـــات وتـــرك ورقة بيضاء ، وكتب القصيدة السادسة و لم يضع لها عنوانا، ولكنه أثبـــت عنوانـــه فى باريس وكتب فى أعلا القصيدة "بمحضـــر جماعة من العرب فى دار المدرس فى باريس ١٥مارس ١٩٢٠" ومطلع القصيدة:

جاء البشير وولت الأعداء

قوموا ســـراعا أيها الشـــهداء

ويظهر أنه كتبها بعـــد ســـقوط الاتحـــاد والترقى ، وعدد أبياهًا ٣٢. ثم ترك بعـــض الأوراق البيضاء وبذلك نظم ثلاث قصـــائد فى شهر واحد فى ١ و ١٠ و ١٥ من شهر مارس وكتب اسم الشهر مرتين (مـــارس) ومرة واحدة (مارت).

أما القصيدة السابعة فقد جـــاءت بعد أن ترك صفحة واحدة ودون عنوانه فى أعلاها وهو ((باريس سه ن كلو – البيـــت الأزرق ١٠مـــارس ١٩٢٠) ومطلـــــع القصيدة:

طاب النسيم وطاب الأرواح

فخذى العقول وصفقى يا رياح

وعدد أبياهًا ١٣ بيتًـــا وبقـــى فى الدفتر ١٧ ورقة بيضاء.

والخلاصة المخطوطة حوت ســـبع قصائد: وإذا جمعنا عدد الأبيات فتكون:

١٨٤، ١٢٧، ٣٨، ٢٢، ٤٦، ٣٢، ١٣=٤٦٢

وإذا أضفنا إلى المخطوطة القصائد الـــتى لم يدونها الشاعر فيها وهى:

١- إن يكن فى الفتاة ما تدعيـــه. وعـــدد أبياهًا ١٢

٢- إن يكن فى الفتاة يا شيخ نقص .وعدد أبياهًا ٣٢

٣- ماذا يحاول من يعادى المعهدا. وعـــدد أبياهًا ٨٧

٤-هو الموت لا يبقى من الناس باقيا.وعدد أبياهًا ١٨٨

٥- برزت بمنظرها البهى الأنور. وعـــدد أبياهًا ٥٥

وعدد الأبيات التى لم تدون فى المخطوطـــة تكون ٣٧٤

فيكون مجموع شعر الشاعر فى المخطوطة وخارجها ٣٨٤+٣٧٤=٨٣٦. وهى حصيلة شعرية جيدة بالقياس إلى بعض المجموعات الشعرية المعاصرة.

أدبه:

كان فهمى المدرس كاتبا بارزا وذكيا لامعا، وإداريا معروفا ، درّس الأدب الجاهلى فى إستانبول فى الجامعة، باللغة التركية(*) ، وطبع هذه الكتاب وبقى طلابه يحتفظون بنسخ منه. كان شديد الاعتزاز بالعرب والإسلام وأشاد بهم وبمواقعهم وانتصاراتهم فى الجاهلية والإسلام. وشاهد تدهور الخلافة العثمانية، وحكم الاتحاد والترقى، وتأسيس دولة عربية فى الشام ، ورأى كيف أجهضت معاهدة سايكس - بيكو السرية أحلام العرب عندما زحف الجنرال غورو على دمشق وسحق الجيش العربى فى واقعة ميسلون .

وكثرت فى شعره أسماء الشعراء العرب والقادة والأماكن التى وردت فى تاريخ العرب مثل امرئ القيس وعمرو بن كلثوم وعنترة وقُسّ بن ساعدة وذى يزن وقحطان، والخورنق والسدير، وكيف كان المسلمون يحكمون العالم وأصبحوا اليوم شعوبًا وقبائلَ وأممًا تتحارب وتتقاتل، فأراد أن يحث العرب على النظر إلى تراثهم ويبعث الثقة والعزيمة بذكر تاريخهم، فذكر موقعة ذى قار، وخسارة الأحباش فى الاستيلاء على مكة المكرمة، وذكر علاقة هارون الرشيد بشارلمان، وتقدم العلوم والفنون والآداب عند العرب والمسلمين وعدل الإسلام فى قصة جبلة بن الأيهم وعدل عمر بن الخطاب فى قصة القبطى . كما أشار إلى الأماكن التى وصلها الإسلام لهداية الناس، مثل جيحون والوادى الكبير وهمدان وهرات وقسطل وشريش وقرطبة ونيسابور ، وذكر حرية الرأى فى حكاية الأعرابى مع عمر بن الخطاب ، وقوة الدين الإسلامى عندما قيل: لو وجدنا فيك اعوجاجا لقوّمناه بسيوفنا ، وجواب الخليفة الذى حمد الله على أن يجد من يُقَوِّمُ اعوجاجه.

إنها إشارات يعرفها التاريخ الإسلامى، أراد أن يبعث الثقة بالنفوس الحائرة والجيل المغترب المضطرب الحائر فقال:

سادتْ بكم أمة سادت مفاخرها
على المفاخر من عادٍ إلى إرمِ

(*) تاريخ أدبيات عربية الآستانة.

سادت بكم أمة فى العلم دان لها
أُولو الفصاحة والآداب والحكمِ
سادت بكم أمة والله ما خضعت
للضيم يومًا ولا ذلت لذى عظم
قوم همُ شيدوا للمجد منـــزلة
قبل النبوات فى عهد وفى قدم

أراد الأديب أن يذكر العرب المتنـــاحرين والمتمزقين بالعرب الذين كانوا كتلة واحدة يلفها الإيمان والحب، وقد اعتصموا بحبـــل الله فى ظل مساواة الإسلام وعدله بالاقتداء بالرسول الكريم وهدى القرآن فقال:

هذا محمد خير الخلق من مضر
هذى المفاخر هذى غاية النِّعَمِ
فالله يحكم والقرآن شاهدنا
والدين يعدل بالأحكام للأمم
وإن من ينكر الآيات ساطعة
فعينه عميت والأذن فى صمم

والرجل أستاذ يرى للعلم المنزلـــة الأولى على أن يقوم على التراث الأصيـــل والجد والإخلاص.

وجدِّدوا لقديم العلم منزلة
وشمِّروا شمِّروا عن ساعد الهمم
واستنجدوا العلم فى ايقاظ قومكم
فغاية الجهل مهواة إلى العدم

وفى هذه الفترة كان العربى والمسلم والشرقى يحسون إحساسًا واحدًا مترابطًـــا فلم تكن الحدود قد وضعت والإقليمية قـد غرست وجوازات قد طبعت، فكل مثقـف يرى وحدة الشرق والعرب والإسلام تضـم الجميع، فقد كـــان الشـــرق والعروبـــة والإسلام فى اتحاد وقوة فقال شوقى:

إن العروبة لفظ إن نطقت به
فالشرق معناه والإسلام والضاد

وكان همّ العرب وحدة الجزيـــرة العربية بما فيها العراق والشـــام ومصـــر ، لذلك فعندما تحل بمصر مشـــكلة أو بأيـــة قطعة من الوطن العربى نرى كل العـــرب يحسون بها، فقال الشاعر يخاطب مصر:

لاتخشين يامصر كيدًا للعدا
إن ضلت الآراء والأهواءُ
يامصر لست عن البلاد وأهلها
ببعيدة إن حانت الشحناء

ونجد ذلك الفكر الشرقى العـــربى الإسلامى عندما يقول:

لبنان منى والبقاع وصورها
وطنى وعندى كلها زَوْراءُ
لا فرق بين حجازنا وشآمنا
جسد يئنُّ وكلنا أعضاء

إنه عصر كان الفرنسيون فى الشام والإنكليز فى العراق ومصر، والطليان فى ليبيا.

الاتحاد والترقى :

لا أريد الحديث عن مؤامرة العرب والصهاينة ضد الدولة العثمانية، وخلع السلطان عبد الحميد، فقد ذكرها التاريخ وكان نتيجة المؤامرة ، سيطرة الاتحاد والترقى، وتمزيق الدولة وتحولها من دولة مسلمة إلى دولة طورانية جعلت القومية التركية فوق كل شيء، ونبذت كل الشعوب وعادتها، وجعلت أنصارها فى الوظائف الكبيرة من الجهلة والأميين .. وبدّلت مظاهر الدين الإسلامى وغيّر رجال الاتحاد والترقى أسماءهم العربية إلى أسماء طورانية ؛ مثل جنكيز وتيمور وأرطغرل وتركوا الأسماء العربية مثل محمد وعليّ والحسن وسعد وعمر والعباس وأخذوا يحكمون بما تشاء أهواؤهم بلا شرع يردعهم، أو لا قانون يوجههم، حتى الدستور الذى أعلنوه أهملوه فكان الحاكم كما قال:

فحاكم الشعب زنديق وحارسه
مضلل وأمين الملك دجّالُ

يسدُّ خرقاً بخرقٍ وهو راقعه
كما إذا سد وجه الشمس غربالُ

من ذا يقوم بأعباء العباد ومن
يحمي البلاد ومن للخطب يحتال؟

فالمدرس وضع النقاط على الحروف بعد أن رأى إصبع الغرب فى كل ما يحدث للدولة العثمانية ... من ضياع للمثل والأخلاق والمعايير ... فقد عبث الاتحاد والترقى بالدولة ،لضيق الفكر والمكتسب الفردى، وتألم عندما رأى الجهلة يحكمون البلد فقال:

أعرشُ هارون يعلوه على سفه
من آل جنكيز أوغاد وأدغال؟

أُفٌ لتاج علا هامًا مضللة
من بعد هامٍ عليها الحكم ينهال

الإنسانية فى شعره:

وفى قصائده الإنسانية الرائعة تختلط بالمشاعر العربية والإسلامية :.. إذ أن الاتحاديين لم يكتفوا بالحكم، بل أخذو بالفتك بالعرب وشنقوا جماعة فى دمشق وبيروت بعد محاكمة عسكرية صورية فى عالية .. وكان هذا الفكر المحدود المتعصب سببًا فى ضياع الدولة وتمزقها .. وندامة هؤلاء من حيث لا ينفع الندم، وقتلهم فى

كل مكان حلوا فيه لاسيما القيادة الذين قاموا بالانقلاب، ورأى المدرس هذه النهاية وهو فى باريس فقال:

زال العدا ثم زال الملك واندرسوا

وهم على الرغم أحياء ومازالوا

أجل إنهم (أحياء عند ربهم يرزقون)...

العراق:

وقد فتك الاتحاديون فى العراق وأخذوا النساء والأطفال إلى الأناضول، فتركوا فى كل بيت رنة حزن وصوت عويل وأسى عميقا، وتحول العراق جنة الأرض إلى أطلال وخرائب فقال:

إن الجنان التى كانت تُظَلِّلُه

أضحت هشيمًا فلا ظلٌّ ولا ضالٌ

كم قتَّلوا سادة واستحقروا أمما

وَيل لهم معشر للمجد قتال

الشريف حسين:

إن ما حاق بالدولة العثمانية من أعمال الاتحاد والترقى ترك أثرًا عميقًا فى نفوس العرب، وكان من جراء ذلك ثورة الشريف جسين فى التاسع من شعبان، وكان المدرس قد آلمه تخريب الاتحاديين ورأى فى الشريف حسين وسيلة إنقاذ فانضم إليه وناصره ومدحه.

الحرية وباريس:

إن الظلم الذى سيطر على الدولة من حكم الاتحاديين وعبثهم فى مقدرات الناس كان واضحًا أصاب كل عربي، ولما قارن المدرس حالة هؤلاء بالحالة العامة فى باريس وجد البون شاسعا، فقد وجد حرية التنقل والخطابة والصحافة فى فرنسه حرة كل الحرية، لا يخاف زائر الليل ولا مراقبة الأمن ولا تدخل الشرطة، لهذا فباريس جنة الحرية ، القانون هو المسيطر لا سطوة حاكم ولا رأى سلطان عليه فقال:

تعالوا تعالوا إن باريس معبد

به الناس أحرار به الحق يقصد

ولن تحرر الشعوب إلا بالثورة ولن تحصل على الحرية إلا بالقوة فقال:

إن الحقوق تمردت إلا على

من جرد العضب الصقيل وجددا

لاتدل إلا بالسيوف أدلة

فالحق فى حد السيوف تولدا

تأسيس الجامعة:

أراد المدرس أن يحقق حلمه أستاذًا بتأسيس جامعة حديثة علي غرار جامعات أوربا التى زارها، مثل كمبردج وأكسفورد وباريس (السوربون) لأنه آمن بأن الأمة لن

تتطور إلا بالعلم ... كان واسع الأحلام سبق عصره .. لكن قوبل بمعارضة شديدة وأخفق المشروع برغم الإعداد له ، وبناء أول بناية له وتخطيط جميع مرافقها،لهذا تألم الشاعر فقال:

يا غافلاً مما يراد به أفقْ
من غمرة السكرات فالحادى حدا

ومنها

يا شرقُ جدِّد ما استطعتَ، على الذى
ضاق الخناق عليه أن يتنهدا

وبكى تهدم آماله فى رفع مستوى أمته، لأن العلم هو الذى رفع من قدرة الغرب الذى أخذ حضارته من العرب فقال:

لو كان للدمع الخلود مُقَدَّرا
لأقمتُ منه نائحًا ومُعدِّدا
مجد طواه الدهر مجدًا شامخًا
لله طودٌ صار يوما فدفدا

وتلفت يمنة ويسرة فرأى ما حاق بالأمة من تخاذل وتمزق، وقارنه بعهد الرسول الكريم فاستنجد به فقال:

أَمحمدٌ أدركْ بطانة أمة
لولاك ما بسطتْ على الدنيا يدا
جار الزمان وما وعوا وتفرقوا
شيعًا، فعاد عليهمُ فاستعبدا
لم يبق للعربى مأوى آمن
يأوى إليه مُتْهِمًا أو مُنْجِدا

لله ذلك العربى الضائع التائه الذى لا يجد له مكانا يحتمى به أو مأوى يلوذ به، ما أشد قساوة الأيام عليه!

الحجاب والسفور:

ومن الأمور التى جاءت فى المخطوطة معركة السفور والحجاب التى ظهرت فى مصر عندما نشر قاسم أمين كتابيه (تحرير المرأة) و(المرأة الجديدة) وتأثر بها كتاب العراق، ودارت معارك فى الجرائد والمجلات بين مناصر ورافض، ولكن المدرس وقف موقفا جديدا .. فلم يناصر السفور أو يقف مع الحجاب، إنما عالج المشكلة العامة التى سيطرت على الشعب كله، إنها مشكلة التأخر العقلى، والأمية التى رانت على الرجال، أراد أن يتعلم الشعب قبل أن يبحث فى قضية الحجاب والسفور التى ليست ضرورية فى هذه الفترة، فقال للأدباء والأولياء:

أصلحِ الشعبَ إن أردتَ صلاحًا
كل قوم صلاحهم نفسىٌّ
ما يُفيد الحجاب عبدًا رقيقًا
ذللتهم أكفهم والعصىُّ

ولعله يرد على الزهاوى الذى نشـــر قصيدة قال فيها:

مزّقى يا ابنة العراق الحجابا
واسفرى فالحياة تبقىَ انقلابا

فن الشاعر:

يمتاز شعر الشاعر بجزالة الأسلوب وقوة النسج،متأثرًا بالشعر الجاهلى والحياة العربية فيه، وبعض الآثار من الشـــعر العباســى والعصر الأموى، لكن السمات البدويــة فى الصحراء هى الغالبة، فقد وصف الناقة بأنها أدمـــاء ،وســـرداحة، لأنــــه درس الأدب الجاهلى فترة طويلة .. إضافة إلى أن عصره لم يكن قد انتشرت فيه المواصلات الحديثة، حتى انه نقل كتبه بعد سقوط الدولة العربية فى الشام على أربعة جمال إلى بغداد وأخــذ الجمّال منه (١٦٠ليرة ذهبية). ومن تـــأثره بالعصر الجاهلى قال:

سارتْ تؤمُّ سَراة القوم مرقالُ
أدماء دلعبة ضاقت بها الحالُ

القرآن الكريم:

ويظهر أثر القرآن الكريم فى شـــعره بوضوح فقال:

هٰذا بلاغ به ذكرى وتبصرة
وحسبُ ذا اللبِّ تفصيل وإجمال

الجديد:

ووجدته متأثرًا بالكلمات الحديثـــة التى كانت تنتشر فى المتقطـــف والمقطـــم والهلال، فأدخلها فى شعره، مثل "الأثـــير والإكسير والسيارات والدستور والنجوم". وهى كلمات شاعت مع الفكر الجديـــد الذى جاء من الترجمة عن الغرب.

المحسنات اللفظية:

وفى شعره بعض المحسنات اللفظيـــة التى جاءت عفوا الخاطر مثل قوله.

أعرش هارون يعلوهَ على سفه
من آل جنكيز أوغاد وأدغال

وقوله:

داروا على دارا فحلوا ملكه
واستورثوا الكلدان والآشورا

صوره الشعرية:

وله صور شعرية جميلة منها:

عجبتُ أن تحمل الأطواد شامخة
والأرض مادت بهم ترتجُّ فى ذعرِ

ومنها:

عجبت للظلم نيران مسعرة
كيف استويت و لم تندكّ من ذعرِ
عليك أفئدة طارت محلقة
تنوح كالورق إذا ناحت على الشجر

وأخيرا برغم الإيذاء والظلم الذى أصابه من بنى وطنه كان رقيق الخلق، جميل الشمائل، فقد فضل أهله وأرضه على كل أرض وبلاده على كل بلد زاره، وفاء وحبًا وحنينًا قال:

أحاديث دهر كلهن مصائب
نشرن فلم يخلف لها الدهر طاويا
أحاديث أوطانى وأهلى وعترتى
وأبناء قومى ثم نفسى وماليا
أحاديث أرض مارضيت بغيرها
مقيلاً ولا عن أرضها كنت ساليا
أحاديث عن وادى الفرات ودجلة
ومن ذا رأى - قل لى بربك - واديا

التجديد:

والغريب أننى وجدت قصيدة الزهاوى التى نشرها فى الكلم المنظوم التى نظمها بغير قافية موحدة عند الشاعر بين الأوراق التى وجدتها مع المخطوطة، ونُشر بعضها فى ديوان الزهاوى، وسمى هذا الشعر بالشعر المرسل، واكتفى بالوزن دون القافية ومنها هذه القصيدة.

يعيش رخىَّ البال عشر من الورى
وتسعة أعشار الورى بؤساءُ
أمّا فى بنى الأرض العريضة قادر
يُخفِّفُ ويلاتِ الحياة مقيلا

إن نقل القصيدة بيده ووضعها مع أوراقه دليل على اهتمامه بالتجديد.

هذه فكرة عامة عن المخطوطة وعسى أن يُتاح لى طبعها، لإعادة ذكرى. إنسان أراد الخير لوطنه، والتطور والتجديد لكنه سبق زمانه فجُوزى بالعقوق، ومات خائفًا فى داره وكم من مخلصين وعباقرة ماتوا فى وطننا دون أن يكترث بهم الوطن؟ إنه التخلف الحضارى الذى ران على الأمم المتخلفة التى سميت نامية تخديرًا.

يوسف عز الدين
عضو المجمع المراسل من العراق

توحيد المصطلح العلمى العربى

من طور الهمّ إلى طور الفعل *

للأستاذ الدكتور محمد هيثم الخياط

هذا الشعرُ الجاهلى المُعْجب ، الذى لم أرَ - فى ما قرأتُ من شعر الأمم - أقْدَرَ منه على سَبْرْ أغوار النَّفْس ، ولا أصدَقَ منه فى وصف طبائع الأشياء .. يطيبُ لى أن أستشهدَ منه اليومَ ببيتٍ للحارث بن حلّزة اليَشْكُرى يقول فيه:

إنّما العَجْزُ أن تَهُمَّ ولا تفعلَ

(م)والهَمُّ ناشِبٌ فى الضميرِ

فهو - لله درُّه - يَصفُ فى ما يَصف ، موقفاً من مواقف النفس البشرية ، يَتَمَخَّضُ فى طَوريْن اثنَيْن يَمرُّ بهما الإنسان، وتَمُرُّ بهما الجماعة كذلك ، فى النهوض بأىّ أمرٍ من الأمور: طورِ الهَمِّ: "تَهُمّ" ، وطورِ الفعل: "تَفْعَل"! وقد صحَّ عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم - فى ما رواه أبو داوود - أن أصدق الأسماء حارث وهَمّام. فالهَمُّ صفةٌ لازمةٌ من أصدق صفات الإنسان ، وطورٌ نفسى لابُدَّ منه استعداداً لطور الفعل ، ولكنه "شرطٌ لازمٌ غيرُ كاف" كما يقولون. فما لم يخرج المرءُ من طور الهمِّ إلى طور الفعل، لم يكن لهَمِّه هذا أىُّ أثر، وأنا أزعُمُ أنَّنا - فى مجال توحيد المصطلَحِ العلمىِّ العربىِّ - مازلْنا فى طَوْر الهَمِّ ، على كثرة ما عَقَدْنَاه من مؤتمرات، وما أصدَرْناه من قرارات وما استَنْفَرْناه من خُلَفاء.. ولن ينفَعَنا ولن يَنْفىَ العجزَ عنا أن يكون هَمُّنا هذا ناشباً فى ضمائرنا ، مالم ننتَقِلْ به إلى طَوْرِ "الفعل" العتيد.

نَعَمْ ، قد تَرىَ فى بعض ميادين العلم محاولات جادَّةً لهذا التوحيد ، ولكنها ستظلُّ قاصرةً إذا لم يُتَّفَقْ على نهجٍ لاحبٍ يسلُكُه العلماء المعرِّبون كلُّهم أجمعون ، ترعاه موسسةٌ ذاتُ سُلطانٍ لغوى جَمْعى كهذا المَجْمَع الموقَّر أو اتحاد المجامع.

وقضيةُ السلطان الجماعىِّ هذه ، قضيةٌ تطرَّقْتُ إليها على عَجَلٍ ولَمَسْتُها لَمْساً رفيقاً قبل بضع سنين ، يومَ تحدَّثْتُ فى مجمع اللغة العربية الأردنى عَمَّا أسميْتُه "نظرية الضرورة العلمية". وأنا عائدٌ إليها

* ألقى هذا البحث فى الجلسة الحادية عشرة لمؤتمر المجمع بتاريخ ٥من ذى القعدة سنة ١٤١٥هـ الموافق ٥من أبريل (نيسان) سنة ١٩٩٥م.

الآن إن شاء الله وإلى " نظرية الضرورة باختصار "، فلكلتيهما شأنٌ كبير في ما نحن بصَدَده اليوم.

فقد تواطأ علماءُ العربية منذُ عهد الخليل ، على أنّ لهذه اللغة الشريفة أصلاً كان عليه بنيانها. وذلك وجهٌ من أهمّ أوجُه عبقرية الخليل ، وبُعْدٌ رائع من أبعاد ذهنيَّته الرياضية الفذّة ، تلك الأبعاد التي لانكاد نعرف لها مُجْتَمعَةً نظيراً في عباقرة الأمم جميعاً. وقد كان للخليل - رحمه الله - فَضلُ ابتكار هذا التصوُّر الذي تقبَّل ظلالَه علماء العربية من بعده. ويُخيَّل إليَّ أنه بفضل ذهْنه الرياضي الفَريد ، قد قام بعملية استيفاء راجع مُدْهِشَة ، تابَعَه فيها سيبويه ومن جاء بعده ، وتوصَّلوا منها إلى صرح جميل كأنه ممرَّد من قوارير ، لاترى فيه عِوَجاً ولا أَمْتاً ، ولا تُحِسُّ فيه شذوذاً ولا خَلَلاً.

وهذا التصوُّر أشار إليه ابن جنّي في "الخصائص" [٦٤/١] فقال: "اعلم أن واضع اللغة لما أراد صَوْغَها ، وترتيبَ أحوالها ، هَجَمَ بفكْره على جميعها ، ورأى بعَيْن تصوُّرِه وُجوهَ جملها وتفاصيلها ، وعَلِمَ أنَّهُ لابُدَّ من رَفْضِ ما شَنُعَ تألُّفه منها... فنَفَاه عن نفسه ، و لم يُمْرِرْه بشيء من لفظه...".

وبمثل ذلك قال خَلْقٌ من علماء العربية كثير. وكانوا ينطلقون دائماً من وجود هذا الأصل - الصَّرْح ، الذى يتَّصف بالحُسْن والجمال ، بل كادوا يَصِفونه كذلك بالكمال.

وكان من مكمِّلات تصورُّهم هذا وجودُ موقفٍ موحَّد يَقِفُه جميع واضعي اللغة ، حتى عبَّروا عن ذلك - كما صنع ابن جني - بلفظ الواحد: "واضع اللغة".

"وذلك لأن العربَ وإنْ كانوا كثيراً مُنْتَشِرين ، وخَلْقاً عظيماً في أرض الله غيرَ مُتَحَجِّرين ولا مُتَضَاغطين ، فإنهم بتجاوُرهم وتَلاَقيهم وتَزَاوُرهم يَجرونَ مَجرى الجماعة في دار واحدة...". [الخصائص: ١٥/٢]

وما كان لمثل هذه "الجماعة اللغوية" في نظرهم أن تَرْتَكبَ خِلافَ الأَوْلى .."وكيف كانوا يكونون في ذلك على ضعف من القياس والجماعةُ عليه؟! أَفَتُجْمِعُ كافَّةُ اللغات على ضعف ونقص؟..". [الخصائص: ١٥/٢]

".. وذلك أنهم وزنوا حينئذٍ أحوالَهم ، وعرَفوا مصايرَ أمورهم ، فعلموا أنَّهم مُحتاجون إلى العبارات عن المعانى ، وأنَّها لابُدَّ لها من الأسماء والأفعال والحروف ، فلا عليهم بأيِّها بدءوا ، أبالاسم أم بالفعل أم بالحرف ، لأنهم قد أوْجَبوا على أنفسهم أن يأتوا بهنَّ جُمَع ، إذا المعانى لا تستغنى عن واحد منهن! هذا مذهبُ أبى على ، وبه كان يأخذ ويُفتى.."
[الخصائص: ٢/٣٠]

وذلك أن للأشياء أصولاً" كما يقول المبرِّد فى "المقتضب" [١/٣٨٣].

وقد تبيّن لهم أن "الأصل" فى الأسماء أن تُنوَّن وأن تَدْخُلَها حركة الجَرِّ ، وأن "الأصل" فى الأفعال أن تُبنى. فالأفعالُ - كما يقول سيبويه [١/٦] - أثقل من الأسماء ، لأن الأسماء هى الأوَل وهى أشدُّ تمكُّناً ، فَمِنْ ثَمَّ لم يلحَقْها [أى الأفعال] تنوينٌ ولَحِقَها الجزم والسكون"... والأفعالُ كلُّها - كما يقول أبو سعيد السيرافى [١/٤] "حقُّها أن تكون مسكنةَ الأواخر ، والأسماءُ كلُّها حَقُّها أن تكون مُعْرَبة".

ولكن علماء العربية لم يلبثوا أن تبيّنوا أن "واضع اللغة" لم يكن من البلادة بحيث يضع اللغة ويستريح ، وإنما هو "واضعٌ نشيط حَرِك" لم يعجبه أن يجمُد على ما توصل إليه من بنيان ، وإنما أخذ يُهَنْدِمُه من هنا ويُشَذِّبُهُ من هناك ، حتى يبلغ به غايةَ الجمال.

"وكان أبو الحسن يذهب إلى أن ما غُيِّر لكثرة استعماله إنما تصوَّرَتْهُ العرب قبل وضعه ، وعلمت أنه لابُدَّ من كثرة استعمالها إياه ، فابتدءوا بتغييره ؛ علماً بأن لابُدَّ من كثرته الداعية إلى تغييره".
[الخصائص: ٢/٣١]

ولعل من أبرز ملامح هذه الظاهرة أى النحو باللغة منحى الجمال ، ما يُطلقون عليه طلب الخِفّة أو الاستخفاف ، أو النأى عن الاستثقال.

واستمع إن شئت إلى ابن جنى فى الخصائص [١/١٢٥ . ٢٤٩] وهو يحدّثك عن شيخه أبى علىٍّ "عن أبى بكر عن أبى العباس أنه قال: سمعت عُمارة بن عَقيل يقرأ "ولاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارَ" بالنَّصب. قال أبو العباس: فقلت له: ما أردتَ؟ فقال: أردتُ (سابقٌ النَّهارَ) فقلت له: فهلاّ قُلْتَه؟ فقال: لو قُلْتُه لكان أوْزَن. ففى هذه الحكاية لنا ثلاثة أغراض مستنبَطة منها: أحدها تصحيحُ قولنا: إن أصلَ كذا كذا ؛ والآخَرُ قولُنا: إنما [أى العرب] فَعَلَتْ كذا

لكذا ، ألا تراه إنما طلب الخفّة؟ يدلُّ عليه قولُه: لكان أَوْزَن أى أثقَل فى النفس وأقوى ، من قولِهم: هذا درهمٌ وازن، أى ثقيل له وزن ؛ والثالث أنها [أى العرب] قد تنطق بالشيء: غيرُه فى أنفُسها أقوى منه ، لإيثارها التخفيف".

"وكان الخليل يجيز خطايا وما أشبهه على قولهم فى مِدْرَى: مَدارَى ، وفى صحراء: صَحَارَى لا على الأصل ولكنه يراه للخِفّة أكثر". [المقتضب: ٢٧٩/١]

"ومن ذلك قولهم: (عَمْبَر) ، أبدلوا النون ميماً فى اللفظ وإن كانت الميم أثقل من النون ، فخُفِّفت الكلمة ، ولو قيل (عَنْبر) بتصحيح النون لكان أثقل". [الخصائص: ٢٠/٣]

ومثل عَمْبر: "قَمْبض" و "شَمْباء". [المخصص: ٧٣/٢]

"واعلم أن التضعيف مستثقَل... وقومٌ من العرب إذا وقع التضعيف أبدلوا..". [المقتضب: ٣٨١/١] .

ومن أمثلة العُدول عن الأصل لوجه الجمال أيضاً أن الكوفيين أجازوا قلب الياء الأصلية واواً ، فأجازوا فى تصغير شيخ "شُوَيْخاً" كما أجازوا قلب الألف المنقلبة عن ياء واواً، كما فى ناب و"نُوَيْب" واستدلّوا على ذلك بأنه سُمِع "بُوَيْضة" تصغيراً لبيضة. وقالوا كذلك "عُوَيْنة" فى تصغير العين. ولاشك فى أن الكوفيين قد جَنَحوا لذلك استخفافاً ، لخفة النطق بالواو بعد الضمّة واستثقال النطق بالياء بعدها ، إذ الضمة والواو أختان متجانستان، أما الضمة والياء فمتنافرتان.

ومن أمثلة ذلك أنهم "أجازوا الحذفَ فى بعض المواضع استخفافاً" [الخزانة: ١٨/١] ؛ وأنه "إذا كان الحرف لا يتحامل بنفسه ، حتى يدعو إلى اخترامه وحذفه ، كان بأن يضعف عن تحمّل الحركة الزائدة عليه أحرى وأحجى. وذلك نحو قول الله تعالى: "وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ" و "ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ" ، و "الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ" ، وقوله:

... ... وما
قَرْقَرَ قُمْرُ الوادِ بالشاهقِ

وقال الأسود بن يعفر:

* فألحقتُ أخراهم طريقَ ألاهُمُ *

بلا واو للوقف عليها كذلك...". [الخصائص: ٢٩٢/٢] "وحُذِفَتْ [أحرف العلّة] أيضاً استخفافاً ، كما تحذف الحركة لذلك ... وقال رؤبة:

* وصّانِىَ العجّاج فيما وَصَّنِى *

يريد: وصّانى ، وقال الله عزّ اسمه: "والليْلِ إذا يَسْرِ" وقد تقدّم نحوُ هذا ؛ فنظير حَذْف هذه الحروف للتخفيف حذفُ الحركات أيضاً ، فى نحو قوله:

* وقد بدا هَنْكِ من المئزرِ *

وقوله:

* فاليومَ أشربْ غير مستحقِبٍ *

وقوله:

* إذا اعوجَجْن قلتُ صاحِبْ قوِّمِ *

وقوله:

* ومَنْ يَتَّقْ فإن الله مَعْهُ *

وقوله:

* أو يرتبطْ بعضَ النفوس حِمامُها *

[الخصائص: ٢/٣١٦ ، ٣١٧]

".. ومنه إسكانُهم نحو رُسْلٍ ، وعَجْزٍ ، وعَضْدٍ ، وظَرْفَ ، وكَرْمَ ، وعَلْمَ ، وكَبْد، وعُصر. واستمرارُ ذلك فى المضموم والمكسور دون المفتوح ، أدَلُّ دليلٍ - بفصلهم بين الفتحة وأختيْها - على ذَوْقِهِمُ الحركات ، واستثقالهم بعضها واستخفافهم الآخر. فهل هذا إلا لإنعامهم النظر فى هذا القدر اليسير المحتَقَر من الأصوات ، فكيف بما فوق من الحروف التَوَامّ ، بل الكلمة من جملة الكلام؟!". [الخصائص: ١/٧٥]

ومن ذلك قراءة أبى عمرو بن العلاء فى قوله تعالى: "فَتوبُوا إلى بَارِئْكُمْ" [البقرة: ٥٤] بإسكان الهمزة فى "بَارِئْكُمْ" ومثلها "يَنْصُرْكُمْ" و "يَجْمَعْكُمْ" و "أسْلحَتْكُمْ" رُوِىَ ذلك كله بالتسكين.

[الحجة فى القراءات السبع لابن خالويه: ٥٤]

وهكذا تبيّن لعلماء اللغة ، أن ثَمّة نزوعاً دائماً إلى الخروج على الأصل،ثم إلى الخروج على القياس علي الأصل ، وتلك عملية طبيعية تزاولها الجماعة ويزاولها الأفراد ، وتتجلى فيها حيوية اللغة، فإذا مارستْها العربُ جماعةً كانت مقبولةً على الإطلاق وحلَّتْ محلّ الأصل.. وإذا مارسها الأفراد مقبولة فى بعض الأحوال وأُطْلِقَ عليها اسم "الضرورة".

وإنما يحدث ذلك بآلية يُطلق عليها الخليل وسيبويه اسم "التشبيه" ، ويطلق عليها نحاةٌ آخرون اسم "الحمل"، فكأن بنيانَ العربية نفسه ليس ببنيان راكدٍ خامل، ولكنه بنيانٌ متفاعلٌ حَرِك. ففيه مستويات مختلفة من التعبير ، تَتَواثَبُ بينها الكَلِمُ استجابةً لسَطْوَةِ الجمال أو سُلطان النَّغَم ، كتلك المستويات المختلفة من الطاقة فى نواة الذرّة ، تَتَواثَبُ بينها الذُرَيْرات من جرّاء سطوة طاقة خارجية ترتفع بها من

مستوى إلى آخر ، كما أن فيه ساحات كحقول الجاذبية ، تجذب البُنى المتشابهة بعضها إلى بعض.

وآلية الجاذبية هذه تراها مثلاً فى ما ذكره ابن جنى عند حديثه عن "ديمة" و "دِيَم"... إلى أن قالوا: ديَّمَت السماء ودوَّمت ؛ فأما "دوَّمَتْ" فعلَى القياس وأما "ديَّمَتْ" فلاستمرار القلب فى ديمة وديم... إلى أن يقول: "حَمْلُه على الإبدال أقوى ؛ ألا ترى أنه قد حُكِيَ فى مصدره "دَيْماً"؟ فهذا مُجتَذَبٌ إلى الياء مُدَرَّجٌ إليها مأخوذٌ به نحوها". [الخصائص: ٣٥٥/١]

واستَمِعْ - إن شئتَ - إلى قول سيبويه [٩٣/١]: "وقد يشبِّهون الشيءَ بالشيءِ وليس مثلَه فى جميع أحواله ، وسترى ذلك فى كلامهم كثيراً". وقوله [١٣٠/١]: "يشبِّهون الشيء بالشيء وإن لم يكن مثله ولا قريباً منه ، وقد ذكرنا ذلك فى ما مضى وسنذكره أيضاً إن شاء الله". وقوله [٦/١]: "اعْلَمْ أنَّ ما شارَعَ الفعل المضارع من الأسماء فى الكلام ووافَقَه فى البناء ، أُجْرِيَ لفظُهُ مُجْرى ما يستثقلون ، ومنعوه ما يكون لما يستَخِفُّون ؛ فيكون فى موضع الجرِّ مفتوحاً: استثقلوه حيث قارب الفعل فى الكلام ووافقه فى البناء ، وذلك نحو: "أبيض" و "أسود" و "أصفر" فهذا بناء "أذهب" و "أعلم".

فهذا الذى أسلفناه يبيِّن خروج الجماعة اللغوية على الأصل لِوَجْه الجمال.

ولكن الجماعة اللغوية تخرج على الأصل أيضاً لوجه الدقة العلمية. "وذلك أن العرب كما تُعنى بألفاظها فتُصلحها وتهذِّبها وتُراعيها وتلاحظ أحكامها ، بالشعر تارةً ، وبالخُطَب أخرى ، وبالأسجاع التى تلتزمها وتتكلَّف استمرارها ، فإن المعانى أقوى عندها ، وأكرمُ عليها ، وأفخمُ قدراً فى نفوسها". [الخصائص: ٢١٥/١]

وفى ذلك أيضاً يقول ابن جنى: "وأما غير هذه الطريق من الحمل على المعنى وترك اللفظ ، كتذكير المؤنث وتأنيث المذكر وإضمار الفاعل لدلالة المعنى عليه ، وإضمار المصدر لدلالة الفعل عليه ، وحذف الحروف ، والأجزاء التَّوَامّ ، والجمل ، وغير ذلك ، حملاً عليه وتصوُّراً له ، وغيرُ ذلك مما يطول ذكره ويُمِلُّ أيْسَرُه ، فأمرٌ مُسْتَقِرٌّ ومذهبٌ غير مستنكَر". [الخصائص: ٢٣٧/١]

ويقول فى "فصل الحمل على المعنى": "اعلم أن هذا الشَّرْجَ غَورٌ من العربية بعيد ، ومذهبٌ نازحٌ فسيح ، قد وَرَدَ به القرآن وفصيحُ الكلام منثوراً ومنظوماً ، كتأنيث المذكر ، وتذكير المؤنث ، وتصوُّر معنى الواحد فى الجماعة ، والجماعة فى الواحد ، وفى حمل الثانى على لفظ قد يكون عليه الأول ، أصلاً كان ذلك اللفظ أو فرعاً ، وغير ذلك مما تراه بإذن الله". [الخصائص: ٤١١/٢]

ومن أمثلة ذلك مسألة "ما" التى تعمل عمل "ليس". قال سيبويه [٢٨/١]: "هذا باب ما أُجرِىَ مُجْرَى "ليس" فى بعض المواضع بلغة أهل الحجاز ، ثم يصير إلى أصله ؛ وذلك الحرف "ما": تقول: "ماعبدُ الله أخاك" و "مازيدٌ منطلقاً". وأما بنو تميم فيُجرونَها مُجْرَى "أمَا" و "هل" وهو القياس ، لأنها ليست بفعل ، وليس "ما" كـ"ليس" ، ولا يكون فيها إضمار. وأما أهل الحجاز فيشبّهونها بـ"ليس" ، إذْ كان معناها كمعناها".

وقال ابن جنى "..اللغةُ التميميَّةُ فى "ما" هى أقوى قياساً وإن كانت الحجازيّة أسْيَرَ استعمالاً... فمتى رابك فى الحجازية ريبٌ من تقديم خَبَر أو نقضِ النفى ، فَزِعْتَ إذ ذاك إلى التميمية ؛ فكأنك من الحجازية على حَرْد ، وإن كَثُرَتْ فى النظم والنثر". [الخصائص: ١٢٥/١]

"وسَبَبُ هذه الحمول والإضافات والإلحاقات كثرةُ هذه اللغة وسَعَتُها ، وغَلَبة حاجةِ أهلها إلى التصرُّف فيها ، والتَّرَكُّح فى أثنائها لما يلابسونه ويُكثرونَ استعماله من الكلام المنثور ، والشعر الموزون ، والخُطَب والسُّجوع ، ولقوَّة إحساسهم فى كل شيء شيئاً ، وتخيُّلهم ما لايكاد يشعر به من لم يألف مذاهبهم". [الخصائص: ١٢٥/١]

ومن أمثلة ما عَدَلت به العرب عن الأصل، للتفرقة والفصل بين معنى ومعنى ، تصغير الأسود (اللون) على "أُسَيِّد" والأسود (اللحيّة) على أُسَيْود ، وقالوا كذلك فى العَلَم "حَيْوَة" تمييزاً عن "الحيّة" الثعبان ، وقالوا فى تصغير عيد "عُيَيْد" ولم يقولوا "عُوَيْد" منعاً لالتباس تصغير "عيد" بتصغير "عود".

ومن هذا الضرب فى القراءات قراءة أبى عمرو: "وَمَنْ كَانَ فى هذه أَعْمَى فَهُوَ فى الآخرَة أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً"

[الإسراء: ٧٢] بإمالَة "أعمـــى" الأولى ، "وعلة أبى عمرو فى فتحه الثانى أنه اسمٌ فى موضع المصـــدر ، والأول ليـــس بمعـــنى المصدر، فأمال الأول وفَتَح الثانى للفـــرق" [الكشف عن وجوه القراءات السبع لمكى بـــن ابى طالب]

ومما يغيِّر لوجه الجمال تارةً ولوجه الدقـــة العلمية تارات: باب النسب.

ففى "اللسان" [ح ر م] عن الأصمعى قال:

"والنَّسَب فى الناس إلى الحَرَم حِرْمِىّ بكسر الحاء وسكون الراء ، فإذا كـــان فى غير الناس قالوا: ثَوبٌ حَرَمـــى.. وذلـــك للفرق الذى يحافظون عليه كثيراً ويعتادونـــه فى مثل هذا".

ومثله فى "اللسان" [و أ ب] عن ابن برىّ:

"المَرَئِىّ منسوب إلى امرئِ القيـــس على غير قياس ، وكان قياسَه مَرْئِىّ علـــى وزن مَرْعِىّ" ولكنهم أخرجوه على هـــذا الوزن ليفرقوا بينه وبين ما يُرى.

وفى المُمْتــع "للنهشـــلى القـــيروانى" [١٤٠،١٤٥]:

"عن أبان بن ثعلب وكان عُرْبانـــيًّا عـــن عكرمة عن ابـــن عبـــاس إلخ... قولـــه: "عُرْبانيًّا" فإن هذه الألف والنون تُـزادان فى النسبة ليفرقوا بين العربىِّ اللهجة والعـــربى النَّسَب".

وفى "التلخيص" "لأبى هلال العســـكرى" [٢٦٩/١]:

"بيتٌ أَرْبَعَاوِىّ: بُنِىَ على أربع طرائق"

وفى "اللسان" [ب ك ر]:

"وبنو بَكْر فى العرب قبيلتان. إحداها بنـــو بكر بن عبد مناف بن كنانة ، والأخـــرى ابن وائل بن قاسط ، وإذا نُسِبَ إليـــهما قالوا "بَكْرِىّ". وأما بنو بكر بن كـــلاب فالنسبة إليهم "بكراويّون".

ومثله [ع م ر]:

"العَمْرِىُّ بالفتح نسبة إلى عَمْـــرو. والعَمْروِيّة فرقة من المعتزلة منســـوبون إلى عمرو بن عبيد".

"وقد تشتقُّ العرب من الاسمين اسمـاً واحداً لاجتناب اللَّبْس ، وذلك لكثرة مـــا يقع "عبد" فى أسمائهم مضافاً ، فيقولون فى النسب إلى عبدالقيـــس: عَبْقَسِـــىّ ، وإلى عبدالـــدار: عَبْـــدَرِىّ ، وإلى عبدشمـــس: عَبْشَمِىّ...". [المقتضب: ١٣٣/٣]

ويرى ابن السِّـــيد البطليوســـى فى "الاقتضاب" [١٥٧] "أن العـــرب ربّمـــا حاكَت المعنى باللفظ الذى هو عبارةٌ عنـــه فى بعض المواضع. ويوجد ذلك تـــارةً فى

صفة الكلمة وتارةً فى إعرابها. فأما فى الصفة ، فقولُهم للعظيم اللحية: لِحْيانىّ وكان القياس أن يقول لِحْيىّ ، وللعظيم الرقبة: رَقَبانى والقياس رَقَبِى ، وللعظيم الجُمَّة: الَجُمَّانى والقياس جُمِّى ، فزادوا فى الألفاظ على ما كان ينبغى أن يكون عليه، كما زادت المعانى الواقعة على نظائرها".

ومثل ذلك عند المبرّد: "فى كثير الشَّعر: شَعْرانىّ" [المقتضب: ١٤٤/٣] ، وعند ابن سيده فى "المخصّص": "سَبَلانى: ضخم السَبَلة" [٦٥/١] ، و"رجل كَلَمانى: جيّد الكلام ، فصيح" [١٢٢/٢] ، و"مَنْظَرانى: حَسَنُ المنظر" [١٥٤/٢] ، وكذلك "مَخْبَرَانى" [١٨٠/٤] ، و"سيف هُنْدُوانى: منسوب إلى الهند" [٢٥/٦] ، وفى "اللسان" [أ ن ف]: "رجل أنافىٌّ: عظيم الأنف ، وعُضَادىٌّ: عظيم العَضُد ، وأُذَانىٌّ: عظيم الأذن".

ويقول المبرّد فى "المقتضب" [١٤٥/٣]: "واعلم أن أشياءَ قد نُسِبَ إليها على غير القياس للَّبْس مرةً ، وللاستثقال أخرى ، وللعلاقة أخرى. والنسب إليها على القياس هو الباب. فمن تلك الأشياء قولهم فى النسب إلى زَبِينة: زَبَانىّ وإنما الوجه: زَبَنِىّ ... ومن ذلك قولهم فى النسب إلى الشام واليمن: يَمَانٍ يافتى ، وشَامٍ يافتى، فجعلوا الألف بدلاً من إحدى الياءَين ، والوجه: يَمَنى وشامى. وقالوا فى النَّسَب إلى تِهَامة: تَهامىٌّ فاعلم ، ومن أراد العوَض غيَّر ، ففتح التاء ، وجَعَلَ تَهامةَ عَلى وزن يَمَن فتقديره: تَهَم فاعلم ، ويقال فى النسب إليه تَهَامٍ فاعلم ؛ ففتحه التاء تبيّن لك أن الاسم قد غُيِّر عن حدِّه".

وقد أنشد أبوالعباس المبرّد فى "الكامل" [٣١٦/١] بيت إسحاقَ بن خَلَفٍ فى وصف لحية:

كالأنبجانىِّ مصقولاً عواضُها
سوداء فى لين خد الغادة الرُّود

"ولم يُنْكَر ذلك - كما يقول ابن السِّيد فى "الاقتضاب" [٢٢٢] - وليس فى مجيئه مخالفاً للفظ مَنْبِج ما يُبطل أن يكون منسوباً إليها ، لأن المنسوب يَرِدُ خارجاً عن القياس كثيراً ، كمَرْوَزِىٌّ ورازِىٌّ ونحو ذلك".

وفى مقابل ذلك روى ابن سيده عن الأصمعى: "كساءٌ مَنبجانى: منسوبٌ إلى مَنْبِج ؛ قال أبو حاتم: فقلت له: لِمَ فتحتَ الباء وإنما نسبتَ إلى منبِج؟ قال:

خَرَجَ مخرج منظَرانى ومخبَرانى * علـى * ألا ترى الزيادة فيه والنَّسَب ممـــا يغـيِّر لـه البناء؟!". [اللسان: ن ب ج].

"وفى الحديث أنـــه مـرَّ وعليـه "قُشْبانيَّتان"... وكأنه منسوب إلى قُشبـان جمع قشيب خارجاً عن القياس لأنه نَسَبٌ إلى الجمع. قال الزمخشرى: "كونُه منسوباً إلى الجمع غيرُ مَرْضـــىّ ، ولكنـه بنـاء مُستَطْرَف للنسب ، كالأنبجانى". [اللسان: ق ش ب]

خلاصة القول أن الجماعة اللغويـة تخرج عن الأصل لوجه الجمـال تـارةً ، ولوجه الدقة العلمية تارةً أخرى ، أو قُـلْ: عنايةً باللفظ خَطْرةً ، ومراعــاةً للمعنى خَطْرةً أخرى. حتى قـال ابـن السِّيد البطليوسى فى "الاقتضـاب" [٢٨١]: "إن الأصول قد تُرْفَضُ حتى تصيرَ غيرَ مستعمَلة ، وتُستعمل الفروع ، كرفضهم اسـتعمال أَيْنُق وقِسِىّ وأشياءَ وأعيادِ على الأصل".

فأنتَ ترى قوّة السلطان الجمـاعى فى الخروج على الأصل ، ومن أجل ذلـك أزعم أننا بحاجة إلى مثل هذا السـلطان فى ما نحن بصدده ، وسأعود إلى ذلـك – إن شاء الله – بعد قليل.

ما الذى يحدث الآن عندما يمـارس الأفراد ما مارسته الجماعة؟

إن هذا هو الذى يطلقون عليه اسم "الضرورة" ، وهى تتجلـى فى اتجـاهَيْن اثنَيْن: الاتّجاه الأول هو الخـروج علـى الأصل اقتداءً بما فَعَلَتْهُ الجماعة اللغويـة فى بعض الأحوال ، والاتّجاه الثانى هو العـودة إلى الأصل ببعض ما أخرجتـه الجماعـة اللغوية عن أصله.

يدلُّنا على الاتّجاه الأول بعضُ مـا قال سيبويه [١:٨-١٠]: "اعلم أنه يجوز فى الشعر ما لا يجوز فى الكلام منْ صَرْف مـا لا يَنْصرف: يشبّهونه بما يَنْصـرف مـن الأسماء... وحَذْفَ ما لا يُحذف: يشبّهونه بما قد حُذِف واستُعمل محذوفاً... وربَّمـا مدّوا مثل مساجد ومنابر... شـبّهوه بمـا جُمِعَ على غير واحده فى الكلام... ومـن العرب مَنْ يثقّل الكلمة، إذا وقف عليهـا ولا يَثقّلُها فى الوصل ، فإذا كان فى الشعر فهم يُجرونه فى الوصل علـى حالـه فى الوقف..." إلى أن يقول فى شـبه قـاعدة [١١/١-١٢]: "وليس شىءٌ يُضطرّون إليه وهم يحاولون به وجهاً".

أما الاتّجاه الثانى فى مسيرة الضرورة ، فهو اتّجاه معاكس لعملية الخروج الجماعية على الأصل: هو ردٌّ إلى الأصل أو إجــراءٌ عليه ، يصدر عمّا أودعه الله ســبحانه فى سليقة الشاعر من تراث الجماعة اللغويــة ، فيجعله يعود إلى الأصل متهدّياً بِهَدْى هــذه السليقة. فمن كلام الخليل فى مــا يرويــه سيبويه [٥٩/٢]: "كما قالوا حين اضطروا فى الشعر فأجروه على الأصل" ومن كــلام سيبويه [١٦١/٢]: "واعلم أن الشـعراء إذا اضطروا إلى ما يجتمع أهل الحجاز وغيرُهم على إدغامه أجروه على الأصل... وهذا فى الشعر كثير". ومن كلام المبرِّد: "الضــرورة تَرُدُّ الأشــياء إلى أصولهــا" [المقتضــب: ٣٥٤/٣]. والقاعدة فى ذلك كما يضعــها المبرّد: "ويكفيك من هذا كله ما ذكــرتُ لك من أن الشاعر إذا اضطُرَّ رَدَّ الأشــياء إلى أصولها" [المقتضب: ٢٨٢/١]. وهو قد أمعن فى ذلك لحتى أجــاز فى الضــرورة الرجوعَ إلى الأصل مطلقاً وإن لم يَرِدْ بــه سماع.

تجد ذلك فى مثل قوله:

"إذا اضطر شاعرٌ جازَ له أن يَــرُدَّ مبيعاً وجميع بابــه إلى الأصــل فيقــول: "مبيوع"... فأما الواو ، فإن ذلك لا يجــوز فيها... هذا قول البصريين أجمعين ، ولست أراه ممتنعاً عند الضــرورة" [المقتضــب: ٢٣٩/١].

"وحكى الفرّاء عن الكسائى أنَّ بنى يربوع وبنى عقيل يقولون "حَلْىٌ مصووغ" بواوَيْن ، وثــوب مَــدْووف ، وثــوبٌ مَصْوون، وفرسٌ مقوود ، وقولٌ مقــوول. وأما البصريون فلم يعرفوا شيئاً من هــذا" [الاقتضاب:٢٧٥]. والحق أنه ليس قــول البصريــون أجمعــين ، فســيبويه يقــول [٣٦٧/٢]: "وقد جاء مفعول على الأصل فهذا أجدر أن يلزمه الأصل قالوا: مخيــوط ولا يُستنكر أن تجىء الواو على الأصل".

وأنا لا أفهم من الضرورة الشــعرية – كما فهم بعض النحاة – أنها "مــاليس للشاعر عنه مندوحة" ، وأنها أمــر كريــه مستقبح ، يُلجأ إليه الشاعر إلجاءً كما يُلجأ المضطر فى مخمصة إلى أكــل المنخنقــة أو الموقوذة ، ولا أقول مــع أبى الفتــح: :إن العرب قد تلزم الضرورة الشعر فى حــال السعة أُنساً بها واعتياداً لها وإعداداً لذلــك عند وقت الحاجــة إليــها [الخصــائص: ٣٠٣/٣]، وإنما أفهم منها كمــا فــهم

الجمهور – على ما يذكره البغدادى فى "الخزانة" [١/١٥] – أنها " ما وقع فى الشعر دون النثر ، سواء كان عنه مندوحة أو لا".. بل أفهم منها أكثر من ذلك: أنها – كالوزن والقافية – مَئِنَّة امتلاك ناصية الشعر والتمكّن من التصرّف فيه.

ولقد وَهِم من وَهم من علماء العربية – فى ما يُخَيَّل إلىّ – حين قاسوا الضرورة الشعرية على الضرورة الشرعية ، وما هى فى حقيقة الأمر بذاك ، ولكنها – فى ظنّى – كالذى قال الأخطل:

لكلّ قرارةٍ منها وفَجٍّ
أضاةٌ ماؤها ضَرَرٌ يمورُ

قال ابن الأعرابى: ماؤها ضَرَر أى نمير فى ضيق ، وأراد أنه غزير كثير فمجاريه تضيق به وإن اتّسعت. [اللسان: ض ر ر].

وهذا حال الشاعر وهو يعانى تجربته الشعرية. فإنه قد يجد اللفظة وقد اتّسقت مع القياس ، غيرَ قادرة على أن تعبّر عن مستوى من الشعور حلّقَ إليه ، فيميل إلى لفظة أخرى خارجة عن القياس، لإحساسه أنها أبلغ فى التعبير عن أحاسيسه ونقل هذه الأحاسيس إلى سامعه. وإلا فما الذى ألجأ جريراً إلى استعمال الكلمة نفسها مصروفةً وغير مصروفة فى بيتٍ واحد:

لم تتلفعْ بفضلِ مِئزَرِها
دعدٌ و لم تُغْذَ دعدُ بالعُلَبِ

وقد كان له عن ذلك مندوحة ، إلا أنه ربما رأى فى صرف "دعدٍ" الأولى لطيفةً من لطائف التعبير ، يتناغم فيها تعانُقُ الضمَّتين مع مشهد التلفّع ، أو لعلّه قد شاء لسامعه أن يقف وقفةً قصيرة مع سكون التنوين ، يستوعب فيها المشهد الأول قبل أن يؤكّده بمشهد ثانٍ مستأنَف.

وقد يكون لارتكاب الضرورة علّةٌ يمثّلها قولُ أبى النجم:

قد أصبحت أمُّ الخيار تدَّعى
علىَّ ذنباً كلُّه لم أصنَعِ

قال البغدادى فى "الخزانة" [١/١٧٥]: ورواية الرفع عند علماء البيان هى الجيِّدة ، فإنها تفيد عموم السلب ، ورواية النصب ساقطة عن الاعتبار ، بل لا تصحّ ، فإنها تفيد سلب العموم ، وهو خلاف المقصود... ورأيت للفاضل اليَمَنى على هذا البيت كلاماً أحبَبْتُ إيراده ، وهو قوله: معنى هذا البيت أن هذه المرأة أصبَحَتْ تدَّعى علىَّ ذنباً ، وهو السببُ

والصلَع والعجز وغير ذلك من موجبات الشيخوخة... ولم أصنع شيئاً من ذلك الذنب، ولم ينصب "كلّه" لأنه لو نَصَبَه مع تقدُّمه على ناصبه لأفادَ تخصيص للنفي بالكل ، ويعود دليلاً على أنه فعل بعضَ ذلكَ الذنب ؛ ومرادُه تبرئةُ نفسه عن كل جزء منه ، فلذلك رَفَعَه إيذاناً منه بأنه لم يصنع شيئاً منه قَطّ ، بل "كلُّه" بجميع أجزائه غيرُ مصنوع".

فالدقة فى التعبير عن المراد هى التى ساقت أبا النجم إلى هذه الضرورة. وفى مثل ذلك يقول البغدادى: "قد يكون للمعنى عبارتان أو أكثر ، واحدةٌ يلزم فيها ضرورة ، إلا أنها مطابقة لمقتضى الحال... ولاشك أنهم فى هذه الحال يرجعون إلى الضرورة ، لأن اعتناءهم بالمعانى أشدُّ من اعتنائهم بالألفاظ. وإذا ظهر لنا فى موضع أنّ ما لا ضرورة فيه يصلح هناك ، فمن أين يُعلَم أنه مطابق لمقتضى الحال؟".
[الخزانة: ١/١٥]

فهذه الضرورة العلمية التى تدعو إليها الدقة هى التى أتحدّث عنها اليوم ، داعياً إلى الاعتداد بهذين الاتجاهين فى ركوب الضرورة ، والسير على منهاجهما فى سبيل الحقيقة والدقة العلمية ، ولكننى أدعو - كذلك - إلى أن تقوم الجماعة اللغوية بذلك - وهى لجان التوحيد ثم المجامع واتّحاد المجامع - فتستمدُّ الألفاظ المولّدة على الضرورة من السلطان الجماعى قوةً كقوة الخارج على الأصل فى ما أخرجته الجماعة اللغوية عن أصله حتى أصبح أرسخ من الأصل وأثبت.

وهذا أمرٌ أقترحُه على هذا المجمع الموقّر ، توطئةً وتسهيلاً لصَوْغ المصطلح العلمى. وقد سبق لى أن اقترحت مثل ذلك قبل عام فى حديث بمجمع اللغة العربية الأردنى ، وذكرتُ أنه لابُدَّ لنا من إعداد ما أسميته "مقدّمات منهجية وضع المصطلح العلمى وتوحيده"، وهى دلائل إرشادية ينبغى إعدادُها خيرَ إعداد ، وجعلُها فى متناول كلّ مَنْ يريد مزاولة وضع المصطلح، لتكون دليلاً هادياً له فى هذا السبيل ، وقلتُ إنه لابُدّ من أن تضطلع بإعدادها سلطة لغوية جماعية كاتحاد المجامع، أو مجمع اللغة العربية بالقاهرة بتكليف من اتحاد المجامع.

وأهم هذه الدلائل الإرشادية - فى نظرى - كتابٌ يمكن أن نطلق عليه اسماً من قبيل "المرشد فى قواعد وضع المصطلح

العلمى" ، ونتّفق على أن يشتمل على الأبواب التالية:
الباب الأول: مجموعةٌ من المبادىء أو القواعد اللغوية التى يُستَرْشَدُ بها بشكل عام، تُذكَر فيها القاعدة بأحرُف بارزة ، مقتبسةً - إن أمكن - بنَصِّها من أحد علماء اللغة الأعلام ، ثم تدوَّن بالتفضيل مسوِّغات القاعدة وتطبيقاتُها. فنأخذ القاعدة الأولى مثلاً من ابن فارس: "أجمع أهل اللغة إلا من شَذَّ عنهم أن لُلغة العرب قياساً ، وأن العرب تشتق بعض الكلام من بعض" [الصاحبى: ٣٣]. ونأخذ القاعدة الثانية من أبى عثمان المازنى: "كلُّ ما قِيسَ على كلام العرب فهو من كلام العرب" [الخصائص: ٣٥٧/١]. ونأخذ الثالثة من ابن جنى: "الناطقُ على قياس لغة من لغات العرب مصيبٌ غيرُ مخطىء" [الخصائص: ١٢/٢] تُكمِّلُها مقولةُ أبى حيّان: "كلُّ ما كان لغة لقبيلةٍ قِيسَ عليه". [الاقتراح للسيوطى: ٩٣] ونأخذ الرابعة من السيوطى عن أبى حيّان: "علّةُ الضرورة التشبيهُ لشىء بشىء أو الرد إلى الأصل" [الأشباه والنظائر] تكمِّلُها مقولة المبرِّد: "الضرورة تَرُدُّ الأشياء إلى أصولها" [المقتضب: ٣٥٤/٣] وقولُه: "قد يجىء فى الباب الحرفُ والحرفان على أصولهما وإن كان الاستعمال على غير ذلك ليدلَّ على أصل الباب" [المقتضب: ٩٧/٢]. ونأخذ القاعدة الخامسة حول التضمين من ابن جنى: "إن الفعل إذا كان بمعنى فعل آخر ، وكان أحدُهما يتعدّى بحرف والآخرُ بآخر ، فإن العرب قد تتّسع فتوقع أحد الحرفَيْن موقع صاحبه" [الخصائص: ٤٠٨/٢] تُكمِّلُها مقولة ابن هشام: "قد يُشربون لفظاً معنى لفظ آخر فيعطونه حُكمَه ويسمّون ذلك تضميناً" [المغنى: ١٨٥/٢] ونأخذ سادسة القواعد من أبى هلال العسكرى: "الكلمةُ الأعجميةُ إذا عُرِّبَتْ فهى عربية" [التلخيص: ٢٦٧/١]... وهكذا.

أما الباب الثانى من "المرشد" المقترَح ، فيسوق القواعد المتعلقة بقياسية عدد من الصِّيَغ ، تسهيلاً للنسج على منوالها ، وإن لم يَعْنِ ذلك الالتزام الصارم بها. وقد كان لهذا المجمع الموقَّر فضلُ السبق فى إقرار عديد من هذه القواعد والصيَغ وإصدارها منجَّمةً ، مثل صيغة فُعَال ، وفَعَل ، وفَعُول، وفعَالة ، وفَعَالة ، وفُعولة ، وفعّالة، وفاعلة ، وتَفْعال ، ومثل السين والتّاء

للاتّخاذ والجعل ، ولحوق التـاء لاسم المكان، وتوهم الحرف الزائـد أصليـاً ، وجواز الاشتقاق من أسمـاء الأعيـان ، وقياسيّة المصـادر الصناعيـة ، وَجـواز استعمال "لا" مركبة مع الاسم ، وقياسية التعدية بالهمزة ، وجواز جمع المصدر عندما تختلف أنواعه ، وقواعد غير ذلك كثيرة.

والحاجة تدعو الآن إلى دَرْج هـذه القرارات مرتّبةً ، فى باب واحد من أبـواب هذا المرشد ، تشتمل فصوله على البحـوث التى كتبها عدد من العلماء الأجلاء توطئـةً لهذه القرارات.

ويؤلّف الباب الثالث من "المرشـد" المقترَح دليلاً بالأحوال التى يجـوز فيـها الخروج على مـألوف اللغـة للضـرورة العلميّة: كأن نجيز مع البصريين صَرْفَ مـا لا ينصرف وقَصْرَ الممدود ، ونجـيز مـع الكوفيين تَرْكَ صَرْف ما ينصـرف ومـدَّ المقصور.. وهكذا ، مع إتْباع كلّ رُخصـة من هذه الرُّخَصَ ببحث يسوّغها. وهـذه الضرورات التى تبيحها الجماعة اللغوية تمثّل عوناً ثميناً لكل مـن دُفِـع إلى مَضَـايِقِ المصطلح العلمى.

أما الباب الرابـع فيضـمُّ قائمـة بالسوابق واللواحق ، يُراعى قَدْرَ الإمكـان أن تكون مستَوْعِبَة ، ويوضع فيـها بـين قوسين اسمُ الحقل الـدلالى أو الحقـول الدلالية التى تعود إليها كلٌّ سابقة أو لاحقة ، ولاسيّما إذا كان ثَمَّة اشتراكٌ فى اللفـظ واختلافٌ فى المعنى.

ويضمُّ الباب الخامس قائمة تشتمل على الرموز والمختصرات بالعربية ، وطُرُق ترجمة المختصرات الأجنبيـة إلى العربيـة. وهو باب تَمَسُّ الحاجـة إليـه فى هـذه المرحلة.

وأنا أناشد هذا المجمـع الموقّـر أن ينهض بعبء هذا "المرشد" المقتَرَح الـذى ينوء بغير المجمع ، وأَعِدُ بأن يقوم البرنـامج العربى لمنظمة الصحة العالميـة – الـذى أشْرُفُ برياسته – بتقديم الدعم كلّه: ماديِّهِ ومعنويِّهِ إلى المجمع فى إصدار هذا الكتـاب – المَرْجِع.

ومِمّا يُعَدُّ أيضـاً مـن مقدمـات المنهجية ويساعد الذين يزاولـون صَـوْغ المصطلح العلمى ، كتاب يشـتمل علـى عشرات بل مئات من القوائم الدلاليـة فى كل فرعٍ من فروع العلم ، تضمُّ كلٌّ منـها

أسرةً دلالية واحدة ، وتُجنِّبُ العلماءَ استعمال اللفظة الواحدة لأكثر من مسمّى فى نفس الحقل الدلالى.

كذلك يُعَدُّ من هذه المقدمات كتيِّبات تُجرِّد المصطلحات المتوافرة فى كتب التراث العلمى لا تُحاشِ المعاجم. فهذا أبو عمرو بن العلاء – وهو كما يقول ابن سلام فى طبقات فحول الشعراء [١٤/١] – أوسَعُ علماً بكلام العرب ولغاتها وغريبها ، يقول: "ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقلُّه ، ولو جاءكم وافراً لجاءكم علمٌ وشعرٌ كثير" [طبقات فحول الشعراء: ٢٥/١].

وكَأَىٍّ من لفظة أجنبية أعيانا العثور على لفظة من بابتها فى ما بين أيدينا من معاجم ، ثم عثرنا عليها عَرَضاً فى تضاعيف أحد الكتب ، أو فى غير مَظِنَّتها من مواد المعجم ، فقلنا لأنفسنا: وَىْ كأنَّ هذه اللفظة لم تُخْلَق إلا لمثل هذا المعنى الذى نبحث عن اسم له!

ويعجبنى ما رواه ابن منظور فى "اللسان" [فى مادة "ب خ ع"] عن ابن الأثير: "وطال ما بحثت عنه فى كتب اللغة والطب والتشريح ، فلم أجد البخاع بالباء مذكوراً فى شىء منها". فكتب الطب والتشريح إذن بعضُ مَظانِّ ابن الأثير إلى جانب كتب اللغة.

ومن الأمثلة على ذلك أن كلمة "الحَدَقة" فى المعاجم تعنى ما نطلق عليه فى مصطلح اليوم اسم "القُزَحية" ولكنك تجد فى كتاب "المنصورى" للرازى [الورقة ٣٠من المخطوط] مايلى – فى وصف هيئة العين:- ".. ويعلم الرطوبة البيضية جسم رقيق مُخْمَلُ الداخل حيث يلى البيضية ، أملس الخارج ، ويختلف لونه فى الأبدان، فربما كان شديد السواد ، وربما كان دون ذلك ، وفى وسطه حيث يحاذى الجليدية ثقب يتسع ويضيق فى حال دون حال بمقدار حاجة الجليدية إلى الضوء ، فيضيق عند الضوء الشديد ويتسع فى الظلمة ، وهذا الثقب هو الحدقة". و"الحدقة" كذلك فى كثير من كتب الطب والتشريح.

ومثالٌ آخر ، هو ذلك الغشاء من أغشية الجنين الذى يقال له بالأجنبية allantois والذى حار الأطباء المُحدَثون فى ترجمته فقالوا: "الوشيق" ، وقالوا: "اللقانقى" تشبيها بهذه الأمعاء التى تؤكل ، وقال بعضهم بل هى "اللفائفى" تحرفت إلى "اللقانقى" وهكذا ، إلى أن رأيتُ فى

"كامل الصناعة" لعليّ بن العباس [١١٨/١] قوله: "وقد يتولد على الجنين من داخل غشاءان ، أحدهما يقال له "السقّاء" وهو اللفائفي ، والثاني السَّلَى. فأما السقاء فهو دون المشيمة ويَتَرَاقى إلى قَرْنَيِ الرحم ، ويشبَّه من شكله باللفافة، وهو نافذٌ إلى مثانة الجنين، ومنفعته أن يقبل بول الجنين..". فقد أطلق على هذا الغشاء اسم "السقاء" كما ترى ، وهي كلمة جميلة ولكنك لا تجدها في المعاجم بهذا المعنى.

ومثل ذلك بعض ما تواطأ عرب العصر الحاضر على استعماله بالمعنى نفسه على اختلاف أمصارهم وأقطارهم كمصطلح "الكاحل" الذي تجده مستعملاً في جُلِّ البلدان العربية بمعنى "ذلك الجزء من الطرف السفلي الذي يعلو القدم" ، وفي ظني أن مثل هذا التواطو يُؤَثِّلُ لهذا الحرف في لغة الضاد ويَنْأى به عن عاميِّ الكلام.

هذه – في نظري – أهم مقدّمات المنهجية التي ينبغي إعدادها تيسيراً لواضعي المصطلح وتسديداً لعملهم. وليس يعني ذلك بالطبع أن ننتظر إنجاز هذه المقدّمات ولكن من الخير أن نعمل على إعدادها بأسرع ما يمكن.

أما "منهجية وضع المصطلح العلمي العربي وتوحيده" نفسُها ، فإنني أزعم أن ما جرت عليه لجنة إعداد المعجم الطبي الموحد، يصلح نواة أساسية لها ، وأسمح لنفسي أن أعرض في ما يلي أهم بنود هذه المنهجية:

(١) تُستعمل لفظة عربية واحدة مقابلَ التعبير الأجنبي ، ولا تُستعمل المترادفات إلا في ما نَدر وعند الضرورة ، وبذلك يتحقق توحيد المصطلحات. وحين توجد بعض الألفاظ الشائعة جداً في بعض البلدان العربية دون بعض ، وتفضَّل عليها مصطلحات أخرى ، يُكتب المصطلح المفضول بين قوسين بعد المصطلح المفضَّل ، وبأحرف أصغر حجماً ، وذلك تسهيلاً لائتلاف المصطلح المفضَّل من جهة ، مع الإيحاء بضرورة العدول عن المصطلح المفضول في الوقت نفسه.

(٢) إذا وُجدت عدة مترادفات أجنبية للمفهوم الواحد لأسباب تاريخية ، يُسترجَم أصلَحُها لتأدية المعنى ، ويوضع في مقابلها جميعاً ، مع الإشارة بجانب المترادفات الأخرى إلى التعبير الذي اتُّفق على ترجمته،

بوضعه بعد علامة المساواة(=) بين قوسين.

(٣) إذا كان للمصطلح الأعجمى أكثر من دلالة واحدة ، يوضع مصطلح عربى مقابل كل دلالة ، وترقم هذه المصطلحات إظهاراً لتمايزها ، ويستحسن بيان الحقل الدلالى الذى ينتمى إليه المصطلح بين قوسين.

(٤) ينبغى درس المصطلح الأجنبى دراسة وافية والتعرف على مدلوله العلمى ومفهومه الدقيق ومعناه الاصطلاحى الخاص المستعمل فى حقل الاختصاص ، قبل الإقدام على وضع مقابله العربى. ولا يُنصح بترجمة المصطلح ترجمة حرفية ، أو استعمال مرادفاته الموضوعة لدلالات خاصة فى حقول اختصاصات علمية أخرى.

(٥) لايجوز اعتماد لغة أجنبية واحدة – مهما كان لها من السيادة – مصدراً وحيداً للمصطلحات الأجنبية ، وإنما يُترجَم اللفظ الأجنبى الذى هو أفضل فى تأدية المعنى ، فيُترجم اللفظ الإنكليزى أحياناً والفرنسى أحياناً أو غيرها من ألفاظ اللغات الأخرى، بحيث يكون الهدفُ دائماً دقةَ المعنى ووضوحَه.

(٦) تُستعمل الألفاظ العربية المتداوَلة أو التى سبق أن استعملها علماء العرب الأقدمون ، إذا كانت تفى بالغرض العلمى ، وإلا يُجتهَد فى وضع لفظ جديد مناسب. وتؤخذ بنظر الاعتبار المصطلحات التى وضعتها المجامع ، واللجان المتخصصة ، والعلماء.

(٧) يُكتفى بوجود مناسبة أو مشاركة أو مشابهة بين مدلول المصطلح اللغوى ومدلوله الاصطلاحى ولا يشترط فى المصطلح أن يستوعب كل معناه العلمى.

(٨) يُبتَعَدُ عن الكلمة المُثْقَلَة بعدَّة معانٍ ، فيُحاوَلُ العثور على ألفاظ لا تشترك مع سواها بقدر الإمكان ، ولاسيما تلك التى تشترك فى حقل دلالى واحد.

(٩) يُلتزَمُ قدرَ الإمكان بالقوائم الدلالية ، والسوابق واللواحق ، والصيغ القياسية التى يُعدّها المجمع الموحِّد.

(١٠) يجوز اللجوء أحياناً إلى النحت أو التركيب المزجى ، إذا كانت اللفظة المنحوتة مفهومة مقبولة ، أو شائعة ، أو منسوبة. ولكن النحت يحتاج إلى ذوق سليم خاصة، فكثيراً ما تكون ترجمة الكلمة الأعجمية بكلمتين عربيتين أو أكثر

أصلح وأدل على المعنى من نحت كلمة يمجّها الذوق ويستغلق فيها المعنى. ويراعى فى المركبات المزجية التى تعتبر مصطلحات أن تجعل اسماً واحداً إعراباً وبناءً ، فلا يُعْرَب الجزء الأول من مصطلح "الاثنا عشرى" مثلاً وإنما يحتفظ هذا المصطلح بشكله فى جميع أحواله.

(١١) يفضل تقدير محذوف فى بعض المصطلحات التى تتألف من جملة ، على التركيب المزجى أو النحت ، فيقال مثلاً: "الشريان تحت الترقُوى" بتقدير محذوف هو "العظم" بَدَلَ أن يقال "الشريان التحتَرقُوى" أو "التحتَ ترقُوى".

(١٢) لاحَرَجَ فى استعمال الكلمات الدخيلة أو المستعربة حين اللزوم ، ولاسيما حين تتعذر تأدية المعنى المراد ، أو حين تكون الكلمة العربية المقترحة أشد عُجْمَةً من الكلمة الدخيلة ، أو يكون اللفظ مما اشتهر وشاع استعماله ، أو يكون قد اكتسب صفة العالمية بدخوله كما هو فى كل لغات العالم أو جُلّها.

(١٣) يُلتَزَم فى هذه الكلمات الدخيلة أو المستعربة اختيار اللفظ الأسهل من بين مختلف اللغات الأجنبية ، لنقله إلى العربية بأخفِّ ما يمكن على اللسان العربى ، دون التزام لغة أجنبية واحدة. فيُقال مثلاً فى مصطلح الكيمياء "هيدروكسيد" لا "هايدروكسايد" ويُقال "يورانيوم" لا "أورانيوم" ويُقال "بزموت" لا "بِزْمَثْ" ، ويُقال "ليباز" لا "لايبيز" . ويُسعى إلى الانسجام قدر الإمكان فيُقال "فيزيولوجيا" لا "فيَسيولوجيا" لأننا قلنا "الفيزياء" أو "الفيزيقى" ولم نقل "الفيسياء" أو "الفيسيقى" ، وهكذا.. كما يُحرَص فى نهاية الكلمات على التمييز بين اسم العلم وبين ما ينسب إليه فنكتب "الجيولوجيا" و "الباثولوجيا" مثلاً بالألف لنميّزها عن الطبقات الجيولوجية أو التغيرات الباثولوجية التى نكتبها بالتاء.

(١٤) لاداعى لاستعمال حروف غير الحروف العربية كالباء والفاء ، وإنما يُنقل الحرف إلى أقرب حرف عربى إليه ، فتُرسم "P" باء ، و "V" فاء. أما حرف "G" فيعرّب "غيناً" إلا إذا كان يُلفظ جيماً صحيحة.

(١٥) نظراً إلى صعوبة توافر الشكل "التشكيل" فى المطابع والمناسخ ، ينبغى عدم التحرج من استعمال الأحرف اللينة

فى الكلمات المعرَّبة حتى لا يلتبس اللفظ ، على أن يُستغنى عنها إذا لم يكن ثمة التباس، كما ينبغى عدم التحرج – فى استعمال هذه الأحرف البينة – من التقاء الساكنَين ، استئناساً بالمد اللازم فى القرآن الكريم حيث يلتقى حرف اللين بحرف ساكن يؤلف الجزء الأول من الحرف المشدّد. ولا حاجة لبدء الكلمات الساكنة الأوّل بألف، اكتفاءً بالاختلاس فى نطق هذا الحرف الساكَن ، أو بتحريكه.

(١٦) ينبغى الحرص فى استعراب الكلمة على وضعها فى صيغة يسهل جمعها والنسبة إليها والاشتقاق منها ، ويفضّل عدم استعرابها إن لم تتحقق فيها هذه الشروط.

(١٧) يعتبر المصطلح المستعرَب عربياً يخضع لقواعد اللغة العربية ، ويجوز فيه الاشتقاق ، وتستخدم فيه أدوات البدء والإلحاق.

(١٨) يجوز التصرف فى صيَغ النسبة ، للتمييز أو منع اللَّبْس ، كما تجوز النسبة إلى المفرد والجمع.

(١٩) يجوز التوسع فى استعمال لام الإضافية ضماناً لوضوح المصطلحات التى تتألف من جملة ، فيفضّل مثلاً أن يُقال: "الطبقة الحبيبية للبشرة" لا "طبقة البشرة الحبيبية" ويُقال: "الرأس الأمامى للعضلة ذات الرأسين" لا "رأس العضلة ذات الرأسين الأمامى". وذلك استئناساً بأن من مواضع اللام أن تكون بمعنى "منْ" ومثل قولهم: "سمعت لزيد صياحاً" أى: مِنْ زيد صياحاً. كما يجوز التوسع فى استعمال اللام الأخرى التى تكون مُوصلة لبعض الأفعال إلى مفعولها فيقال مثلاً: "العامل المُطْلق للهرمون المنبِّه للجُرَيْب".

(٢٠) ينبغى ترجمة أسماء الأجناس والأنواع فى تصانيف الأحياء من حيوان ونبات وجراثيم ، ولا يجوز أن تُستعرب بحجة أنها أسماء أعلام ، فاسم العَلَمَ فرعٌ من اسم الفرد ، والفرد تحت النوع وتحت الجنس. ويمكن ، بل يَحْسُن ، فى التعليم العالى - إضافة الاسم الأعجمى إلى جانب الاسم العربى.

(٢١) يجوز التخصيص بتاء التأنيث لضرورة التمييز ، فيُقال اللوح واللوحة ، والكيس والكيسة ، والجيب والجيبة، وما أشبه ذلك.

(٢٢) تذكر صيغة جمع المصطلح بين قوسين إذا لزم الأمر.

وبَعْدُ ، فأنا أدعو أخيراً هذا المجمع الموقّر ، إلى النظر فى بنود هذه المنهجية المقترحة ، وتبنّيها إن كانت صائبة ، أو تعديل ما يحتاج من بنودها إلى تعديل. فقد آن لنا أن تكون لنا منهجية واحدة موحَّدة، وأن تصدر عن هذه السلطة اللغوية الجماعية ، لأن صدور أمثالها فى ما مضى ، عن عديد من المؤتمرات ومكاتب التنسيق التى تفتقر إلى هذا السلطان الجماعى ، لم يُفلح فى وضعها موضعَ التنفيذ، اللهمَّ إلا فى مجالات متفرِّقة.

وأنا أعتذر إليكم من كثرة ما اقترحتُه عليكم ، ولكن عُذرى أن الزمن سبّاق ، وأن ركبَ العلم الحثيثَ السير لن يبطئ من إيقاعه فى انتظار المتريِّثين ، وأنكم الأمل الباقى لهذه الأمة فى تَبْوِئة لغة التنزيل مُبَوًّا صِدْقٍ فى مسيرة العلم والحضارة.

"وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا ، وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ".

محمد هيثم الخياط

عضو المجمع المراسل

من سورية

المصطلحيَّة والمصطلحـــــات
(قراءة فى مشروع معجم مصطلحات علم المياه من مشروعات مكتب تنسيق التعريب)(*)

للأستاذ أحمد شفيق الخطيب

سيادة الرئيس:

أيها الزملاء الأكارم :

بادىء ذى بَدء أُسجّل تقديـــرى وتقديـــر جميـــع العـــاملين فى حقـــل المُصطلحات، بل تقدير أهل العربيّة علـــى اختلاف اهتماماتهم، مِمّن عرفتُهم أو قرأت لهم ، لتلكُم المعلمةِ الشـــامخة فى المغـــرب الشقيق - أعنى مكتب تنسيق التعريـــب فى الرباط.

وأُعرِب عن فائق التقدير والإكبـــار لجهود جميع العاملين فيه ، ومعه ، علـــى مدى ثُلث القرن الماضى منـــذ ١٩٦١ - بدءًا بمديرة على مدى جيلٍ مـــن الزمـــن علاّمتنا الفاضل الأستاذ عبد العزيز ابن عبد الله ، حتى مديره الحالى الصديق الدكتـــور أحمد شحلان ؛ لهم جميعًا كُـــلّ التحيـــة والإكبار.

أيُّها العلماءُ الأجلاّء :

"مشروع معجم مصطلحات علـــم المياه" - هو أحدُ مشروعاتٍ خمسة يُعِدُّهـــا مكتب تنسيق التعريب للعرض على مؤتمـــر التعريب الثامن ، ويُفترض أنها دُرســـت فى الندوة التى عُقدت فى دمشق فى الفترة مـــا بين ١٩-٢٤تشرين الثانى ١٩٩٤(**).

حول المنهجيَّة التى يتبعها المكتب فى إعداد هذه المشروعات ، نقرأ فى مُقدمـــة المعجم ما مُفاده أن المنهجية التى انتهجـــها مكتب تنسيق التعريـــب فى مشـــروعاته المعجمية مرّت بمراحلَ ثلاث:

فى المرحلة الأولى كان المكتبُ يجمع مـــادةَ المشروع الأولى للمعجم ، ويُوزّعُها علـــى اللّجان الوطنية للتربية والثقافة والعلـــوم ، وعلى الجهات المختصة ، فى البلاد العربيـــة لإبداء الرأى. ثُمَّ يُعرض العملُ على نـــدوة مُتخصِّصةٍ لدراسته.

(*)أُلقى هذا البحث فى الجلسة الثانية عشرة لمؤتمر المجمع بتاريخ ٩من ذى القعدة سنة ١٤١٥هـــ الموافق ٩من أبريل (نيسان) سنة ١٩٩٥م.

(**) ظروفُ التواصُل البريدى حالت دون حضورى هذه الندوة .

فى المرحلة الثانية اتبعَ المكتبُ أسلوبًا آخر يتمثلُ فى تكليف خبير "تَلْمسُ فيه الكفاءة العلمية واللغوية كى يُحَضِّرَ مُسوَّدةَ مشروع المعجم – ثلاثىِّ اللغة – مُستفيداً مِمّا صدرَ عن المعاجم العربية أو الهيئات والمجامع (لعّلها "المراجع") المختصة من معاجمَ ومؤلّفات ؛ وغالباً ما يعتمِدُ على قدرته الذاتية ومعلوماته الخاصة".

بعد ذلك يُعهدُ بهذه المُسوَّدة إلى خبيرٍ آخر مُراجعتِها وتدقيقِها ، لكى تكتسىَ الوثيقةُ صِفةَ "مشروع المعجم"[1].

ثُمَّ يقوم المكتب بتوزيع المشروع على اللجان الوطنية للتربية والثقافة والعلوم وجِهات الاختصاص فى الأقطار العربية للنظر فيه وإبداء الملاحظات عليه تمهيدًا لعرضه على ندوةٍ مُتخصِّصةٍ لدراسته.

وفى المرحلة الحاليةِ (الثالثة) نَهَجَ المكتبُ نَهْجًا جديدًا فى إعداد مشروعاتِ خمسةٍ من المعاجم – فى مصطلحات "التقنيات التربوية " و " الإعلام " و " علم المياه " و"الاستشعار عن بعد" و "الفنون التشكيلية".

ويتمثل هذا النهج الجديد فى عَقد اتفاقياتٍ مع هيئاتٍ عربيَّةٍ أو أكاديميَّةٍ مُتخصّصة تقوم بإعداد المشروعات الأولية مُستأنسَةً بما يُزوِّدها به المكتبُ من مراجعَ وقوائمَ مصطلحيّةٍ ، تدخُل فى صُلب الموضوع ، مِمّا صدر عن المجامع اللغوية والاتحادات العلمية والجامعات والهيئات المتخصّصة. وهكذا تمّ إعدادُ المشروعات المعجميّة الخمسة الآنفة الذّكر[2].

وقبل أن أستعرضَ عَيِّناتٍ من هذا المشروع – مُفصلةً فى فئاتٍ تُحدِّدُ نوعَ الشكوى المِنْهَجيةِ أو الشكاوى المصطلحيةِ فيها ، أعرضُ وحضراتكم أساسيَّات عامّةً مُتعارَفةً فى مجال المصطلحيَّة والمصطلحيين ووَضْعِ المُصطلحات.

إن مِهنةَ المُصطلحى ، كما تعلمون، لّما تتحدَّدْ معالِمها فى العالَم العربى، فليس هنالك برامجُ مُتعارفةٌ، ولا

(١) من مُداخلة مكتب تنسيق التعريب فى مؤتمر التعريب السادس ، كما ترد ص٢٣ ، العدد٣١ من مجلة اللسان العربى (كانون الأول "ديسمبر" ١٩٨٨). وهذه المراحلُ مُلخصةٌ فى المُقدمة العامة لمشروع معجم مصطلحات المياه – كما فى مقدمات مشاريع المعاجم الأخرى.

(٢) وكان أن تمّ إعدادُ مشروع معجم علم المياه – موضوع قراءتى اليوم من قِبَل فريقٍ عمل برئاسة الدكتور م.م. تحت إشراف المركز العربى للتعريب والترجمة والتأليف والنشر بدمشق. وجديرٌ بالذّكر أن هذا المركز أشرف أيضًا على إعداد مشروع معجم الاستِشعار عن بُعْد (مّما قد يضفى أهمية مضاعفة على قراءتى هذه).

طُرقُ تأهيل محددةٌ ومرسومةٌ ، لإعداد المُتخصِّصين فى المُصطلح والشؤون المصطلحية(*). ومعظمُ ، أو رُبّما كُلّ المُتخصِّصين الذين أعرفُهم ، تعلّموا المهنةَ بجُهودهم وإمكاناتِهم الشخصيَّة و لم يدرسوها كعِلم ؛ إنّما توافرتْ لهُم خلفيّاتٌ دراسيَّةٌ تثقيفيَّة علميةٌ ولُغَويةٌ ساعدت فى هذا التأهيل.

لكن مهما يختلِف المُنَظِّرون فى تقْنيّات المصطلحيَّة ومَساقاتها ، فهنالك أساسيّاتٌ لا خلافَ فيها لِما يُمكن اعتبارُه بعضَ مؤهلات المصطلحى، ولعلّها لا تختلفُ كثيراً عن المُتطلّبات الأساسيَّة لأعمال الترجمة العِلمية والتقانيّة الناجحة. ولعله يُمكن تلخيص هذه المُتطلبات فى أساسيّات خمس.

١- معرفة دقيقة بلُغتى التعاملُ - لُغةِ الأصل ولغةِ الهدف. فقديمًا قالوا: صاحبُ الترجمة ينبغى أن يكونَ ذا عِلمٍ وافٍ باللغتين ؛ أو كما وصفه الجاحظُ فى بيانه "أعلمَ الناس باللغة المنقولة واللغةِ المنقول إليها حتى يكونَ فيهما سَواءٌ وغاية".

٢- إلمامٌ كافٍ بمادة الموضوع. ويُركّزون اليومَ على المُصطلحى الواسعِ التخصُّص ، وليسَ بالضرورة المتخصصَ فى الموضوع نفسه.

٣- خبرةٌ عمليّة بالمنهجيّة المُصطلحيَّة مُدعَّمةٌ بالتراث المُصطلحى القديم والحديث، وتَعرُّفُ المشهورِ منه - على الأقلّ فى مجال الموضوع مدار البحث.

٤- مَوهبةٌ عمادُها ذَكاءٌ مُدرَّب يُمكّنُ من مَلء الثَّغَرات فى النص الأصلى ، وخيالٌ واسع يُمَكّن من تصوُّر العُدَّة أو الشىء أو العملية موضع البحث ، ومقدرةٌ سليقية تمكّن المُصطلِحَ من التعامُل مع اللفظ فى سياقه بوضوحٍ وإيجازٍ ودقّة.

٥- درايةٌ وبصيرة تُوَجِّهانِ الاختيارَ لانتقاءِ المُرادف المصطلحى الأنسب من المعاجم ذاتِ العَلاقة أو الكتاباتِ المنشورة حول الموضوع.

(*) أذكرُ أنه فى إحدى الندوات التى كان لى مشاركةٌ فيها قُدِّمَ بحثان بالعربية يتعلّقان بهذا الموضوع - أوّلُهما للأستاذ عبد اللطيف عبيد حول "تدريس علم المصطلح فى الوطن العربى - تجربة معهد بورقيبة للُغات الحيَّة" ، وثانيهُما بحث للدكتور محمد حلمى هليل بعنوان "نحو تعليم المصطلحيّات والتدريب عليها - مشروع للعالم العربى". كما قُدِّم فى تلك الندوة بحثٌ قيِّم بالإنكليزية للأستاذ هلموت فيلبر "المصطلحية فى عالم اليوم" قام بترجمته الدكتور حلمى هليل ونُشر فى العدد ٣٠من مجلة اللسان العربى ؛ وفيه إشارة إلى برامج تدريسيَّة فى علم المصطلح تُقدَّم فى جامعات كندا والنمسا والدانمارك وانجلترا وغيرها - وهى جديرة بأن نتعرفها ونفيد منها بما يتلاءم ولُغَتنا وأوضاعنا.

- بصراحة يا سيادتى لقد افتقدتُ الكثيرَ من هذه الأساسيَّات خلالَ قراءتى عيِّنات متعدِّدةً من "مشروع معجم مصطلحات علم المياه" أستعرضُها مع حضراتكُمْ فى فئات قد تكون مُتداخِلةً أحيانًا - وأبدأُ بفئةِ الأساسيَّةِ الأولى.

* التمكُّنِ من لغة الأصل (المنقول عنها) ولغةِ الهدف (المنقول إليها)(*). إلى حضراتكم الأمثلة:

36) Aggressive: quality of water that attack metals & concrete chemically by dissolution.

هدّام (مياه مُخرِّبة): نوع من الماء الذى يهجم على المعادن والأسمنت كيميائيًّا فيُخرِّبها بالانحلال.

عُدوانى (أكّال): صفة للمياه الحاويةِ مَوادَّ أكّالةً لِلفلزّات والإسمنت تُسبِّب انحلالَها كيماويًّا.

("هدام" أو "مُخرِّب" تقابل "destructive" ؛ وبالنسبة للمياه لعلّها تنطبق أكثر على مياه السيول والفيضانات.

ليس ما يمنع ترجمة aggressive بمقابلها المتعارف "عدوانى". ولولا خوف اللبْس بـ"عادىّ" لقُلت "عادٍ").

40) Air-dry

هواء جاف: حالة تعادل أو توازن بين الرطوبة الموجودة بين مسامات عيِّنة ما صخرية وبين الهواء أو الجو.

المدخَل صفة وليس اسمًا - لذا نقول:

مُجَفَّفٌ فى الهواء أو هَوائىٌّ التجفيف أو هَوائىُّ الجَفافية - مثلاً:

air-dry timber,
air-dry rxck, ect.

49) Algae control :control of growth of micro-organisms in water bodies.

تحكُّم بالطحالب: التحكُّم بنمُوِّ العضويّات الدقيقة جداً فى الأجسام المائية.

الترجمة المناسبة لـ control هنا هى "مكافحة" ، فنقول: مُكافحة الطحالب: مُكافحة نُموِّ المتعضِّيات المِجهرية فى الكُتَل أو التجمّعات المائية.

55) Allochthonous: Said of material originally from a different locality than the one where it is deposited.

مادة منقولة: نوع من المادة الناجمة عن توضُّع مواد حَدثت فى غير مكان توضُّعها الأصلى.

المدخل هنا صفة لا اسم. فنقول:

دَخيل ، مَجلوبُ أو جليبُ النَّشأة: مثلاً الصخر الذى يتكون فى مُعظمه من موادَّ مَنقولة من موقعٍ آخر.

(*) موادُّ هذه الفئة،كما مواد سائر الفئات التالية،مُرتبة ألفبائيًا حسب ورودها فى مشروع المعجم.

108) Argillaceous: Property of rocks containing clay in non-negligible proportions.

غَضارى: خاصية الصخور التى تحوى كمية غير مهملة من الغضار.

السياق هنا يأنف الترجمة الحرفية لـــ-non negligible. يُقال: "كميّة لا يُستهانُ بها".

123) Autochthonous: Of sedimentary material originating & deposited at about the same location.

رُسوبات توضُّعية متبَقّية: مـــواد رســـوبية ناتجة عن ومتوضعة فى نفس المنطقة التى نتجت عنها.

هنا المدخل أيضًا صفـــةٌ وليـــس اسمًـــا — فنقول:

مكانىُّ النشأة: تكوَّن وتراكَمَ فى الموضـــع الذى نشأ فيه (كالملح الصخرى).

185) Block & tackle: Hoisting device in the derrick for lifting and lowering of drill pipe and casing.

كُتلة الرفع والإنزال: جهازُ رفعٍ وإنزال على جسم الحفارة يستخدم لرفع وإنزال أنابيب الحفر وأنابيب الإكساء.

بكّارة: بكَراتُ الرفع وحبالُها فى بُرج لحفرِ لِرفع وإنزال أنابيب الحفر والتغليف.

188) Block lava. كُتل لافا.

لابا كُتليَّة — (الموصوف هو "اللابا").

191) Bore. حُفْرة (ثقب).

(Trou de forage "F").
(Bohrung "G").

ثَقْبُ (الحَفْر). قُطر الحَفر (أو التجويـــف الداخلى).

200 (& page 235)
Breaking strength.

قوة الكسر (قوة التهشيم أو التحطيـــم) — قوة التكسُّر.

مُقاومة الكَسْر.

مُقابِل "strength" فى هذا السِّياق نَقـــول "مُقاوَمة"، فالمفهوم هنا ليس "قوة الكسر"، بل قوةُ مقاومته.

204) Brine: Water containing more than 100.000 ppm total dissolved solids.

مالح جدًّا ، ملحٌ أجاج.

"ماء مالِح" أو "ماء مِلحٌ". (المدخل هنـــا اسمٌ وليس صفة).

268) Cement bond.

ملاط اتصال (ملاط الوصل).

رابطة (أو وُصلة) إسمنتيَّة. (الموصوف هنـــا "bond" لا "cement").

269) Cement grout: Cement slurry of pumpable consistency.

مزيج ملاطى لملء الفراغات: طين ملاطـــى أو اسمنتى قابل للضخ بشكل مستمر.

رَوبةُ إسمنت: مِلاَّط رقيقُ القوام ضَخوخ.

311) Cloud-burst.

انفجار سَحابة.

شُؤبوب: وابلٌ من المَطر المُنهمِر.

349) Confined water: Water separated from the atmosphere by impermeable rock stratum.

ماء مَضغوط: ماء مفصول عن الجو بواسطة طبقةٍ صخرية كتيمة غير نفوذة.

ماءٌ حَبيس (أو مَحصور): تفصله عن الجوِّ طبقةٌ صخرية صَمّاء (غير نَفوذة).

395) Corrosive: Property of water attacking its conduits.

قابلٌ للتأكُّل: خاصية الماء الذى يقوم بالهجوم على قنواته وأنابيبه التى تنقله.

أكّال: خاصيَّةُ الماء الأكّال أو الحاتّ كيماويًا لِمَسالِكه:

(الماء الذى "يهاجم" قنواتِه وأنابيبَه هو الـ"أكّال" وهى الـ"قابلة للتأكُّل").

586) Dripstone: Rock formed by evaporation of dripping water film containing calcite.

صخر ناتج عن التبخر والتقطير المائى: صخر ناتج عن بتخُّر الماء الذى يكون على شكل قطرات على سطح رقيق مائى يحوى الكالسيت (فحمات وكربونات الكالسيوم).

حجَرُ القَطْر (أى صَخرُ الهَوابط والصَّواعِد): صخرٌ ناتج عن تبخُّر الماء المُتقَطِّر من غِشاء ما جِيرى أو يحوى الكالسيت.

(فى B تابع 143)

Fresh-water barrier.

عائق مائىٌّ عَذْب.

"عَذب" لا تصف عائقًا طبعًا. هو "عائق ماءِ عَذب" أو "عائق مياهٍ عذبة" (كما ترجم صحيحًا فى F) أو "عائق من المياه العذبة" (يُحقَن لِصَدِّ جرَيان مياهِ البحر المالحة باتجاه الطبقات المائية القريبة من السواحل البحرية).

808) Galvanometer: Sensitive current meter.

جهاز قياس التيار (غلفانومتر): عداد لقياس التيار الحسّاس.

غلفانومِتر: جهازُ قياسٍ حَسّاسٌ للتيّار أو مقياسٌ حسّاس للتيّار.

(الحَسّاس وصفٌ للمقياس وليس للتيّار).

854) Gneiss. غنايس.

نايس. فالـG فى Gneiss صامتة لاتُلفظ.

1012) Incrustation: Deposition of mineral matter by water.

ترسُّب: توضُّع مواد معدنية وفلزية بواسطة الماء.

تقَشْوُرتغَطٌ أو تغطيةٌ بقِشرة صلبة من ترسُّبات معدنية مائية.

("تقَشْوُر" وِزانُ "تبَلْوُر" بمعنى "تكوُّن قِشرة صلدة").

1050) Interbedded: Pertaining to beds or sedimentary material intercalated in a parallel fashion into a main stratum.

طبقات مُتداخِلة: ما يختصّ بالطبقات أو المواد الرُّسوبيّة المتداخِلة بين بعضها على شكل متوازٍ لتشكِّل طبقة صخرية واحدة.

مُتداخِلة بينَ الطبقات أو مُتداخِلةُ التَّطُّبق: وَصفٌ لِطبقات أو مواد رسوبية مُقحَمة تعاقبيًّا وبشكلٍ متوازٍ في طبقة رئيسيَّة. (المدخل صفة وليس اسمًا).

1230) Mesophyte: Plant growing under intermediate moisture cinditions.

نبات ذو جذور متوسطة العمق: نبات ينمو تحت شروط رطوبة معتدلة أو متوسِّطة.

نَباتُ الرُّطوبة المتوسِّطة: نباتٌ ينمو في ظروف الرطوبة المُعتدلة أو المتوسطة(*).

1290) Mud port: Opening in drilling tool through which drilling mud extrudes.

مرفأ طين الحفر ، مكان خروج طين الحفر: فتحة في جهاز الحفر التي يقوم طين الحفر من خلالها بالاندفاع خارجاً وبقوة.

"فُتحة الطين" أو "فُتحة طين الحفر": فتحةٌ في عُدَّة الحفر ينبثِقُ منها طينُ الحفر.

1351) Oven-dry: Degree of dryness of porous sample after drying in oven at specified temperature.

درجة التجفيف في الفُرن: درجة التجفيف الخاصة بعيِّنة مسامية بعد تجفيفها في فرن التجفيف بدرجة حرارة معيَّنة.

"مُجَفَّف في الفُرن" أو "فُرنيٌّ التجفيف" أو "فُرنيٌّ الجَفافيَّة": درجةٌ جَفاف عَيِّنة مسامية بعد تجفيفها في فرنٍ على درجة حرارةٍ معيَّنة. (المدخل هنا صفة وليس اسمًا).

1432) Pillow lava. وسائد اللافا.

الموصوف هو الـ"lava"-لذا نقول "لابا وِسادِيَّة".

1440) Pipe wrench..

لَوى الأنبوب — لَيُّ الأنبوب — تحريف الأُنبوب.

مفتاحُ (ربط) الأنابيب.

("wrench" هنا هي في سياق wrenching لا "adjustable spanner" ولا twisting).

1824) Spillway: Device for the escape of excess water.

مبنى فائض مائى — سدّ — حاجز مائى: جهاز لمرور المياه الزائدة أو الفائضة.

(*) النباتات،من حيث رطوبة البيئة،إما مائية مُفرطة الرطوبة hydrophyte، أو معتدلة (متوسطة الرطوبة mesophyte، أو جفافية (شحيحة الرطوبة) xerophyte.

قناةُ تصريف الفائض ، مَفيَض: وسيلةُ انفلات الماء الفائض.

1859) Stratum: Sedimentary bed or layer.

طبقة صخرية رسوبية: طبقة رسوبية مُعيّنة.

طبقة: طبقة رسوبية.

2120) Waste products.

كمية النفايات – نواتج النفايات.

نَواتجُ فضَلاتيَّة: نُفاياتٌ (تُطرحُ بعد عملية مّا).

2199) Well-sorted grains: Assortment of grains having the same diameter.

تصنيف حبيبات جيِّد – فرز حُبيبات جيِّد:

تصنيفٌ وفرزٌ للحبيبات بحيث تكون لها ابعادٌ قُطرية مُتشابهة.

حُبَيباتٌ جيدةُ التصنيف : تصنيفةُ (أو تشكيلةُ) حُبَيْبات متساويةُ القُطْر.

(المقصود "الحُبيبات المُصنَّفة جيِّدًا" وليس التصنيف الجيِّد لها).

2215 (& 2214) Wilting coefficient; Wilting point: Soil moisture content at which plants wilt.

عامل فقدان الرطوبة وتسبُّب الهشاشة فى النبات – نقطة فقدان الرطوبة وتسبُّب الهشاشة عند النبات: كمية الرطوبة فى التربة التى يحصل عندها فقدان للرطوبة وهشاشة فى النباتات.

مُعامِلُ الذُّبول – نقطة الذُّبول: المُحتوى الرُّطوبى فى التربة عند بدء الذُّبول.

(العربية ليست فقيرة إلى حدِّ استعمال ٦ كلمات للتعبير عن wilting).

*الأساسية الثانية تفترض أن يكون واضعو المصطلحات مُلمِّين بأجواء الموضوع أو المواضيع والمجالات العلمية المتعلقة بتلك الاصطلاحات، كى تأتى مصطلحاتهم صحيحةً دقيقة الأداء، ومتوافقةً مع ما هو مُتعارف بين أهل العلم والصنعة فى العالم العربىّ.

المصطلحات التالية المقترحة أو الموضوعة للمداخل المقابلة فى العيِّنات التى قرأتُها من

1509) Pump liner.

حاملة المضخة ، حامل أسطوانة المضخة.

(Chemise de pompe "F").

بِطانةُ المِضخَّة:

1550 & (تال 1230) Receiving water course.

استقبال المجرى المائى: تلقى المجرى المائى.

مَجرى الماء المُستقبِل. (المَوصوف هو watercourse ، ويُكتَب كلمةً واحدة لا اثنتين).

1627) Rockfill.

المِلء الصخرى:

صخرى الحشوة: ذو حَشوة صخريَّة.
(والعبارة تُكتَب بشحطةٍ صغيرة "hyphen". وتُستخدَمُ صفةً بمعنى: صَخرىّ الحَشو composed of large rock or stone loosely placed كما فى rock-fill dam سَدٌّ صَخرىُّ الحَشو أو سَدٌّ رُكامىّ).

1738) Shot drilling: Method of drilling where shot dropped into the bore hole through the drill pipe exercises abrasive action on the bottom hole.

الحفر بالتفجير – الحفر باستخدام طلقات الرمى: طريقة حفر تستخدم فيها طلقاتٌ تُسقط ضمن البئر، أو حُفرة البئر خلالَ أنبوب حفرٍ مُعيَّن والتى تقوم بتفتيت وتحطيم على قاع الحُفرة أو البئر المراد حفرها.

الحَفر بخُردق الفولاذ: طريقةُ حفر يسهمُ فيها خُردقُ الفولاذ ، المُسقَط فى ثقب الحفر عبر أنبوب الحفر ، بفِعلِه الأكّال فى عملية الحفر.

(فى هذا السياق "shot" تَعنى "خُردق" الفولاذ).

1754) Sieve retention: Material retained on a sieve.

احتفاظ المُنخل للحبيبات – احتجاز المُنخل للحبيبات: المادة المحتفظة على المُنخل أو الغِربال على شكل حُبيبات.

الشّرحُ المعطى يحدِّد مفهوماً آخر للمصطلح هو:

مُستَبْقَياتُ المُنْخُل ، حُفالةُ الغَربلة: ما يبقى فى المُنخل (أو الغِربال) بعد النّخل (أو الغربلة).

مشروع معجم مصطلحات المياه يشكو من عِلل علميَّة معرفيَّة أساسًا مع تداخل العنصر اللغوى أحيانًا فى تعقيد الخلل. إلى حضراتكم الأمثلة التالية:

4) Absolute atmosphere: 10 dyne per cm^2

جَو مطلق: ويساوى ١٠ دينة لكل سنتيمتر مربع.

الجو المُطلق أكثر من ذلك بمئة ألف مَرَّة ؛ فالجو المطلق يساوى ١٠ نيوتن على السنتيمتر المربع – عِلمًا أنّ ١نيوتن= ١٠^{٥} داين (*).

82) Anhydride: Anhydrous calcium sulphate.

أَنهِدريت: كبريتات الكالسيوم اللامائية.

لفظة "أَنهِدريت" لاتقابل المصطلح "anhydride" ؛ لكن الشرح ينطبق

(*) الضغط الجوى = حوالى كيلوغرام على السنتيمتر^{٢} ، فى حين أنّ الداينة تساوى المليغرام تقريبًا. فيزيائيًا ، الضغط الجوى المعيارى = ١,٠١٣٢٥ × ١٠^{٥} نيوتن على المتر^{٢} ، (أى = ١٠,١٣٢٥ نيوتن على السم^{٢}).

عليها. العلة هنا فى الخطأ المطبعى للمدخل Anhydride الذى صوابه Anhydrite.

206) Dubble gauge: Stage recorder based on principle of equating a gas pressure to water level.

مقياس ضغط مضاعف.

محطة تسجيل قائمة على مبدأ تساوى ضغط الغاز مع منسوب الماء.

مقياس ضغطٍ مُسَجِّل: مُسَجِّل مناسيب يعتمد على مبدأ ارتباط ضغط الغاز (فى الفقاعات) مع منسوب الماء بمعادلة مُحدَّدة. الحكم بأن Dubble هى Double مُتسرِّع، فالشرح لا يُبرِّر ذلك ، بل يشير إلى Dubble. ثُمَّ إنَّ Stage recorder لا تعنى "محطة تسجيل" بل "مُسَجِّل مناسيب". والمقابل الصحيح لـ stage فى هذا السياق ليس "طور" ولا "مَرحلة"، كما هو وارد مُقابل المدخل ١٨٣٠ ، بل "منسوب" - كما هو وارد مقابل المدخلين ٢١٥٧ و ٢١٥٨.

401) Creep: Slow plastic deformation of a solid.

تشوُّه (تغيُّر): تشوُّه لدائنٌ بطيء لجسم صلب معيَّن.

تزَحُّف: تشَوُّه الجامد اللدان بفعل الثقل المستمِر عليه.

(لفظة "تشوُّه" تُقابل (deformation, deformity, malformation, desfigurement, ect. 947) Housing.

إسكان - منزلى - سَكنِى.

المفروض هنا أنها "مَبِيْت" ، مَقَرّ ، مُرتكَن (لآلة أو لجُزء من آلة).

988) Hygroscopic coefficient: Amount of absorbed water on surface of soil particles in an atmosphere of 50% relative humidity at 25°C.

عامل امتصاص الماء من سطح التربة: كمية الماء المُمتصَّة من جزيئات سطح التّربة فى جَوٍّ يحوى ٥٠% من التربة النسبية فى درجة حرارة تساوى ٢٥درجة مئوية.

معامِل الاسترطاب: كمية الماء التى تمتصُّها جُزيئات سطح التربة... ؛ هذا هو مفهوم "استرطابى" hygroscopic الذى تعريفه بالإنكليزية كما يلى:

Absorbing or attracting water from the atmosphere (or the air)

1268 Momentum

القوة الدافعة.

كمية التحرُّك ؛ شرحُها بالإنكليزية هو:

The quantity of motion of a moving body= its mass X velocity.

(والقوة الدافعة شيءٌ آخر. فقد يكون للسيارة الصغيرة ذات قوة ٤ أحصنة "كمية تحرُّك" أكثرُ من سيارة أكبر قوة ٥٠

حصاناً – إذا كانت الأولى تسير بسرعة ١٠٠كلم/الساعة والثانية تسير بسرعة ٢كلم/الساعة).

1443) Pilot tube: Device to measure flow velocity through pressure differences.

أنبوب مُرشِد – جهاز قياس سرعة الجريان – أنبوب رئيسي: جهاز لقياس سرعة الجريان أو التدفُّق من خلال الاختلافات والفروق في الضغوط.

الشرحُ يُبيِّن أنه "أُنبوب بيتُو": جهاز قياس سرعة سريان المائع بفارق الضغط "pilot" خطأ مطبعي (صوابه pitot) ، لا ينبغي أن ننجَرَّ وراءه.

1645) Runoff: Discharge of water through surface streams of a drainage basin; sum of surface runoff and groundwater flow that reaches the streams.

الجريان السطحي ، الجريان المائي: جريان أو تصريف المياه خلال المجاري أو الجداول المائية السطحية لحوض تصريفٍ معيَّن ؛ أو هو مجموع الجريان السطحي وجريان المياه الجوفية التي تصل إلى الجداول النهرية أو المائية.

الصرف (أو الانسياب) السطحي ؛ المدد السطحي. (المصطلحان المُقترحان لا بأس بهما ، لكنّهما يغطيان فقط واحداً من مفهومي المصطلح الإنكليزي كما هو مشروح. المفهوم الآخر هو "المددُ السطحي").

1830) Steage: Water surface elevation at a point (along stream, in lake, etc.) above an arbitrary datum.

طور – مرحلة: ارتفاع سطح الماء عند نقطة ما (على طول نهر أو جدول مائيّ أو بحيرة إلخ) فوق مستوى إرجاع عشوائي اعتباطي لا على التعيين.

stage هنا يقابلها "منسوب" ، ونُترجم arbitrary datum بـ"مستوى أو نقطة إسناد مُختارة".

(واضح أنّ الترجمة هنا أُخِذَت عن القواميس العادية – لا المتخصّصة – دون مراعاة السِّياق المُوضَّح في الشرح)(*).

2111) Walking beam: Oscillating beam used to produce the rise & fall of the tools in cable-tool drilling.

عارضة المسير – عاتق المسير: عارضة أو عاتق مُهتَزٌّ أو متذبذب يُستخدم لإحداث ارتفاع وانخفاضٍ في معدّات الحفر الموجودة في آلة الحفر بالدّق أو الطرق الخاصة بحفر الآبار المائية..

ذراعٌ مُتَرجِّحة: ذراعٌ مُتَرجِّحة لإعمال معدّات الحفر الكبلي.

(*) جديرٌ بالملاحظة أنّ المعجم إياه يورد "منسوب" مقابل stage في مدخلَين مقابل water stage (رقم ٢١٥٧ و ٢١٥٨) ، حيث وُفِّق العاملون هناك في الوقوع على المرجع المُصطلحيّ المُناسِب.

١٢٨

2135) Water hammer: Abnormally high pressure rise in a pipe when sudden changes in flow occur.

ارتفاع ضغط الماء المفاجىء فى أُنبوب مـا: ارتفاع عالٍ فى ضغط الماء وبشكلٍ شـاذٍّ غير طبيعى فى أُنبوب ما عنـد حـدوث تغيُّرات مفاجئة فى الجريان والتدفُّق المائى.

طَرْقُ الماء: ارتجاجٌ بطَرق الماء على جدران الأُنبوب عند توقّف أو اضطراب السـريان (وارتفاع الضغط) فجأة. (أهل الصنعـة يقولون "طرق الماء").

*مـوادّ الفئة الثّالثـة مُختـارة لِعلـلٍ مُصطلحية أو منهجيَّة أساسًا ؛ لكن يظـلُّ العاملُ اللغوى — من حيث لغتنا الأصـل والهدف — فى كثير من الحالات ، أحـدَ مُسببات الخلل المُصطلحى فيها.

إليكم العيِّنات من هذه الفئة:

16) Acidizing of wells.

إضافةُ حمضٍ إلى البئر.

إحماضُ البئر.

29) Advection: Phenomenon of coll air mass intruding & interrupting evaporation & causing condensation due to heat loss.

خاصية الحمل: هى الظاهرة التى يسـبِّبُها (لعلّها "التى تُسبِّبها كُتلةٌ") الهواء البارد التى تقتحم وتغزو الهواء مسـببة انقطاعًـا فى التبخر وتكثيفًا للماء وذلك بسبب فقـدان الحرارة أو الخسارة فى الحرارة.

"الحمل" هو المُصطلح الحرارىّ المُتعـارَف مُقابل convection ، ونحن هنا بصـدد مصطلح آخر هو advection اصطُلح على أن يقابله بالعربية مُصطلح التأفق (*).

93) Anticline: Upfolded stratum.

مُحدَّب: طبقة مطوية نحو الأعلى.

مُحدَّب مُقابل convex. هنا "طيَّة مُحدَّبة" أو "حدبة" أو "قبوة" أو "حَنيرة".

163) Bathometer: Instrument for measuring water depths in wells.

عدّاد قياس عمق مياه الآبار (جهاز قيـاس عمق ماء الآبار): جهاز لقياس أعماق المياه فى الآبار.

(*) ويؤيد مُناسبيَّة هذا المُصطلح التعريفُ الذى يورده معجـم وبسـتر الـدولى الثـالث مقـابل advection الذى نصُّه: The horizontal movement of a mass of air which causes changes in temperature or in other physical properties of air; of. Convection

كذلك تتأكّد لنا صلاحية مصطلح التأفق بمقارنة التعريف العلمى لمصطلح آخـر ذى علاقـة هـو مصطلح advection fog الذى يقابله بالعربية مصطلح "ضُباب التأفّق" Advection fog: a type of fog cased by the horizontal movement of moist air a cold surface and the consequent cooling of that air to below its dew point.

مِعماق ، مِقياسُ أعماق : جـــهازُ قيـــاس عُمــق الميـــاه فى الآبـــار. (ولا داعـــى للمصطَلحين اللذين يصلح كـــلٌّ واحـــدٍ منهما شرحًا لِلمصطلـــح الإنكلـيزى لا تسميةً له).

214) Butterfly valve.

صمام على شكل فراشة.

صِمامٌ فراشيّ.

275) Chain gauge: Water level measuring device consisting of a chain.

جهاز قياس منسوب الماء القـــائم علـــى استخدام السلسلة: جهاز قياس لِمنســـوب الماء مؤلّف من سلسلة.

مُحدِّد قياسٍ سِلْسليّ. (لِمَ نَقول فى ثمـــانى كلماتٍ ما نَستطيعُ قَولَه فى ثلاث؟).

283) Check valve.

صِمام التأكُّد.

صِمامٌ صادّ: غير مُرجِع.

(check فى هذا الســـياق تحمـــل معـــنى "الكَبْح" و "الصدّ" و "الزنق اللارَجـــوع" ، لا معنى "التدقيق" و "التأكُّد" و "الضبـــط" إلخ).

338) Concrete. أسمنت.

خرَسانة.

390) Core bit: Tubular & internally hollow drilling bit cutting cylindrical rock samples.

رأس الحفر الخاص بأخذ العَيِّنة الأســـطوانية الصخرية: رأس الحفر الأنبـــوبى والمفـــرغ داخليًّا الذى يقطع الصخـــر إلى عيِّنـــات أسطوانية.

لُقمةُ العَيِّنات اللُّبية(*): لقمة حفر أنبوبيـــة لاقتطاع العيِّنات اللُّبية.

479) Derrick: Frame structure containing hoisting devices in a drilling installation.

المِرفاع (الرافعة): بناء عام يحوى أجـــهزة رفع وتحميل فى بناء آلة الحفر العامة.

بُرج الحَفر. إنشاءٌ هيكليّ يحمل الروافـــع فى مُنشأة حَفر.

(Derrick بالإنكليزية تحمل المَعنيَـــين (١) المِرفاع (٢) بُرج الحَفْر ؛ الشرحُ المُرافِق هنا يُعرِّف المعنى الثانى . فإذا نريد إيراد المُرادف الآخر نُضيفُ حينئذٍ تعريفه بمثل: Any of various devices for lifting & moving heavy objects.

نبيطة أو جهاز لرفع أو نقـــل الأجســـام الثقيلة.

799) Fumarole: Volcanic exhalation of gases mainly water vapor.

فُتحة بُركانية تخرج منها الغازات الحـــارة والبُخار: نفث بركانى لِغـــازات مختلفـــة وخاصة بخار الماء.

(*) ولا مانع حتى أن يُقال "لُقمة لُبِّية" أو "لُقمة اللُّبيات".

نافِثة (بُركانية) أو داخِنة: زفــرٌ بركـــانىّ غازىٌّ مُعظمهُ من بخار الماء.

(ولعلّ التعريف التالى هو الأفضل: "فوهـــة بركانية تنبعثُ منها الأدخنة والغازات").

1000) Imbibition: Fluid displacement in porous media due to capillary forces alone.

امتصـــاص (إزاحـــة الســـائل بالخاصيـــة الشعرية): إزاحة سائل ما فى وسطٍ مسامى بسبب تأثير القوى الشعرية وحدها.

تشرُّب. ("امتصاص" مُقـــابل absorption أو suction)..

1002)Impedance: Apparent resistance of a conductive system when alternating current is applied.

مُقاوَمة ظاهرية (إعاقة التيّار المتنـــــاوِب): المقاومة الظاهرية لِنظامٍ ناقل أو جملة ناقلـــة كهربائيًا عند تطبيق تيارٍ متناوبٍ عليها.

مُعاوَقة: المُقاوَمة الظاهرية لِمنظومةٍ مُوَصِّلـــة عند تسليط تيّارٍ مُتناوِب.

("مُقاوَمة" مُقابل resistance. ومصطلـــح "المُعاوَقة" مُقابل impedance هـــو مـــن المصطلحات العِلمية المُقَرَّة من قبل مختلـــف المجامع والاتحادات العلمية العربيـــة. أمـــا "تطبيق" فلا يَستسيغُها الســـياق مقـــابل apply هُنا).

1057) Interface: Contact plane of two immiscible liquids.

السطح الفاصل بين سائلين غـــير قـــابلَين للامتزاج (برزخ فاصل): سطح الاحتكـــاك بين سائلين غير قابلين للامتزاج بعضـــهما ببعض.

مُصطَلح "سَطح بَينىّ" يؤدّى كامل معـــنى المُصطلح الأجنبىّ. ونُعَرِّفه بـــــــ: سَـطح التماسّ بين سائلين لا مَزوجَيْـــن. (لفظـــة "الاحتكاك" فى الشرح الوارد فى النص غير مناسبة).

1120) Laminar flow.

جريان خطّى.

جريان صفحىّ. (صفحى مقـــابل laminar وخطى مقابل linear).

1176) Magma: Molten rock substance formed within the earth from which igneous rocks originate.

ماغما – مواد صخريـــة مصـــهورة ذات حرارة مرتفعة جدًا: مادة صخرية مصهورة ذائبة تتشكل ضمن الأرض ومنها تتشـــكل أصلاً الصخور الاندفاعية.

صُهارة ، ماغما: مواد صخرية مصهورة فى باطن الأرض تتشكّلُ منها الصخورُ الناريـــة (البركانيـــة. مُصطلـــح "صُـــهارة" مـــن المصطلحات الناجحة والشائعة.

1213) Measuring weir: Device to measure flow rates indirectly through the weir head.

شبكة القياس – مصيدة القياس – سياج قياس: جهاز لقياس معدَّلات الجريان بشكلٍ غير مباشر عن طريق رأس شبكة أو مصيدة قياس معيَّنة.

هَدّارُ قياس: وسيلةٌ لقياس معدَّلات التدفُّق بشكلٍ غير مُباشر من خلال ثُلمةٍ في أعلى الهَدَّار.

1379) Peat: Decomposed mainly vegetable matter.

نبات مُتضَخِّم: مادة متفسِّخة نباتيَّة بشكل رئيسي. أو نسيج نباتي متضخِّم جُزئيًا بسبب التفسُّخ الجزئي في الماء ولنبات مختلفة الأنواع.

خُثّ: مادة نباتية في الغالب متفسِّخة ومتفحِّمة جُزئيًا.

(مُتضَخِّم لَعَلَّها خطأ مطبعيّ لِمُتفَحِّم).

1414) Photomultiplier.

جهاز القياس في الصور الجوية.

مُضاعِف ضَوئيّ أو صِمامٌ ضوئيّ مُضاعِف (يُسَمّى أيضاً multiplier) phototube.

1421) Phreatophyte: Desert plant with deeply penetrating roots reaching the water table, growing mainly along stream course.

نباتات الصحراء ذوات الجذور العميقة التي تصل لِمَنسوب المياه الجوفية: نباتات صحراوية تخترقُ جذورُها أعماقاً تصِلُ إلى منسوب المياه الجوفية ، وتنمو بشكل رئيسيّ على طول مجاري الجداول النهرية.

نَبْتُ المياه الجَوفية:...

1515) Quagmire: Wet and unstable land area.

أرضٌ طريَّة تهتزُّ تحت القدم: أرضٌ رطبة غير مُستقِرَّة تهتزُّ لأقلِّ حركة.

(أرضٌ) سَبْخة: أرضٌ رِخوةٌ رطبةٌ وغير مُستقِرَّة.

1518) Quicksand.

رمل متحرِّك أو زاحف: رمل مفتت ممتزج مع الماء تغرق فيه المواد الثقيلة بسرعة كبيرة.

رملٌ سوّاخ ، وَعث: رملٌ سريع الانهيار.

1570) Redox potential: Oxidction potential.

كمون الأكسدة والإرجاع: كمون لِعملية الأكسدة والإرجاع الكيماوي.

جُهد الأخسدة: جُهد الأكسدة والاختزال.

("كُمون" أو "كامِنة" مُقابل potential لا بأس بها ، ولكن جرى استخدامُها غالبًا في مواقع محدَّدة مثل طاقة كامنة potential energy أو potential capacity. الإرجاع تقابل reduction في

الطب "لِلكسور مثلاً" ؛ هنا "اختزال" ل إرجاع).

1714) Setting of cement.
process of hardening of cement.

وضع الملاط – قساوة الملاط:

عملية القساوة التي تطرأ على الملاط المستعمل.

شَكُّ الإسمنت: عملية تصلُّب المِلاط.

1728) Shear strength.

قوة القصّ ، قوّةُ الجَزّ.

المفهوم هنا ليس قوّة القصّ ، أو ما يَقُص ، بل "مُقاوَمة القَصّ".

1806) Solubility.

الانحلالية – قُدرة الانحلال.

الذوبانية أو الذؤوبية: قابلية الذوبان.

(مُصطلح "الانحلالية" يحمل معانٍ مُتعدِّدة – لعلَّ فيها جميعًا شيءٌ من "الذوبانية").

1882) Sublimation: Direct conversion of water from its solid state to the vapor phase.

تحوُّل من صُلب إلى بخار مباشرةً.

"التَّسامي" مُقابل "sublimation" هو المصطلح المُتعارف في كُلّ السياقات – المادية والمعنوية. (ويمكن إضافة مصطلح "التصَعُّد" أيضًا هنا كمرادف).

1939) Syncline.

مُقَعَّر – مقعّر جيولوجي – حوض جيولوجي.

مُقعَّر مقابل concave ؛ هنا "قَعِيرة" ، "طَيَّة مُقعَّرة" ، "وَقبة".

2000) Topography: Physical features of a geographical area.

الطوبوغرافيا: المظاهر الفيزيائية لمنطقة جغرافية معيَّنة.

مُقابِل features هنا، الأنسبُ "مَعالِم". أما physical فالمُقابل المناسب لها هنا "طبيعي".

2093) Vesicular: Containing small circular cavities.

تكهُّفي ، ذو فتحات كهفيَّة : يحوى على كهوف أو تكهُّفات صغيرة دائرية الشكل.

حُويصلي ، مُفَجَّى : يحوى فجوات دائرية صغيرة.

(عندما نتكلم عن vesicular المفهوم هنا تنفُّطات أو مَجلات صغيرة كما على الجلد أو في النباتات الطَافية أو بنية الصخر أو المعدن الإسفنجيّ القوام. مَفهومُ الكهوف شيء آخر).

2117) Washover: Liberating a stuck tool by drilling over it with an overshot (Surforage “F”).

تنظيف عُلويّ من أجل تحرير مُعدّاتِ حَفر عالِقةٍ في بئرٍ ما: تحريرُ آلةٍ أو إحدى معدّات الحفر العالِقة في مكانٍ ما في البئر وذلك بالحفر فوقها بواسطة آلات مسننة وإخراجها بعد ذلك.

اجترافٌ فَوقيّ: تحريرُ عُدَّةٍ عالِقة بــالحَفر فوقها بأداة التقاط السواقِط.

(overshot: a fishing tool sued to recover lost pipe in a drilled well).

2224) Xerophyte.

نبات متلائم للحياة مع نقص المياه فى بِنْيته:

نبات متلائم بنيويًا للحياة والنمُــوّ بقــدرٍ محدودٍ من المــاء وخاصــة عــن طريــق ميكانيكية أو آلية الحد من النتح النبــاتى أو عن طريق القيام بتخزين المـــاء فى بنيتــه المميَّزة.

نباتٌ جفافىّ (*): نبات مُكيَّـــف للحيـــاة والنموّ بالقليل من الماء بوســـائل متنوعـــة (كتثخُّن الأدمة أو التغشّى الراتينجـــى أو الزغب الكثيف) تحدُّ من النتـــج أو تتيـــحُ إمكانية لاختزان الماء (كنباتات الصحــارى والسبخات الملحية أو الحامضية).

*العيِّنات التالية اخترتُها مـــن قراءاتـــى فى مشروع معجم مصطلحات المياه لعلـــلٍ فى مجالات الدِّراية والفِطنة والمنطق والمُخيِّلـــة والسليقية...إلخ مِمّا أدرجتُـــه كأساســـيَّةٍ رابعة فى مُتطلبات المصطلحية الفاعلـــة ، وهذه العيِّناتُ أيضًا لا تخلو – كســـابقاتها من خللٍ فى الأساسيّات الأخرى. فـــهذه الأساسيّات ، فى الواقع، مترابطة ومتشابكة ومتآثرة بعضُها مع بعـــضٍ ، وبعضُـــها فى بعض. إليكُم الأمثلة:

11)Acclivity: Ascending slope.

ارتفـــاع (انحــــدار نحــــو الأعلى) : ميلٌ باتجاه الأعلى

"حُدورٌ صاعِد" هو المُصطَلح المُناسب.

(فمن الواضح أنّ "ارتفاع" لا تؤدى المعنى المقصود ، وقولُنا "انحدار نحو الأعلى" ربما صحيح على مقلوبيته ، ولكنـــه "كـــلامٌ مُخالفٌ لِمنطق اللغة – النـــاس يفـــهمون "انحدر" بمعنى "هبط" و "نزل" و "انحط" ؛ لذا نقول "حدور" ، فنكســـبُها مفـــهومًا علميًّا مُميَّزًا وصورةً فكرية مُستقلة).

590) Driven well: Well driven into loose sedimentary material by impacts of a driving mechanism.

بئر مُساقة – بئر مُقادة (بئر مطروقة): بـــئر مساقة ضمن مواد مُتفتته عن طريق الثقـــل والتأثير الخاص بميكانيكية الإقحام والنقل.

هذه البئر لا "مُساقة" ولا "مُقادة" ، فليـــس السِّياق هُنا سياق "سَوق" أو "قيادة" مثـــل to drive a car or to drive a campaign بل سياق to drive a nail ؛ والمُصطلـــحُ المُناسب هو: بئر الدقّ. (وكَوْنُ المُصطلـــح الإنكليزى يرادف tube well ، فإنى أفضّل "بئر أنبوبية"): بئر تُحفر بدقٍّ أنبـــوب ذى

(*) ولعلّ المُصطلح العربى الذى يترجم الجذرين اليونانيين xero- = dry و phyte = plant أدقُّ دلالةً وأكثرُ وضوحاً من "المصطلح" المعطى الثمانىّ الكلمات.

طرف مُدبَّب مُثقّب عبر طبقات رخوة (بآليَّة دقّ).

829) Geologic conditions

شروط جيولوجيَّة (ظروف جيولوجيَّة).

"ظُروف جيولوجيَّة". "شروط" لامُسَوِّغ لها هنا. (بخاصةٍ أنها ترد فى شروح أخرى دون ذِكر ظروف).

913) Gun perforator.

بُندقية ثاقبة (بندقية ثقب الفتحات).

مِثقب مُسَدَّسى أو مُسدَّسُ ثَقْب.

(صحيحٌ أنّ "بندقية" تُقابل "gun" ، لكن السِّياق هنا يتجاوزها ؛ فما يُستخدَمُ لهذا الغرض لا يُشبهُ البندقية).

919) Hardness of water..قَساوة الماء

"عُسر الماء" هو المُصطلح المَنطقىّ والمُتعارف منذُ أجيال.

923) Head water: Upper reach of a stream.

المياه الرأسيَّة: أعلى ما يصل إليه ماءُ مجرًى مُعيَّن.

مياهُ الأعالى أو أعالى النهر (أو المَجرى): على مقرُبةٍ من المنبَع.

(المياه الرأسيَّة تفترِضُ المقارَنة مع المياه الأفقيَّة).

1056) Interdigitation: Lateral interlocking of sedimentary series.

إغلاق إصبعى للصخور: تداخُل وإغلاق إصبعى على جانبى سلسلة صخور رسوبية مُعيَّنة.

تصابع أو تشابك إصبعى أو تواشُج إصبعى. ونشرحه بـ: تشابك جانبىّ لأنماط صخريةٍ رسوبيَّة. (وهكذا نتجنَّب إبهاميَّة الشرح الوارد).

1415) Phreatic decline: Downward movement of water table.

الحركة السفليَّة لِمنسوب الماء: حركةٌ نحو الأسفل لِمنسوب المياه الجوفية.

انخفاض المياه الجوفية: انخفاض مستوى المياه الجوفية.

1428) Piezometer: Pressure reading and measuring instrument.

بئر مراقبة - بيزومتر: جهاز لقياس الضغط وقراءته فى المياه الجوفية.

بيزومتر: جهازٌ لِقياس ضغطِ السائل قِوامُه أنبوبةٌ يتصل أسفُلها بقاع الوعاء وأعلاها مفتوح. (ويعجبُ القارئ أن تكون "بئر مراقبة" جهازًا).

1437) Pipe coupling.

وصلة الأنبوب ، وصلات الأنابيب.

(Manchon de tubage “F”).

قارِنةُ أنابيب (ملولَبة الطرفَين).

1468) Pore space: Space occupied by voids, containing gases or liquids in a rock sample.

المسافة بين الفتحات الصخرية – المسافة بين الفراغات والمسامات.

المسافة أو الفراغ الذى تحتلُّه الفُتحة أو السُّم ويحوى غازًا أو سائلاً فى عيِّنة صخرية مُعيَّنة.

الحَيِّزُ المَسامى: حيِّزُ الفراغات المليئة بالغاز أو السائل فى عيِّنة صخريَّة.

1499) Puddle: Water collecting in very small surface depressions.

بحيرة صغيرة مستنقعيَّة ، بحيرة وحلية صغيرة: مياه متجمِّعة فى المنخفضات السطحية الصغيرة جدًّا الموجودة على الأرض.

بُرَيكة: مياهٌ قليلة متجمِّعة فى مُنخفضٍ سَطحىٍّ ضَحل.

(فى المتعارف المألوف لا ينطبق لفظ "بُحيرة" عليها مَهما صَغُرَتها).

1561) Recipient: Vessel receiving liquid in volume measurements.

الوعاء المُتلقى - وعاء السائل المستلِم: وعاء يتلقى السوائل على شكل مقاييس وقياسات حجمية.

نقبل "الوعاء المُتلقى" ولو أنَّ لفظة "المُتَلَقّى" أو "المُستقبِل" تكفى وحدها. أما الشرح فغريبُ الصياغة ، وهو قد يُترجَم ببساطة:

وِعاء يتلقّى (أو تلقّى) السائل فى قياسات الحجم (أو القياسات الحجميَّة).

1978) Threshold saturation: Saturation below which no flow occurs.

عتبة الإشباع - بداية الإشباع أو التشبُّع: الإشباع الذى لا يحدث تحته جريان (تدفّق).

إشباعٌ مَشرِفى. والسِّياق هنا ليس "بداية الإشباع" بل بداية السَّريان — يعنى "مُنتَهى الإشباع" الذى بعدَه يبدأ السَّريان (إذ تكونُ فراغات التربة قد امتلأت وتشبَّعت)، ودونَه لا يحدثُ سَرَيانٌ (وهو ليس تدفُّقًا هنا).

2031) Tree mold: Hollow mold left by a tree trunk in a lava flow.

جذع الشجرة المُتحجِّر - قالب شجر متحجِّر: قالب متحجِّر ذو ثقب أو فتحة ناتج عن جذوع الأشجار المتبقية فى مناطق تدفُّق الصُّبات البركانية أو اللافا.

قالَب شَجرى: قالَبٌ أجوفُ خَلَّفهُ جذعُ شجرةٍ فى فيضٍ لابىٍّ.

(القالَب هنا فراغ كان يملؤه جذعُ شجرةٍ زمنَ الفيض اللابى).

2115) Washer.

غاسِل – غسَّالة – رُنديلة وصلٍ معدنية.

(Rondelle "F").

فَلْكَة. (كمرادف لِ"رُنديلة" ؛ ولا مَجال لِ"غاسِل" و "غسَّالة").

2227(& 26) Zero adjustment; Adjustment of a scale on a measuring circuit to an original point of departure.

صفر التعديل – صفر الضبط والتنظيم: تعديل وضبط مقياس مُدَرَّج ما أو دارة قياس معيَّنة إلى نقطةٍ أصلية للانحراف.

ضبطُ (قراءة) الصفر: ضبطُ قراءة الصفر فى جهاز القياس.

(المقصود "عملية الضبط إلى قراءة الصفر" وليس "تدريجة الصفر").

*الأساسيَّة الخامسة لعلّها ألفباءُ المنهجيَّة المصطلحيَّة وأبسطُ مُقوّماتها– وهى تفترضُ التنقيب عن المصطلح المقابلِ المناسب فى المعاجم أو المؤلّفات ذات العلاقة قبل أن يُصار إلى وسائل أُخرى تندرج فيها الأساسياتُ التى أشرت إليها ، ضمنَ مبادىء منهجيةٍ مصطلحيةٍ أخرى–اشتقاقيّةٍ أو مجازية أو تعريبية أو ما سوى ذلك.

واللافتُ أن ثَبَتَ المراجع على غناه بالمراجع الأجنبيَّة[1] نَجدُه قاصرًا فى المراجع العربية[2] – بخاصة المراجعَ ذاتَ العَلاقة بعلم المياه التى سبق أن تعرَّفنا بعضَها على صفحات "اللسان العربى"[3] مجلة مكتب التنسيق – بل مجلة أهل العربية على اختِلاف مَشاربهم.

إنَّ عَزْوَ المُصطلحات العربية الواردة فى مشروع المعجم هذا إلى المراجع العربية المذكورة فى مقدمته كمراجع لهذه المصطلحات على قلّتها ، هو إجحافٌ بحَقِّها – إذ أن التعديلات التى أثبتُّها، فى معظمها، تعكِسُ إلى حَدٍّ مّا فى المعاجم العلمية الثلاثة (بخاصةٍ ثالثها) من تلك المراجع. ولا أجدُ داعيًا لِمزيدٍ من الأمثلة

(١) ١٧ بالفرنسية ، ٢١ بالإنكليزية ، ٢ بالألمانية.

(٢) ٦معاجم هى التالية:

معجم الجيولوجيا (إنكليزي–فرنسى–عربى)، مكتب تنسيق التعريب، الرباط ١٩٧١.

معجم الفيزياء أو الطبيعة (إنكليزي–فرنسي–عربى)، مكتب تنسيق التعريب،الرباط ١٩٧١.

معجم المصطلحات العلمية والفنية والهندسية (إنكليزي–عربى)، أحمد شفيق الخطيب،ط٥، بيروت١٩٨١.

المورد (إنكليزي–عربى)، منير البعلبكى،ط١٧،بيروت١٩٨٣؛

القاموس العصرى (إنكليزي–عربى)، إلياس انطون إلياس، القاهرة ١٩٦٣.

الوسيط (عربي – عربي) ، مجمع اللغة العربية ، القاهرة .

(٣) أذكر منها: "معجم مصطلحات علوم المياه"، المجمع العلمى العراقى، بغداد ١٩٧٨؛ معجم الهيدرولوجيا، مجمع اللغة العربية، القاهرة؛ معجم المصطلحات الهيدرولوجيا، إصدار اليونسكو بالتعاون مع الألكسو والهيئات العربية المتخصصة ١٩٨٣؛ معجم هندسة المياه، (إنكليزي–فرنسى–عربى)، محمود فوزى عبدالعزيز من جامعة القاهرة، أكاديميا، بيروت ١٩٩٤؛ ولابد أن هنالك الكثير غيرها.

على هذه الأساسية، بعد الذى قرأته على مسامعكم منها فى استعراضى للأساسيّات الأربع السالفة [1]، ففيه الأمثلة الكافية الوافية.

أيُّها الزُّملاءُ الذين يُهمُّهم الأمر: إنّى أدرى طبعًا أن هذا المشروع كسواه من مشاريع، مكتب التنسيق سيَمُرُّ على ندوةٍ ثُمَّ على مؤتمر تعريب، يُختار أعضاؤهما من خيرة علمائنا.

ولكن ماذا تفعل ندوةٌ فى مدى أربعة أيام عمل لمدارسة مثل مَشروع هذا المعجم، ضمنَ خمسةِ مشاريعَ أُخرى. إنّ أربعًا وعشرين ساعةَ عملٍ لن تكفىَ لإنجاز الكثير أمام خمسة مشاريع، مداخلها تفوق العشرة آلاف مدخل -يعنى أن معدّل الزّمن المخصّص لدراسة المصطلح من المشاريع الخمسة لن يتجاوز عُشْرَ الدقيقة! إنَّ السِّتَّ أو السّبعَ الثوانى لا تكادُ تكفى لقراءة مادةٍ المدخل وشرحِه، فكيف للتداول فيه[2]

والشىء نفسُه يصدُق على مؤتمرات التعريب، فقد أجريتُ عمليةً حسابية بسيطةً على مجمل ما أقرّته مؤتمرات التعريب الخمسة (من الثانى إلى السادس)، فبلغ معدّل نصيب المصطلح ٤,٢ الثانية[3].

الندواتُ والمؤتمرات ياسادتى فائقةُ الأهمية بالطبع، ومؤتمراتُنا السنوية هنا خيرُ شاهدٍ على ذلك - لكنَّ ما نتداوله هنا هو مادةٌ خضعت لتدارُسٍ ومقارنةٍ ومُراجعةٍ لِجان مُختصّةٍ على مدى اثنى عشرَ شهراً، وتستوفى مناقشةُ المصطلحات خلال المؤتمر عادةً ما تستْلزمه من وقت. ونحن نرى أن مكتب تنسيق التعريب، بدعم المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، مؤهل لتحقيق مِثل ذلك - بانتظار أن يتحقق لنا بعضُ ما سمعناه أو قرأنا عنه من مشاريع كمثل "الجامعة العربية للدراسات" - التى ألمح إليها مراراً سيادة الدكتور محى الدين صابر[4] الأمين العام السابق للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، أو "مشروع جامعة التعريب"التى دعا،ولا يزال يدعو إليها سيادة رئيس مجمع اللغة العربية

(١) ما أتوقعه فى تحقيق هذه الأساسيّة سرّنى أن أجد تطبيقًا عليه فى مشروع معجم مصطلحات التقنيات التربوية (وهو أحد مشروعات المعاجم الخمسة التى نحن بصددها) حيث أدرجَ فريقُ العمل برئاسة الدكتور محمد ملوك' وبإشراف كلية علوم التربية بالرباط، مقابل كل مدخل جملةً من المصطلحات المُنتقاه من كثرة من المعاجم والمراجع ذات العلاقة مُرفقةً بأرقام مراجعها.

(٢) فى مداخلة لمكتب تنسيق التعريب فى مؤتمر التعريب السادس ترد فى ص٢٤ من اللسان العربى العدد٣١ ديسمبر١٩٨٨، نقرأ شكوى من "عدم كفاية المدة المخصصة لندوات تنقيح المعاجم مما يدعو فى بعض الأحيان إلى متابعة المراجعة بفريق عمل محلّى".

(٣) انظر الملحق ص٢٧.

(٤) ص٣١٩، اللسان العربى، العدد٢٢.

الأردنى الزميل الكريم الدكتور عبد الكـريم خليفة، أو كأن يتحقق حلٌ كان ألمح إليـه سيادة الدكتور عبد الهادى أبو طالب المدير العام للمنظمة الإسلامية للتربية والعلـوم والثقافة فى إمكانية أن يصبح مكتب تنسيق التعريب السلطة العربية العليا التى تتمثـل فيها جميعُ المجامع اللغويـة والمؤسساتُ العربية العاملة فى مجال التعريب (*).

أحمد شفيق الخطيب

عضو المجمع المراسل من فلسطين

(*) ص١٨، اللسان العربى، العدد٣١.

ملحق - المعاجم الموحدة
في مؤتمرات التعريب (١٩٧٣-١٩٨٨)(*)

الرقم الترتيبي	اســــم المعجــــم	رقم المؤتمر	عدد المصطلحات	سنة الطبع	مكان المؤتمر وزمانه
١	معجم الحيوان	الثاني ١٩٧٣	٢٨٩٩	١٩٧٦	الجزائر
٢	معجم الطبيعة (الفيزياء)	الثاني ١٩٧٣	٢٨٢٠	١٩٧٧	١٢-٢٠
٣	معجم الكيمياء	الثاني ١٩٧٣	١٩٢٠	١٩٧٧	ديسمبر١٩٧٣
٤	معجم النبات	الثاني ١٩٧٣	٤١٤١	١٩٧٨	(كانون الأول)
٥	معجم الرياضيات	الثاني ١٩٧٣	١٨٤٠	١٩٧٩	
٦	معجم الجيولوجيا	الثاني ١٩٧٣	١٧٩٧		
٧	معجم الجغرافيا والفلك				
٨	(المجموعة الأولى)	الثالث ١٩٧٧	٨٣٣	١٩٧٧	٩-١٦
٩	معجم الفلسفة والمنطق				فبراير ١٩٧٧
	وعلم النفس	الثالث ١٩٧٧	١٨٥٨	١٩٧٧	(شباط)
١٠	معجم الصحة وجسم الإنسان	الثالث ١٩٧٧	٢١١٠	١٩٧٧	
١١	معجم الياضيات	الثالث ١٩٧٧	١٦١٣	١٩٧٧	
١٢	معجم الإحصاء	الثالث ١٩٧٧	٥٥٦	١٩٧٧	
١٣	معجم الفلك (المجموعة الثانية)	الثالث ١٩٧٧	٤٧٩	١٩٧٧	
١٤	معجم الرياضيات البحتة	الثالث ١٩٧٧	١٩٣١	١٩٧٧	
	والتطبيقية (المجموعة الأولى)				
١٥	معجم الكهرباء	الرباع ١٩٨١	١٣٨٤		طنجة ٢٠-٢٢
١٦	معجم هندسة البناء	الرابع ١٩٨١	١٤٤٩		ابريل (نيسان)
١٧	معجم المحاسبة	الرباع ١٩٨١	١٢٢٦		١٩٨١
١٨	معجم التجارة	الرباع ١٩٨١	٦٦٠٧		
١٩	معجم النجارة	الرابع ١٩٨١	٩٤٩		
٢٠	معجم البترول	الرابع ١٩٨١	١٠٢٦٥		
٢١	معجم الجيولوجيا	الرابع ١٩٨١	٣٢٩٤		
٢٢	معجم الحاسبات الإلكترونية	الرابع ١٩٨١	٣٤١٤		

(*) عن اللسان العربي – العدد ٣٤

الرقم الترتيبي	اسم المعجم	رقم المؤتمر	عدد المصطلحات	سنة الطبع	مكان المؤتمر وزمانه
٢٣	معجم الفيزياء النووية	الخامس ٨٥	١٤٧٢		
٢٤	معجم التربية	الخامس ٨٥	١٧٦٣		عمان ٢٢-٢٦
٢٥	معجم الاجتماع والأنثروبولوجيا	الخامس ٨٥	١٠٩٦		سبتمبر (أيلول) ١٩٨٥
٢٦	معجم الفيزياء العامة	الخامس ٨٥	٥٤٣٨		
٢٧	معجم الكيمياء العامة	الخامس ٨٥	٢٨٧٢		
٢٨	معجم علم اللغة واللسانيات	الخامس ٨٥	٣٢٦٢		
٢٩	الألعاب الرياضية (الجزء الأول)	الخامس ٨٥	٢٦٢٧	١٩٦٩	
٣٠	المعجم العربي الزراعي	الخامس ٨٥	٧٥٠٠		
٣١	المعجم العربي للمصطلحات والتعاريف الإحصائية	الخامس ٨٥	٢٣٥٧		
٣٢	معجم القاموس العام لمصطلحات السكك الحديدية	الخامس ٨٥	١١٦٧٩		
٣٣	معجم الاقتصاد	السادس ٨٨	١٨٨٤		الرباط ٢٦-٣٠
٣٤	معجم الجغرافيا	السادس ٨٨	٢٦٢٦		سبتمبر (أيلول)
٣٥	معجم الموسيقى	السادس ٨٨	٨٤٦		١٩٨٨
٣٦	معجم الآثار	السادس ٨٨	٢٨٦٢		
٣٧	معجم القانون	السادس ٨٨	٢٢٤٧		
	مجموع عدد المصطلحات الموحدة		١٠٧٤٧٣		

١٠٧٤٧٣ مصطلح في ٢١يوم عمل (أو في ١٢٦ ساعة عمل)

أي بمعدل ١٤,٢ مصطلح في الدقيقة "بواقع ٤,٢ثانية لكل مصطلح".



بحوث لم تُلقَ في المؤتمر



مسائل فى العربية وتعلّمها

للأستاذ الدكتور ناصر الدين الأسد

استأثر "النحو" بأكثر الجهود العلمية للباحثين فى موضوعات اللغة العربية ومسائلها، فصدرت عنه وعن "إحيائه" وتجديده وتقريبه وتيسير تدريسه: كتبٌ مستقلة، وفصول فى كتب، ومقالات، ونُظِّمت له مؤتمرات وندوات، قدِّمت فيها بحوث، ودارت حولها مناقشات، وانتهت بنتائج وتوصيات. ومع ذلك ظلّ النحو حيث كان، و لم تنجح تلك الجهود كلها فى إقامة ألسنة المتحدثين وسلامتها من شيوع اللحن، واقتراف أغلاط لا تكاد تخلو منها فقرة من فقرات حديثهم فى محاضراتهم، وخُطبهم، ومرافعاتهم القانونية، وبثّهم الإذاعى، مع أنهم درسوا هذا "النحو" ثمانى سنوات على الأقل فى مراحل التعليم العام دراسةً مفصلة، تتكرّر فيها بعض موضوعاته فى السنوات الدراسية المتتابعة، وذلك قبل أن يلتحقوا بمختلف التخصصات الجامعية من حقوقية واقتصادية وهندسية وطبيّة...وظلّت المعضلة تدور على نفسها وتُديرنا معها، حتى استشرت وتفاقمت وأصابت بدائها كثيراً من علماء الدين وأساتذة اللغة العربية نفسها. فزاد اللحن مع زيادة الدراسات والمؤتمرات والندوات والاقتراحات عن تيسير "النحو" وتعليمه. فما هو الداء الحقيقى؟ وأين يكمُن؟ وهل له من علاج؟ وهل أخطأته الجهود السابقة كلها؟

ليس من هدفنا هنا أن نقف عند هذه الأسئلة عن النحو وتعليمه، وإنما اتّخذنا موضوع النحو مدخلاً يقودنا إلى الحديث عن مسائل أخرى فى أساليب تدريس اللغة العربية نرى أنها أدّت إلى ضعف هذه اللغة عند الطلبة، ثم صحبهم هذا الضعف فى مراحل حياتهم، على حين كان المقصود من تلك الوسائل أن يكون فيها العلاج.

ذلك أننا نرى أحياناً عند غيرنا من الأمم ما يستهوينا، فنحب أن يكون عندنا، ونظنّ أنه وسيلة الحضارة وسبب التقدّم، نرى أمراً هناك فنريده هنا، دون معرفة بتغاير الحالتين واختلاف الطبيعتين، وشتّان

ما همّا، وما أبعد الذى بينهما!، رأينا هناك المَظْهَر فلم نَسْبُرِ المَخْبَر، وأعجبتنا هناك الصفة فلم ندرك حقيقة الموصوف، على حين اتضح ذلك كله لشاعرنا أبى الطيب حين قال:

وقد يتقارب الوصفان جدًّا

وموصوفاهما متباعدان

والأساليب التى تصلح للغة بعينها-أو لمجموعة من اللغات-لأنها تتفق وخصائصَها وتناسب طبيعتها، لا تصلح بالضرورة للغة أو لغات تختلف عنها فى الطبيعة والخصائص. واللغة العربية لغة اشتقاقية، وأكثر اللغات الأوربية تركيبية، واللغة العربية مُعْرَبة، وجُلّ اللغات الأوربية الحديثة فقدت أبنية إعرابها.ولابدّ للناظر فى أساليب النهوض باللغات وتطويرها من أن ينظر فى طبائع تلك اللغات، لمعرفة مدى مناسبة الأسلوب لتحقيق غايته وإلاّ انتهى الأمر إلى نقيض المقصود.

ولكنّ بعض رجال التربية(*) يذهب مذهباً مغايراً، ويرى أن "بين اللغات جوانب مشتركة من حيث أسسُ تكوين اللغات ومن حيث وظيفتها، فاللغات كلها تشترك فى أنها تتألف من حروف أو رموز تُسمَع وتُكتَب وتُقرأ، وتتركب منها كلمات وجُمَل تُؤدّى معانى معيَّنة، وتشترك كذلك فى شيوع الاشتقاق فيها قلّ أو كثُر. وهى إلى ذلك متشابهة إلى حدٍّ غير قليل فى مجالات استخدامها. ومن هنا قد تلتقى أساليب تعليم اللغات فيما هو مشترك بينها ، وتركّز فى الوقت نفسه على ما تختصّ به لغة دون غيرها، كالإعراب فى العربية والألمانية".

وهذا كلام لا يكاد يختلف أحد معه فى مقدّماته وشِقّه الأول. فليس من شكّ فى أن"اللغات كلها"تشترك فى أنها تتألف من حروف أو رموز تُسْمَع وتُكْتَب وتُقْرأ، وتتركب منها كلمات وجمل تؤدّى معانى معينة..." ولكنّ الذى نقصده باختلاف اللغات فى "الطبيعة والخصائص" شىء وراء هذه الأمور الظاهرة من الحروف أو الرموز التى تتألف منها كلمات وجمل...هو هذا الذى تنبّه له بعض العلماء من أسلافنا فعقدوا له كتباً مستقلّة ، أو

(*)حيثما نذكر هنا "بعض رجال التربية" فإننا نقصد عدداً من أساتذة التربية فى كلية العلوم التربوية بالجامعة الأردنية، ومنهم الأستاذ الدكتور أمين الكُخن، الذى تفضل مشكوراً بقراءة مسوّدة هذه الدراسة فأبدى على بعض فقراتها ملاحظات مفيدة وضعناها بين علامتى اقتباس استكمالاً للفائدة ، وعلقنا عليه.

فصولاً فى كتب ، وأداروها على "خصائص العربيـــة"[١] و "دقـــائق التصريـــف"[٢] و "النظم"[٣] فى تركيب الجمل ، وغيرها من المقوِّمات التى تدخل فى طبيعة اللغـــة ، وفى صميمها ، ولا تتناول المظاهر الخارجيـــة المشتركة ، والتى تجعل للغـــة وتراكيبـــها "سرّاً" يحتاج إلى من يكتشـــفه ويفـــضّ ختامه[٤]. وهذا الذى قدّمناه يجيب عـــن النتيجة التى انتهى إليها الاقتباس السابق فى شِقِّه الثانى، وهى "ومن هنا تلتقى أساليب تعليم اللغات فيما هو مشترك بينـــها..." وهذا صحيح لو كانت اللغة هـــى تـــلك الحروف أو الرموز، أى محـــض المظـــهر الخارجى دون الجوهر الداخلى.

وأما ما جاء فى الكلام السابق مـــن أن اللغات "تشترك كذلـــك فى شـــيوع الاشتقاق فيها قلّ أو كثُر" فـــهو حكـــم يحتاج إلى فضل بيان، ذلك أن الاشـــتقاق "القليل" لا يوصف بأنه "شائع"، والقلّـــة والكثرة هما اللتان تفصِلان بين خصـــائص اللغات وتميزان لغةً من لغة، ومناط حديثنا على اللغات التى "يكثر" فيها الاشتقاق، بل التى توصف بأنها لغات اشتقاقية، وليـــس على اللغات التى "يقلّ" فيـــها الاشـــتقاق بحيث تخرج من أسرة اللغات الاشتقاقية إلى أُسَرٍ أخرى غيرها.

ويحتاج توضيح هذا الكلام النظرى إلى ضرب أمثلة من واقع تعليم العربيـــة فى بعض بلادنا:

فمن أمثلة ذلك أننا تعلمنا-فيمـــا تعلمنا-ضرورةَ تعويد الطـــلاب القـــراءةَ الصامتة التى لا تتحرك فيها شفاههم، والتى تَخْطَفُ فيها عيونُهمُ الكلماتِ والجمـــلَ خطفاً، لأن هذه القراءة الصامتة تزيد مـــن سرعة القراءة، وتختصر الوقت الذى يقضيه المرء فى المطالعة، فى زمن تكاثَرَ فيه نتـــاج المطابع وتفجرت فيه المعرفة، وأصبح المـــرء لا يستطيع أن يتابع كل ذلك إذا لم يســـرع فى القراءة ليوفِّر أطول وقت ممكن لقراءات أخرى. وهى حجّة داحضة، لأن القـــراءة الصامتة السريعة التى تَخْطف فيها العـــينُ الكلماتِ والجُمَلَ خطفاً لا تتيح للقـــارئ تركيزاً للفكر، ولا تثبيتًا للمعرفة فى العقـــل ولا هضماً لها. وهى صالحة لقراءة القصص

(١) تأليف ابن جنّى.

(٢) تأليف القاسم بن محمد المؤدّب.

(٣) انظر آراء عبدالقاهر الجرجانى فى كتابه "دلائل الإعجاز".

(٤) ألّف أبوبكر الأنبارى كتاباً سمّاه "أسرار العربية".

والروايات، وكثير من الأخبار فى الصحف والمجلات، وسائر ضروب القراءة الخفيفة التى لا تحتاج إلى تدبّر، أو التى تستجلب التسلية، وقد تستدعى النوم. ولكنها لا تصلح لمن يريد أن يقرأ حتى هذه القِصصَ والروايات لتحليلها ونقدها والكشف عن خصائصها اللغوية والفنية، فكيف بمن ينصرف إلى القراءات الجادّة الأخرى: كتذوق الشعر الأصيل، أو فهم النصوص الأدبية، أو أى مادة علمية من المواد التى تفجرت بها المعرفة فى هذا العصر.

ومع ذلك فإنّ بعضنا قد يرى أن القراءة الصامتة ربما كانت متفقةً وطبيعةَ بعض اللغات الأخرى ولاسيّما اللغةِ الإنجليزية، لأن كلمات هذه اللغة-كما يقولون-تُكْتَب كما تُقْرأ، وتُقرأ كما تُكْتَب، وهو قول يحتاج إلى فضل تمحيص، وربما ظهرت مجانبته للصواب ، إذْ ما أكثر الكلماتِ التى ترسّبت فيها-بسبب تطوّرها التاريخى-حروف سقطت فى النطق مع أنها بقيت فى الكتابة شاهدةً على أصلها القديم. فلو قرأنا تلك الكلمات أو تكلمنا بها مع نطق تلك الحروف كلّها، جاءت الكلمات غريبة على أسماع أهل تلك اللغة ومن يتكلمون بها، واستعجمت على فهمهم. أما اللغة العربية فلا نجد فيها شيئاً من هذه الحروف التى تَثْبُتُ فى الكتابة وتسقط فى النطق، بل إن كلماتِها تُنْطَق جميع حروفها المكتوبة(*).

فهم إذن لا يقصدون بقولهم إنّ كلمات تلك اللغة "تُكْتَب كما تُقْرأ وتُقْرأ كما تُكْتَب" حقيقةَ الأمر، ولا مدحًا للغة الإنجليزية، بقدر ما يقصدون ذمَّ اللغة العربية-بزعمهم-وعيبَها وانتقاصَها فى عيون أهلها ونفوسِهم، وزعزعةَ ثقتهم واعتزازِهم بها، لأنها لغةُ القرآن ولأنها فى طليعة مقوّمات شخصيتهم. وحين يواجَه أصحاب ذلك الرأى بزيف دعواهم، نراهم يتسللون إلى تثبيت ذلك المعنى بالدوران حوله فيقولون: إن قارئ اللغةِ العربية يتردّد كثيراً فى نطق أكثرِ كلماتها إذا لم تكن مضبوطةً بالشكل، ويَسُكّون لذلك عبارة أخرى موجزة كالعبارة السابقة وهى قولهم:"اللغات تُقْرأ لتُفْهَم واللغة العربية يجب أن تُفْهَم أوّلاً لتُقْرَأ". ويستشهدون على ذلك بكلمات مثل: "كتب" فهل هى "كَتَب" أو "كُتِبَ" أو "كُتُبٌ". وهذا صحيح لا ريب فيه إذا

(*) ماعدا حروفاً قليلة فى كلمات معدودة، مثل: الواو التى فى آخر "عمرو" للتمييز بينها وبين "عُمَرَ".

كانت الكلمة مُفْرَدةً مقطوعة من عبارتها، أما إذا كانت جزءًا من جملة مفيدة فإن سياق الكلام ومعناه يَضْبِطان النّطق تلقائيًّا، أو سرْعان ما يصححانه حين يقع فيه التباس. أما حين يكون حرفان على الأكثر من حروف تلك الكلمات المُلْتبسة مضبوطين بالشكل فإن الحجّة تسقط من أساسها. والشكل الواجب، بالقدر الكافى، أمرٌ لا غِنىً عنه فى كتب التعليم العام، ليتعوّد التلاميذ الصورة الصحيحة لنطق الكلمة نظراً، كما يتعودون نطقها الصحيح سماعًا، وقد أصبح هذا الشكل ميسوراً فى المطابع الحديثة.

ثم إن القراءة الصامتة قد تصلح للغةٍ كاللغة الإنجليزية مثلاً، لأنهم غالياً ما يعتمدون فى تعلّمها على الكتاب ولا يحتاجون إلى السّماع إلا فى كلمات معدودة. وقد كثرت عندهم كتبٌ بعنوان "تعلُّم اللغة بغير معلم".

ولكنَّ الأمر فى لغتنا على خلاف ذلك، فهى لغة اشتقاقية مُعْرَبة منقوطة، والاختلاف فى أبنية كلماتها وفى موازينها للدّلالة على المعانى المختلفة إنما يكون بتغير الحركات وبعض الحروف. ومن قديم وقع "التصحيف" والتحريف لأن بعض المتعلمين كانوا يأخذون من "الصُّحُف" أى من الكتب، ولم يسمعوا من الشيوخ المعلّمين. وأصبح الأخذ عن الشيخ عُرفًا تتميز به مجالس العلم ودُورُ التعليم فى حضارتنا، استمرّ قروناً إلى أن أخذنا طريقة "القراءة الصامتة"، وطبقناها على أطفالنا وناشئتنا، قبل أن يتمكنوا من لغتهم، ويسيطروا على مخارج حروفها وأساليب نطقها؟

وتنجلى الأمور حين نعرف أن مثل هذه النظريات التعليمية إنما هى تجارب يطبّقونها عندهم فى مدرسة أو عدد من المدارس التجريبية، ثم لا يلبثون أن يرجعوا عنها حين يظهر لهم فسادُها، ولكنَّ بعض الذين درسوا عندهم منّا يظنُّون أن تلك النظريات قوانين ثابته، وأنها الحقيقة التى لا مِرْية فيها وأنها الوسيلة للتطور والدخول فى العصر. وأقول "بعضهم" ،ومعاذ الله أن أنزلق إلى التعميم، فإن منهم من هم فى الغاية من الوعى والإدراك والتنبه لكثير مما أشرنا إليه.

ألا يحتاج الأمر إذن إلى رويّة، وإلى فحص الأسلوب المستورَد وطبيعةِ اللغة لمعرفة مدى التوافق بينهما، حتى لا يكون

الأسلوب المرجوّ للنجاة سبباً آخر من أسباب الضياع .؟

وقد علّق بعض رجال التربية على ما تقدّم من حديث بقوله:"إن استخدام القراءة الصامتة على سعة-فى العصر الحاضر-أمر ضرورىّ للطلبة بسبب التفجّر العلمى وأهمية الوقت فى مجالات الحياة، وليس معنى هذا أن يُحدث إضرار بالقراءة الجهرية، فلها قيمتها ووزنها كما جاء فى هذه الدراسة. وواقع مناهجنا أنها تأخذ بهذين النوعين من القراءة، وأن كُتُبَنا المطوّرة عُنيت بالتشكيل لدعم القراءة الجهرية، وكذلك الشأن فى أدلّة المعممين لتوضيح المسيرة فى تعليمها".

وقد ذكرنا فيما تقدّم ذكراً واضحاً لا لَبْس فيه أن حجة التفجّر العلمى وأهمية الوقت "حجة داحضة لأن القراءة الصامتة السريعة (تحقيقاً لأهمية الوقت) التى تَخْطَف فيها العينُ الكلماتِ والجملَ خطفاً، لا تتيح للقارئ تركيزاً للفكر، ولا تثبيتاً للمعرفة فى العقل ولا هضماً لها. وهى صالحة لقراءة القصص..." إلى آخر ما ذكرناه قبل صفحات.

أما الحديث عن القراءة الجهرية فقد جاءت فى الملاحظة السابقة مقرونة بالقراءة الصامتة، بل ربما تابعةً لها. وهذا ما نراه قلباً للوضع. فالأصل أن يبدأ الطفل بالقراءة الجهرية وأن يقضى فيها سنواته الأولى حتى يتعود النطق السليم، ويألف إخراج الحروف من مخارجها الصحيحة. فلا تتآكل تلك الحروف وتتداخل الكلمات حين يتحدث بها المتحدث،كما يَحْدُث الآن من كثيرين. ثم يبدأ تعويد التلميذ القراءة الصامتة من السنة الرابعة أو الخامسة وربما من السادسة. وبذلك يجمع بين فوائد الطريقتين.

ومن أمثلة ذلك أيضاً أن أهل التعليم فى بعضُ البلاد الأخرى أخذوا بطريقة تعليم الأطفال الكلمةَ كلّها، وأحياناً الجملة كلّها، دُفعةً واحدة، قبل البدء بتعليم الحروف مفردة. وتَعِبنا فى اقتباس هذا الأسلوب، وتخبّطنا فى تطبيقه، وطال تعبنا وتخبّطنا، إلى أن صار الطفل يقضى فى المدرسة أربع سنوات أو تزيد ولا يزال يجهل قراءة سطر واحد من غير الكلمات التى حفظها عن ظهر قلب-لا عن فهم ومعرفة-وأصبحنا نشكو من أن بعض

هؤلاء الأطفال لا يزالون يجهلون كتابة أسمائهم صحيحة بعد هذه السنوات من التعلّم. وقد أدركت أمم أوربية أخرى الفروق بين لغاتها فى الطبيعة والأصول وبناء الكلمات وصياغة التراكيب، وخاصة تلك اللغات الأوربية التى لا تزال تحتفظ ببقايا من الإعراب(*)، فلم تأخذ بهذا الأسلوب فى تعليم لغاتها، لأنه لا يستقيم به أمرُها. ونحن أجدر من تلك الأمم بأن نتأنّى وندرس الفروق بين طبائع اللغات، ونعرفَ ما يصلح للغتنا فنأخذ به، قبل أن يستهوينا أسلوب غريب عن طبيعة هذه اللغة لأنه نجح عند غيرنا.

ولكنّ بعض أساتذة التربية عندنا يرون "أن مدارسنا تأخذ بمحاسن الطريقتين الكلية والجزئية فى تعليم المبتدئين، ولا تقتصر على الطريقة الكلية. وقد اتّبعتْ كُتُبنا المطوّرة الخاصة بالصف الأول الأساسى هذه الطريقة، معتمدة على خبرة سنوات طويلة ونتائج بحوث فى هذا المضمار فى عدة بلدان عربية".

ونستطيع أن نستنتج من ألفاظ هذه الفقرة أن الجمع بين الطريقتين أمر حديث جدًّا ،لأنه لم تأخذ به إلا الكتب المطوّرة الخاصة بالصف الأول الأساسى، وأن هذا الجمع لم يكن قبل ذلك. وهذا أمر يدعو إلى الاستبشار بمستقبل أفضل للأجيال القادمة فى معرفة الحروف والكلمات وتعلّم القراءة. ويبقى أننى لم أفهم كيف تأخذ مدارسنا "بمحاسن" الطريقتين. فهل لهما مساوئ تُتْرَك ويَقْتصر الأخذُ على المحاسن؟ أو أن المقصود الأخذ بالطريقتين من حيث هما أسلوبان لتعليم القراءة.

ويرى صاحب الملاحظات السابقة أننى اتجهت "إلى وضع المسؤولية الكبرى فى ضعف اللغة العربية اليوم على طرائق تدريسها. وهذا أمر جدلى فهناك أسباب كثيرة، ومنها أن عزة اللغة مرتبطة إلى حد كبير بعزة الأمة التى تتكلم بها وبمستوى المعلم الذى يعلمها لغة وإعدادًا، وبمدى صلة البيئة باللغة العربية أو بُعْدها عنها". وأضاف "إن عدم قدرة بعض الأطفال على كتابة أسمائهم يعود إلى عدة أسباب منها: مستوى المعلم وإعداده، والفروق الفردية بين الأطفال، وبيئات الأطفال الثقافية والاقتصادية وصلتها بتنمية الاستعداد اللغوى قبل المدرسة. وغيرها من الأسباب إلى جانب الطريقة".

(*) مثل اللغة الألمانية،فهى مُعْرَبة تشتمل على قواعد وإعراب ربما يقتربان فى دقتهما وتنوعهما من قواعد العربية.

وهذا كلّه حقّ، وأشكر الأستاذ الفاضل لذكره استكمالاً للموضوع.

ومن أمثلة ذلك أيضاً: أنه شاعت عند غيرنا طريقة تعليم الأدب وتاريخه: نثره وشعره ، على أساس البدء بالعصور الحديثة ثم الرجوع منها إلى العصور التى سبقتها عصراً عصراً. وتلك طريقة لا مفرّ منها، ولا بديل عنها، فى آداب تلك الأمم، لأن لغاتهم التى يستطيع معرفتها صغارهم وكبارهم ومثقفوهم ومتعلّموهم، هى اللغة المعاصرة أو اللغة الحديثة التى لا تمتدّ فى العمر إلى أكثر من ثلاثمئة عام، فإذا وصلت إلى ما قبل ذلك بقليل استعصت عليهم، وانبهمت آدابها، واضطُرّوا إلى تيسيرها وتقريبها للتلاميذ فى مختلف المراحل بتعليمهم نماذج مختصرة مبسّطة فى طبعات خاصّة، ثم بتقديم الأصول للدارسين–حتى المتخصصين منهم–مقرونة بشروح مسهبة لتوضيح غوامض اللغة وغرائب الأسلوب. أما ما قبل أربعمئة عام فتكاد تكون لغات آدابهم لغات أخرى مختلفة عن لغتهم التى يعرفونها ويفهمونها الآن. ولكن اللغة العربية التى نعرفها ونكتبها ونتحدث بها فصحاؤنا إنما هى لغة واحدة مستمرة ممتدة على مدى سبعة عشر قرناً ، وكثيراً ما نقرأ شعراً جاهليّاً وأمويّاً وعباسيّاً فنحسّ كأنه كُتِب لنا فى أيامنا هذه. ولا حجّة لمن يستشهد بأبيات فيها كلمات غريبة وتراكيب مستعصية فى وصف الصحراء أو حيوانها أو ما يشبه ذلك من الموضوعات التى انفصلت عن حياتنا، وأصبحت غريبة عنا، فانفصلت بذلك ألفاظها وتعابيرها وأصبحت عسيرة على فهمنا . فهذا ارتباط طبيعى بين الموضوع والتعبير، أو بين المضمون والشكل، لأن الصحراء وحيوانها والصيدَ فيها، لأن وصف أعضاء المطايا من الإبل والخيل وما يتصل بها من حياة كاملة متماوجة، أصبحت كلها بعيدة غريبة عنّا، وهكذا صارت الكلمات الدالّة عليها غيرَ مألوفة لنا، وتحتاج منّا إلى البحث عن معانيها فى المعاجم. ومع ذلك فإن كثيراً من هذه الألفاظ لا تزال مفهومة عند أهل البوادى والصحارَى الذين يألفون الخيل والإبل ، ولا يزال شعراؤهم يستعملون بعضها فى شعرهم "النبطى". أما الموضوعات الإنسانية العامة، المشتركة بين الناس، المستمرّة فى نفوسهم، فإن التعبير عنها مماثل لها فى القُرْب من النفوس،

والأنس بها، وإدراك معانيها، منذ أقدم شعراء الجاهلية الذين وصل إلينا شعرُهم. ونستطيع أن نختار مئات النماذج من شعرنا ونثرنا خلال العصور المتعاقبة من مأنوس الكلام ومفهوم المعنى، وننشّئ عليها أطفالنا، ونربّى من خلالها أذواقهم، ليتمرسوا-فى المراحل المختلفة-بأسرار بيان لغتهم، ويألفوا بهجة ديباجتها ونصاعة تعابيرها، بدل الاغتراب عنها، والتخبّط فيما يلقّنونه من بعض هذه الأساليب الحديثة، التى ارتضخ أكثرها العجمة، وارتضع الضعف، فألفاظها-حين تتفرق- عربية، ولكنها تتناكر وتتنافر حين تجتمع فى جملة متصلة.

أليس هذا أيضاً موضعاً من مواضع التفكير والتدبّر، ومعرفة اختلاف اللغات وآدابها وما يناسبها من أساليب التعلّم والتعليم؟

ومن أمثلة ذلك هذه الدعوة القديمة المتجددة إلى إسقاط الإعراب، واستعمال لغةٍ عربية خاليةٍ منه فى الكتابة والكلام، على أساس قاعدة وضعوها هى "سَكّنْ تَسْلَمْ"، ولئن جاز ذلك للعوامّ حين يتحدثون بلهجتهم المحكيَّة، فكيف يجوز فى اللغة الأدبية، وفى المواقف العامّة للمثقفين، وفى دروس المعلمين الذين ينشّئون أجيال المستقبل، فيسمع الناس منهم، ويتعلّم التلاميذ عليهم، لغةً منفصلة عن أصولها وقواعدها التى يتحدّث عنها المتحدثون ويعلّمها المعلمون فى دروس مستقلّة، معزولةً عن تطبيقاتها، مقطوعة عن استعمالاتها وعما يسمعه التلاميذ، فتصبح قواعد اللغة ونحوُها مجمَّدة متحجرة فى القواعد نفسها، ولا تنساب حيّةً نابضة فى الاستعمال من: تكلُّمٍ وقراءةٍ وسماع. وهو أمر مستنكر فى كلّ حالة من حالات الحياة حين تنفصل النظرية عن الواقع، والقاعدة عن التطبيق، فكيف باللغة التى لا تحيا وتستمرّ وتتجدّد إلا من خلال استعمالها استعمالاً صحيحاً متكاملاً!! وكيف ستكون صلة الأجيال القادمة بتراثنا الشعرى والنثرى الذى لابدّ-لقراءته وفهمه وإقامة وزنه العَروضىّ-من إعرابه إعراباً واضحاً كاملاً؟ أتُرَى تَرمى هذه الدعوة-فيما ترمى إليه-إلى فصل الأمّة عن تراثها ومقوّمات شخصيتها بالتدريج؟ وقد نتج عن تسكين المتحدثين أن أصبحت همزات الوصل تُنْطَق بالضرورة همزات قطع

لوقوعها بعد حروف ساكنة ، وأصبحت آذاننا وأذواقنا تعانى أشدَّ المعاناة آلام الاستماع إلى المذيعين والمعلقين- فى الإذاعتين: المرئية والمسموعة-وهم يرجموننا بهذه الهمزات، فيشوّهون جمالَ لغتنا.

وهذه الدعوة إلى التسكين إنما هى فى حقيقتها دعوة إلى التجهيل، وتدلّ على العجز عن التعلّم، وعلى سوء الفهم لطبيعة اللغة العربية، فالإعراب فى هذه اللغة جزء لا ينفصل عن طبيعتها وتكوينها، وعنصر أساسىّ فى بنائها، وليس حِليةً خارجية نضعها عليها حيناً، ونضعها عنها حيناً آخر. وليس من نتيجة لهذه الدعوة إلا التدرّج نحو وجودِ لغاتٍ متعدّدة تنفصل عن اللغة العربية وتعزلُها عن الحياة والاستعمال ثم تُميتها، كما حدث للغة اللاتينية حين انفصلت عنها اللغات المتعددة من إيطالية وفرنسية وإسبانية وتوابعها. والقياس هنا والتشبيه مع الفارق، فما أوسع البون بين اللغة اللاتينية واللغةِ العربية لغة القرآن التى بضياعها يضيع كتابُ الله، وأنّى يكون ذلك وقد قال تعالى: (إنّا نحن نزّلنا الذّكْرَ وإنّا له لحافظون)(*)

(*) الحجر: ٩

وأسباب ضعف تعلّم اللغة العربية كثيرة، بعضها منّا، وبعضها مدسوس علينا، تضافرت جميعها، فاستعان بها غيرنا ليوهمنا أن هذه اللغة فى جوهرها معقدة صعبة، وأن ضعف تحصيلها والمعرفةِ بها إنما سببه اللغة نفسها، وليس هذه الأساليبَ الغريبة عنها، المخالفة لطبيعتها. وأخذ هذا الوهم يشيع بيننا، ويستقرّ فى نفوسنا، حتى أصبحنا نحن الذين نردده ونؤكده. ونسينا تاريخ هذه اللغة حين اشترك كثير من غير أهلها فى بنائها الثقافى الحضارى، فكان من هؤلاء المفسّرون والمحدّثون والرواة والكتّاب والشعراء والعلماء والنحاة واللغويون، الذين ينتسبون إلى مختلف البقاع الإسلامية فى أصولهم أو فى نشأتهم، ومنهم من تعلّم العربية ولم تكن لسانَ طفولته، فنبغ فيها، وكتب وألّف، بل صار معلّماً للعرب يعلمهم قواعد لغتهم ونحوَها وصرفَها وبلاغتها ونقدها. ولم يقل أحد منهم حينئذ إن العربية لغة صعبة ليصرف نفسه ويصرف الناس عنها. فما بالنا اليوم نسمع هذا، ونقوله، ونصدّقه، ونجد فيه العذر الذى نتّكئ عليه ليسوّغ لنا جهلنا بلغتنا أو ضعفَنا فيها؟

وحسبنا أن نستشهد بمثلين على معرفة غير العرب بالعربية وتعلّمهم لها على كِبَرٍ، فى زمن قصير: فقد "ذكر نصر بن علىّ قال: كان سيبويه يستملى على حمّاد [ابن سَلَمة][(١)]، فقال حماد يوماً: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما أحَدٌ من أصحابى إلا وقد أخذت عليه ليس أبا الدرداء. فقال سيبويه: ليس أبو الدرداء. فقال حمّاد: لحنتَ ياسيبويه. فقال سيبويه: لاجَرَم لأطلُبَنَّ علماً لا تُلحِّنُنى فيه أبداً. فطلب النحو ولزم الخليل"[(٢)]. فسيبويه إذن لم يتعلم العربيةَ ونحوَها صغيراً، ولكنه بدأ بطلب علومٍ أخرى كالحديث والفقه، وحين طلب العربية تعلمها وصار إمام النحو"وعمِل كتابه الذى لم يسبقه إلى مثله أحد قبله و لم يلحق به مَنْ بعده"[(٣)].

أما المثل الثانى فلا يقلّ وضوحاً ودَلالة ، قال القِفطىّ(٤):

"حضر أبو منصور الجبَّان[(٥)] فى مجلس علاء الدولة بن فخر الدولة ابن بُوَيْه، وفى المجلس أبو علىّ بن سينا الرئيس، وهو يومئذ وزير لعلاء الدولة، وجرى فصل فى اللغة تكلّم فيه الرئيس ابن سينا، فقال له أبو منصور: أنت منطيقىّ ما نعارضك، وكلامك فى لغة العرب ما نرضاه. فسكت أبو علىّ خجلاً. وبعد انفصاله من المجلس نظر فى اللغة وتبحّر فيها، وعمل رسائل أودعها نوعاً متوفّراً من اللغة. وسأل علاءُ الدولة ابنَ الجبَّان عما تضمّنه من الغريب، فعلم بعضه وأنكر بعضاً. فقال أبو علىّ [ابن سينا] الكلمة الفلانية معناها كذا، وهى مذكورة فى الكتاب الفلانى، وشرح جميعها، وأحال على الأصول. فخجل أبو منصور بن الجبَّان، وفطِن لِما فعله ابن سينا، واعتذر إليه اعتذاراً طويلاً..".

(١) الإمام المشهور فى الحديث وشيخ أهل البصرة فى العربية.

(٢) السيرافى، أخبار النحويين البصريين: ٤٣-٤٤ ، اعتنى بنشره فريتس كرنكو ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ١٩٣٦م. وانظر : السيوطى ، بغية الوعاة ١:٥٤٨ ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، الطبعة الأولى ، عيسى البابى الحلبى ١٩٦٤م.

(٣) المصدر السابق: ٤٨.

(٤) إنباه الرواة على أنباه النحاة ٤:١٧٠-١٧١،تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣م.

(٥) اسمه : محمد بن علي بن عمر ، وهو إمام في اللغة ، مبرّز في زمانه ، له تآليف متعددة .

فابن سينا إذن لم يتعلم اللغة والنحو إلا بعد أن صار وزيراً، فنبـــع فى هذيـــن العلمين كما نبغ فى غيرهما من العلوم. أمـــا نحن، أبناءَ العربية، فإننا فى هـــذا الزمـــن العجيب نبدأ بتعلم العربية: شعرِها ونثرِهـــا ونحوها، منذ نعومة أظفارنا ونقضـــى فى ذلك السنوات بعد السنوات، ثم نخرج مـــن كل ذلك بخُفَّىْ حُنَيْن، بل لا يكاد كثير منّا يخرج حتى بهما!

وإذا كنا قد تأثرنـــا بنظريـــات فى تعليم اللغة مما عند غيرنا، وممـــا لا يتفـــق وطبيعةَ لغتنا وخصائصَها، ومما هو عندهـــم أكثره من التجارب التى يحصرون تطبيقـــها فى مدارس تجريبية محدودة، وقد يرجعـــون عنها، ولكنها تظلّ عند بعض الطلبة الذيـــن يدرسون هناك منّا، حقائقَ ثابتة يروّون لهـــا حين يعودون إلينا علـــى أنهـــا أحـــدث النظريات التى ستُصلِح حـــال التعليـــم فى بلادنا، ومرة أخرى أقـــول "بعـــض" ولا أُعمّم...وإذا كان كل ذلك قد زاد أحوالنا سوءاً، ومعرفتَنا بلغتنا ضعفاً، فهل جرّبنـــا أن نولّى وجوهنا شطرَ ثقافتنا، وأن نـــدرس وسائل التعليم فيها وأساليبه ومصـــادره، وهى كلّها واحدة أو تكاد، من أقصى بلاد المسلمين فى الغرب إلى أقصى بلادهـــم فى الشرق ، وعلى امتدادها فى الشّـــمال وفى الجنوب، على مدى ثلاثة عشر قرناً. وقـــد استطاعت هذه الثقافـــة أن توحّـــد بـــين المسلمين على اختلاف أصقاعـــهم، وأن تزوّدهم بالعلم الدينى والدنيوى، وبالمعرفـــة المتطورة الأدبيةِ واللغوية والعلمية، النظريـــة والتطبيقية التى جعلت منهم أساتذة العـــالم قروناً متطاولة، وأحلّتْهم منـــزلةً عاليـــة فى تاريخ العلم والحضارة، حين كانوا يجمعون بين أصالة المنهج والفكر والانفتاح علـــى معارف الدنيا من حولهم، دون خـــوف ولا تردّد، يأخذون منها مـــا يناســـبهم ومـــا يحتاجون إليه، فيتمثّلونه ويهضمونه حـــتى يصبح جزءاً من ثقافتهم فيزيدها أصالـــةً وخصبًا وقدرة على العطاء. ثم أخذت هذه الثقافة بـــالجمود والضمـــور والانغـــلاق واجترار ذاتها حتى نَفِدَ ما عندها، فعزلتـــها المدارس الحديثة وأنظمة التعليم الأجنبية لمـــا فيها من دَفْقٍ جديد بهر الأبصار وخلـــب الألباب.

فهل لنا-بعد أن زال بعـــضُ أثـــرِ ذلك من أبصارنـــا وألبابنـــا-أن نـــدرس أساليب تعليم لغتِنا: نحوِها وأدبهـــا، مـــن

داخل هذه اللغة وثقافتها، وأن ندرس ما عند غيرِنا، لا لنخضع له ونقتصر عليه، ولكنْ لنعرفه ونقابله بما عندَنا، ونأخذ منه القدرَ الذى يفيدنا ونحتاج إليه لتطوير أساليبنا ووسائلنا التعليمية بما يناسب طبيعة لغتنا ومقوّمات ثقافتنا.

إن إخفاقنا فى الماضى القريب وفى الحاضر، لا يجوز أن يكون سبباً للتوقف، بل يجب أنْ يكون حافزاً لنا على الاستمرار فى البحث فى قضية تعليم اللغة العربية على الأساسين اللذين ذكرناهما، وهما: دراسةُ أساليب التعليم فى ثقافتنا والاستفادةُ من تطور الأساليب الحديثة فى تعليم اللغات، دون أن تقسر لغتنا على ما يخالف طبيعتها.

وبعد،

فهذه مجموعة من الآراء لا أدَّعى لها الصواب، ولكنها جالت فى الخاطر، فرأيت أن أعرضها عليكم، وأنتم أهل العلم والفضل، لعلّى أقبَسُ من عملكم بعض ما يوضّح جوانبها، ويكمل نقصها، ويصحّح ما وقعتُ فيه من خطأ. والله سبحانه الموفّق للصواب.

ناصر الدين الأسد

عضو المجمع من الأردن

الطريق إلى توحيد المصطلح العلمى العربى

للدكتور محمود مختار

مقدمة :

"لا حياة للعلم بدون لغة تؤديه . ولا سبيل إلى النهوض به وتقدمه إلا أن يتدارسه المشتغلون به بلغتهم الوطنية" .

سيدى الرئيس، الزملاء الكرام:

بهذا الاستهلال الرائع توج أستاذنا وقائدنا الدكتور إبراهيم مدكور كلمته فى تصدير أحد معجماتنا العلمية . وهو ليس فى حاجة منى إلى تاييد أو تعقيب فهو حقيقة ثابتة ، يؤيدها ازدهار العلم العربى واللغة العربية معًا فى العصر الإسلامى، ويؤكدها وفاؤهما بجميع شؤون الحياة وازدهارها ؛ ثم ركودهما معا لفترة طويلة مظلمة ؛ انقشعت عندما بهرنا العالم بإنجازاته العلمية الحديثة ؛ وقيام العالم العربى على أثرها بجهود مباركة للحاق بها . فأنشئت الجامعة المصرية عام ١٩٢٥ لتعنى بالعلوم الأساسية والتطبيقية ،والتى نص قانون إنشائها على أن تكون الدراسة فيها باللغة العربية .

ثم أنشئ بعدها عام ١٩٣٢ مجمع اللغة العربية الذى نص قانون إنشائه على جعل اللغة العربية وافية بمطالب العلوم والآداب والفنون ؛ وملائمة لحاجات الحياة المتطورة كما نص على دراسة المصطلحات العلمية والحضارية وتوحيدها بين المتكلمين بالعربية ووضع معجمات للمصطلحات العلمية بتعريفات محدودة على النمط الحديث فى العرض والترتيب .

ولكن الجامعة المصرية آثرت آنذاك أن تتريث فى تطبيق ما نص القانون عليه صراحة ، وأجازت الأخذ بذيل استثنائى للمادة يسمح بالدراسة بلغة أجنبية إذا لزم الأمر إلى أن تتوافر مقومات التعريب ووضع المصطلحات . أما مجمع اللغة العربية فقد اقتحم المجال فوراً ونفذ قانون إنشائه بخطى عملية جادة، استهلها بفتح أبوابه وقلبه للعلميين المتخصصين الغيورين على اللغة العربية والتعليم الجامعى معا .

وسرعان ما تضافرت جهود العلميين واللغويين بالمجمع، وانصهرت فى بوتقة واحدة يوجهها ويرعاها مجلس المجمع

ومؤتمراته، ويحدوها الوفاء للعلم والإيفاء بمتطلبات اللغة دون الحيود بها عن مسارها القويم .

وأثمرت الجهود بتوفيق من الله ، فأخرج المجمع عدداً من المعاجم العلمية المتخصصة حوت عشرات بل مئات الآلاف من المصطلحات العلمية الأساسية مقننة ومعرفة لتكون لبنات للتخاطب والتواصل بين المشتغلين بالعلم والتعليم . وتقبلتها الهيئات الجامعية والبحثية بقبول حسن ، حيث وجدت فيها حافزاً لمسايرة اللغة العربية للغات العلم المعاصرة . ونشط تأليف الكتب العلمية وترجمتها، وشغلت فراغاً فى المكتبة العلمية كان شاغراً لأمد طويل . كما انتشرت المجلات العلمية العربية وعقدت الندوات والمؤتمرات التى تنادى بتعريب العلم والتعليم على مستوى العالم العربى .

وقد حفز هذا النجاح الكثير من الأفراد والهيئات العلمية واللغوية مصرية وغير مصرية، فأخرجت هى الأخرى عدداً كبيراً من المعاجم العلمية ،وهى وإن كانت قد أغنت اللغة هى الأخرى بألفاظ ومصطلحات جديدة إلا أن معظمها كان يحمل الطابع المحلى أو الرأى الانفرادي والاجتهادي، دون التزام بأسلوب واضح المعالم، أو بمنهجية محددة ،أو اتباع لمقومات المعاجم العلمية الحديثة ،من ذلك خلوها من تعريف المصطلح أو شرحه،ووضع أكثر من مقابل عربى واحد للمصطلح الأجنبى الواحد المتخصص . ولدينا المثل على ذلك ما أصدره مكتب تنسيق التعريب من مصطلحات ملأت نحو ثلاثين معجماً ضخمًا خاليا من التعاريف ،فلم تستطيع الإيفاء بمتطلبات الهيئات العلمية والأفراد وظلت حبيسة المخازن ، كما أنها أصابت موجة التأليف والترجمة بشىء من الوهن والقصور، وأشاعت البلبلة واللبس بين العلميين، وأعاقت التواصل والتفاهم بينهم بلغة موحدة فى مصطلحاتها . وكانت نتيجة ذلك أن آثر الكثير منهم استخدام المصطلحات بنصها الأجنبى فى محاضراتهم أو مؤلفاتهم بصورة لا يقبلها المنطق ولا الذوق السليم .

منهجية وضع المصطلح العلمى

إزاء هذا الوضع الواهن وضع مجمع اللغة العربية بالقاهرة منذ أكثر من ١٤ عامًا أسلوبًا علميًا لكيفية وضع المصطلح العلمى

العربي المتخصص أقره مجلسه ومؤتمره عام ١٩٨٠ ؛ واستهله بوضع المبادئ والأسس الواجب مراعاتها لاختيار المصطلح المناسب ثم تلاه بتطبيق هذه المبادئ فى العلوم الأساسية بأمثلة للتوضيح .

وأخرج المجمع هذا الأسلوب أو هذه المنهجية كما سماها فى نشرة إعلامية وزعت على نطاق واسع بين المشتغلين بالعلم .

وانطلاقاً من سنة التطور والتحديث أعاد المجمع النظر فى تلك النشرة وصاغها فى صورة منقحة جديدة، بنيت على واقع استخدامها وممارسة العلم فى ضوئها ومستنيرة بأحاديث المختصين وكتاباتهم، وتوصيات الندوات والمؤتمرات المحلية والإقليمية .

وهى النشرة التى يشرفنى أن أضعها بين أيديكم اليوم ؛ والتى أخرجها مقررو اللجان العلمية بالمجمع، وأقرها مجلسه ومؤتمره في العام الماضي .

ويتصدر هذه النشرة التعريف الدولى المقرر للفظ المصطلح العلمى المتخصص والمسجل فى جميع المعاجم ؛ وأخذ به معجمنا العربى "الوسيط" حيث ذكر أنه لفظ يصطلح عليه أهل العلم المتخصصون للتفاهم والتواصل فيما بينهم . وهو تعريف موجز ومركز يخاطب جميع العاملين فى وضع المصطلحات واستخدامها فى الهيئات العلمية واللغوية بمفهوم موحد ، وبتطبيق هذا المفهوم الدولى العام على المصطلح العلمى العربى يصبح توحيده رمزاً من رموز الوحدة فى الوطن العربى .

ويلى هذا التعريف بيان بالمبادئ الواجب مراعاتها والالتزام بها عند وشع المصطلح وتعريفه،وصاغها فى خمسة بنود ، يتصدرها بطبيعة الحال الحفاظ على التراث العلمى العربى بوصفه الأمانة التى يحملها كل عربى غيور على انتمائه لهذا الوطن . ومن المسلم به أن التراث العربى غنى بالألفاظ العلمية ، وحتى وإن كان قد تسللت إليه ألفاظ أجنبية دخيلة فى عصور الظلام، فإن اللسان العربى قد نبذها واندثر معظمها- أو كاد- كلفظ ما ثيماتيقا وأر ثماتيقا .

وينص المبدأ الثانى على ضرورة الوفاء بأغراض التعليم والبحث العلمى، ومطالب التأليف والترجمة والثقافة العلمية ، وهو مبدأ لا يحتاج لتأكيد أو تعليق، لأنه مستخلص من قانون إنشاء المجمع ذاته كما قدمت .

أما المبدأ الثالث فيتناول مسايرة المنهج العلمى العالمى فى صياغة المصطلح وفى تعريفه، ويهدف للتيسير على العلماء فى متابعة العلوم الحديثة وتطبيقاتها على المستوى العالمى، والتفاعل معها على قدم المساواة ودون عزلة عن العالم .

ويهدف المبدأ الرابع لحفز العلماء والباحثين إلى استحداث ألفاظ عربية الأصل لما يستجد من مصطلحات علمية، قبل أن تشوبها الشوائب التى يصعب اقتلاعها إذا ما شاعت واستقرت .

وينادى المبدأ الأخير بضرورة الربط بين المصطلح العلمى وتعريفه باعتبارهما عنصراً واحداً لا ينفصم ، أى أن التعريف هو جزء من المصطلح لا يصلح إلا به ولا قيمة له بدونه .

وتنتقل النشرة بعد ذلك لعرض مفصل لتطبيق هذه المبادئ فى فروع العلم المختلفة وتضعها فى صورة توصيات تتناول أسس كل من الترجمة والتعريب ، ومتى يؤخذ بالترجمة، ومتى يؤخذ بالتعريب ، ثم كيفية صياغة المصطلح فى كل من الحالتين . وقد وضعت المنهجية ترجمة المصطلح الأجنبى إلى لفظ عربى فى المقام الأول ، وهذا مع ضرورة مراعاة المدلول العلمى للمصطلح الأجنبى دون التقيد بدلالته اللفظية الأجنبية، وتجيز المنهجية وضع ألفاظ غير مألوفة درج عليها المختصون لأداء مفهوم علمى دقيق الدلالة ، هذا كله بالطبع مع تجنب الألفاظ الركيكة والمبتذلة والخاطئة .

وتتناول التوصيات اجتناب الترادف للمصطلح المتخصص دقيق الدلالة، ولكنها قد تجيزه لألفاظ ذات دلالة لغوية أكثر منها علمية شاع استخدامها فى تخصصات مختلفة ، وهذه أمرها متروك للممارسة .

وبعد إيفاء الترجمة حقها تتيح المنهجية تعريب المصطلح الذى يصعب ترجمته ، ولكنها تحيطه بقيود واشتراطات تتناول قياسه على اللسان العربى مع الاحتفاظ بجذوره اللاتينية التى أخذ منها ، وبعد أن يستوفى اللفظ مقومات التعريب يعتبر لفظاً عربيًّا يخضع لجميع قواعد اللغة، من نحت واشتقاق ونسبة وما إليها .

تطلعات

لا أهدف فى هذا الحديث الموجز إلى الغوص فى جميع أرجاء وأعماق وضع المصطلح العلمى، أو إلى كل ما جاء تفصيلاً وتوضيحاً فى المنهجية،فهى بين

أيديكم وتحت نظركم، ولا أقول إن النشرة قد ألمت بجميع جوانب الموضوع، ولكنها تمثل معالم السير فى الطريق لكل من يعنى بموضوع المصطلح، وتجنبه الوقوع فى مشكلات الترادف والتعاريف التى كادت تهدد أو تُودى بهدف تعريب العلم والتعليم نفسه .

وأضيف أن من المسلم به أن إخراج المعجم المتخصص للمصطلحات العلمية ليس هدفًا ينتهى بمجرد إصداره ، بل إنه عمل مستمر متواصل ينمو ويتطور كمًّا وكيفًا مسايرًا حاجة العلم سريع التطور ، وهذا يعنى ضرورة وجود هيئات دائمة لتحديث المعاجم وتطويرها بعيداً عن الانفرادية والعنجهية التى مهما علا صوتها فسوف يخفت بالاستخدام أو بانقطاع صاحبها. إن عاجلاً أو آجلاً .

وليس وضع المصطلحات هو الهدف الأوحد الكافى لتعريب العلم ، فما زال أمامنا قضايا ومشكلات تتطلب الدراسة والحسم ، ولا تقل أهمية عن المصطلحات نفسها ،كالرموز العلمية، والوحدات والدلالات، وكتابة المعادلات الرياضية والفيزيقية والكيميائية، وقد عقد لها مؤتمر فى الأردن منذ بضع سنوات، ولكنها مازالت فى حاجة لأن تحسم وتوحد، وأمامنا كذلك مشكلة الألفاظ التى تكونت من مبادئ كلمات أجنبية مثل الليزر والرادار وهى فى حاجة لوضع ضوابط لها . وأمامنا مشكلة استخدام السوابق واللواحق وكيفية إلحاقهما بالألفاظ العربية، لحل مشكلة الإيفاء بالكم الهائل من المصطلحات العلمية القائمة حاليا والمستجدة . كل هذه المشكلات فى حاجة للدراسة والحسم والتوحيد لأهميتها فى تعريب العلم والتعليم حاضراً ومستقبلاً .

التطبيق

بعد هذه الجولة السريعة فى جهود مجمع اللغة العربية بالقاهرة، لتمهيد الطريق لتوحيد المصطلح العلمى العربى المتخصص بوصفه أهم دعامات تعريب العلوم، ووضع منهجية عملية للسير فيه أقرها مجلسه ومؤتمره نكون قد قطعنا شوطاً أساسيًّا وعبرنا حائلاً وقف بنا طويلاً دون توحيد المصطلح . ولكن هذا لا يعنى أننا قد انتهينا من عملية توحيد المصطلح نفسها فمازال أمامنا شوط آخر للوصول إلى هذا الهدف، وهو تطبيق هذه المنهجية عمليًّا فى مجالات

التخصص المختلفة ، وإخراج معاجم علمية موحدة المصطلحات والتعريفات، يثق فيها ويلتزم بها كل من يعمل فى مجال العلم وتطبيقاته .

ومن الواضح أنه لا يقوى على عملية التطبيق والتنفيذ هذه على نطاق واسع وفى جميع التخصصات إلا هيئة علمية لغوية رئيسية دائمة، مدعمة إداريًّا من حكومات الدول العربية والمؤسسات المعنية ، يتولاها ويقودها اتحاد مجامع اللغة العربية فى الوطن العربى، ولدينا المثل على ذلك إنشاء الجميعة الفرنسية للمصطلحات التى يرأسها رئيس الجمهورية نفسه (كما ورد فى حديث للأستاذ أحمد شفيق الخطيب)

وعلينا نحن فى مؤتمرنا هذا أن نرفع الأمر لاتحاد المجامع بتوصية لتطبيق هذه المنهجية فى فروع العلم المختلفة، بتشكيل لجان أو مجموعات علمية لغوية دائمة تحت رعايته وإشرافه، وتكليفها بإعادة النظر فى المصطلحات الواردة فى المعاجم حاليًّا، وبخاصة المترادف منها فتعمل على توحيده، والخاطئ فيها فتعمل على تصويبه، ثم إخراج معاجم فى صورة موحدة متوجة باسم اتحاد مجامع اللغة العربية لتكون ملزمة لكل فرد أو هيأة تعمل فى مجال المصطلحات وتعريب العلوم.

ختام

تلك هى معالم الطريق العملى الجاد الذى أرى أنه يحقق الهدف القريب لتوحيد المصطلح العلمى، بوصفه دعامة تعريب العلوم ، وتؤكد الثقة فى قوة اللغة العربية وقدرتها على مسايرة عصر العلم والتكنولوجيا، والوفاء بمقوماتهما اللغوية فى كل زمان ومكان .

وهذا هو الخلود الذى أضفاه عليها القرآن الكريم .

محمود مختار

عضو المجمع

لغتنا سهلة صَعَّبها بعض أبنائها

للأستاذ الدكتور عبد الرحمن محمد السيد

أراد الله سبحانه للغتنا أن تكون سهلة ميسرة ، وأن يكون القرآن الكريم - الذى هو قمة الفصاحة والبيان - دليلاً على يسرها ، وعنوانًا على سهولتها وقوة تأثيرها . فقال : [١] ولقد يسَّرنا القرآن للذكر فهل من مُدَّكِر " وقال: [٢] نَزَل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذِرين . بلسان عربى مبين ". وغير ذلك من الآيات التى تدل على يُسر القرآن ، وقُرْبِ مأخذه ، وبالتالى على يُسر اللغة وسهولتها.

ومع ذلك وجدنا من العرب من لا يأخذ اللغة هَيِّنة سهلة ميسورة ، بل ظنوا أن هذا الأسلوب الواضح السهل ، لابد أن يكون وراءه أسرار خفيَّة ، تتطلب منهم أن يُعملوا فيها عقولهم ، ليقفوا على حقيقة ما يُراد به ، ودفعهم ذلك إلى ضروب من التقدير والتأويل ، والتماس العلل والأسباب ، فتشعبت آراؤهم ، وكثرت اتجاهاتهم ، وحاول كل منهم أن يوجِّه رأيه، ويستدل على صحة ما ذهب إليه.

وسأعرض نماذج مختصرة من هذه الآراء والاتجاهات ، التى لا تقف عند حد ما جاءت عليه الأساليب اللغوية من وضوح ويسر ، بل رفضت هذا الظاهر الواضح ، وما لت إلى التقدير والتأويل .

١- إلحاق علامة التثنية والجمع بالعامل

إذا كان الفاعل الظاهر مثنى أو جمعا. من ذلك ما جاء فى الأساليب العربية الصحيحة الفصيحة من وجود علامة متصلة بالعامل تدل على أن الفاعل مثنى أو جمع ، عندما يكون الفاعل المثنى أو الجمع اسمًا ظاهرًا مذكورًا فى الكلام .

فقد جاء ذلك فى القرآن الكريم ، ومن النثر والشعر ، قال تعالى : وأَسَرُّوا النجوى الذين ظلموا "(٣) وقال:" ثم عَمُوا وصَمُّوا كثيرٌ منهم "(٤) .

وقال الرسول صلى الله عليه وسلم لورقة ابن نوفل عندما قال له : ليتنى أكون حيًّا إذ يخرجك قومك :" أو مخرجىَّ " هم ؟ وأصلها : مخرجوى ؛ فجمع بين الواو التى تدل على جمع الذكور والذين فى الآية الكريمة، وكذلك فى الآية الثانية .

---

(١) سورة القمر آية : ١٧ - ٢٢ - ٣٢ .

(٢) سورة الشعراء آية : ١٩٥ .

(٣) سورة الأنبياء آية : ٣

(٤) سورة المائدة آية : ٧١

وفى الحديث الشريف جمع بين الواو وهم ، وهما للجمع المذكر .

ومن الشعر قول عبد الله بن قيس الرُّقَيَّات فى رثاء مصعب بن الزبير :

تولّى قتال المارقين بنفسه
وقد أسلماه مُبْعَدٌ وحميمٌ

وقول الشاعر :

نصروك قومى فاعتززت بنصرهم
ولو انهم خذلوك كنت ذليلا

وقول غيره :

نُسيا حاتم وأوس لدن فا
ضت عطا ياك يابن عبد العزيز

وقول غيره :

نُتِج الربيع محاسنا
ألقَحْنها غُرُّ السحائب

وقول أبى عبد الرحمن محمد بن عبد الله العتبى:

رأينَ الغوانى الشيب لاح بعارضى
فأعْرضْنَ عنى بالخدود النواضر

وقول أمية بن أبى الصلت :

يَلُومُونَنِى فى اشتراء النخيل
قومى فكلهمُ ألوم

وقول الفرزدق فى هجاء ابن عفراء الضبى :

ولكن دَيافِيٌّ أبوه وأمّه
بحوران يعصرن السليط أقاربه [1]

وقول عمرو بن ملقط الجاهلى :

أُلْفِيَتَا عيناك عند القفا
أولى فأولى لك د واقية

وقول الشاعر :

بنى الأرض قد كانوا بنىَّ فعزَّنى
عليهم لآجالِ المنايا كتابها

ففى كل هذه النصوص ، وفى غيرها ، نرى أن العامل قد اتصل به ما يدل على الفاعل الظاهر مثنى أو جمعا ، فاللغة لا ترفض هذا الأسلوب ، ولكنها تجيزه ، بدليل وجود هذه النماذج التى لا مجال إلى تضعيفها .

وبدليل أنهم قالوا : إن الاسم الظاهر إذا أعرب بدلا من الضمير ، أو أعرب مبتدأ مؤخرا ، وأعربت الجملة خبرًا مقدما كانت جائزة عند الجميع .

ولكن الخلاف يشتد إذا ما جُعل الدالُّ على التثنية أو الجمع حرفًا جىء به للدلالة على أن الفاعل مثنى أو جمع، فرفضه بعض ، وأجازه آخرون .

وهذا خلاف فى غير ما نطقت به العرب ، وفى غير ما قصدوا إليه ، وانحراف بالمسألة ، وإخراج لها من النطاق الذى كان يجب أن تقف عنده ، ولا

---

(١) دياف : من قرى الشام . السليط : الزيت .

تتعداه ، وهو أن اللغة العربية تعرف هـذا الأسلوب، وتقبله ، ويستعمله كثير من أبنائها .

(شرح التسهيل لابن مالك٢/١١٦- ١١٨ شرح الكافية الشافية لابن مالك٢/٥٨٢. الهمع للسيوطى ١/١٦٠،والدرر١/١٤٢).

قيود اشترطوا توافرها فى بعض الأساليب .

ومن ذلك ما قاله كثير من النحويين من أن صيغتى التعجب القياسيتين لاتبنيان إلا من فعل، وشذّ : ما أجدره بكذا ، بنوه من قولهم :هو جدير بكذا ، ولا فعل له .

وفى القاموس المحيط : جَدُر كَكَرُمَ . فليس بشاذٍّ على هذا .

وقالوا : وشذّ ما أذرعَ المرأة ، أى ما أخف يدها فى الغزل .بنوه من قولهم : امرأة ذَراع ، أى خفيفة اليدين فى الغزل .

وقد ذكر ابن القطاع أنه سمع :ذَرُعت المرأة ، أى خفت يدها فى الغزل. وعلى ذلك لا شذوذ فيه .

وقالوا:لاتبنيان من الجلف،وهو الجافى الغليظ. وفى القاموس : وقد جَلُف جلافة وعلى ذلك لا شذوذ فى بناء التعجب منه .

وقالوا : يشترط لبناء صيغة التعجب من الفعل ألا يكون الوصف منه على وزن أفعل فعلاء ،لأن أفعل التفضيل لا يبنى منه، حتى لا يلتبس الوصف بالتفضيل ، ولما امتنع صوغ اسم التفضيل امتنع صوغ فعلى التعجب منه ، لأنهما يتشابهان فى أمور كثيرة . وجعلوا من النادر الذى يُحفظ ولا يُقاس عليه قول العرب : ما أحمقه ، وما أهوجه ، وما أرعنه .

ومع أنهم فى مواطن أخرى لا يبالون بهذا الالتباس ، كما فى تصغير الترخيم ، فإنه يكون بحذف الزوائد من الكلمة ، مثل : حميد فى تصغير : أحمد وحامد ومحمد ومحمود وحماد ، وحميد ، وحمدون ، وحمدان .

وكما قالوا : إن اسم المفعول واسم الزمان واسم المكان والمصدر الميمي من الفعل الزائد على ثلاثة أحرف يكون على وزن الفعل المضارع مع إبدال حرف المضارعة ميما مضمومة ، وفتح ما قبل الآخر ويفرق بينها بالقرائن .

واشترطوا كذلك ألا يستغني عنه بالمصوغ من غيره مثل :

"قال " من القائلة ، فإنهم لا يقولون : ما أقيله، استغناء بقولهم : ما أكثر قائلته .

قال ابن مالك فى التسهيل : وقد يغنى فى التعجب فعل عن فعل مستوف للشروط كما يغنى فى غيره ، مثل : ترك ، فإنه أغنى عن وَدَع .

فلا يقال على رأيهم : ما أسكره ، وما أقعده ، وما أجلسه استغناء بقولهم : ما أشد سكره ، وما أكثر قعوده، وجلوسه ، ومع أنهم أجازوا فى الفعل المستوفى للشروط أن يتعجب من لفظه ، وأن يستعان بالتعجب من فعل آخر مستوف للشروط ، كأشد وأعظم ونحوهما ، مثل : ما أشد قوته ، وما أعظم عنمه .

فإذا كان ذلك جائزًا فى الفعل المستوفى للشروط ، فلماذا يُمنع التعجب من صيغة الفعل الذى سُمِعَ فيه الاستعانة بفعل آخر، ويقال إنه أغنى عنه غيره ؟ وهل سمعوا كل شئ حتى يحكموا هذا الحكم ؟

العطف بأم :

ذكر النحاة أن " أم " تكون متصلة فى موضعين :

أولهما - وهو الذى يعنينا - أن تكون مسبوقة بهمزة التسوية الداخلة على جملة ، سواءًا كانت الجملة التى دخلت عليها الهمزة ، والجملة التى دخلت عليها "أن" فعليتين،أم كانت الجملتان اسميتين، أم كانتا مختلفتين.وقالوا:إن أم قد تقع بين مفرد وجملة . وإنه ليس من الضرورى وجود كلمة"سواء"بل يكفى وجود ما يدل عليها، وإن همزة التسوية قد تكون مذكورة فى الكلام،وقد تحذف عند أمن اللبس .

فالجملتان الفعليتان مثل قوله تعالى [1] : "سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم " .

والجملتان الاسميتان مثل قول متمم بن نويرة يرثى أخاه مالكا :

وَلَسْتُ أُبالى بعد فقدى مالكا
أموتى ناء أم هو الآن واقع

والجملتان المختلفتان مثل قوله تعالى : [2] "سواءٌ عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون".

والواقعة بين مفرد وجملة مثل قول الشاعر :

سواء عليك النَّفْرُ أم بتَّ ليلةً
بأهل القِباب من عُميرِ بنِ عامر

وعدم وجود كلمة " سواء " لوجود ما يدل عليها بيت مُتَمِّم السابق .وعدم وجود همزة التسوية فى الكلام قراءة: "سواء عليهم أنذرتهم أم لم تنذرهم"بهمزة واحدة، ومثل قول الشاعر السابق:سواء عليك.

---

(١) سورة يس ، آية ١٠ .

(٢) سورة الأعراف ، آية : ١٩٣

أما عند وجود سواء وهمزة التسوية فيلـــزم العطف بأم .

ويرى بعض النحاة - الدّماميني نقلاً عـــن السِّيرافي - أن الهمـــزة إذا كـــانت غـــير مذكورة في الكلام جاز العطف بأو .

قال الدماميني :فإن قلت:فما وجه العطـف بأو ، والتسوية تأباه ، لأنها تقتضي شـيئين فصاعدا ، وأو لأحد الشئين أو الأشـياء ؟ قلت : وجهة السِّيرافي بأن الكلام محمــول على معنى المجازاة ، فإذا قلت : سواء علــيَّ قمت أو قعدت،فتقديــره:إن قمــت أو قعدت فهما عليَّ سواء . وعليه فلا يكـون سواء خبرا مقدما ، ولا مبتدأ كما قيـــل ، فليس التقدير : قيامك أو قعودك ســـواء علي ، أو سواء عليَّ قيامك أو قعـــودك . بل سواء خبر مبتدأ محذوف،أي : الأمـــوان سواء ، وهذه الجملة دالة علـــى جـــواب الشرط المقدم .

وهذا الأسلوب الذي ذكره السيرافي كثـير الاستعمال في عصرنا الحاضر ، فهو جـــارٍ على ألسنة المتحدثين ، وأقلام الكتاب .

ومن هذا نرى أن استعمال " أم " المتصلـــة عاطفة له أساليب كثيرة ، كلها صحيـــح فصيح ، فيجوز أن تذكر قبلـــها كلمـــة "سواء" أو يذكر ما يـــدل عليـــها ، وأن تكون قبلها همزة التسوية ،وألا تذكـــر ، وأن تذكر قبلها جملة وأن يذكر مفـــرد ، وأنه عند عدم ذكر الهمزة يجوز اســـتعمال أم، ويجوز استعمال أو .

ومع ذلك لم تسلم من معارضة لبعـــض الاستعمالات ، فبعض الباحثين يرى أنـــه من الضروري لِذِكْر"أمْ" ذكر همزة التسوية قبلها ، وبعضهم يلزم استعمال أم ويمنـــع استعمال أو بدلها عند عدم ذكر الهمـــزة ، والرأيان عندي ضعيفان ، لأنهما تعارضـــا فتساقطا ، والله أعلم .

النسب إلى فم :

في القاموس : الفَم مثلَّثة أصله فُوهٌ ، وقـــد تُشَدَّد الميم .

وفي اللسان : الفرّاء : يقال : هذا فـــم ، مفتوح الفاء مخفف الميـــم ، وكذلـــك في النصب والخفض : رأيت فَمًا ، ومـــررت بفَمٍ . منهم من يقول : هذا فُمٌ ، ورأيـــت فُما ، ومررت بفُمٍ ، فيضم الفاء على كـــل حال ، كما يفتحها في كل حال .

وأما بتشديد الميم فإنه يجوز في الشـــعر ، ولو قال : من فَمِّه، بفتح الفاء لجاز . فأما:

فو ، وفا، وفى ، فإنما يقال فى الإضافة ، إلا أن العجاج قال :

خالط من سلمى خياشيم وفا

قال : وربما قالوا ذلك فى غير الإضافة ، وهو قليل .

وفى الصحاح : الفَم أصله فَوْه، نقصت منه الهاء - فلم تحتمل الواو الإعراب لسكونها ، فعوض منها الميم ، فإذا صَغَّرْتَ أو جمعتَ رددته إلى أصْله وقلت : فويه وأفواه، ولا تقل: أفماه، فإذا نسبت قلت : فَمِيٌّ ، وإن شئت فَمَوِىّ ، يجمع بين العوض والحرف الذى عوض منه ، كما قالوا فى التثنية: فموان . قال: وإنما أجازوا ذلك لأن هنالك حرفا آخر محذوفا وهو الهاء ،كأنهم جعلوا الميم فى هذه الحال عوضا عنها ، لا عن الواو ، وأنشد الأخفش للفرزدق :

هما نفثا فى فِىَّ من فمويهما ...

قال : وفيه لغات : يقال : هذا فَمٌّ ، ورأيت فمًا ، ومررت بفَمٍ ، بفتح الفاء على كل حال ، ومنهم من يعربه فى مكانين يقول : رأيت فَماً ، وهذا فُمٌّ ، ومررت بفِمٍ .

وفى كتاب سيبويه ٣/٣٦٥-٣٦٦ ، فى باب عنوانه : باب الإضافة ، وهو باب النسب : وأما فم ، فقد ذهب من أصله حرفان لأنه كان أصله فَوْه ، فأبدلوا الميم مكان الواو ، ليشبه الأسماء المفردة من كلامهم،فهذه الميم بمنزلة العين، نحوميم دم، ثبتت فى الاسم فى تصرفه فى الجر والنصب والإضافة (يقصد النسب) والتثنية، فمن ترك " دم " على حاله إذا أضاف - أى نسب - ترك " فم " على حاله ، ومن ردَّ إلى دم اللام ردَّ إلى فم العين فجعلها مكان اللام ، كما جعلوا الميم مكان العين فى فم، قال الشاعر :

وهو الفرردق:

هما نفثا فى فِيَّ من فمويهما...

وقالوا : فموان ، فإنما تَرُدّ فى الإضافة ، كما ترد فى التثنية وفى الجمع بالتاء وتبنى الاسم كما تثنى به ، إلا أن الإضافة أقوى على الرد ، فإن قال : فمان فهو بالخيار، إن شاء قال : فَمَوِىّ ، وإن شاء قال : فَمِى ومن قال : فَموان ، قال : فموى على كل حال وعلق السيرا فِيٌّ بقوله: كما يقال فى أخ:أخَوِىّ"من حيث قال:أخوان .

وكان أبو العباس المبرد يقول : من لم يقل: فمى فحقه أن يرده إلى الأصل ، والأصل فوه ، فيقول : فَوَهِىّ .

وقد استدل سيبويه على أن "فم" أصلها : فوه ، بأنها تصغر على فويه ، قال - ٤٥٣/٣ : يدلك على أن الذى ذهب لام، وأنها الهاء- قولهم : أفواه ، وحَذَفْتَ الميم، ورددت الذى من الأصل، كما فعلت ذلك حين كسّرته للجمع فقلت : أفواه . "

وإذا تتبعنا ما أجازه النحاة فى النسب من الصيغ المخالفة للقواعد التى وضعوها وجدنا كمًّا كبيرا ، ووجدنا أنواع المخالفة كثيرة مختلفة ، حتى إنه ليصعب استقصاؤها، كما يصعب الحكم على صيغة من صيغ النسب بأنها خطأ أو مردودة ، لأننا سنجد تغييرا فى حروف الكلمة ، بالزيادة أو بالنقص ، أو بهما معا، كما نجد تغييرا فى الحركات ، أو تغييرا فى الحروف و الحركات معا .

واليك نماذج من ذلك : مرو : مروزى - فوق:فوقانىّ . بادية: بدوى . عالية:علوى. طيِّىء:طائى.البحرين: بحرانى. دَهْر: دُهرى سَهْل: سُهْلى خَرِيف: خَرْفى وخَرَفى. حِيرَة:حارى. خُراسان: خُرْسِىّ وخُرَاسِىّ. وغير ذلك كثير.

٥- الإتيان بـ "ما "بعد الاسم النكرة

تذكر " ما " أحيانا بعد الاسم النكرة فى بعض الأساليب العربية ، وقد قال النحاة: إن"ما" تأتى لتزيد النكرة إبهاما ، أو تكون زائدة للتوكيد . ومن ذلك قوله تعالى : [1] " إن الله لا يستَحْى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها " وقال تعالى : [2] " قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيًّا مًّا تدعوا فله الأسماء الحسنى "

وجاء عن على كرم الله وجهه : أحبب حبيبك هونًا ما " أى حبا مقتصدا لا إفراط فيه . قال فى اللسان : وإضافة ما إليه تفيد التقليل، يعنى : لا تسرف فى الحب والبغض ، فعسى أن يصير الحبيب بغيضا ، والبغيض حبيبا ، فلا تكون قد أسرفت فى الحب فتندم ، ولا فى البغض فتستحى " مادة هون ".

وليس كل اسم نكرة يلزم الاتيان بـ"ما " بعده ، لأن النكرة صالحة للإطلاق على كل فرد من أفراد جنسها ، ولذا كان استعمال النكرة من غير ذكر"ما"هو الكثير الغالب ، ولا يؤتى بها إلا إذا أريد الدلالة على معنى من المعانى التى ذكرها النحاة . لذا جاءت النكرات فى القرآن الكريم ، وفى غيره كثيرا دون أن تلحقها ما قال تعالى[3] "وخذ بيدك ضِغْثًا فاضربْ به ولا تحنث "

(١) سورة البقرة آية : ٢٦ . (٢) سورة الإسراء آية : ١١٠ . (٣) سورة ص آية : ٤٤

وقال تعالى[1] :"فلما جَنَّ عليه الليـــل رأى كوكبًا قال هذا ربى ". وقال[2]:"حــتى إذا أتوا على وادى النمل قالت نملة يأيها النمل ادخلوا مساكنكم". وقال : [3] " فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جـانب الطور نارا ". وقال [4] :" وجاءت ســيَّارة فأرسلوا واردهم ، فأدلى دلوه ، قال يـــا بشرى هذا غلام ".

وقال الرسول صلى الله عليه وسلم : تمــرة خير من جرادة، وقال : تصدق ولو بشــقِّ تمرة، وقال : اتقوا دعوة المظلوم فإنه ليــس بينها وبين الله حجاب . وغير ذلك كثــير فى القرآن الكريم والأحــاديث النبويــة ، والتراث العربى نظمه نثره .

صيغ قيل إنها ملازمة للبناء المجهول :

ذكرت كتب النحو واللغة صيغًا قيل إنهـــا ملازمة للبناء للمجهول ، وبـــالرجوع إلى المعجمات اللغوية نجــد أن كثــيرًا منــها استعمل منها المبنى للمعلوم ، ومن ذلك :

عُنِىَ وقد جاء فى القاموس المحيط : وعـــنى بالضم ، وكرضى قليل .

زُهى : وقد جاء فى القاموس المحيط : زُهى كعُنِىّ ، وكدَعَا قليلةٌ .

نتج وقد جاء فى القاموس المحيط : نُتِجَــت الناقة كعنى نتاجا ، وأنتجت وقد نَتَجــها أهلها .

نُكب:وقد جاء فى القاموس المحيط :ونكبــه الدهر نَكْبا ونَكَبا بلغ منه أو أصابه بنكبة .

بُهت : وقد جاء فى القاموس المحيط :بَهَتَــه كمنعه بَهْتا وبُهْتانا :قال عليه ما لم يفعل .

دُهش: وقد جاء فى القاموس المحيط :دَهِشِ كفرح فهو دَهِش تحير أو ذهب عقله مــن ذَهَل أووَلَهَ ، ودهُشِ كعنى فهو مدهوش .

شُغل: وقد جاء فى القاموس المحيط : الشغل بالضم وبضمتين وبالفتح وبفتحتين :ضــد الفراغ وشغله كمنعه شَغلا ويضم وشُــغِل كعنى .

طُلَّ : وقد جاء فى القــاموس المحيــط :... وهَدَر الدم أو ألا يثْأر به، وقد طل هــــو وبالضم أكثر، وطَلَلته أنا طَلاً وطُلولا فــهو مطلول وطليل وأُطِل بالضم ، وأطلــه الله تعالى ، وطَلّ دمه يطَل كيزل ويَمَل ،وأطِــل بالضم فهر مُطَل .

أُهْدِر: وقد جاء فى القاموس المحيط : الهَــدر ما يَنْطَل من دم وغيره ، هَدَر يَهْدِر ويــهدُر هَدْرا وهَدَرا ، وهَدَرْتُــــه: لازم متعــد ،

(١) سورة الأنعام ، أية : ٧٦ (٢) سورة النمل ، أية : ١٨ (٣) سورة القصص ، أية : ٢٩
(٤)سورة يوسف ، أية : ١٩

وأهدرته فَعَل وأفعل بمعنى . ودماؤهم هَـدَر محركة أى مُهْدَرة .

ثُلج صدره: وقد جاء فى القاموس المحيـط : ثَلَجتنا السماء وأثلج يومنا وثلجت نفسـى كنصر وفرح ثلوجا وثَلَجا : اطمأنت .

هُزل : وقد جاء فى القاموس المحيـط : ... والهُزال بالضم نقيض السِّمَن ، وهُزِل كعنى هزالا وهَزَلَ كنصر هَزْلا ويضم ، هُزِلـت أموالهم كهزلوا وكضربوا .

العطف على معمولي عاملين مختلفين:

يقول سيبويه في كتابـه ١/٦٥-٦٦ :

وتقول: ما كلُّ سوداءَ تمرة ، ولا بيضـاء شحمة ، وإن شئت نصبت " شـحمةً " ، وبيضاء في موضع جر ، كأنك أظـهرت كل فقلت : ولا كل بيضاء . قال الشـاعر أبو داود :

أكلَّ امرئ تحسبين امرأً
ونـارٍ توقـد بالليـل نـارا

فاستغنيت عن تثنية كل لذكرك إيـاه في أول الكلام ، ولقلة التباسه على المخاطب. وجاز كما جاز فى وقول : ما مثل عبد الله يقول ذاك ولا أخيه ، وإن شئت قلت: ولا مثل أخيه . فكما جاز في جمـع الخـبر ، كذلك يجوز في تفريقه ، وتفريقه أن تقـول : ما مثل عبد الله يقول ذاك ، ولا أخيـه يكره ذاك . ومثل ذلك : ما مثل أخيـك ولا أبيك يقولان ذاك . فلما جاز في هـذا جاز في ذاك ."

هذا كلام سيبويه ، ومنه يتبين أن وضـوح الكلام. وعدم التباسه على المخـاطب ، عامل له أثره في قبول الأسـاليب وعـدم رفضها .

ويقول المبرِّد في الكـامل ١/١٦٨-١٦٩ ، بعد أن ذكر قول أعرابى :

فقال لِيَ المكىُّ أمّا لِزَوْجة
فسبعٌ وأما خُلّةٍ فثماني

وفي هذا الشعر عيب ، وهو الذي يسـميه النحويون العطف على عاملين ، وذلك أنـه عطف خلة على اللام الخافضة لزوجـة، وعطف ثمانيا على سبع ويلزم من قال هـذا أن يقول : مرّ عبدُ الله بزيدٍ وعمرٌ وخالدٍ ، ففيه هذا القبح ، وقد قرأ بعض القـراء ، وليس بجائز عندنـا : [إنّ فى السـموات والأرض لآيات للمؤمنين] " واختـلاف الليل والنهار ، وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا بـه الأرض بعـد موتهـا ، وتصريف الرياح آيات " فجعل آيـات فى موضع نصب ، وخَفَضَهَا لتاء الجميـع ،

فحملها على إنّ وعطفها بالواو وعطف اختلافا على في ، ولا أرى ذا في القرآن جائزا ، لأنه ليس بموضع ضرورة ، وأنشد سيبويه لعدى بن زيد العبادي " والصحيح أنه لأبي داود الإيادي : أكل امرئ تحسبين فعطف على امرئ وعلى المنصوب الأول"

وذكر المبرد الآية في المقتضب ١٩٥/٤، وقال فيه ما قاله هنا ، وقال إن الأخفش يجيزه .

وفي إتحاف فضلاء البشر ٣٨٩ : اختلف في (آيات لقوم يوقنون) و (آيات لقوم يعقلون) الثاني والثالث [من سورة الجاثية] فحمزة والكسائي ويعقوب بكسر التاء منصوبة فيهما عطفا على اسم إن ، أي : وإن في خلقكم وإن في اختلاف ، والخبر قوله : وفي خلقكم ، وفي اختلاف .. ووافقهم الأعمش ، والباقون برفعهما على الابتداء.

وفي المفصل وشرحه لابن يعيش ٢٦/٣ : (وقد حذف المضاف وترك المضاف إليه على إعرابه في قولهم : ما كل سوداء تمرة ولا بيضاء شحمة ، قال سيبويه : كأنك أظهرت كل فقلت : ولا كل بيضاء ، وقال أبو دواد :

أكل امرئ تحسبين ... ويقولون : ما مثل عبد الله يقول ذاك ولا أخيه ومثله : ما مثل أخيك ولا أبيك يقولان ذاك ، وهو في الشذوذ نظير إضمار الجار).

قال الشارح : اعلم أن حذف المضاف وإبقاء عمله ضعيف في القياس ، قليل في الاستعمال ، أما ضعفه في القياس فلوجهين:

أحدهما : أن المضاف نائب عن حرف الجر وخلف عنه ، فإذا قلت : غلام زيد، فأصله: غلام لزيد . وإذا قلت : ثوب خز، فأصله : ثوب من خز ، فحذفت حرف الجر ، وبقي المضاف نائبا عنه ، ودليلا عليه ، فإذا أخذت تحذفه ، فقد أجحفت بحذف النائب والمنوب عنه ...

والوجه الثاني أن المضاف عامل في المضاف إليه الجر ، ولا يحسن حذف الجار وتبقية عمله ، فمن ذلك قولهم في المثل : ما كل سوداء ... /٢٧ وبيضاء مخفوض أيضا على تقدير كل ... وكان أبو الحسن الأخفش وجماعة من البصريين يحملون ذلك وما كان مثله على العطف على عاملين ، وهو رأى الكوفيين ... ومثله عندهم : ما زيد بقائم ولا قاعدٍ عمرٌو ... وسيبويه والخليل

لا يريان ذلك ، ولا يجيزانه .. فإن قيل : حذف المضاف وإبقاء عمله على خلاف الأصل ، وهو ضعيف ، والعطف على عاملين ضعيف أيضًا ، فلم كان حمله على الجار أولى من حمله على العطف على عاملين؟ قيل : لأن حذف الجار قد جاء في كلامهم ... فقد ثبت بهذا جواز حذف الجار في الاستعمال وإن كان قليلا ، ولم يثبت في الاستعمال العطف على عاملين .. وقد كثر التقلب بهذا المثل ، وأجازوا فيه وجوها من الإعراب وجملتها خمسة ... فأما قول أبي دواد : أكل امرئ ... فسيبويه يحمله على١ / ٦٥ حذف مضاف تقديره كل ... وأبو الحسن يحمله على العطف على عاملين ... وهذا البيت أوكد ما استشهد به أبو الحسن ، وأما قولهم:ما مثلُ عبد الله ... لم يكن بُدٌّ من تقدير مثل ،أو العطف على عاملين ... "

وهكذا تستمر المناقشة لتنتهي إلى أن الحمل على تقدير مضاف أولى .

وفى الإنصاف مسألة رقم ٦٥ : كما تقول العرب : ما كل بيضاء شحمة ولا سوداء تمرة ، يريدون : ولا كل سوداء ...

وقال الشاعر : أكل امرئ ... أراد : وكل نار .... وهذا كثير في كلامهم .

وفي الكافية لابن الحاجب وشرحها للرضي ٢٩١/١:فإذا حذف [أي المضاف] فالأولى والأشهر قيام المضاف إليه مقام المضاف فى الإعراب كقوله تعالى: "واسأل القرْية " وقد يترك عند سيبويه على إعرابه إن كان المضاف معطوفًا على مثله مضافا إلى شيء ، كما يقال فى المثل : ما كل سوداء ... قال : ولو لم يقدر هنا مضاف معطوف على المضاف الأول ، لكان عطفًا على عاملين مختلفين ولا يجوز عنده ، وعند غيره يجوز ذلك فلا يقدر مضافًا .

وفي شرح التسهيل لابن مالك ٢٧٠/٣: ثم أشرت إلى حذف المضاف وإبقاء المضاف إليه مجرورا ، وأنه مقيس وغير مقيس ، فأما المقيس فما حذف منه مضاف مذكور قبله مثله لفظًا ومعنى ، بشرط كون المحذوف بعد عاطف منفصل بلا أو غير منفصل ، كقولهم : ما كل سوداء ... وما مثل أبيك وأخيك يقولان ذلك ، وكقوله :

أكلَّ امرئ ...

وكقوله :

ولم أر مثل الخير يتركه الفتى

ولا الشر يأتيه الفتى وهو طائع

وكقوله :

لَوَ انَّ طبيبَ الإنس والجن داويَا الْـ

لَذِى بِىَ من عفراء ما شفيانى

وكقوله [جرير] :

لو أن عُصْم عمايتين وتذبل

سمعا حديثك أنزلا الأوعالا

وكقوله [القطامي] :

ألم يَحْزُنك أن جبال قيس

وتغلب قد تباينتا انقطاعا

والأصل : ما كل سوداء ولا كل بيضاء، ولا مثل أبيك ومثل أخيك يقولان، وأكل امرئ تحسبين امرأ وكل نار ، ولم أر مثل الخير ولا مثل الشر ، ولو أن طبيب الإنس وطبيب الجن،ولو أن عصم عمايتين وعصم يذبل ، وأن جبال قيس وجبال تغلب.

وظن بعضهم أن الحذف فى هذا النوع مشروط بتقدم نفى أو استفهام وليس ذلك شرطا ، بل يجوز مع عدمها ، كقول الشاعر:

لغير مغتبط مغرى بطوع هوى

ونادم مولع بالحزم والرشد

ومثله :

كلُّ مُثر في رهطه ظاهر العز

وذى غربة وفقرٍ مَهِين

وأما غير المقيس فما خالف المقيس بخلوه مما قيدته به .

وفي شرح الألفية لابن الناظم ٤٠٣: وقد يحذف المضاف ويبقى المضاف إليه مجرورا ، بشرط أن يكون المحذوف معطوفا على مثله لفظا ومعنى ...

وفي شرح الأشموني ٢٠٦/٢ : أكل امرئ ... أي : وكل نار ، وقوله :

ولم أر مثل الخير يتركه الفتى

ولا الشر يأتيه امرؤ وهو طائع

أى : ولا مثل الشر ، لئلا يلزم العطف على معمولى عاملين مختلفين ... "

وعلق الصبان في الحاشية بقوله : أى : وذلك ممنوع عند سيبويه ومن وافقه ، والعاملان في البيت الثاني : أرَ ومثل ، والمعمولان : الخير وجملة يتركه الفتى ، والمعطوف على الخير ، الشرُّ ، وعلى يتركه الفتى ، يأتيه امرؤ .

وفي شرح التصريح ٥٥/٢ : ... وإنما قدرناه مجرورا بـ كلٍّ محذوفه ولم نجعله مجرورا بالعطف على امرئ المجرور بإضافة

كل إليه ، لئلا يلزم العطف على معمــولى عاملين مختلفين ... وذلـــك ممتنــع ، لأن العاطف نائب عن العامل ، وعامل واحــد لا يعمل جرا ونصبا ، ولا يقوى أن ينوب مناب عاملين ، هذا مذهب سيبويه والمبرّد وابن السراج وهشام ، وذهب الأخفـــش والكسائي والفراء والزجاج إلى الجــواز ... واختير الحذف دون العطف ، لأن حــذف ما يدل عليه دليل بجمع علـــى جــوازه ، والعطف على معمولى عاملين مُخْتَلفٌ فيــه كما قدمنا ، والحمل على المتفق عليــه أولى من الحمل على المختلف فيه .

بعد هذا العـــرض لآراء النحـــاة في العطف على معمولى عاملين مختلفين نجـــد أن منهم من أجازه ، ومنهم من عارضــه ، ونجد أن الأسس التي قامت عليها معارضــة المانعين تتلخص فيما يلى :

أن حذف الجار وإبقاء عمله متفـــق عليه ، وأن العطف على معمولى عـــاملين مختلفين مختلف فيه ، والحمل على المتفـــق عليه أولى .

أن العطف على معمولى عاملين مختلفــين لم تستثبت فى الاستعمال .

وكلتـــا الحجتـــين غـــير مســـلمة ، لأن الاختلاف فى أمر قاعدة لا يقتضي إلغاءها، وإنما أقصى ما يمكن أن يؤدى إليـــه هـــو تفضيل المتفق عليه لا منع المختلف فيه،هذا إذا ساعدت القرائن على هذا التفضيل.

وأن القول بعدم استعمال العطف على معمولى عاملين غير صحيح ، بدليـــل أن هؤلاء المانعين يذكرون شواهد وأمثلة تـدل على الاستعمال من أول سيبويه إلى ابـــن مالك الذى ذكر جملـــة مـــن الشـــواهد والأمثلة، بعضها منسوب وبعضـــها غـــير منسوب ، كما ذكر المبرد قراءة جـــاءت على هذا الاستعمال ، وقد عزيت إلى حمزة والكسائي ويعقوب والأعمش ، ولا يصـح أن يلتفت إلى اعتراضه عليها ، لأنه لا يملك هذا الاعتراض ، ولا إلى قوله بأن القـــرآن ليس بموضع ضرورة ، لأن الذين تنـــاولوا الموضوع لم يقولوا إنـــه لا يكـــون إلا فى الضرورة .

فإذا أضفنا إلى ذلك أن هؤلاء المانعين يقولون: إن حذف المضاف وإبقاء عملـــه ضعيف فى القياس . قليل فى الاســـتعمال . وإن المضاف إنما يعمل نيابة عن حـــرف الجر، فحذفه فيه إجحاف بحذف النـــائب

والمنوب عنه . وإن حذف حرف الجـر - الذى هو أصل فى العمل - وإبقاء عملـه قليل . إذا أضفنا ذلك وجدنا أن المانعين لا يستندون فى معارضتهم إلى حجة قويـة ، وأن من الخير أن يكون وضوح الأسلوب وعدم التباسه على المخاطب كما قـال سيبويه ، هو الأساس فى القبول أو الرفض.
ولهذا فإننى أرى أن الأسلوب صحيـح ، وأنه يجوز القياس عليه ، أخذا بالأيسـر ، واجتنابا لما فيه تكلف وتقدير .

ولعل مما يستوجب ذلك جريان هـذا الأسلوب على ألسنة المتحدثين وأقلام الكتاب في عصرنا ، في مثل قولهم : كـان إقبال الرجال على معرض الكتاب كبـيرًا والفتيات قليلا .

وقولهم : لوحظ في نتائج امتحانات هـذا العام أن نسبة نجاح الطالبـات مرتفعـة والطلاب منخفضة .

وقولهم : لا شك فى أن التراخى فى تطبيـق القانون يُعْقِبُ نتائج وخيمة والأخذ بالحزم ردودًا طيبة .

وقول بعضهم : إكرام اللئيم يُعْقِبُ الندامـةَ والكريم الامتنان والسلامة .

عبد الرحمن السيد

عضو المجمع

الأمانة العلمية والمؤلَّفاتَ العربية

للأستاذ الدكتور كمال محمد دسوقى

١- فضائح السرقات ودعاوى التأديب والقضاء :

من بين ما لاتخلو منه صحيفة يومية أو أسبوعية - بل كُتب بأكملها أحياناً - من النشر بعناوين صارخة عن " الفساد الجامعى "عموما وأعمدة " فساد الأستاذ " الجامعى خصوصاً ؛ لا نعرض هنا إلا لما يتعلق بالسرقات العلمية للمؤلفات والكتب الدراسية،ولِما يتصل بتزييف بحوث رسائل الماجستير والدكتوراه للتعيين والترقية وقضية الأمانة العلمية للأستاذ الذى يقتدى به تلاميذه وهم يسيرون على نهجه فى تلقى العلم، وتلقينه للأجيال . فالمجتمع العلمى والأدبى والفنى يضجُّ بما يتوالى النشر العلنى عنه من فضائح " سرقات " المؤلفات والمصنفات والأعمال التى تزخر ساحات المحاكم بالدعاوى القضائية ضد تزييفها وانتحالها أو السطو عليها تحت اسم "الاقتباس " - بما قالت عنه مجلة المصور تحت عنوان : لصوص بدرجة دكتوراه " إنه ليس سبعين قضية فقط كما نشر فى إحدى الصحف بل ثلثمائة أو أربعمائة ، وما أثار على صفحات الأهرام طرح قضية " الأمانة العلمية لأستاذ الجامعة : مَن يحميها : الصحافة ، أم الجامعة ، أم القراء ؟ وذلك " للبحث عن مخرج بتفكير عالٍ مسموع من الجميع " ؛ حيث يقال إن المجتمع الذى يفرز هذا النمط من الأساتذة الجامعيين دون أن يحاسبهم أحد على ما اقترفوا فى حق الله والعلم والوطن" والأبناء الطالعين من رحم الحاضر لفضاءات المستقبل " هو مجتمع فى حالة جريمة ، وأن السكوت على هذا النوع الفاضح من الجرائم تمكين للفوضى فى المجتمع ، ومحو لحقوق ضحايا مدَّعى الفكر والبحث العلمى الذين ابتُليت بهم الجامعة أخيراً ، واتساع رقعة الفساد وامتداد أصابعه الخبيثة إلى مواقع كنا نعدها أمنع من أن يُتسلل إليها ويُعبث بها ... وتكون مطالبة الأساتذة الغيورين قبل غيرهم أن لا تأخذ الجامعة رأفةً بحالات غش أساتذتها هذه وهى تحرم الطالب من

الدراسة عامين إذا غـــش فى الامتحـــان فكيف بالأستاذ ؟ إنه لابـــد ان تضـــرب الجامعة بيد من حديد على كل من تســول له نَفسُه ذلك حتى تَعُود للجامعة كرَامَتُـــها وقدوتها للمجتمع .

وتحت عنوان فاضح بجريـــدة الوفـــد (فى تاريخ ١٣/١٠ / ١٩٩٤) هـــو : بقـــع سوداء فى ثوب الحرم الجـــامعى : وقـــائع عديدة تسىء لسمعة الجامعة وتُشَوه مكانـة أساتذتها - أستاذ يشترى المتعـــة برســـالة ماجستير ، وآخر يبيع النجاح فى الامتحان بمائة جنيه - نجد خبر مدرس مادة الصحـــة النفسية بكلية تربية جامعة ... الذى حصـــل من كل طالب عند بدء الدراســـة علـــى خمسة عشر جنيها لحجز كتاب لم يظـــهر و لم يوزع ، وأعلن الطـــلاب بعـــد أداء الامتحان أنهم رسبوا جميعاً ، وأن على مَـــن يريد النجاح إحضار مائة جنيه والتوجه إلى مسكنه للتعرف على ورقة إجابته ... حيث دلت تحريات مباحث الأموال العامة علـــى سوء سمعة وسلوك (الأستاذ) المتهم سابقاً فى قضية شروع فى قتل أحد الأشـــخاص ببلدته ، وأنه اعتاد فى الجامعة منذ حصـــل على الدكتوراه وعُيِّن مدرساً قبـــل أربـــع سنوات على تقاضى مبالغ كبيرة وهدايـــا ذهبية من الطلاب نظير نجاحهم ، وأنه هذا العام هدد مَن لايستطيع دفع المائة جنيـــه بالرسوب فى مادته ، فهو يقبل ساعات يد وأجهزة كهربائية من الذين لايســـتطيعون إحضار المبلغ المطلوب . .

حتى فى أخبار الحوادث التى تصـــدر عـــن دار" أخبار اليـــوم" (٨/٧/٩٤) تنشـــر بعناوين ضخمـــة = الطالبـــة و الأســـتاذ بالصوت والصورة أسرار سقوط عميـــد كلية ... والقبض عليـــه ، حـــدد لطالبـــة الدراسات العليا الموضوعات التى ســتكتبها وأبلغها بالدرجات التى أعطاها لهـــا (ولا تستحقها) فى مادة الإحصاء التى كـــانت تخاف الرسوب فيها فحصلت على ٦٨ من ٧٠ درجة وسجل عليـــه ردهـــا وهـــو يهنئها:حلال عليك الأربعة آلاف جنيه التى أخذتها مقابل ذلك. والخبر كالأســـطورة تبدأ بمفاجأة إبلاغ رئيس الجامعة بـــالقبض على المتهم غداة اشتراكه فى حفل رئيـــس جامعة آخر بحصول ابنته علـــى درجـــة الدكتوراه ، وتنتقل لظروف كون العميـــد المتهم أصغر عميد بالجامعات لحصوله على الدكتوراه خلال عامين فقـــط ، فى أثناء

خدمته برعاية الشباب بوزارة التعليم العالى، وتجديد العمادة له لفترة ثالثة على غير ما يتوقع الجميع . ومع هذا فلا دخل لذلك فى صدفة اكتشاف علاقته بطالبة الدراسات العليا المصرية زوجة الثرى العربى التى تشترك مع تجار مجوهرات فى تهريب الذهب و الماس ، ولا فى سوء حظه إن عمليات مراقبتها لمدة أربعة أشهر سجلت تردده عليها وحصوله على هداياها النفيسة مقابل تسريب الامتحان لها وضمان نجاحها . وأخيراً تأتى مُفارقة اضطهاد وتحطيم نفس العميد لُمعيدة بنفس الكلية " لأنها رفضت الرضوخ لطلباته غير المشروعة مع أنها كانت الأولى على دفعتها عام تخرجها ، وامتناعه عن تنفيذ حكم المحكمة العليا الملزم بتسجيلها للماجستير رغم دفع تعويض الخمسة آلاف جنيه المحكوم لها به ، لكن الإصرار على عدم تسجيلها بكليته رغم استئناف مقاضاتها للعميد ورئيس الجامعة متضامنين بتعويض أكبر ... مما كانت قد انفردت بالنشر عنه من قبل " أخبار الحوادث " أيضاً ".

وفى مجلة " عالم الكتاب " التى تصدرها الهيئة المصرية العامة (عدد ١٩٩٢/٣٥ ٣٦- ٤٣) فى باب : تساؤلات ومحاكمات للمدعى الببليوغرافى ، بعنوان مثير : (بعد كل هذه السرفات ، هل يبقى فى هيئة الكتاب ؟ !) سكرتير تحرير المجلة السابق الذى طرد منها فى صيف ١٩٩٠ إثر عقوبات إدارية بالخصم من مرتبه وحرمانه من المكافأة ، وتوجيه اللّوم الشديد إليه ... فى عريضة الدعوى التى تقدم بها الدكتور يوسف زيدان التى اختتمها بقوله " إنه لا يكفى تقديمه للمدعى البليغرافى بل للمدعى العام لتكون محاكمة قانونية لا ببليوغرافية على سرقاته الفكرية (التى تفوق جرماً السرقات المادية) للرسالة الألواحية المنسوبة خطأً لابن سينا. وقد حققها ونشرها بدار الكتاب بطرابلس ليبيا الدكتور محمد سويسى (١٩٩٠) بخطئها فى نسبَتها للشيخ الرئيس الذى وقع فيه المحقق لاعتماده على المخطوطة الوحيدة المشتراة من بائع كتب بباريس ١٩٥٤ وأثبتت المدعى (د. زيدان - فى مقال له بالعدد ١٩٩٢/٣٤ من مجلة عالم الكتاب) هذا الخطأ وطالب الناشر والمحقق الليبىّ بالتنويه فى طبعة قادمة إلى أن الرسالة ليست لابن سينا (مهما ترك اسم ابن سينا

على الغلافُ لتحل بركاته من أجل توزيع أفضل ـ بقدر ما أن وضع اسم الشيخ الرئيس على غلاف النسخة المشتراة من باريس خطأ أو عمداً كان بقصد رفع سعرها ، والإشارة إلى أن المؤلف الأصلي للرسالة الألواحية المحفوظة نسختها الأصلية بمكتبة المتحف العراقي ببغداد (فى ٢٠٦ صفحات وعنوانها "رسالة الألواح فى الطب")هو أبو سعيد بن إبراهيم المتطبب الهروى .

وكما يقابل مقدم الدعوى صورتَى غلاف كتاب الناشر الليبي لتحقيق الدكتور سويسى وغلاف الكتاب المسروق الذى نشرته" دار الجيل " بيروت معنوناً بأنه للشيخ الرئيس ابن سينا ؛ قائلا إن السلوق لم يترك كلمة فى الرسالة الألواحية إلا سرقها بالكامل - حتى أخطاء المحقق نقلها السارق كما هى دون أن يكلف نفسه حتى باسقاط الأخطاء والعبارات غير المفهومة أو يرى داعياً لقراءة الكتاب بعناية قبل سرقته ، إذ كان على عجل لأن أمامه العديد من الكتب الأخرى الجاهزة للسطو عليها ـ ومنها الرسالة التى جاءت الدكتور زيدان من إحدى المؤسسات الصحفية الكبرى بطلب رأيه فى سرقة أحد كتابين بعنوان واحد هو : (الجمل فى النحو للجرجانى المتوفى سنة ٤٧١ هـ) - الأول باسم محققه الدكتور عبد الحليم عبد الباسط المرصفى (نشر دار الهنا للطباعة) ، والثانى باسم السارق على إنه شرح ودراسة وتحقيق (نشر دار الكتب العلمية ببيروت لبنان) ـ حيث ردَّ على المؤسسة بأن السرقة ظاهرة للعيان ولاتحتاج إلى رأى، فأفادوه بأن المحقق الأصلى حين نظر إلى النسخة المسروقة من كتابه وعليها اسم السارق أصيب بشلل نصفى ومات بعد أيام . كل هذا والسارق يهز كتفيه ويبتسم ويتمادى فى السطو على الكتب بعد صدورها بعدة أشهر فقط ونشرِها غالبا فى دور نشر لبنانية ـ كأنما هذه المطبوعات فى بيروت لاتصل إلى القاهرة ، أو أن أحداً لن يقارن بين الطبعات وأنه سوف ينجو بسرقته . ويتزامن مع النشر الفاضح عن حالات السرقات الفردية لفكر وإبداع الآخرين فى بحوثهم وتآليفهم للكسب المادى السريع دون جهد وعلى حساب الغير ... النشرُ مجدَّدا عن قضية تزوير الكتب المصرية فى بيروت ، سرقة وتزوير

الكتاب المصرى فى لبنان - منذ أعيدَت إلى الحدود السورية اللبنانية أثنـــاء انـــدلاع الحرب بين شطرى اليمن سيارتا شـــحن محملّتان بالكتب المصرية المزورة ، وقبـــل ذلك ، منذ أرشَد عن مخزون كبـــير مـــن الكتب المصرية المزورة فى بيروت وضَبطَـــه ناشرون لبنانيّون أفاضل عـــز عليـــهم أن تسيء إلى شرف المهنة قلة من أدعياء النشر وتثرى على حساب الناشرين المصريـــين ، -الأمر الذى دعا إلى المطالبة بتعجيل عقـــد مؤتمر تدعو إليه وزارة الثقافـــة المصريـــة كجهة رسمية بالدولة التى يُضار أبناؤها مـن هذا التزوير ، وتحضُره الاتحادات الإقليميـــة للناشرين فى البلاد العربيـــة إلى جـــانب الناشرين المصريين وغيرهم من المـــهتمين بقضايا التأليف والنشر والطباعة والتوزيع.

-وكان قد استشرى وباء سرطان تزويـــر الكتاب المصرى الذى سبَّب للثقافة المصرية خسائر فادحة (مادية وأدبية) منذ أصبـــح الكتاب المصرى نهباً مُباحاً أو مِلكاً مشـــاعاً للصوص والمزورين ، فضـــاعت حقـــوق المؤلفين والناشرين التى لم تعد تمثل شـــيئاً فى نظر هذه (المافيا) التى دأبت على الســـطو والتزوير للتجارة والكسب غير المشـــروع .

وقال الخانجى - أكبر متضـــرر فى عمليـــة التزوير هذه - ان التزوير يأخذ أكثر مـــن شكل : فهناك الطبـــع بـــالتصوير مـــع الاكتفاء بحذف اسم الناشـــر الأصلـــى ، وهناك حذف اسم المحقـــق (فى كتـــب التراث خصوصا) والناشر كليـــهما مـــع حذف بعض التعليقات وكتابـــة ديباجـــة مغايرة للتمويه - مع عبارة تقول : طبعـــة جديدة محققة ، أشرف على تحقيقها لجنـــة من علماء الدار . وكذلك الحال فى الكتب المؤلفة . وبينما وصَـــل الأمـــر بالقـــارئ المصرى أن يطلب دون حـــرج الطبعـــة البيروتية المزورة لأنها أجود طباعة وأقـــل سعراً ؛ فالمؤلف المصرى الـــذى يســـعى للمطالبة بحقوقه المادية المنهوبة يســـلقونه فى تَبَجُّح بألسنةٍ حداد ويواجهونه بالاســـتنكار كأنما قد جاء ليستجدى ما ليس حقـــاً أو يطلب السؤال من اللص الـــذى ســـرقه . وبينما أرسل اتحاد الناشرين المصريـــين إلى بيروت وفداً برياسة رئيسه محمد عبد المنعم مراد التقى مع عدد من المسؤولين اللبنـــانيين بهدف الاتفاق على طريقة تتم بها اســـتعادة حقوقهم عما تم تزويره ووقـــف الـــتزوير مستقبلا - ما استطاعـــوا إلى ذلك سبيلا

(وبقية الناشرين اللبنانيين تهاجمهم وتتهمهم بأنهم (المصريين) هم الذين يزورون ، وتدعى أن التزوير الذى يتم فى بيروت إنما هو لحساب ناشرين مصريين وباتفاق معهم) ، وبينما كان أعضاء الوفد من الناشرين المصريين - لإيجاد حل جذرى للموضوع وحسمه نهائيا بكافة السبل - ولو بالقانون الدولى والإنتربول - رافضين المساومات والحلول الجزئية من الجانب اللبنانى التى أصبحت مهزلة متكررة - يطالبون بميثاق عربى يوقعه وزراء الثقافة لبحث قضية الكتاب ككل ، وذلك فى نطاق جامعة الدول العربية (كامل عكاشة، دار المعارف) ، أو أن تشترك الدول العربية معاً فى وضع قوانين حاسمة لحماية حقوق المؤلف والناشر (محمد الخانجى) ؛ أو أن تطالب الدول العربية بضرورة التوقيع على المعاهدة العربية التى أقرتها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم عام ١٩٣٣ (إبراهيم المعلم) ...

بينما هذا وذاك يتفاعلان على جانبى الساحة ، نشرت الوفد (١/١١/ ١٩٩٤) " أغرب فتوى يتلقاها بالفاكس ناشر مصرى (محمد رشاد) فى رسالة هى عبارة عن فتوى تسأل عن جواز طبع كتاب بدون إذن صاحبه مع وجود عبارة (كافة الحقوق محفوظة) ، وجواب المرسل على لسان المفتى :

" باسمه تعالى ، لا دليل على عدم الجواز ، والله أعلم " . وفتوى أخرى نشرتها مجلة "منار الهدى " تجيب على سؤال : ما حكم ما يكتب على بعض الكتب " حقوق الطبع محفوظة " بأنه " على زمن الصحابة والتابعين ومَن بعدهم عُرف بين المسلمين أنه إن ألّف أحد كتاباً نافعا لاضرر منه - يجوز لمن وقع فى يده أن ينسخه ويوزعه - حتى كان هناك مكان للناسخين بأجرة ، ويُعرَفون بالوراقين . هذا ما جرى عليه المسلمون سلفاً وخلفاً . فلا يغير الحكمَ الشرعى كتابةُ بعض الناس هذه الكلمة المخالفة للشرع مهما كثروا . معنى هذا أن تزوير الكتب جائز شرعاً ، وإن ملكية الباحثين والمؤلفين لبنات أفكارهم وثمرات قرائحهم مشاع مستباح للنهب والسطو والكسب غير المشروع على حساب افتقار العلماء وعوزهم إلى ما يسد رمقهم أو يشترون به مصادر علمهم ومعرفتهم .

٢–كشف الحِيَل الدفاعية ، وإثبات نَسَب الإبداع :

هكذا فى جو محموم من التنطُّع والتبجُّح حيناً والاستكانة أو الاستخذاء حيناً آخر- على الصعيدين الفردى والقومى - ينتهى الأمر كما هى الحال فى كل قضايا حياتنا اليوم إلى استمداد الفتوى الشرعية بالحرام والحلال من المأجورين والجهَّال . ويتداعى النشر عن قضايا السرقات الأدبية والفنية والبحوث العلمية والرسائل الجامعية ، كما تحتدم مهاترات وقضايا الاتهام والتبرئة أو الحفظ (بين سارق يظل متمسكا بالجلوس على مقعد الشهرة ومسروق يحلم بالوصول إلى هذا المقعد)، أو أساتذة يجمعون شتات الفصول من شتى المراجع دون جهد أو انتقاء ثم ينسبونها لأنفسهم لقاء حفنة جنيهات يكتوى بها طالب علم وبحث فقير ومحتاج (محمد حربى ، أهرام ١٠/٢ ، ١٩٩٤/١٠/٢٤) ... يتداعى النشر وتحتدم المهاترات لتمتد إلى الخارج كقضية " إثبات نسب الإبداع " (الوطن العربى ٩٤/١٠/٢١)–حيث يتحدث النقاد عن الأسس التى تسهل عمل الناقد فى محاولة إثبات أو دحض الاتهامات التى طالت تقريبا كل الرموز الأدبية .

فبعد عرض لما تشهده دهاليز المحاكم من دعاوى قضائية ضد ناشرة رواية " هوس البحر " بهيئة الكتاب من كاتبة مغمورة بالسويس كان قد سبق تقديمها الرواية للهيئة و لم تنشر وأيَّد النقاد صحة الاتهام ، وبعد ثُبوت أن قصة " يابنفسج " المنشورة بمجلة (إبداع) ليست إلاصورة بالكربون وترجمة حرفية لقصة " الرواية الضائعة " الإنجليزية المترجمة للعربية والمنشورة بالملحق الأدبى لجريدة (المَدينة) السعودية ... بل وفى الشعر اتهام كبار الشعراء بالسطو على مقاطع من قصائد شعراء إنجليز ويونانيين ونسبتها لأنفسهم دون إشارة للمصدر الأصلى ، والروايات وتحويلها إلى مسرحيات - ولو بوقائع تاريخية حقيقية لنفى شبهة عملية السطو أو السرقة فلم تمنع من رفع دعاوى قضائية، أو إلى مسلسلات تلفزيونية وأفلام سينمائية (كالإرهابى لعادل إمام بين لينين الرملى ومحمد سلماوى) وكشف المستور (بين القصصى أحمد الشيخ والسيناريست وحيد حامد) ، وأفلام البرى بطولة أحمد زكى والإرهاب والكباب والمنسى بطولة عادل

إمام (بين وحيد حامد والسيد نجم) ... " مما تجسد فيه شهرة السيناريست (خصوصاً إذا كان أسامة أنور عكاشة) هذه الاتهامات لتقتلعها من جذورها ويبوء المضرور بالحسرة والخسران " . هنا - ولوضع أسس نقدية أدبية تسهل على الناقد إثبات نسب الإبداع لصاحبه - يقول الدكتور جابر عصفور إن هناك طريقتين : الأولى تتمثل فى المرويات والأخبار والشهادات التى يقولها المعاصرون عن المبدع ، الأخرى عبر الدراسات البحثية - مثل تحديد الخصائص الأسلوبية - حيث لكل مبدع أسلوبه الخاص - التى تشبه " البصمة " ويصعُب أن تتكرر فى مبدع آخر. فبذا تم توثيق بعض عبقريات أحمد شوقى وإبداعات فكر لويس عوض . ولقد أمكن بتقدُّم التكنولوجيا فى العصر الحديث استخدام الكمبيوتر فى عمل جداول بالخصائص المميزة للمبدع ثم التعرف بالعمليات الإحصائية على ما إذا كان العمل الأدبى هو لهذا المبدع أم لا - فبهذا تم توثيق أعمال (بل إثبات وجود) هوميروس وشكسبير . لكن ماذا لو أن التأليف يكون بالتلفيق بين تناولات مؤلفين سابقين عديدين لمختلف فصول مادة الكتاب - حيث فى كتابة كل فصل يبدو التماثل فى المدخل للموضوع ، وتسلسل الأفكار ، وألفاظ العبارات ... من الوضوح بما لايهتدى معه حتى زملاء التخصص إلى المرجع المنقول عنه - خصوصاً إذا عمد الناقل للتمويه بمراجع عدة ليس بينها بالذات المرجع المنقول عنه مباشرة ، أو تعمد الإشارة لكتابات سابقة له هو (فى رسالته العلمية أو مقال له أو بحث) من حين لآخر للإيهام بأن التأليف بكامله هو من بنات أفكاره وثمار قريحته - مع أن هذا أغبى أنواع التزييف ، لأنه لا يعيب المؤلف أن ينسب للآخرين ما هو لهم حتى يتميز هو . بما هو خاص به - إذ لاينتظر من مؤلف ما فى أحد العلوم أن تكون له دراسة متعمقة لكل أبواب وفصول موضوعات هذا العلم لم يسبقه إليها غيره فى القديم والحديث ولو بلغة أجنبية فى الخارج !

إن الأستاذ الجامعى المتهم (بسرقة) ١٧٣ صفحة كاملة بهوامشها من كتاب أستاذ سابق له كان لايزال على قيد الحياة وهو مقدم الشكوى فى حقه لجامعته ... ليتذرع

حينئذ بالاقتباس ومشروعية حق الاقتباس (ولو فصول بأكملها وعشرات الصفحات دون تغيير كلمة واحدة) فى التأليف والبحث العلمى ما دام يشير إلى مواطن الاقتباس ولو فى قائمة المراجع بنهاية الكتاب إن لم ترد الإشارة فى هوامش النص ، ويحتج بأن المصدر المنقول عنه مقتبس بدوره من آخرين سبقوه ، وربما تبرأ من كون الكتاب المنسوب إليه والجارى معه التحقيق فى سرقته هو لايعرف عنه شيئا . فليس له رقم ابداع فى دار الكتب ، ومن ثم فلا قضية هناك ويحفظ التحقيق لأن الكتاب المسروق يُعتبر حينئذ مذكرة للتدريس يتعدل محتواها وتتغير تسميتها من عام لآخر - خصوصاً إذا أكد أنه لم يقرر تدريسها على الطلاب. وهكذا يخلو الكتاب المنتحل لأغراض تجارية عاجلة من ملكة التأليف بمنهج علمى أو موقف فكرى أو رؤية ذاتية للموضوعات والقضايا الخاصة بالعلم حين يؤلف فيه نص دراسى واف يحيط بكل جوانب المادة العلمية وتتميز على السابقين فى المضمار . وعدم الحصول على رقم إيداع بدار الكتب للمذكرات الجامعية التى توزع داخل جدران الجامعة - حيث لا وقت للاجتهاد أو جمع مادة علمية خاصة بالاستاذ أو حتى عرض ونقد المؤلفات السابقة كتمهيد لآراء الأستاذ ومواقفه الفكريه الجديدة - فضلاً عن تغيير اسم المذكرة وترتيب فصولها والحذف بالإضافة لكل عام جديد ... كل هذا يعفى من المسؤولية الجنائية عن حق الغير . ولا عبرة بتحذير المؤلف الأصلى : حقوق الطبع والنشر محفوظة لأن التوزيع يتم داخل أسوار الجامعة خلال ثلاثة شهور الفصل الدراسى ، أما عبارة : (كل نسخة غير مختومة تُعد مسروقة ويعاقِب حاملها قانوناً) فهى التى يحرص البعض على التمسك بها حيث يُدعَى الطلاب إلى مكاتبهم لختم نسخة كل منهم للتأكد من تمام توزيع عدد النسخ المطبوعة بقدر عدد الطلاب بالدفعة الجديدة . وأخيراً فربما دافع الأستاذ المتهم بالأمانة بأن المسألة ليست مسألة تزييف كتاب أو سرقة أفكار ، ولا مسألة صحافة وجامعة وقراء ؛ بل الجرى وراء الشياطين الحاقدين الذين لا يهمهم إلا الفُرجة على مطاحنة الأخ لأخيه حتى الإطاحة به .

لذا - ففى تحليل واقعى رصين للكاتب المستنير أحمد عبد المعطى حجازى (الأهرام ٢٥/٥/٩٤) بعنوان " لابد أن ننقذ الجامعة " باعتبارها عقل النهضة وقلبها ويدَها الصنّاع : إذا سلمت الجامعة سلمت النهضة وسلمت مصر ، وإذا مرضت الجامعةُ مرضَت النهضة ومرضت مصر ــ أشار الكاتب إلى أن لصوص الفكر لايسرقون التفسير واللغة والفلسفة فحسب (فى الأمثلة المشهورة التى ذكرها) بل يسرقون الاقتصاد والطب والهندسة والرياضيات أيضاً ... برسائل يتبين بعد التعيين بها فى درجة مدرس أنها مسروقة من ألِفها إلى يائها ، وبحوث يثبُت بعد الترقية بها لأستاذ مساعد أنها مسروقة من مجلات أجنبية ، بل برسائل يُشك فى أن (الطالبة كتبتها أو أن الممتحنين قرؤوها) . وما ينشر عن سرقة الأبحاث وتجاوز شروط التعيين والترقية وبيع الشهادات ... أقل بكثير مما تتداوله الأوساط الجامعية والأحاديث المغلقة . والوباء يستشرى فى جامعات العاصمة فما بالنا بالجامعات الإقليمية - لاينجو من الإصابة به الأساتذة ورؤساء الأقسام والعمداء ورؤساء الجامعات ، فما ذا تنتظر من المدرسين والمعيدين والطلاب؟

وفى تشخيصه للأسباب التى هيأت المناخ لاستشراء الوباء وسقوط الجسد الجامعى فريسة تدمير خلاياه التى قاومت بشجاعة (لأنها كانت سليمة ، وروح النهضة مُتّقِدة ، وآمال المجتمع عريضة) محاولات تربُّص الرجعية والسلطة كِلتَيهما بالجامعة فى إبعاد طه حسين عن كلية الآداب عامَى ١٩٢٦ ، ١٩٣٢ - فى المرة الأولى بسبب الزوابع التى أثيرت ضد كتابه " فى الشعر الجاهلى " ، والثانية لرفضه وقد عاد عميداً للكلية أن يمنح الدكتوراه الفخرية لبعض السياسيين - ومنهم إسماعيل صدقى ، وما كان من نقله لديوان الوزارة ، واستقالة لطفى السيد حين لم يفلح فى إقناع الوزير حلمى عيسى بالعدول عن قرار النقل ، ثم عودة كليهما عميدا للكلية ومديرا للجامعة فى وزارة توفيق نسيم - وكل ذلك بفضل نزاهة القضاء المصرى المستنير . ولم تفلح الإغراءات الحكومية والحملات البوليسية إلاّبعد عام ١٩٥٤ حين تعرض اثنان وأربعون من الأساتذة - فى أول مذبحة

تعرضت لها الجامعة - إلى الفصل بسبب التوقيع على وثيقة دفاع عن الديمقراطية ، فَسَادَ الذعر كل صاحب رأى حر ولو لم تكن له علاقة بالسياسة ، وأصبح إثبات الولاء للحكومة شرط البقاء فى الجامعة - بل القفز منها إلى الوزارة . واستمرت الحال كذلك : الجامعة بلاحصانة ، وفى خدمة السلطة - حتى مذبحة سبتمبر / أيلول ١٩٨١ التى فصل فيها الرئيس السادات حوالى ٦٠ أستاذا من الجامعة وتم نقلهم إلى وظائف مكتبية .

على أن ثالثة الأثافى فى تشخيص أسباب (الفساد الجامعى وفساد الأستاذ) فى تحليل الكاتب : التوسع فى إنشاء الجامعات الإقليمية لقبول كل الحاصلين على الثانوية العامة بأسبقية بمجموع الدرجات (التى حصلوا عليها بالحفظ والاستظهار والدروس الخصوصية) بصرف النظر عن الاستعداد للتعليم العالى أصلا أو القدرات التى تؤهلهم للدراسة بالكلية التى قبلوا بها ، ودون اعتبار لاستعداد الكليات (بتوافر الأساتذة ، وطاقة المدرجات والمعامل والمكتبات) التى تستقبل سنوياً الآلاف ؛ أو احتياج سوق العمل من التخصصات التى توزع عليها القوى العاملة الخريجين بالمئات بعد انتظار وتعطل عشر سنوات ... لينتهى الأمر بالجامعة إلى أن تصبح مدارس تفريخ حملة شهادات ، هدف الطلاب فيها الحصول على الشهادة الموصلة لأى وظيفة ، والأستاذ الحصول على عائد توزيع كتابه المقرر الذى يحرص على شرائه الطلاب للنجاح فى الامتحان ... كلاهما بأقل جهد ودون عناء . الطالب فى مكابدة التحصيل والاستذكار والاطلاع على مراجع أخرى وقراءات خاصة فى موضوع الكتاب (المقرر) ، والأستاذ فى جدية التأليف وانتظام المحاضرات ومواصلة المناقشات ومتابعة التقييم والإرشاد حتى عدالة تصحيح الامتحان ونزاهة تبنى المعيدين والمساعدين.

بذا يَصدُق ما قاله أستاذ فلسفة قديم فى التعليق على حادث حصول متأخر على الدكتوراه ١٩٩٢ من جامعة الإسكندرية برسالة ماجستير مسروقة من باحث متقدم سنة ١٩٨٠ (الذى نشرته تحت عنوان ضخم بمجلة أخبار الأدب بتاريخ ١٩٩٤/٩/٢٥) وتعيينه مدرسا للفلسفة الإسلامية والتصوف بآداب جامعة

إقليمية ، حيث أكدَّ أساتذة التخصص دعوى الباحث المتقدم بالسطو على رسالته. " فقد تم بالفعل نقل معظم مقدمة رسالة المدَّعى بنص الكلمات والحروف ، وكذلك خمس صفحات تفسيره الخاص للإسراء والمعراج بما فى ذلك الهوامش المتعلقة بنفس الصفحات دون أية إشارة لمرجعها الأصلى . ثم إن نتائج بحث المتأخر هى نفس نتائج بحث المتقدم - ممَّا يؤيد قول المضرور إن الباحث المتأخر لم يكن له فى رسالته للدكتوراه من الإسكندرية بحث خاص به - لا من حيث المقدمة أو الأهداف ولا من حيث النتائج . فالبحث لم يعدُ له بهذه الطريقة هدف أو مضمون أو نتائج ، لأنها كلها منقولة من رسالته هو للماجستير بكلية آداب القاهرة ١٩٨٠ فى موضوع " حال الفَناء فى التصوف الإسلامى " ...

... يصدُق ما قاله بحق أستاذ الفلسفة الكبير بجامعة عين شمس على هذا الحادث المؤسف : إن خريجى هذه الأيام هم نتاج صادق لمجموعة من المذكرات الجامعية كتبت على عجل ، وقام بوضعها وتدريسها مجموعة من الأساتذة والمدرسين والمتفحص لهذه المذكرات التى تخرجت عليها أجيال كثيرة من الباحثين فى الجامعات المصرية يجدها فى حقيقة الأمر صورة مزرية من البحث والكتابة وأصول البحث العلمى ومنهجيته . وماذا يملك طلاب الدراسات العليا من زاد سوى ما نشأوا عليه من مذكرات منقولة دون ذكر فى معظم الأحيان للمراجع المُستقاة منها فى العربية ذاتها - فضلا عن مصادر العلم والفلسفة باللغات الأجنبية التى استطاع بها الرواد الآباء أن ينقلوا الثقافات العلمية والفلسفية فى جميع عصورها وبكل لغاتها إلى جيل الأساتذة الحاليين الذين لا يجيدون لغة أجنبية وينقلون عن السابقين والمعاصرين مذكرات مجهولة المصدر ينسبها الطلاب إليهم ويتخذونها مراجع حتى للدراسات العليا ! إن فاقد الشىء لا يعطيه، والطلاب والمشرفون على رسائلهم ما بين الاستسهال وعدم التدقيق والتأنى فى البحث والدرس يشجعون أحدهم الآخر على التسرع والسطو والانتحال .

٣- لجنة دائمة للرقابة على المؤلفات، والجزاء التأديبى للاقتباس :

وحين يتساءل ضحايا السرقات العلمية والغيورون على سمعة الجامعة ومستقبل الأجيال أخيراً عن : مَن يملك سلطة الحد من الظاهرة الخطيرة أو يحكم إصدار الكتب الجامعية ؟ ترد إلى الذهن أول الأمر اللجان العلمية الدائمة التى تفحص إنتاج أعضاء هيئة التدريس الجامعى للترقية درجةً بعد أخرى ثم تلقى لهم الحبل على الغارب - حيث يتنفس هؤلاء الصعداء ويتَحررون من عرض إنتاجهم العلمى تآليف وبحوثاً على آبائهم فى العلم إن كانوا سينتجون أو شفيت صدورهم من كراهية هؤلاء الآباء سواء المتشددون من الحكام والمقررين (محافظة على المستوى)والمجاملون(اتقاء كراهيتهم وتعقُّد نفوسهم وربما افترائهم عليهم بالغَرض والهوى) . فها هم سيزاملونهم فى عضوية اللجان ليرقوا أبناءهم ويحلوا محلهم فى الأستاذية ، وإشراف ومناقشة الرسائل وحضور الندوات والمؤتمرات بحكم مناصبهم كعمداء ورؤساء أقسام وأعضاء مجالس .. وإن لم يستغنوا عن أستاذهم فهم الذين سيعطونه فضلة خيرهم ، فمن الخير له و لهم أن يبقى أستاذا غير متفرغ حتى لا يشارك بفعالية فى أعمال التدريس و الامتحان - و كما يقول لبيب السباعى (الأهرام ٩٤/٥/٩) بعنوان :" ولا حتى يحاضر لطلابه " إن شغل الأستاذ بعد سن الستين لما يُعرف بوظيفة الأستاذ غير المتفرغ أثبت على مدى السنوات السابقة فشله .

فالأستاذ ما إن يقترب من سن الستين حتى يستعد الورثة لتسلم التركة بدءا من المكتب الذى يجلس إليه و حتى الكتاب الذى يُدرِّسه .و يصل الأمر فى معظم الأحيان أن يجد الأستاذ غير المتفرغ نفسه غريبا داخل الكلية التى أمضى بها سنوات عمره ، أو على الأقل يجد نفسه غير مرغوب فيه .

لا سلطان إذن للجان العلمية الدائمة على مَن تَرقَّى أستاذا و تخلص من تدريس كتب أساتذته التى تعلم عليها ليكون له هو كتابه الخاص الذى يحصل على عائد من توزيعه - و هذا حقه . أكثر من هذا ، فاللجان العلمية - حتى فى الدراسات النظرية وخصوصاً بالكليات العملية تشترط للترقية بحوثا ميدانية ذات جدوى فى التخصص - بعضها منشور والبعض مقبول للنشر بمجلات علمية ذات هيئة تحكيم أغلبها من

أعضاء اللجنة العلمية وإن يكن بمجلة كلية أخرى مناظرة لكلية المتقدم للترقية - الذى يتحمل نفقات النشر التى يُنفق على التحرير (أو الاشتراك بالمؤتمر العلمى) من حصيلتها ، ومنها يتحصل مقدم البحث على خطاب القبول للنشر لِما لَم ينشَر بعد وعلى مُستَلات من بحثه لتقديمها للترقية ، كما يتسابق على استيفاء عدد المطلوب نشره بالفعل إلى حد استصدار أعداد كاملة أغلبها لباحث واحد حان موعد تقدمه للترقية . وتتحرج اللجان من جَانبها عن الحكم بعدم الصلاحية لبحوث سبق التحكيم بصلاحيتها للنشر . وهكذا تصبح الترقية بالبحوث فى أحسن الظروف ولأحسن المستحقين بمشاركتهم فى الإنتاج العلمى مسألة أولوية استحقاق بالمواعيد ، أو الرد " للمَزيد من البحث " لتدارك التأخير فى حالة الرفض لأول وثانى مرة .

المهم أنه خلال انشغال عضو هيئة التدريس فى زهرة شبابه العلمى ببحوث الترقية لا يتسع وقته للتأليف فى مادة التخصص - باستكمال مذكرات تدريسه وتنقيحها عاماً بعد آخر لتصبح كتاباً دراسياً جامعاً يستغنى به عن تدريس كتب الأقدمين ، أو لا يضطر حين يطالب بحقه فى تدريس فرع تخصصه بالقسم دون منازع أن ينقل على عجل أو (يقتبس) بالنقل عن الآخرين .

وهكذا فإن تركيز اللجان الدائمة على البحوث للترقية ، وعدم إعطاء التأليف أو الترجمة مهما حَسُنا تقديرًا أكثر من " جهد علمى مشكور " هو الذى يضرّ بتدرج عضو هيئة التدريس فى إعداد كتابه الدراسى الذى يحمل فكره وتأليفه .

ثم حين يتساءل أحد المتضررين بمرارة من السطو على مخطوطة كتابه والكتاب وصاحبه موجودان على قيد الحياة ، ثم تقرير تدريس الكتاب المنقول على الطلاب ... يتساءل عن السبيل لاسترداد حقه قبل اللجوء إلى القضاء ورفع قضية تعويض بالحق (المدنى) أو التظلم للجان الدائمة للترقية التى لا سلطان لها على عضو هيئة التدريس بعد حصوله على الأستاذية مهما رفضت ترقيته لأستاذ مساعد فأستاذ مرة ومرات ، أو تنبهت لجنة الفحص للسرقة فى بعض أعماله لكنها انتهت آخر الأمر إلى ترقيته كما يحدث فى معظم الأحوال ..

حين يتساءل هذا المضرور بمرارة : أليس من حق (بل واجب) مجالس الكليات

ومجالس الجامعات المَعنيَّة أن تتخذ إجـــراء صارماً - لا لإنصاف المضارين فقط ، بـــل لردع العابثين المنحرفين ، صوناً لكرامـــة الجامعة ، وحفاظاً على جلالها وسمعتـــها ؟ يجيب هو نفسه قـــائلاً : - أحسَبُ أن الإجابة عن هذا السؤال هى فى يد رؤســاء هذه المجالس وفى يد أعضاء المجلس الأعلـــى للجامعات ." وأنه فيما بين اليأس المسيطر (أن ينتظر رداً من أحد - لأن أحداً لايهمه أن يكون الأستاذ الجامعى ســارقاً للعلـــم مختلسا لحقوق وإبداع الآخريـــن) ولغـــة الامل والتفاؤل؛ يطمح فى أن يـــرد عليـــه عميد الكلية أو رئيس الجامعة المنســـوب إليها الأستاذ المتهم عن تســاؤلاته . مَـــن الذى يحكم عملية إصدار الكتب الجامعية ؟ وماهو موقف الجامعة وقد عُرفـــت بمـــا جرى؟ وما هو دور اللجان التأديبيـــة فى هذه الحالات ؟

إن أحداً لن يرد علـــى تســاؤلات هـــذا الأستاذ كما توقع ، ولا علـــى تســاؤل آخـــر بالبنط العريض بأخبار الأدب (عدد ٥٦ فى ٧ يوليـــو ١٩٩٤) عـــن حـــادث مماثـــل:"بعـــد هـــذا الكتـــاب (الذى نشره أستاذ مساعد فلسفة طنطـــا يتهم فيه أستاذ ورئيـــس قســـم فلســـفة الأسكندرية بالتزييف فى كل أعماله العلمية التى يدرسها ككتب ومذكرات للطلاب): هل يستمر هذا الأســـتاذ رئيســـاً لقســـم الفلسفة بجامعة الأســـكندرية ؟ كمـــا أن أحداً لن يستجيب لما نشر فى عدد ســـابق بنفس المجلة بعنوان الكتاب الجامعى أزمـــة كل عام : أستاذ يطالب بالمساءلة الجنائيـــة لمن يبالغ فى سعر الكتاب - وإن يكـــن فى هذا المقال بحق التركيز على مسؤولية مجلس القسم عن التجارة بدل العلم : فى ارتفـــاع سعر الكتاب المقرر ، وتأخر تسليمـــــه ، وعـــدم ملاءمته للطلاب (حيث هو غالباً بحث الماجستـــير أو الدكتـــوراه وبحـــوث ترقية الأستاذ التى لا يمكن أن تغطى المقـــرر الكامل كموضوعات جزئية منه) . هنـــا بالفعل مفتاح الحل . فالقســـــم العلمـــى بالجامعة هو الذى يوزع المقررات الدراسية على أعضائه ، ويحدد الكتـــاب المقـــرر ، وعليه تعرض بحوث التعيينات والترقيـــات قبل أن يرفعها لمجلس الكليـــة إلى مجلـــس الجامعة ... فهو الأكثر معرفـــة وإحاطـــة بالتخصصات الدقيقة لأعضائـــه والمقـــرر الذى أحدُهم هو الأصلـــح لتدريســـه ...

والعادة أن لا يحتدم نزاع حول أحقية أحد أعضاء القسم الأدبية على تدريس مقرر له فيه مؤلف أو مؤلفات ومن حقه استرداد تكاليف طباعتها ، كما يتم بالتراضى حلول أستاذ محل آخر إذا أعير ثم استرداد مادته حين يعود ، أو يُعطَى أحدهما مقرراً بديلا بميمكنه التأليف فيه . كما قد يعتمد القسم كتاب واحد أو أكثر من الأعضاء كتأليف مشترك وتوزيع الحصيلة على الجميع بنسبة درجات عضوية التدريس.لكن الأغلب أن يكون التنازع حول حق المؤلف بين أساتذة فى كليات مختلفة تخصصُهم واحد ، وعلى فترات زمنية متباعدة بعض الشئ خلالها تقاعد أو توفى أو أعير إلى الخارج صاحبُ التأليف الأصلى . هنا لايستطيع القسم العلمى أو رئيس الجامعة المدعَى على أحد أعضاء التدريس فيه بالانتحال أو السرقة أن يوقع العقوبة التأديبية إلا بعد تحقيق محايد ونزيه - بالنظر إلى فداحة العقوبات التى يقترحها مثلا أستاذ هندسة الأسكندرية د. أحمد عبد الله حسام الدين(الأهرام ٣١/١٠/٩٤)كحل رادع لتلك المأساة:

أولا :يعاقب بالفصل من عمله مَن تثبُت إدنُته فى نقل معلومات علمية ولو نقَلها بتصرف أو نسخ أجزاء من عمل الآخرين دون الإشارة للمصدر أو بغير إذن المؤلف .. حيث تطبق قوانين حقوق التأليف بكل صرامة وجد، لأن هذه سرقة، والسرقة جريمة مخلة بالشرف ، وجزاؤها الفصل التأديبى .

ثانيا : حين يثبت للجان فحص الإنتاج العلمى أن الأعمال المقدمة منقولة أو مقتبسة وليست إضافة علمية للباحث ، توصى اللجنة بعدم ترقيته نهائيا ، بل لا يسمح له بالتقدم مرة أخرى - لكيلا يكون قدوة لتلاميذه فى الغش والتدليس .

ثالثا: يعاقب بالسجن من يقوم بالسرقة العلمية - لكونها أخطر على المجتمع من السرقة المادية (التى قد يكون لمرتكبها العذر لضغوط معيشية أو ضائقة مالية) ولا عذر لأستاذ الجامعة فى ارتكاب جريمة سرقة العلم .

رابعاً : تبلغ الجهات العلمية والعالمية ودور النشر بأن هذا الأستاذ غشاش ، فلا تنشر له أبحاث بالمجلات العلمية والدوريات المحترمة فى الخارج ! بل يوضع على قائمة المهددين بفضح ابتزازهم لأعمال الغير ،

وأولاً وقبل كل شيء : ضرورة تشكيل لجان فى كل مادة علمية لتأليف الكتب (او لكل كتاب جديد) بحيث لاينشر كتاب إلابعد أن تجيزه لجنة علمية متخصصة - على غرار النظام المعمول به فى جميع دول العالم وكثير من الدول العربية مثل الكويت - حيث اللجنة المشكلة من الخبراء والمَعنيين تجيز ما تراه إسهاماً علمياً فى هذا المجال ، ولا تجيز المنقول أو الذى ليس به جديد او له فائدة علمية ، وأعضاء اللجنة أساتذة مشهود لهم بالعلم والحيدة والنزاهة قد مر عليهم فى درجة الأستاذية عشرة أعوام .

المُعوَّل عليه إذن فى مواجهة هذا الخطر المحدق بفعالية التعليم العالى ــ الذى يقرنه وزير التعليم دائماً برفع مرتبات أعضاء هيئة التدريس كلما " أعلن رفضه نظام الكتب الجامعية الذى يعتمد على المذكرات كمقررات (الوفد ١٩٩٤/١١/٢) - قاعدة الهرم الأكاديمى وهو مجلس القسم ، وقمته التى هى المجلس الأعلى للجامعات - باعتبار أن مجلس الكلية ومجلس الجامعة ممثلين بالعميد والرئيس يصادقان على اقتراحات وترشيحات القسم المختص لرفعها كل منهما إلى الذى يعلوه . وقد رأينا أن ما يتوافر لمجلس القسم من صلاحيات معرفة كل عضو بتخصص بقية زملائه الدقيق وتعمقّه واجتهاداته فى عرض وبحث وتطوير موضوعات بِعَينها من هذا التخصص (الأمر الذى استحدث فى النظم التربوية نظام التدريس بالفريق team teaching للمادة الواحدة بنجاح منقطع النظير) فهو وإن نجح فى توزيع المقرر الدراسى المقترن بكتاب شامل لكل موضوعات المقرر هو لأحد مدرسى المادة أو أكثر أو حتى باسم هيئة التدريس مجتمعين مع تقاسم العائد المادى منه ... لا يمنع التنافس الخفى بين التقدير الذاتى وصورة الآخر (بين) على أحقية كل منهم فى التميز والسبق فى الترقية على قدر جهده وأدائه وتفوقه التى يشاركه فيها الأقل أصالة وتميزاً فى اجتناء الثمار - مما يجعلهم يقبلون طواعية وبرضى نفس مفارقات ترقية الأحدث قبل الأقدم ، ولولا أن الترقيات فى الجامعة لا تتم بمجرد الأقدمية كما فى الوظائف العامة الأخرى (حتى لا يركن الأساتذة إلى الدعة وتخمد جَذوة البحث المؤدى إلى تطوير وتقدم

العلم ، وأن الطلاب أنفسهم خير حكم على جدية وأمانة أستاذ دون آخر فى البذل والعطاء ... لما أمكن تعاون أعضاء مجلس القسم الظاهر فى الرضا بوضع كل منبهم الأدبى (ما دام ينال نصيبه المادى فى استيفاء النصاب وفى المحاضرات الإضافية وحصيلة المذكرة التدريسية ...) ، ولَما أمكن تقبل الترتيب غير الرسمى فى التدرج الهرمى حتى رياسة القسم . فهناك تفاهم ضمنى على أسبقيات التقدم للترقية وخلافة رئاسة القسم وتقاسم الأعمال الإدارية والأنشطة الطلابية والمجاملات الاجتماعية الشخصية والأسرية ... التى لا تنفى الحرص على تقرير الذات ومسايرة اعتبارات الصالح العام والخاص . ويتوقف الأمر دائماً على براعة القيادات الجامعية من رئيس القسم حتى رئيس الجامعة فى امتصاص الخلافات وحسم المنازعات وخلق الترضيات والتسويات ... على كل مستوى قبل أن تصل إلى الذى فوقه أو يعمد البعض إلى تخطى الرياسات والشكوى لجهة خارجية .

لكن ماذا إذا اشتعل الصراع حول أحقية أحد الأعضاء فى تدريس كتابه الخاص وحده دون شريك فى عائده المادى - خصوصاً لطلبة دفعة كبيرة العدد - بينما زملاؤه ينظرون إليه فى ازدراء وأنانيته وتعاليه وخصوصاً أيضا إذا كان قد تربع طويلا على العرش أو ليست به حاجة لمزيد من الكسب والثراء على حساب افتقارهم وحاجتهم هم أيضاً لتكوين أنفسهم مادياً، فراحوا ينبشون قبره ويسفّهون علمه ... ولم تفلح قيادات القسم أوالكلية أو الجامعة فى رده إلى حظيرة الزملاء قبل أن يتمادوا فى تحطيمه بالطَعن فى سلوكه وأخلاقياته الشخصية بالنشر الصحفى أو لدى لجان الترقية فى بحوثه التى ترقى بها للأستاذية - إلى حد رفع قضايا التزييف والانتحال لما يؤلف أو يدرس أمام القضاء ، واستعداد أساتذة فى جامعات أخرى لهم مؤلفات فى نفس التخصص ؟ هنا - لا غنى عن سلطة رقابية على المؤلفات بالمجلس الأعلى للجامعات الذى تتبعه اللجان العلمية الدائمة للترقيات يحيل عليها رئيس الجامعة المتهم أحد أعضاء هيئة التدريس بها الكتاب المطعون عليه (أو المضرور صاحب الحق الأدبى) للتقرير عن التزييف أو الانتحال الذى يستوجب العقوبة

التأديبية . فاللجـــان الدائمـــة للترقيـــات بوضعها الحالى الذى يقصر مهمتها علـــى ترقية المدرسين إلى أســـاتذة مســـاعدين ، وهؤلاء إلى أساتذة فى لجنتين كثيرا ما يجمع البعضُ بين عضويتهما مع ما يستجد مـــن أعضـــاء استوفـــوا ثلاث وخمس سنوات (رفعت إلى خمس وسبع سنوات) حصول على الأستاذية - لاتاحة الفرصة لشـــباب الأساتذة أن يأخذوا دورهـــم فى ترقيـــة مساعديهم (ضماناً لولائـــهم وتسلســـل أقدمياتهم) ثم تكملة الخمسة والعشـــرين عضوا بكل لجنتى تخصص . بخمسة أساتذة متفرغين وغير متفرغين بالاختيار ... قـــد عدلت فى التشكيل قبل الحـــالى لتســـتبعد قدامى الأســـاتذة الذيـــن مضـــى علـــى أستاذيتهـــم أكثر من عشـــر سنوات (بل عشرين وثلاثين سنة) - حيـــث لا دور لهم فى قيـــادة شبـــاب هيئة التدريس (بقدر ما للأســـاتذة رؤســـاء الأقســـام وعمداء الكليات أعضاء اللجـــان) نحـــو الاستفادة بولاء هؤلاء فى انضبـــاط الإدارة وحسن سير العمل الذى أصبح يرجح كفة الأبوة العلمية . وكثيرا مـــا لم تســـتوف اللجان عدد الأعضاء الخمسة والعشرين مع وجود عجز فى شباب الأساتذة ووفـــرة فى الشيوخ الذين لا زالوا على قيد الحيـــاة فى قمة مجدهم العلمى .

والآن - فاق قدامى السن مـــن الأســـاتذة هؤلاء ، الذين تقاعدوا عن تولى المراكـــز الإدارية بالقسم أو الوكالة أو العمادة أكثر من عشر سنوات ، (وكان قد اقترح قبـــل الثمانينيات أن يكونوا أساتذة ممتـــازين أو أساتذة بحث - بدرجة نائب رئيس محكمـــة عليا - تعويضاً لـــمَن لَم يصل منـــهم إلى هذه المناصب قبل بلوغ السن ، وتشـــجيعاً للأساتذة على عـــدم التســـابق إلى هـــذه المراكز-لولا ثورة نوادى هيئـــة التدريـــس حينَئِذٍ على تسمية " ممتاز " مهما أخْلَـــوا الجو لهم) ... هؤلاء الأساتذة المخضرمـــون -بما بقى لهم من شيوخة وتَجَرُّد-هم الذين ينبغى أن تُخصَّص لهم الخمسة مقاعد فوق العشرين (وما لا يستكمل بالشباب حـــتى العشرين) الأقدم فالأقدم فى كـــل لجنـــة علمية ، ليختار من بينهم رئيسُ الجامعـــة الذى لديه شكوى من أحد أعضاء هيئـــة التدريس بجامعته فى حق زميل له (بدل أن يشكل لجنة محلية أو داخلية تكون أميل إلى التستر والتغطية وإهدار حق المضرور لصالح

السلام والاستقرار داخل الجامعة - كما يحدث أغلب الأحيان) ، ويحيل للتحقيق الأكاديمى فى موضوع الشكوى الذى يقرر له عنه هؤلاء الحكماء الحكام إلى مجلس التأديب الذى يقضى بأحد الجزاءات التأديبيه المنصوص عليها فى المادة ١١٠ من قانون تنظيم الجامعات رقم ٤٩ لسنة ١٩٧٢ وتعديلاته - التى تتدرج من التنبيه واللوم حتى العزل من الوظيفة مع الاحتفاظ بالمعاش أو المكافأة ، أو العزل مع الحرمان منها فى حدود الربع . فحين يثبت التقرير العلمى واقعة السرقة أو التزييف أو الانتحال ؛ " فكل فعل يزرى بشرف عضو هيئة التدريس أو من شأنه أن يمس نزاهته أو فيه مخالفة لنص المادة ١٠٣ (فى شأن الدروس الخصوصية مثلاً) يكون جزاؤه العزل .

والمعايير التى سوف تستهدى بها السلطة الرقابية على المؤلفات هذه داخل اللجان العلمية الدائمة بالمجلس الأعلى فى إثبات جريمة (التقليد) كاعتداء على حق المؤلف المادى والأدبى - وبالتالى حماية حقوق المؤلف الأصلى ... موجودة بالقانون المصرى رقم ٣٥٤ لسنة ١٩٥٤ وتعديلاته ، وقبل ذلك بمشروع قانون الجامعة العربية لحماية حق المؤلف (١٩٤٧) وتعديلاته - وان يكن فى الترجمة من لغة أجنبية إلى العربية قبل مضى خمس سنوات من تاريخ أول نشر للمصنف الأصلى ، وما لم يكن صاحبه قد حفظ لنفسه حق التأليف خمسين سنة بعد وفاته _ مما يمكن إعماله فى المؤلفات العربية أيضاً - حيث تجرى التفرقة بين ما إذا كان النقل عن المؤلفات اجتزاء citation بالنص الحرفى لبعض ما ورد فى المصنف المنقول عنه ، أو جمع وتبويب مختارات من عدة كتب بجهد تأليفي أو تصنيفى شخصى compilation ، أو اقتباس الفكرة دون النص التعبيرى عنها - وكلها ليست جريمة تقليد ولا تستوجب . حق الحماية - مَا دامَ الناقل يشير دائما وبأمانة علمية وفى كل موضع (مهما تكررت الإشارة بتكرر الاجتزاءات) للمصدر المنقول عنه واسم مؤلفه ، وما دام الاجتزاء ليس نقلا كاملاً وبتوسع ، ولو بحجة التعليق على النص . فمعيار القلة والكثرة فى الاجتزاء - الذى يسمونه الاقتباس - أن لا يغنى الكتاب المنقول عن الكتاب الأصل وينافسه ، أى

أن لا يغنى الكتاب الجديد قارئه عن الرجوع للمصدر المنقول عنه فيكون اعتداء على الحق الأدبى والمادى للغير يستوجب التعويض - علمًا بأن القضاء الفرنسى المأخوذ عنه هذه التشريعات- تشجيعًا للأغراض العلمية والتعليمية والثقافية الفرانكفونية- لا يصل إلى درجة التشدد التى وصل إليها الأمريكيون مؤخرًا للحد من السرقات العلمية والأدبية والفنية لا للمؤلفات المطبوعة وحدها بل لأشرطة التسجيل المسموعة والمرئية بالتلفاز والفيديو والحاسبات الإلكترونية وقنوات الإرسال والاستقبال الفضائية .

كمال محمد دسوقى

عضو المجمع

من مشكلات عقائد سبأ القديمة

للأستاذ الدكتور عبد العزيز صالح

أثارت قصة سليمان عليه السلام مع حاكمة سبأ- فى القرن العاشر قبل الميلاد - جدل بعض المستشرقين حول أولوية ديانة الشمس السبئية القديمة على غيرها . وقد قال القرآن الكريم عن صاحبة الأمر فيها حين ذاك : " وجدتُها وقومها يسجدون للشمس من دون الله ... " . وأتى هذا على خلاف ما تعودته المصادر السبئية التاريخية من تقديم ديانة القمر على ما سواه ، واعتبار معبودها الأكبر " إلمقه " رأسًا لثالوث يجمع بين القمر والشمس ونجم الزهرة .

وثمة ثمانية فروض يمكن افتراضها لتفسير هذا الاختلاف ، ودفع الشبهة عن مدلول الآية القرآنية المذكورة آنفا ،وبعض أخبار التوراة .

أولا: احتمال تزامن العقيدتين القديمتين مع احتفاظ عقيدة الشمس السبئية بمكانة الأكثر شعبية والأكثر تأثراً بسلطة الأم Matriarchy التى مرت بها مجتمعات قديمة أخرى كثيرة ، بحيث تحتل الشمس المقام الأول لدى الناس ، ويمثل القمر إله الدولة الرسمى .

ثانيا : الأخذ بعين الاعتبار تسمية النسّابين الأوائل للجد الأعلى للسبئيين باسم " عَبٌ شمس " وإطلاق اسم " عين شمس"على عاصمته بما يزكى أقدميته. (رغم افتقار هاتين التسميتين إلى سند آخر صريح) .

ثالثا : ذكر الهمدانى فيما ذكره عن العقائد العربية القديمة أن اسم " شمس " كان يعبر عن معنى الربَّة بوجه عام ، وإن لم يحدد هذا بتاريخ مؤكد .

رابعا: احتمال تأثر السبئيين القريبين من عهد سليمان بحكم أتباع الشمس بعد هجرة أو غزوة قاموا بها فى فترة مبكرة لم تترك نصوصا مكتوبة، واصطبغت سياستها بصيغة ثيولوجية ، وسبقت حكم الملوك ، واستمرت على هذا النحو، حتى تغلب عليها أتباع القمر وسَوَّدوا عقائدهم عليها.

خامسا :احتمال ارتباط ذلك التفضيل لعبادة الشمس السبئية القديمة على ما سواها بولاء شخصى ادخرته سيدة سبأ

لربة الشمس ، تقديرًا لذاتها، وباعتبارها راعية لها ، ومناسبة لما تحمله مثلها من عناصر الأنوثة والإخصاب والأمومة ، أو لكرامة معينة توهمتها فيها ، أو نتيجة لاهتمامها الخاص ببركات معبد متميز من معابدها ، ولم يكن غريبا إن صح هذا الفرض أن يجاملها قومها ويرفعوا من شأنها على ما عداها ، وكثيرًا ما أدت الميول الشخصية للرؤساء الأقدمين إلى تقديم بعض المعبودات وبعض المعتقدات على بعض ، والناس على دين ملوكهم كما يقولون .

سادسا :لا بأس من الاستشهاد بما روته النصوص الآشورية فى القرنين : الثامن والسابع قبل الميلاد عن رئاسة بعض ملكات دُومة الجندل وجيرانها فى شمالىّ شبه الجزيرة العربية للنواحى الروحية فى بلدها ، ورئاسة كهنوت معبودها الكبرى " دلبات " عملا بتقاليد قديمة سمحت لكبريات نساء الأسر المالكة برئاسة الكهنوت واحدة بعد أخرى ، أو بنتًا بعد أمها ، وهو استشهاد لا بأس به لولا مشكلة البعد المكانى والبعد الزمانى بين هذا البلد ودولة سبأ .

سابعا : ثمة مثال قائم لاستمرار أولوية تقدير كوكب الشمس فى أنشودة سبئية قديمة ترجع إلى القرن الثانى الميلادى ، وتَعَرَّف على مضمونها يوسف عبد الله ، وتألفت من ٢٧ بيتا من سجع أو شعر، انتهى كلٌّ منها بقافية موزونة ، وكانت الشمس هى كبرى معبودات قومها ، على خلاف ما جرت عليه غالبية مناطق اليمن من تقديم القمر عليها . ووصفت بأنها "ذات حميم" ، أى المتقدة ذات الحرارة أو ذات الأشعة (أو المنسوبة إلى جبل حميم) و"ذات بُعدان"، كناية عن بعدها، وارتفاع مكانتها . وبلغ من وفرة النذور والقرابين التى كانت تُوهب لها أن قدَّم إليها الملك "نشاكرب يها من" ٢٤ تمثالا مذهبًا دفعة واحدة، وشيَّد لها جزءًا كبيرًا من معبدها . كما أنجز لها قَيْلُ رَدْمان وخَوْلان نُصُبًا ومدافن ومباخر ومناقل وموارد مائية ومدرجات زراعية .

وحظيت بقية عبادات الشمس فى بلاد اليمن بمكانة قريبة من هذه المكانة فى معظم المواطن الأخرى كزوجة وأمّ ، وتنوعت بقية ألقابها بتنوع الصفات والمواضع والمعابد التى نُسبت إليها .

كما خُصص لها معبـــد فى "الحقـــة" باعتبار أنها "ذات بُعدان" ، وخُصص نـص للتقرب إليها وحدها بصفتها "ذات حميم".

ثامنا: أشاد ثيوفـــرا ستـــوس (٢٧١ق.م) بجمع المُرّ واللبان والبخور مـــن مختلـف المناطق، ونقلها إلى معبد الشـــمس الـذى كان أكثـــر معابد السبئيين قداسة فى رأيه، حيث يقوم على حراسته مسلحون أشداء.

وهكذا احتفظت عقائد الشمس بجزء كبـير من أهميتها القديمة برغم ما نافســتْها فيــه عقائدُ القمر حتى حلت محلها فى الأولوية ، ولم يكن فيها ما يناقض الرواية الإســلامية عنها، وهى الأصدق قيلا .

عبد العزيز صالح

عضو المجمع

عودة
إلى كتاب التبيان في شرح الديوان

للأستاذ الدكتور شاكر محمد الفحام

(١)

يقول ابن رشيق فى العمدة : " ... ثم جاء المتنبىُّ فملأ الدنيا وشغل الناس .... فلم يُذْكر معه شاعر إلا أبو فراسٍ وحده ، ولولا مكانه من السلطان لأخفاه ...." (١)

لقد رُزق شعرُ المتنبيِّ حظًّا بعيدًا من الشهرة والذيوع فى عصره والعصور التى تلته . وتتابعت الأقوال والأخبار التى تكشف عن مدى شغف الناس به وإكبابهم عليه . يقول الإمام الواحدى (أبو الحسن على بن أحمد، ت ٤٦٨ هـ)فى مقدمة شرحه لديوان المتنبى : " ... وإن الناس منذ عصر قديم قد ولَّوْا جميعَ الأشعار صفحة الإعراض ، مقتصرين منها على شعر أبى الطيب المتنبى، نائين عما يُروى لسواه .... " (٢)

وعُنِيَ العلماء الأئمة بديوان المتنبى العناية البالغة ، وتوالوا على شرحه وإيضاحه ، حتى تجاوزت شروح الديوان أربعين شرحاً. (٣) ويفُصح الإمام الواحدى عن جانب من تلك الدواعى التى أهابت بالعلماء إلى التزاحم على شرح الديوان، إذ يقول متحدثاً عن المتنبى : " .... على أنه كان صاحب معانٍ مخترعة بديعة ، ولطائف أبكار منها ، لم يُسبق إليها ، دقيقة . ولقد صدق من قال :

ما رأى الناس ثانى المتنبى
أىُّ ثان يُرى لبكر الزمانِ

هو في شعره تنبّا ولكن
ظهرت معجزاته في المعاني

ولهذا خفيت معانيه على أكثر مَنْ روى شعره من أكابر الفضلاء،والأئمه العلماء ، حتى الفحول منهم والنجباء ... فلم يبن لهم غرضه المقصود لبعد مرماه ، وامتداد مداه". (٤)

ومن أوائل شروح الديوان القديمة التي طبعت كتابُ التبيان في شرح الديوان منسوباً إلى أبي البقاء العكبري (عبد الله ابن الحسين / ٥٣٨ - ٦١٦ هـ). وقد طُبع باعتناء يار على البادرناوى بكلكته ــ الهند سنة ١٢٦١هـ / ١٨٤٥ م .(٥)

ثم طبع شرح ديوان المتنبي للواحدي باعتناء عبد الحسين حسام الدين بمدينة بمبي - الهند

سنة ١٢٧١هـ / ١٨٥٥م ، ونشره أيضاً فريد ريك ديترصي / برلين ١٨٥٨ - ١٨٦١ م (وأُعيد مصوّراً) ، وطبع ببولاق سنة ١٢٨٧ هـ .(٦) وقد أشاد حاجي خليفة بشرح الواحدي الإشادة البالغة،ورآه أجلَّ الشروح نفعاً ، وأكثرها فائدة .(٧)

أُعيد طبع الشرح المنسوب إلى العكبرى بالقاهرة في السنوات : ١٢٨٧ هـ ، ١٣٠٣ هـ ، ١٣٠٨ هـ (٨) . واحتفاءً بذكرى مرور ألف سنة على وفاة المتنبي (٣٥٤ هـ) فقد تداعى الأساتذة :السقا والإبياري وشلبي لإعادة طبع الشرح محققاً مدققاً . وقد صدر في أربعة أجزاء (١٩٣٦ - ١٩٣٨ م) فتداوله الباحثون والقراء على نطاق واسع .

(٢)

وبدأت الشكوك تساور العلماء الباحثين في صحة نسبة الشرح إلى العكبري . وكان من أوائل من أفصح عن شكوكه الأستاذ مصطفى جواد والمستشرق الفرنسي الأستاذ بلاشير . وقد نشر الأستاذ جواد مقالة في مجلة الثقافة القاهرية تضمنت الأسباب التي دعته إلى التشكك في نسبة الشرح أبي العكبري :

أولها : أن الشارح قد قرأ الديوان على أبي الحرم مكي بن ريان الماكسيني بالموصل سنة ٥٩٩ هـ ، وعلى أبي محمد عبد المنعم به صالح التيمي النحوي بالديار المصرية . والعكبريّ لم يرتحل إلى مصر ولا إلى الشام . كذلك فإن العكبري (٥٣٨-٦١٦ هـ) (٩) وُلد قبل أبي محمد عبد المنعم (٥٤٧ - ٦٣٣هـ)(١٠) بنحو تسع سنوات،وتوفي قبله بنحو ١٧ سنة ، مما ينفي تلمذته عليه .

الثاني : أن شارح الديوان أديب درس في الموصل وفي نواحي العراق ، ثم سافر إلى مصر والشام ... لقد ارتحل من بلاد قريبة من الموصل إلى بغداد ، وزار في طريقه مدينة سامرا ، ومرّ بالكوفة فالحجاز . أما العكبري فلم يترك العراق .

الثالث: أن الشارح بصيرٌ صحيح العينين، نقل بخطه أمالي ابن الشجري ، أما العكبري فقد عمي منذ الصغر .

الرابع : أن الشارح قد تحدث عن مملكة الملك الكامل محمد بن أبي بكر بن أيوب واتساعها حتى شملت مصر وأعمالها ،

والشام وأعمالها ، وخُطب له بالموصل ، وأنه ملك مدينة آمد . وإنما ملك الكامل مدينة آمد سنة ٦٣٠ هـ (١١) ، مما يدلّ على أن شرح الديوان قد تمّ بعد سنة ٦٣٠هـ، مما لايصح معه نسبته إلى العكبري المتوفى سنة ٦١٦ هـ .

الخامس : ماذكره الشارح من أن كتابًا في الخلاف النحوي اسمه : نزهة العين في اختلاف المذهبين ، وكتابًا آخر بعنوان : الروضة المزهرة . والكتابان لم يذكرا في كتب العكبري المشهورة المعلومة .

فهذه الأدلة الخمسة تنفي نفيًا باتًّا نسبة الشرح إلى العكبري . ورجّح الأستاذ الفاضل مصطفى جواد في ختام مقالته نسبة الشرح إلى أبي عبد الله الحسين بن إبراهيم الشافعي اللغوي الأديب الكوراني الإربلي (٥٦٨ - ٦٥٦ هـ) (١٢)

ثم تابع الأستاذ : مصطفى جواد الدرس والتدقيق ، وانتهى به البحث إلى حقائق جديدة تكشّفت له ، فسطّر مقالة طويلة في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق عرض فيها ما أداه إليه النظر ، فبسط ما كان أوجز في مقالته الأولى المذكورة آنفاً، وأضاف دلائل جديدة تؤكد ما ذهب إليه من نفى نسبة الشرح إلى العكبري ، وتفصح عن مؤلف الشرح وهو أبو الحسن عفيف الدين علي بن عدلان بن حماد بن علي الربعي الموصلي النحوي المترجم (٥٨٣- ٦٦٦ هـ)(١٣) ، فقد جاء في الشرح المذكور في تفسير قول المتنبي :

تتقاصر الأفهام عن إدراكه

مثل الذي الأفلاك فيه والدُّنا

" الإعراب : قال أبو الحسن عفيف الدين علي بن عدلان : الرواية الصحيحة : مثلُ بالرفع ، ويكون على تقدير:هو مثل...."(١٤)

وكانت كلمة الأستاذ الدكتور مصطفى جواد القول الفصل في نفي نسبة الشرح إلى العكبري، ورجّح كثير من الباحثين ما خلص إليه من نسبة الشرح إلى عفيف الدين علي بن عدلان .

(٣)

وقد طالعتني وأنا أتصفح شرح الديوان أدلة جديدة تعزّز ما ذهب إليه الدكتور مصطفى جواد من نفي نسبة الشرح إلى العكبري ، ولكنها تشكّك في نسبة الكتاب إلى عفيف الدين علي بن عدلان . وبدالي أن خير طريق أسلكه

لعرض ما أود قوله هو أن أنسق ماتبدّى لي على صفحات الكتاب من صفات المؤلف وأخباره .

أولا - شيوخ المؤلف :

سمّى المؤلف ثلاثة من شيوخه هم :

(١) الإمام أبو الحرم مكي بن ريّان الماكسيني (ت ٦٠٣ هـ)

وقد قرأ عليه ديوان المتنبي قراءة فهم وضبط بالموصل سنة ٥٩٩ هـ (١٥) .

(٢) وأبو محمد عبد المنعم بن صالح التيمي النحوي (٥٤٧- ٦٣٣ هـ)

وقد قرأ عليه ديوان المتنبي بالديار المصرية(١٦) .

(٣) وأبو الفتح نصر بن محمد الوزير الجزري (ت ٦٣٧ هـ) الشهير بابن الأثير ، صاحب المثل السائر .(١٧)

وفي الشرح إشارات كثيرة إلى روايات المؤلف عن شيخيه دون أن يذكرهما . وله أيضاً مثل قوله :

هكذا قرأناه على المشايخ الحفاظ (١٨) ، أو مثل قوله : الرواية التي قرأنا بها الديوان (١٩)

ثانياً - المواضع التي عرفها المؤلف قاطناً أو زائراً هى العراق والموصل والشام ومصر . ومعرفته بالعراق وأهله وعاداته أوسع . يدل على ذلك تحديده المواضع في العراق تحديداً أقرب إلى الدقة ، وتحدثه عنها حديث العارف المقيم ، حتى اننا لنكاد نرجح أنه من أهل الكوفة . وهذه جملة من النصوص التي تعزّز ما ذهبنا إليه :

(١) علق على قول المتنبي : أو ما وجدتم في الصراة ملوحة ، فقال :" الصراة : نهر يأخذ من الفرات ، فينسكب في دجلة ، بينه وبين بغداد يوم ، وآخره عند باب البصرة ، ومحله ببغداد بالجانب الغربي . وغلط في تفسيره الواحدي فقال: هو نهر يتشعب من الفرات فيصير إلى الموصل ، ثم الى الشام " (٢٠)

(٢) زار مشهد الإمام محمد بن الحسن العسكرى في سرّ من رأى (سامرا) وقت انحداره من الموصل إلى بغداد . (٢١)

(٣) علّق على قول المتنبي : يصيح الحصى فيها صياح اللقالق ، فقال : "واللقالق جمع لقلق وهو طائر كبير يسكن العمران فى أرض العراق ، وهو كثير فى قرى العراق ، يخوت على صدوح الطير، وهو من طيور الخليل ... ويسمى [اللقلق]

أيضاً أبا الجذع،تسميه أهل الضياع..."(٢٢) .

(٤)علّق على قول المتنبي:وشيك فى ثوب من الزيت عاريا ، فقال :" ... وأهل العراق يسمون كل من كان غير مشبع السواء زيتياً " (٢٣) .

(٥) وعلق على قول المتنبى:وردنا الرهيمة فى جوزه ، فقال :"وقال بعضهم : الرهيمة قرية عند الكوفة ، وهو صحيح لأنى رأيت بالكوفة جماعة ينسبهم إليها . ولكنها خربت فى الأربعمئة " (٢٤) .

(٦) وقال فى حديثه عن محمد بن عبيد الله العلوي ممدوح المتنبى فى صباه : " كان محمد بن عبيد الله هذا الممدوح قد واقع قوماً من العرب بظاهر الكوفة ... فتمنى أبو الطيب مثل ضربته ، فهذا سمعته من مشيخة بلدنا " (٢٥) .

(٧) وقال : " ودار أثلة : موضع بظاهر الكوفة " (٢٦).

(٨)وعلق على قول المتنبي: أمنسيّ الكناس وحضرموت ، فقال : " الكناس:محلة بالكوفة،وكذا حضر موت ، وكندة : محلة غربي الكوفة ، والسبيع : سوق بالكوفة ، ومحلة كبيرة . وكل هذه المواضع سميت بأسماء من سكنها " (٢٧).

(٩) ويقول في تفسير قول المتنبي:ويفعل فعل البابلي المعتّق : "والبابلي : نسبة إلى بابل ، وكان بلداً قديماً إلا أنه خرب . وهو مابين بغداد والكوفة ، وهو إلى الكوفة أقرب ، لأنه من أعمالها " (٢٨) .

(١٠) ومن ذكره مواضع في نواحي الكوفة قوله : العذيب وبارق موضعان بظاهر الكوفة ، وبين العذيب وبين الكوفة مسيرة يوم ، وهو بطريق مكة ، بالقرب من القادسية " (٢٩) وقوله : " الثوية : موضع بقرب الكوفة على ثلاثة أميال منها " (٣٠) .

(١١) وقال في شرح قول المتنبي : يستخشن الخزّ حين يلبسه ، " الخز : ثياب تعمل من الابريسم ، لايخالطها قطن ولا كتان ، ولا تعمل إلا بالكوفة . وكانت تعمل بالري قديما "(٣١)

ثالثاً ـ المؤلف بصير صحيح العينين .

جاء في شرح الديوان ، مع تغيير طفيف في العبارة : " قال الشريف هبة الله بن علي ابن محمد الشجري العلوي في أماليه،ونقلته بخطي".

رابعا ـ هو نحويّ كوفى المذهب في النحو

وكوفيته تظلّ برأسها في كثير من صفحات الديوان . وهذه جلّ مواضعها : (شرح الديوان١:٨٧ ، ١١٤ ، ١١٦ ، ١٩٦ ، ٢٠٢ ، ٢٠٨ ، ٢٢٥ ، ٢٢٨ ، ٢٣٢ ، ٢٣٩ - ٢٤٠ ، ٢٤٨ ، ٢٤٨ ، ٢٧٧ - ٢٧٩ ، ٢٩٥ ، ٢٩٩ - ٣٠٠ ، ٣١٢ ، ٣١٣ ، ٣٤١ ، ٣٤٢ ، ٣٨١ ، ٢ : ٢١، ٤٤ ، ١٠٥ ، ١١٢ ، ١١٥، ١٧١، ١٧٥، ١٧٦ ، ١٩٥ ، ٢٥٣ ، ٢٥٨ ، ٢٦٢ ، ٣٣٣ ، ٣ : ٥٠، ١٦٥ ، ١٧٧، ١٨٤ ، ١٨٤ ، ٢٠١ ، ٤ : ١١- ١٢ ، ٣٥ ، ٨٧ ، ٩٠ ، ١١٥ ، ٢١٩ ، ٢٤٨) .

وهو متحلّ بالنصفة والعدل وضبط النفس، يعرض المذهبين بحججهما دون تعصب فإذا أعجبته حجة البصريين حبّذها كقوله : "وهذه حجة حسنة لهم"، (٣٣) .وقد جاء في الكتاب العزيز إعمال الثاني فهو دليل للبصري (٣٤) . والناس اليوم على مذهب أهل البصرة " (٣٥) .

خامساً - امتدت بالمؤلف الحياة إلى ما بعد العقد الثالث من القرن السابع الهجري، فقد تحدث عن الملك الكامل أبي المعالي محمد بن أبي بكر بن أيوب وسعة ملكه ، وأنه ملك اليمن كله،وملك مصر وأعمالها، والشام وأعمالها ، وخطب له بالموصل ، وهو أول أعمال العراق ، وملك آمد وهي أول أعمال الروم (٣٦) والكامل إنما ملك مدينة دمشق سنة ٦٢٦ هـ، وملك آمد سنة ٦٣٠ هـ (٣٧)

سادساً - والمؤلف فقيه حنفي المذهب .

يبدو ذلك في شرحه قول المتنبي :

خرجوا به ولكل باكٍ خلفه
صعقاتُ موسى يوم دُكّ الطورُ

فقد قال : "وقال : خلفه ، لأن المشي عندنا خلف الجنازة أفضل . وقال الشافعي هم كالشفعاء ، والشفعاء إنما يكونون بين يدي المشفوع له " (٣٨).

سابعاً - مؤلفاته

جاء في الشرح ذكر أربعة كتب من مؤلفاته النحوية :

(١)الإغراب في الإعراب
(شرح الديوان ١: ٨٧)

(٢)أنفس الاتخاذ في إعراب الشاذ
(شرح الديوان ١: ٣٣٩)

(٣)الروضة المزهرة في شرح كتاب التذكرة
(شرح الديوان٢: ٢٤١، ٣: ٣٦٣،٣٦٥)

(٤)نزهة العين في اختلاف المذهبين
(شرح الديوان ١ : ٢٠٣)

ثامناً - والصفة العلمية الغالبة على المؤلف أنه مقرئ ، قد أتقن القراءات إتقاناً بعيداً. وهي منه أبداً على ذكر ، فهو يكثر الاستشهاد بالآيات القرآنية وقراءاتها في الشرح إكثاراً لانقع عليه في شرح آخر للديوان . وأكتفي هنا بالإشارة إلى جُلّ المواضع التي وردت في الجزء الأول من (شرح الديوان ١ : ٤، ٩، ١٢، ٢٤، ٣٢، ٣٣، ٥٢، ٥٤، ٥٦، ٥٩، ٦٣، ٧٣، ٨٠، ٨٤، ١٠٥، ١١١، ١٢٤، ١٢٨، ١٣٩، ١٦٩، ١٧٢، ١٩٠، ٢٠٣، ٢١٨، ٢٢٤، ٢٢٦، ٢٢٨، ٢٣٣، ٢٣٥، ٢٤٥، ٢٥٧، ٢٥٨، ٢٥٩، ٣١٠، ٣٢١، ٣٢٥، ٣٤٥، ٣٥٧، ٣٥٩).

وهو يعتزّ بمقدرته في هذا الباب اعتزاز العارف بما أوتي. ومما قاله في هذا الصدد وهو يشرح قول المتنبي :

وماجهلت أياديك البوادى
ولكن ربما خفي الصوابُ

" وسألتُ شيخنا أبا محمد عبد المنعم النحوى ، عند قراءتي عليه ، عن هذا البيت ، وقلت له : يجوز أن يكون البوادى نعتاً للأيادي . والبوادي في نصف البيت، فكأنه عنى الوقف ، وهو موضوع وقف، كقولك : أجبت الداعي، وقد يوقف على قوله تعالى : (يومئذ يتبعون الداعي) بالسكون، ويكون فاعل " جهلت" مضمراً فيها . فقال لي : أنت مقرئ، وقد قست ، ومع هذا أنت حفيّ،فصوّب ما قلت"(٣٩)

تاسعاً - والمؤلف محقق مدقق،قرأ الديوان على المشايخ الحفاظ ، واطلع على رواياته، وجمع نسخ الديوان وأشار إلى ما وقع فيها من تباين ، وما اقترفه جامعوها من أغلاط. وحشد بين يديه شروح الديوان ، وتبين ما قاله سابقوه . وهو أمين ينقل الشروح عن أصحابها في كثير من المواضع ، كذلك فهو حريص على ألا يُخلّ كتابه بشيء قاله سابقوه ، مما دعاه ألا يُغْفل الروايات الضعيفة.وكان له قدرة فائقة على الترتيب، مما يسّر شرحه لقارئيه وقرّبه إليهم . وهو ، إلى ذلك ، أديب ذواقة ناقد يتحدث عن مبدعات المتنبي بإعجاب ، ويتوقف عندما لا يقبله من أقوال الشراح ليدلي برأيه .

يقول في مطلع كتابه : " أما بعد فإني لما أتقنت الديوان الذي انتشر ذكره في سائر

البلدان ، وقرأته قراءة هـم وضبط .... ورأيت الناس قد أكثروا من شرح الديوان واهتموا بمعانيه ، فأعربوا فيه بكل فن وأغربوا ، فمنهم من قصد المعانيَ دون الغريب ، ومنهم من قصد الإعراب باللفظ القريب ، ومنهم من أطال فيه وأسهب غاية التسهيب ، ومنهم من قصد التعصب عليه ونسبه إلى غير ما كان قد قصد إليه ، وما فيهم مَنْ أتى فيه بشيء شاف ، ولابعوض هو للطالب كاف ، فاستخرت الله تعالى وجمعتُ كتابي هذا من أقاويل شراحه الأعلام ، معتمداً على قول إمام القول المقدم فيه ، الموضح لمعانيه ، المقدم في علم البيان ، أبي الفتح عثمان ، وقول إمام الأدباء وقدوة الشعراء أحمد بن سليمان أبي العلاء ،وقول الفاضل اللبيب ، إمام كل أديب ، أبي زكريا يحيى بن علي الخطيب ، وقول الإمام الأرشد ، ذى الرأى المسدّد أبي الحسن علي بن أحمد [الواحدي] ، وقول جماعة كأبي علي بن فورجه ، وأبي الفضل العروضي ، وأبي بكر الخوارزمي ، وأبي محمد الحسن بن وكيع ، وابن الأخليلى وجماعة ، وسميته : التبيان في شرح الديوان ... " .ولعل من

المستحسن أن نسوق عدة أمثلة نعزّز بها ماذكرناه :

(١)يقول تعليقاً على قصيدة المتنبي التي مطلعها :

عذلُ العوازل حول قلب التائهِ

وهوى الأحبة منه في سودائه

" وقد جعل قوم ممن رتبوا الديوان على الحروف هذه [القصيدة] في حرف الهاء لجهلهم بالقوافي .وإنما أبو الفتح[ابن جني] والخطيب [التبريزى] جعلاها في أول حرف الهمزة ، فاقتدينا بفعلهما " (٤٠) . ثم يعود فيؤكد ما ذهب إليه فيقول : "وقد ذكرنا هذه القطعة في أول كتابنا ، وإن كان جماعة قد اختلفوا فيها ممن لا يعرف القوافي ، ولا له بها نسبة ولا دراية . ومنهم من جعلها في حرف الياء ، ولم يكن بينها وبين الياء نسبة ، لأن الياء التي فيها إنما هي همزة ، ولا يجوز أن تنقط، وإنما هي صورة همزة . ورأيت في نسختين أو ثلاث مَنْ ذكرها في حرف الهاء . وإنما اقتدينا بالإمامين الفاضلين صاحبي الشعر والقوافي والعروض ..... وهما عمدة أهل الشام والحجاز والعراق : أبي الفتح بن جني والإمام أبي زكريا يحيى بن علي التبريزي ،

فإنهما جعلاها في أول حـــرف الهمـــزة ، فاقتدينـــا بفعلـــهما واعتمدنـــا علـــــى قولهما..."(٤١) .

(٢)يقف عند قول المتنبي :

"وبضدها تتبين الأشياء" ليقدم ما أبدعه أبو الطيب من أمثال هذه الأعجاز المعجـــزة ، ويذكرها مجتمعة . (٤٢)

(٣)ثم يتحدث عن نوادر أبي الطيب الـــتي فاقت وأعجزت ليعقب بقولـــه : "فـــهذا الذي لم يأت شاعر بمثله ، وإنما ذكـــرناه مجملاً ليسهل أخذه وحفظه ...."(٤٣)

(٤)يعرض لقصيدة من شعر المتنبي في صباه، فيذكر ما قال الرواة فيها ثم ينقل ما ذكـــره ابن القطاع (٤٤) .

(٥)وقال في التعليق على قول المتنبي :

لما تحكمت الأسنة فيهم

جارت وهن يجرن في الأحكام

" يروى المنية بدل الأســـنة ، .... وليـــس بشيء . والأصح : الأسنة ... ومـــن روى المنية أراد بها المنايا ، وليس هو بشـــيء إلا أني وجدتها في بعض النسخ فذكرتها ، حتى لا أخلَّ بشيء على حسب الطاقة "(٤٥).

(٦)ولما انتقد الواحدي قصيدة المتنـــبي في مديح عضد الدولة وذكر الورد فقال فيها:

" وهذه قطعة في نثر الورد غير مليحـــة " علق شارح الديوان على ذلك بقولـــه : "قلت :إنما المتنـــبي ممن يحسن الأوصاف في كل فن . وإنما هذا الذي يأتي له في البديهة والارتجال ، أو في وقت يكون على شراب أو غيره فلا يعتدّ به ، ولو كان أبو الفتـــح عمل صواباً لكان أسقطه من شعره ، ولولا أن مَنْ تقدمني شرح هذه المقطعات وأثبتها لما ذكرتها في كتابي هذا " (٤٦) .

(٤)

لقد نسقتُ من أخبار المؤلف وصفاته التي تعينني في بحثي ما صنفته في تســـعة بنـــود وأرى أن كل بند مـــن البنـــود السـبعة الأولى كافٍ في نسبة الشرح إلى العكبري.

لقد عاش العكبري في بغداد ، وقرأ علـــى شيوخها ، ولم يغادرهـــا إلى الموصـــل أو الشام أو الديار المصرية (يخالف البنديـــن ١، ٢) . وقد أضرَّ منذ الصغر (يخـــالف البنـــد ٣) ، وكـــان نحويًّـــا بصـــريّ المذهب،يتبين ذلك جليًّا فيما خلَّفه مـــن مؤلفات (يخالف البند ٤) ، وأدركتـــه الوفاة سنة ٦١٦ هـــ (يخالف البند ٥) ، وكان حنبليَّ المذهب (يخالف البند ٦) ، وخلا ثبت كتبه الذي أورده مترجموه مـــن

ذكر الكتب التي ألفها صاحب الشرح (يخالف البند ٧) .
وما سقناه هنا إنما هو تعزيز لما كان بسطه الأستاذ الكبير مصطفى جواد ..وقد أوردناه آنفا . ولكني توقفت في نسبة الشرح إلى أبي الحسن علي بن عدلان، لأن ما ذكره مترجموه من أخباره العلمية لا يوافق ما استخلصناه من أخبار شارح الديوان، ويحسن أن نوجز هنا ما أورده مترجمو ابن عدلان مما يعنينا في بحثنا: فهو عفيف الدين أبو الحسن علي بن عدلان بن حماد بن علي الربعي الموصلي النحوي المترجم (٥٨٣ - ٦٦٦هـ) ، ولد بالموصل ، وارتحل إلى بغداد، فسمع بها عن أبي البقاء العكبري وغيره ، وأجاز له أبو اليمن الكندي . وكان بينه وبين ابن عينين الشاعر والقاضي ابن خلطان صحبة ومودة . ولقيه ياقوت الحموي في مجلس القاضي القفطي .وكان من أكابر العلماء ، أقرأ العربية زماناً ، وتصدّر بجامع الصالح بالقاهرة ، وكان علامة في الأدب،شاعرا ، من أذكياء بني آدم . انفرد بالبراعة في حل المترجم والألغاز ، وله في ذلك تصانيف ، منها كتاب : عقلة المجتاز في حل الألغاز ، ومصنف في حلّ المترجم للملك الأشرف . مات بالقاهرة .
طُبع له ، فيما اطلعتُ عليه ، كتابان هما :
١-الانتخاب لكشف الأبيات المشكلة الإعراب (تح . الدكتور حاتم صالح الضامن ،ط ٢ / ١٩٨٥- بيروت) .
٢- والمؤلف للملك الأشرف (وهو مطبوع ضمن كتاب : التعمية واستخراج المعمّى عند العرب ١: ٢٦٥-٣٠٧) .
أما كتاب الانتخاب فقد تناول (١٦٥) بيت من الأبيات المشكلة الإعراب ، وأكثرها مما ألغز فيها أصحابها ..وقد آثر المؤلف الإيجاز في عبارته . وأهدى كتابه إلى السيد الكبير العالم فريد دهره أبي الحسن عز الدين علي بن ُوشاح بن مبادر (ص ١٦ ، ٧٨) . وكان يشير أحياناً إلى الخلاف بين البصريين والكوفيين (الشاهد ٢٤ ، ٢٥) وإلى المصطلح الكوفي المقابل للمصطلح البصري (الشاهد ٣٨) . ونقل مرة عن شيخه عن ابن الخشاب (الشاهد ٧٧) ، وأشار إلى أن المحفوظ في ضبط لفظ (مَثِلف) أنه بفتح الميم وكسر اللام، ثم عقب على ذلك بقوله : " كذا قرأته على مشايخي ، وعلمته من الأصول المنقحة

بالضبط والقراءة . ووقع في نسخ بعض الحذاق (مُتلَف) بضم الميم وفتح اللام وهو بعيد"(٤٨). ونظم بيتاً على طريق الإلغاز حين لم يقع له بيت على حرف الغين (٤٩) . وختم كتابه بأنه كان مسبوقاً بكتابي ابن المفجع والفارقي (٥٠).

ـ وصنف ابن عدلان كتاب : المؤلف للملك الأشرف مظفر الدين موسى (ت ٦٦٢ هـ) أيام مقامه بدمشق . وهو في حل المترجم (أي الكلام الملغز المعمّى) . ويذكر ابن عدلان في كتابه هذا أنه صنّف في المترجم أيضاً كتابه (المعلم) الذي قدّمه إلى الخليفة العباسي المستنصر (٦٢٣ - ٦٤٠ هـ) ، وأنه كان في بغداد سنة ٦٢٦ هـ .

يتبين من كل ما سقناه من أخبار ابن عدلان التي ذكرها مترجموه ، أو جاءت في كتبه المطبوعة أن شرح الديوان لا تصحّ نسبته إليه . وها هي ذي الأسباب التي دعتنا إلى نفي نسبة الشرح إليه :

١- لم يذكر مترجموه أنه قرأ على أحد من الشيوخ الثلاثة المذكورين في البند(١)

٢- لم يذكر مترجموه أنه كوفي المذهب في النحو (البند ٤)

٣-أجمع مترجموه أنه موصلي النشأة ، وقد ترجح لنا أن شارح الديوان كان من أهل الكوفة (البند ٢).

٤- لم يرد في كتبه التي ساقها مترجموه ذكر لأي كتاب من الكتب الأربعة التي أشار إليها شارح الديوان (البند ٧) .

٥- لم يشر مترجموه إلى تعمقه في القراءات القرآنية التعمق الذي يجعله في عداد المقرئين المتخصصين (البند ٨) .

لهذه الأسباب ترددت في نسبة الشرح إلى ابن عدلان .

أما العبارة التي أوردها الأستاذ الفاضل مصطفى جواد فهي غير دالة على أن المؤلف ابن عدلان ، بل يمكن القول إنها جاءت في سياق الاستشهاد بها على رواية في الديوان ، وقد أوردها الشارح ، أو أحد العلماء فأدرجت في الشرح .

ويبدو لي أنه لابد من عودة إلى البحث والتنقيب بين علماء المئة السابقة لنقع على الشارح الذي ألّف التبيان في شرح الديوان.

شاكر الفحام

عضو المجمع من سورية

التعليقات

(١) العمدة (بيروت - ١٩٨٨ م) ١ : ٢٢ ، ٢١٤

(٢)شرح الواحدي (برلين - ١٨٦١م) ١ : ٣

(٣) كشف الظنون : ٨٠٩ - ٨١٢ ، تاريخ التراث العربي لسزكين - الترجمة العربية ، مج ٢ ، ج ٤ :٣١-٣٩

(٤) شرح الواحدي ١ : ٣

(٥) معجم المطبوعات لسركيس ٢ : ١٦١٦ ، مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ، مج ٢٢ ، ص ٣٨ ، ٤٠

(٦) معجم المطبوعات لسركيس ٢ : ١٦١٦ ، تاريخ الأدب العربي لبروكلمان - الترجمة العربية ٢ : ٩٠ ، تاريخ التراث العربي لسزكين مج ٢ ، ج٤ : ٣٥

(٧) كشف الظنون : ٨٠٩

(٨) معجم المطبوعات لسركيس ١ : ٢٩٥ ، ٢ : ١٦١٦، تاريخ الأدب العربي لبروكلمان - الترجمة العربية ٢ : ٩٠،مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ، مج ٢٢ ، ص ٣٨ ، ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري ٤ : ٣٨٠، تاريخ التراث العربي لسزكين مج ٢،ج٤ :٣٧

(٩) ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري ٤ : ٣٧٧ - ٣٨٥

(١٠) وفي رواية : أن أبا محمد عبد المنعم وُلد سنة ٥٤٥ هـ (مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ، مج ٢٢ : ٤٤) .

(١١) النجوم الزاهرة ٦ : ٢٧٩

(١٢) مجلة الثقافة (القاهرة) العدد ١٧ ، السنة الأولى (١٣٥٨/٣/٥ هـ - ٤/٢٥ /١٩٣٩م) ص ٤٩ - ٥٢ ، وانظر تاريخ الأدب العربي لبروكلمان (الترجمة العربية) ٢ : ٩٠ رقم ٩ ، تاريخ التراث العربي لسزكين مج ٢ ، ج ٤ : ٣٧ ، رقم ٢٤

(١٣) مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ، مج ٢٢،ص٣٧ - ٤٧ ، ١١٠ - ١٢٠

(١٤)ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري٤: ٢٠١،مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، مج ٢٢،ص١١١ـ ١١٢

(١٥) شرح الديوان ١ : ب - ج ، ٧٢، ٢ : ٢١ ، ٢٦٧ ، ٣٥٨ ، ٣ : ٧٢ ، ١٢٥ ، ١٦٤ ، ١٨٤ ، ٤ : ٢٨٦

(١٦) شرح الديوان ١ :ج ، ١٧،٧٢، ٨١ ، ٢٨٦ ، ٢ : ٢٦٧ ، ٣٥٨ ، ٣ : ٧٢، ١٢٥ ، ١٦٤ ، ١٧٧ ، ٤ : ٢٨٦

(١٧) شرح الديوان ٤ : ٢١٧

(١٨) شرح الديوان ١ : ٦٣

(١٩) شرح الديوان ٣ : ٧٨

(٢٠) شرح الديوان ٢ : ٢٤٨ ، شرح الواحدي (ط برلين) ١ : ٥٩

(٢١) شرح الديوان ٢: ٦٨

(٢٢) شرح الديوان ٢ : ٣٢٥ - ٣٢٦

(٢٣) شرح الديوان ٤ : ٢٩٥

(٢٤) شرح الديوان ١ : ٤١

(٢٥) شرح الديوان ١ : ٣٠٧

(٢٦) شرح الديوان ١ : ٣١٤

(٢٧) شرح الديوان ٢ : ٢٥٧

(٢٨) شرح الديوان ٢ : ٣٠٧

(٢٩) شرح الديوان ٢ : ٣١٧

(٣٠) شرح الديوان ٢ : ٣١٧ ، ٣٩١

(٣١) شرح الديوان ٤ : ٥٩

(٣٢) شرح الديوان ٢: ٣٣٩ ، ٤ : ١٢٠ ، ١٢٩

(٣٣) شرح الديوان ٢ : ٤٥

(٣٤) شرح الديوان ٢ : ٣٣٣

(٣٥) شرح الديوان ٣ : ١٨٤

(٣٦) شرح الديوان ١ : ١٧١

(٣٧) النجوم الزاهرة ٦: ٢٧٢ ، ٢٧٩

(٣٨) شرح الديوان ٢ : ١٢٩ - ١٣٠

(٣٩) شرح الديوان : ٨١:١

(٤٠) شرح الديوان ١ : ب - د

(٤١) شرح الديوان ١ : ١

(٤٢) شرح الديوان ١ : ٨ - ٩

(٤٣) شرح الديوان ١ : ٢٢ - ٢٣

(٤٤) شرح الديوان ١ : ١٦١ - ١٦٧

(٤٥) شرح الديوان ٢ : ٨٠ — ٨١

(٤٦) شرح الديوان ٤ : ١٢

(٤٧) شرح الواحدي ٢ : ٧٧٤ ، شرح الديوان ٤ : ١٦٥

(٤٨) فوات الوفيات ٣ : ٤٣-٤٦ ، النجوم الزاهرة ٧ : ٢٢٦،بغية الدعاة ٢ : ١٧٩ ، ذيل مرآة الزمان لليونيني ٢ : ٣٩٢ - ٣٩٥ ، الوافي بالوفيات ٢١ : ٣٠٨ - ٣١٤،معجم الأدباء ٣ : ٢١٣ ، (ترجمة أبي العلاء المعري)، وفيات الأعيان ١ : ٧٦، ٢: ١٧ ، ٧ : ٣٧ ، السلـوك لمعرفـة دول الملوك ١ : ٥٧٢ ، تلخيص

مجمــع الآداب في معجم الألقــاب لابن الفوطـــي ٤ : ٥٠١ - ٥٠٢ ، إيضـــاح المكنون ٢ : ١١٢ ، هـــدية العارفين ١ : ٧١١ ، مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ٢٢ : ١١٢ - ١٢٠ ، الأعلام للزركلي ٤ : ٣١٢ ، معجم المؤلفين ٧ : ١٤٩ ، علم التعمية واستخراج المعمى ١ : ٩٨ - ٩٩

(٤٩) الانتخاب لكشف الأبيات المشكلة الإعراب : ٥٣ - ٥٤

(٥٠) الانتخاب : ٥٨

(٥١) الانتخاب : ٧٨

(٥٢) علم التعمية واستخراج المعمي ١ : ٢٨٨ ، ٣٠٢

(٥٣) علم التعمية ١ : ٣٠٣

لغتي فديتك

قصيدة للأستاذ عبد الله بن محمد بن خميس

هَلْ أَنْتَ يَا فِكْرُ المهينُ المُعْدَمُ
المستريبُ القانطُ المتجَهِّمُ
هَلْ أَنْتَ مُعْتَاصُ القُوَى مُتَرَنِّح
هَلْ أَنْتَ مِنْ ضَوْءِ الإِرَادَةِ مُعْتِمُ
هَلْ أَنْتَ مِنْ دُنْيا الخُصُوبَةِ مُجْدِبٌ
هَلْ أَنْتَ مَنْ سِمْطِ الفَصَاحَةِ أَبْكَمُ
مَاذَا دَهَاكَ وَكُنْتَ مَتَنْدُودَ الْقُوَى
جَلْدٌ بِمفْتُولِ الإِرادَةِ مَعْلَمُ
تَغْتَولُكَ الأَفْكَارُ وَهْيَ ذَلِيلَةٌ
وتصِيخُ عَافيةٌ وأَنْتَ تَكَلَّمُ
دَانَتْ لَكَ الدُّنيا فَكُنْتَ إِمَامَها
وَرَنَتْ لَكَ الجلّى فأنتَ الملهَمُ
أَيجَوسُ رَبْعَكَ تافِهٌ مُتَسَكِّعٌ
ويَسُوسُ شَأْنَكَ وَاغِلٌ متجرِّمُ
ويروحُ مُسْتَنُّ الهوَى مُتَباهِياً
وَهُوَ الْغُرَابُ، فَأَيْنَ مِنْهُ القَشْعَمُ
بالبِنْيويَّةِ والرَّثَاثِةِ والغثَا
بالرَّمْزِ والتَّجرِيدِ جاءَ يُتَرجمُ
لا في عَمُودِ الشِّعْرِ جَاءَ مُجَلِّياً
أوفي مجالِ النثرِ أقبلَ يُسْهِمُ
يُؤْذِيك مِنْهُ مَا تَبرْقَعَ أَوْبَدا
فَهْوَ الأُجَاجُ الصِّرفُ وهو العَلْقَمُ
لُغَةٌ تقاسَمُهَا الشُّذُوذُ فتارةً
يُعْزي النبيطُ [2] لها ويُعْزى الدَّيْلَمُ [3]

* * *

أَسَفًا ونَحْنُ حُماتُها وبُناتُها
أبِمَهْدِها تلْقَى الهوانَ وتُظْلَمُ
مِنْ رَهْطِهَا الأَدْنَيْنَ مِنْ أَبْنائِها
مِنْ أَهْلِها وحُماتِها تَتبرَّمُ
مَا عَزَّ قومٌ فرَّطُوا بِلِسَانِهِمْ
تَاللهِ عَنْ نَهْجِ الهِدَايَةِ قَدْ عَمُوا
لُغَتي إذَا لَمْ أَحْمِهَا وأُجِلَّهَا
فَأَنا المُفرِّطُ والسَّفِيهُ المعْدَمُ
وَعَلَوْتُ بِالْقُرآنِ يَزْخَرُ بالنُّهَى
هَدْيًا بأَسْرارِ البَلاَغَةِ مُفْعَمُ
بِالمعْجِزاتِ تَبلَّجَتْ نَفَحَاتُهُ
وبِحُكمِه أَهْلُ الهِدَايَةِ تَحْكُمُ

١-النبيط : جيل ينـــزلون سواد العراق ، وهم الأنباط .

٢-الديلم : جيل من المعجم .

وَبه أُريدَ لها الخُلُودُ وَأَعْجَزَتْ
أَهْلَ البيَان وَهُم أُولَئِكَ، مَنْ هُمُ؟!
لُغَتِي إذَا مَا نَافَسُوا بِلِسَانِهِمْ
وَاشْتَدَّ فَخْرُهُمْ بِهِ وَتَكَلَّمُوا
وَتَأَلَّبوُا وَتَعصَّبُوا وَتَوَثَّبُوا
وَتَنَافَسُوا فَخْرًا بِهِ وَتَحكَّمُوا
جِئْتَ المُدِلَّةَ بالبيَان سِيَادَةً
وَرِيَادةً، إذْ مِنْ هُدَاكَ تَعَلَّمُوا
لُغَتِي بِأَسْفَارِ الْخُلود غَنِيَّةٌ
غَصَّتْ خَزَائِنُهَا بِمَا يُتَوَسَّمُ
حَفَلَتْ بِمُخْتَلِفِ الْعُلُومِ وَإِنَّهَا
لَهِيَ السَّبِيلُ المسْتَبِينُ الْأَقْوَمُ
مِنْهَا تَفَجَّرَتِ المعَارِفُ وَانْبَرَتْ
مِنْهَا يَنَابِيعُ الفَصَاحَةِ تُثْجَمُ (*)
وَأَتَتْ بِأَقْطَابِ البَلاَغَةِ والنُّهىَ
مَنْ هُمْ عَلَى قِمَمِ الفَخَارِ تَسَنَّمُوا
فَأَبُو عُبَيدَةَ وَالخَلِيلُ ويُونُسُ
وَالأَصْمَعِي والنَّضْرُ، طَوْدٌ مَعْلَمُ
وَالجَوْهَرِيُّ وسِيبَوَيْهِ وَثَعْلَبٌ
وَالمازِنِي وَابْنُ دُرَيد وَمُكْرَمُ
مِنْ عُصْبَةٍ دَرَجَتْ عَلَى سُنَنِ الهُدَى
وَمَضَوْا وأَقْفَرَتِ المغَانِي مِنْهُمُ
لَمْ يَبْقَ إِلا وَاغِلٌ أَوْ جَاهِلٌ
خِبٌّ بِمُشْتَبِهِ البَيَانِ مُشَرْذَمُ
خَلَتِ الدِّيَارِ مِنَ الرَّقِيبِ فَأَرْجَفُوا
فِي رَبْعِهَا، إذْ غَابَ عَنْهَا الْقَيِّمُ

* * *

عبد الله بن محمد بن خميس
عضو المجمع المراسل
من السعودية

(*) تُثجمُ : أثجمت السماء : أسرع مطرها .

مجمع الخالدين وتوحيد المصطلح العربي

للأستاذ عبد الرزاق البصير

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد وآله وصحبه أجمعين ، وبعد :

فإني لا أعدو الصواب إذا قلت : إن من المؤلم أن يرى مجمع الخالدين أن من واجبه أن يبحث في توحيد المصطلح العربي.

ذلك أن من المفروض أن يكون المجمع قد انتهى من بحث هذه المسألة منذ أمد بعيد، فقد مضى على تأسيس مجمع الخالدين أكثر من ستين سنة، مشتملاً على قمم من العلماء والفضلاء المتخصصين ممن يجيدون بعد اللغة العربية أكثر من لغة أجنبية .

وقد كانت قضية وجوب توحيد المصطلح هاجساً في النفوس منذ عدة عقود من السنين . ومن المؤكد أن مكتبة المجمع تحتوي على بحوث قيمة في هذه المسألة .

وليس من الفضول إذا قلت بأن هذه البحوث نداءات مخلصة تصدر إلى هذه الأمة بوجوب توحيد المصطلح ، ويبدو أن هذه النداءات لم تلق أذناً صاغية على الرغم من أننا جميعاً ندرك أن توحيد المصطلح قضية يتحتم علينا أن تصبح مطبقة في دوائر هذه الأمة منذ أمد بعيد .

وعلى كل حال فإني وغيري لا يمكنه أن يأتي بجديد حين يؤكد بالبراهين القاطعة أن توحيد المصطلح أمر ممكن التطبيق إذا توفرت الإرادة الجازمة الحاسمة من أصحاب الكلمة النافذة وعلى رأسهم وزارات التربية والتعليم العالي ووزارة الأعلام .

فنحن نعلم جميعاً أن وزارات التربية والتعليم العالي تهيمن على تعليم الصغار والكبار من النساء والرجال ، ومن المحقق أن في ملفات هذه الوزارات بحوث لعلماء أجلاء بحثوا فيها توحيد المصطلحات وأن هذه البحوث تشتمل على نداءات ترى أن هذه المسألة يجب أن تكون واقعاً بأسرع ما يمكن ، ومعنى ذلك أن تكون في مقوارات وزارات التربية والتعليم العالي لكي تكون هذه المسألة مغروسة في نفوس الجميع .

ويقال مثل ذلك لوزارات الإعلام التي تهيمن على أجهزة لا يخلوا منها منزل من المنازل مهما بلغ ضعف أصحابه

الاقتصادى ، بل إن هذه الأجهزة أصبحت مصاحبة لكل فرد من الأفـراد فى سـفره وحضره،ونعنى بها التلفاز والمذياع بالإضافة إلى السينما والصحافة . ولست فى حاجـة إلى توضيح ما لهذه الأدوات من تأثير بـالغ فى النفوس والعقول ، ولست فى حاجـة أيضا إلى توضيح أن الاختلاف فى استعمال المصطلحات بصورة عامـة يعتـبر مـن العلامات الواضحة على ضعف هذه الأمـة وتفرقتها .

وكلنا يعلم أن ولاة الأمور يعلنون فى كـل حين أنهم يبذلون كل ما يستطيعون مـن نشاط فى وحدة هذه الأمة أو تقاربهـا ، وكل من له أدنى إدراك يعرف أن التقـلوب بين الأمة العربية لا يمكن أن يتحقـق إلا إذا قامت وزارات التربيـة والتعليـم العـالي ووزارات الإعلام فى جميع الدول العربيـة بعمل ما من شأنه تضـامن هـذه الأمـة وتقاربها، وذلك بأن تكون مناهج التعليـم وبرامجه مشتملة على تنفيذ ما يصدره مجمع اللغة العربية من قرارات وتوصيات، وهـذا لا يكون إلا بصدور قرار سياسي يتضمـن طلباً من جميع المؤسسات والوزارات بـأن يكون عملها مستوحى من هذا التوجـه .

وإنه ليؤسفنا ألاّ نرى إلاّ القليل من هـذا الذى نشير إليه. فما زالت وزارة الإعـلام لا تنهى الإذاعة والتلفزيون عن اسـتخدام اللهجات العامية ، وما زالت مناهج وزارة التربية إلا القليل منها بعيدة عن ما يخلـق التقارب العربى ، فكل دولة تجتـهد فى أن تكون مسيرة تاريخها مختلفة عـن مسـيرة التاريخ العربى العـام كمـا أن عاداتهـا وتقاليدها تختلف عن بقيه الدول الأخرى .

وليس من التجنّـي إذا قلـت إن وزارات الإعلام تحاول أن توهم الناس بأن الدولـة التى تنتمي إليها أفضل من غيرها من الدول العربية ، يجرى ذلك فى معظم إن لم أقل فى كل الدول العربية . يعرف ذلك كله مـن يتابع نشـاط وزارات التربيـة ووزارات الإعلام فى الدول العربية ، ومعنى ذلـك أن التمزق العربى يصبح أمراً مألوفاً إن لم أقل إنه مغروس فى النفوس ، فلابد من عمـل شئ علمي يؤدى إلى التقارب العربى .. ثم إنى منذ مدة وجهت سـؤالاً إلى رياسـة المجمع عن مصير توصيات المجمع التى نبـذل فى الوصول إليها جهوداً مضنية ؟

أظن بأنى لا أتجـنى إذا قلت بأن مصيرهـا الرفوف والأدراج، إذن فـإن من الأفضل

للمجمع أن يتدارس هذه القضية المهمة ، ونرجو أن يؤدى هذا التدارس إلى ما يدفع ولاة الأمور فى الدول العربية إلى إصدار قرارات تلزم الجهات المختصة بتنفيذ هذه التوصيات التى لا غنى عنها، لأنها صادرة عن مؤسسة يعمل فيها علماء ومفكرون لهم أرفع المكانة فى النفوس ، فلا يجوز أن يكون مصير ما يوصون به إلى الإهمال .

القرار السياسي وتوحيد المصطلح :

ومن المؤكد أن ولاة الأمور إذا أصدروا قراراً بتنفيذ توصيات المجمع فإن من شأن ذلك أن يحدث أثراً قويا على كل الأصعدة السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، الأمر الذي يجعلنا قد خطونا خطوة فى التقارب العربى إلى الأمام.

أما عن توحيد المصطلحات فإنكم تعلمون بلا شك أيها الأساتذة الأجلاء أن مجمع الخالدين قد دعى إليه منذ مدة طويلة . وقد كتب بعض الأعضاء بحوثا فى هذا الشأن، ويبدو أن هذه النداءات المتكررة والبحوث القيمة الصادرة عن المجمع لم تجد ما تستحقه من استجابة عملية . وإننا لنرجوا أن يستعمل المجمع كل ما لديه من وسائل ليكون هذا النداء بوجوب توحيد المصطلح نداءً عمليًا فى هذه الدورة .

أمّا عن الناحية العملية فإنه لابد لنا أن نقرر بأن لغة القرآن " أرقى اللغات السامية، كما يقرر دارسوا تلك اللغات ، فلا تعادلها اللغة الأرامية ولا العبرية ولا غيرها من هذا الفرع السامى ، وهى كذلك أرقى لغات العالم ، فهى تمتاز حتى عن اللغات الآرية لكثرة مرونتها وسعة اشتقاقتها . فإذا قيس ما يشتق من كلمة عربية فى صيغ متعددة ، لكل صيغة دلالة على معنى خاص، بما يقابلها من كلمة إفرنجية وما يشتق منها، كانت اللغة العربية فى ذلك - غالباً - أوفر وأغنى " ذلك ما يذهب إليه المرحوم العلامة أحمد أمين فى كتابه ضحى الإسلام جـ (١) ص (٢٨٩) وهذه الميزة فى اللغة العربية تُمكن العلماء من وضع المصطلحات فى مختلف الفنون والعلوم والمخترعات الحديثة .

ومهما يكن من شئ فإننا فى أشد الحاجة إلى توحيد المصطلح، لأن هذا النهج يُعد من أهم العناصر التى تقارب بين شعوب الأمة العربية، فإن من شأن اختلاف أسماء المصطلح أن يسبب ضعف التفاهم بين

العرب . ويتضح جسامة هذا الضرر حينما يكون اللقاء بين القادة العسكريين .. إذ أن كل قائد لا يستطيع أن يفهم عن أخيه القائد العربى حين تكون المصطلحات العسكرية مختلفة فيما بينهم . ويقال مثل ذلك فى لقاء العلماء الذين يقومون بترجمة البحوث العلمية ، فإن اختلاف المصطلح يجعل ما يقوم به أولئك العلماء من ترجمات شاقًا أعظم المشقة ، وكان من المفروض أن تتنبه الجامعة العربية لهذه القضية المهمة . ولكنها لم تفعل شيئاً من ذلك . ولقد تنبه الدكتور على القاسمى إلى هذه المسألة حيث يقول فى بحث مفصل: " إذا بحثنا فى أعمال جامعة الدول العربية منذ تأسيسها قبل أربعين عاماً تقريباً ، وفى أعمال وكالاتها المتخصصة والمنظمات التابعة لها لا نجد استراتيجية لغوية معلنة أو مضمرة تأخذ فى النظر خصائص اللغة العربية ومميزاتها وواقع أحوالها ، والتحديات التى تواجهها " .

على أن مكتب تنسيق التعريب فى الرباط التابع للمنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة الذى أقام عمله على ما أنجزته مجامع اللغة العربية قد بذل جهداً مشكوراً فى بعض ما أصدر من بحوث يوضح فيها وجوب توحيد المصطلحات العربية .

وتقول لى ذاكرتى فيما تُسعفنى به: إن الأستاذ محمود شيت خطاب أصدر قبل مدة طويلة معجماً فى توحيد المصطلحات العسكرية، وهو معجم قيم جدًّا،وأرجو أن تكون قيادات الجيوش العربية قد أخذت به.

ولطالما شكا العلماء المتخصصون فى لغة القرآن من عدم العناية باللغة كما يجب أن تكون عليه . ويبدو ذلك واضحاً لمن يستمع أو لمن يتأمل بعناية فيما تنشره الصحف من مقالات وأحاديث،ويقال مثل ذلك فى وسائل الإعلام المرئية والمسموعة وفى المدارس على اختلاف فروعها .

القيادة المصرية وتوحيد المصطلح :

ولعل من أسطع البراهين على ما يعانيه المصطلح العربى من اختلاف هو ما نجده من اختلاف فى أسماء الشهور ، وفى أسماء النقود . فالشهر الثامن يسمى فى لبنان والعراق (آب) وفى مصر (أغسطس) وفى تونس (أوث) أما النقود فعندنا (الجنيه ، والدينار ، والريال ، والدرهم)

ولقد أصدر الدكتور محمد رشاد الحمزاوى بحثاً قيماً درس فيه تاريخ توحيد المصطلحات دراسة دقيقة مفصلة . وكان محقاً فى إشادته بجهود مكتب التنسيق التابع للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم لما قامت به من نشاط لغوى واسع، فكان من جملة ما قامت به من عمل لغوى أن أصدرت ما يقرب من ٧٠ ألف مصطلح فى ٢٣ علميًّا فى المرحلتين الثانوية والعالية من التعليم .

والذى قدر له أن يتابع مجلة اللسان العربى يتضح له أن كل عدد منها يشتمل على بحوث قيمة فى اللغة . ويتضح مما أشرت إليه أن توحيد المصطلح العربى بصورة عامة أمر مفروغ منه، فلتكن دعوة مجمع الخالدين إلى هذا الأمر دعوة أخيرة حاسمة...وفى تصورى أن هذه الدعوة لا تكون كذلك إلا بإصدار قرار من قيادة مصر ، فإننا نعرف جميعاً أن لمصر أقوى الأثر . ومن المؤكد أن باقى الدول العربية ستحذوا حذو مصر العظيمة ، إذ لا توجد دولة من الدول العربية إلا وفيها عدد كبير من الخبراء فى التربية والتعليم وفى الإعلام، بل فى جميع المرافق ، وليس بعيداً أبداً أن تتبنى قيادة مصر هذه الخطوة الرائدة التى هى فى الواقع عنصر من أقوى العناصر للتقارب العربى .

ولست فى حاجة إلى القول بأن الأمة العربية فى أشد الحاجة إلى التقارب فيما بينها، لأن التمزق العربى قد بلغ حالة تدمى القلوب .

عبد الرزاق البصير
عضو المجمع المراسل من الكويت

فى تجديد الفكر وتاريخ الأفكار

للأستاذ الدكتور أحمد صدقى الدجانى

(١)

مقدمة ومثل تطبيقى

تجديد الفكر في مختلف نواحي الحياة – في الاجتماع الإنساني – قضية مطروحة علينا نحن العرب أبناء الحضارة العربية الإسلامية، في هذه المرحلة من تاريخنا ، ونحن نعمل من أجل ازدهار العُمران الحضارى في وطننا العربي وكوكبنا الأرضي بعامة . تماماً كما كانت مطروحة من قبل على أجدادنا . شأننا في ذلك شأن أمم أخرى في حضارات أخرى . ذلك أن " التجديد "هو إحدى ظواهر الحياة في الاجتماع الإنساني منذ كان . وهي من ثمَّ تستحق منا نظراً وتفكراً وتأملاً في إطار معالجتها .

يتداعى إلى الخاطر ونحن نقف أمام هذه القضية أن أمتنا العربية بلورت هدف التجدد الحضاري واحداً من أهداف مشروع نهضتها عبر نضبال خاضته في القرنين الأخيرين في مواجهة،" تجمُّد " " وتقليد " يفعلان فعليهما في داخلها ، وتسلطٍ فكري خارجي يستهدف فرض التبعية الفكرية عليها ، كما يتداعى إلى الخاطر أن فكرة التجديد بغية التجدُّد هي فكرة تضرب بجذورها في أعماق أبناء الأمة بفعل عقيدتهم وتراثهم ، فقد ساد الاعتقاد في أوساط حضارتنا العربية الإسلامية بسُنَّةِ التجديد باعتبارها من سنن الحياة في الاجتماع الإنساني ، بفعل الحديث الشريف الصحيح " إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مئة سنة من يجدد لها أمر دينها . " وحفل تراث هذه الحضارة بالحديث عن التجديد والمجددين.

إن التعرف على ظاهرة تجديد الفكر في الاجتماع الإنساني يقتضي العناية بتاريخ الأفكار الذى يتتبع بالدراسة هذه الظاهرة ويؤرخ لها . كما أن القيام بتجديد الفكر يستوجب توافر شروط فيمن ينهض بهذه المسؤولية من بينها شرط الإحاطة بما سبق أن تبلور من أفكار بغية استحضارها .

وهذا يعني أن يكون عالماً بتاريخ الأفكار، الأمر الذي يقتضي أيضًا العناية بهذا التاريخ.

واضح أن تحديد الفكر هو عمل يدخل في إطار" علم دراسة المستقبل "الذي سبق أن تناولناه بالحديث في الدورة الستين لمجمعنا قبل عام ، وهكذا تبدو الصلة وثيقة بين موضوع تاريخ الأفكار وموضوع دراسة المستقبل، وكما نرى العناية بدراسة المستقبل في مختلف دوائر عالمنا الحضارية وفي دائرة الغرب الحضارية بخاصة ، فإننا نرى مثل هذه العناية بدراسة تاريخ الأفكار.

يُلح علينا ونحن نعالج قضية تجديد الفكر أن نبدأ بالتعرف على موضوع تاريخ الأفكار كما يجري تحديده اليوم في الغرب. ما تعريفه ؟ كيف بدأت العناية به وتطورت ؟ وما هي حدوده ؟وأين يقع في علم التاريخ في بحره الواسع ؟وما هي أهميته في عصرنا؟ وما هي مصادره ؟ ثم ما هو دور الأفكار في العُمران البشرى ؟ وكيف تؤثر ؟ وما هو دور مؤرخ الفكر ؟

يلح علينا أيضًا أن نقوم بعد ذلك باستحضار ما حفل به تراث الحضارة العربية الإسلامية من حديث متصل بهذا الموضوع ، ضمن تلبية نزوع قوي لتأصيله. وهذا النزوع هو في إطار ظاهرة تفاعل الحضارة مع تراثها حين تتفاعل مع حضارة أخرى . وسيقف بنا هذا الاستحضار أمام تاريخ تراجم الأعلام في القرون الهجرية المتتالية ، وتاريخ طبقات العلماء ، وتاريخ التجديد والمجددين . ويتداعى إلى الخاطر كيف عني أحد أعضاء مجمعنا الذين رحلوا إلى دار البقاء بتاريخ التجديد وهو المرحوم الشيخ أمين الخولي فأصدر كتابه "المجددون في الإسلام " على أساس كتابي " التنبئة بمن يبعثه الله على رأس كل مئة " للسيوطي (٩١٠ هـ) و"بغية المقتدين ومنحة المجددين على تحفة المهتدين" للمراغي الجرجاوي (ق ١٤ هـ).

يلح علينا أخيراً أن نتأمل في الفكر والتفكير والتفكر ، وننظر في كيفية تولد الأفكار عند الإنسان ، بدءًا من " الخاطر " الذي يرد على القلب ويتحرك فيه من رأي أو معنى ، وأصل تركيبه يدل على الاضطراب والحركة كما نقل ابن المناوي (٩٥٢ - ١٠٣١ هـ) في " التوقيف على مهمات التعريف " عن المطرزي . وقد تحدث محمد إقبال في مطلع كتابه تجديد التفكير الديني في الإسلام عن الفكر والبداهة .وستغرينا " لُمع " فكرية لتحليل العلاقة بين الفكر ،

والفعل عند الإنسان . ومثلٌ على ذلك ما جاء في " الفوائد " لابن قيم الجوزية (٦٩١ - ٧٥١ هـ) من " أن مبدأ كل علم نظري وعمل اختياري هو الخواطر والأفكار ، فإنها توجب التصورات ، والتصورات تدعو إلى الإرادات،والإرادات تقتضي وقوع الفعل ، وكثرة تكراره تعطي العادة ، فصلاح هذه المراتب بصلاح الخواطر والأفكار " . وسنقف وقفة متأنية أمام معايير" الأفكار " " والقيم " التي تحكمها . وهذا أمر عني بالوقوف أمامه كرين برنتون وفرانكلين باومر أبرز المشتغلين بتاريخ الأفكار في الغرب وغيرهما، تماماً كما عني به من قبل أجدادنا وقدموا فيه الكثير مما يستحق أن يُستحضر ويتُمثّل ويبنى فوقه ويُعلى .

إن القيام بهذه الخطوات الثلاث يمكننا من الحديث الواثق في معالجة قضية تجديد الفكر ، المرتكز على وضوح " المعايير " ، المدرك لمعاني التغير والتغيير والتطور والتطوير والتجدد والتجديد، الواعي للواقع القائم المحيط ، والمستحضر لحركة التاريخ التي أوصلت إليه ، وأخيراً المستشرف غده "ولتنظر نفسٌ ما قدمتْ لغدٍ " .

مَثَلٌ تطبيقيّ

بين يدي العزم على معالجة قضية تجديد الفكر والقيام بالخطوات الثلاث بعون الله، أجد من المفيد تقديم مثل تطبيقي في تاريخ الأفكار يتناول موضوع " الفكر القومي العربي وتطوره وتطويره " ، أعطيته أولوية بمناسبة وقفة الذكرى الخمسين لتأسيس جامعة الدول العربية .

بلوغ جامعة الدول العربية الخمسين من عمرها في عام ١٩٩٥ مناسبة لوقفة مراجعة واستشراف ، تثمر رؤية لما ينبغي عمله لتحقيق أهداف العمل العربي المشترك.

موضوع الفكر القومي العربي واحد من عدة موضوعات حيوية تبرز في هذه الوقفة وتدعونا للنظر فيها ،فالصلة وثيقة بين هذا الفكر ومسار العمل العربي المشترك ، وقَوي تأثير كل منهما في الآخر .

النظر في تطور الفكر القومي العربي يقع في إطار " تاريخ الأفكار " الذي يتعرف على العلاقات بين آراء العلماء والفلاسفة والمفكرين والمثقفين في الأمة ، وطريقة العيش الواقعية للناس ، بغية إدراك دور المذاهب والأفكار التي تدفع الناس في اتجاه

معين . وتاريخ الأفكار هذا يتركز على أفكار الكافة ، ويهتم بالأفكار التي تحظى بانتشار واسع على صعيد حياة الناس من خلال الجماعات والحركات البشرية الكبيرة .وهو ، رغم أنه يدور بالضرورة داخل الفكر العقلاني ، يتناول أفكاراً ترتفع إلى درجة الإيمان والمعتقد .

والنظر في تطوير الفكر القومي العربي وثيق الصلة بعلم دراسة المستقبل الذي هو جهد علمي لاستشراف المستقبل وتشوفه ورؤيته ، بغية إحسان التعامل مع الواقع القائم ، والسعي لتحقيق أهداف محددة .

الإشارة إلى هذين العلمين هو بهدف استحضارهما عند النظر في موضوع الفكر القومي العربي ، بغية النفاذ عبر سحابة داكنة تظلل الموضوع ، صنعتها ظروف محيطة محبطة ، أدت إلى صدور أحكام على هذا الفكر في بعض أوساطنا الفكرية العربية " بقصوره وما ورائيته وتناقضه " بزعم أن العقل الذي ينتجه يتعامل مع ممكنات ذهنية لا فروض واقعية ،وهي أحكام أقل ما يقال فيها إنها بحاجة إلى تمحيص وإعادة نظر يُستحضر فيها تاريخ الأفكار ودراسة المستقبل .

أولاً - مفهوم الفكر القومي العربي

ما هو مفهومنا للفكر العربي ؟ متى ظهر هذا الفكر بهذا المفهوم ؟ ما هي القضايا التي شغل بها ؟ ماذا عن التيار الذي تبنّاه ؟ ما هي الأحداث " الفاصلة " التي تبادل التأثير معها ؟ وأين نتسلمه ؟

مفهومنا للفكر القومي العربي يتحدد من كونه أولا أنه " فكر " ، و " الفكر هو إعمال النظر في شيء "،وهو يطرح أفكاراً، والفكرة " هي قوة مطرقة للعلم إلى المعلوم" من خلال التفكر في الأمور ، والتفكر هو " جولان تلك القوة بحسب نظر العقل " وهو أيضاً " التأمل " . وهو يعتمد على التفكير الذي هو إعمال العقل في مشكلة للتوصل إلى حلها " .

وصف هذا الفكر بأنه " عربي " يعني أنه معني بالنظر فيما يجري في دائرة الوطن العربي الكبير فيما يخص الأمة العربية . كما يعني أيضاً أن أصحابه " عرب " يُعبرون " باللسان العربي " . والفكر العربي إذاً ينصرف إلى الفكر الذي ظهر في دائرتنا العربية منذ القديم .

وصف هذا الفكر العربي بأنه " قومي " يعني أمراً جديدا يتصل بفكرة " القومية "

حديثة الظهور في الغــــرب الأوربي، ثم في دائرتنا الحضارية العربية الإسلامية وقلبـــها الوطن العربي . فهو ذلك الفكـــر العـــربي المعني بالنظر في قضايا الأمة العربيـــة مـــن منظور كونها أمةً واحدةً تتوق للتعبير عـــن ذاتها في وطنها ، وتسعى إلى تحقيق أهداف بلورها نضالها . وقد اقترحتُ تعريفاً له بأنه " الفكر الذي ينطلق من الإيمـــان بحقيقـــة الانتماء القومي لأمـــة عربيـــة واحـــدة ، وينشغل بدراسة واقع هذه الأمة ، ويبحث من ثم في التدليل على وجودها كوحـــدة ، وفي توحيد الوطن العربي وتحرير أجزائـــه المحتلة والتقدم به وتحديد مكانه في العالم" . وذلك في كتابي"عروبة وإسلام ومعاصرة " في مطلع الثمانينيات .

ظهور هذا الفكر بهذا المفـــهوم حديـــث حداثة فكرة القومية التي ازدهرت في أوربا مع القرن التاسع عشر الميـــلادي ، وبـــدأ الحديث عنها في الدولة العثمانية في الربـــع الأخير منه، وجرى استخدامها أول مرة في وطننا العربي عام ١٩١٦ في نداء إعـــلان الشريف حسين الثورة العربية . ويمكننـــا حين نتتبع جذور الفكر القومي العـــربي أن نجد تعبيرات عنه في حركـــات اســـتقلال الولاة في بعض الولايات العربية من الدولـة العثمانية منذ القرن الثامن عشر الميـلادي ، وفي بعض الكتابات والمواقف ، وبخاصـــة منذ قيام دولة محمد علي في مصر.

ظهر الفكر القومي العـــربي بوضـــوح في أوساط أمتنا العربية بعد الغزو الاستعماري الأوروبي لوطننا العربي الذى بدأته الحملـة الفرنسية على مصـــر ١٧٩٨ م، وتتـــالي موجةٍ إثر موجة في القرن التاســـع عشـــر الميلادي وأوائل القرن العشرين ، في ظـــل ضعف شديد عانت منه الدولة العثمانيـــة . وقد أكد هذا الفكر على وحدة الوطـــن العربي الكبير فى مواجهة عملية التجزئة التي باشرها المستعمر على صعيد هذا الوطـــن ، فكانت قضية الوحدة واحدة من القضايـــا الحيوية التي شغلت الفكر القومي العـــربي . تماماً كما أكد على التحرير والاستقلال في مواجهة الاســـتعمار الأجنـــبي وشُـــغل بقضيتـــهما . وأكـــد علـــى الشـــورى والديمقراطية في مواجهة التفرد والاستبداد، وشُغل بقضيتهما . وأكد علـــى التقـــدم والارتقاء في مواجهة التخلـــف، وشُـــغل بقضيتهما . وأكد على الكفاية في الإنتـــاج والعدل الاجتماعي ، وشُغل بقضيتـــهما .

كما شغل أيضاً بقضية تَبوُّئ العرب مكانهم اللائق بهم بين الأمم في عالمنا .

تبنّى هذا الفكرَ القوميَّ العربيَّ تيارٌ قوميٌّ ظهر في أوساط أمتنا ، ركز فيما يخص الهوية والانتماء على دائرة الانتماء للوطن العربي ، وغلب هذا الانتماء للقطر أو الانتماء للدين أو الانتماء للحضارة أو الانتماء الأممي للعالم . وتميز هذا التيار القومي عن آخر إسلامي وثالث ماركسي ورابع قُطري ظهرت جميعها في الأمة .

في نطاق تفاعل هذا الفكر القومي العربي مع الواقع ، على مدى أكثر من قرن من الزمان ، هناك أحداث " فاصلة " حملت معها تحديات قوية له ، نشير من بينها إلى أحداث الاحتلال الأجنبي لأقطار عربية بدءًا من احتلال فرنسا للجزائر عام ١٨٣٠، إلى احتلال بريطانيا لجنوب اليمن فأطراف الجزيرة العربية منذ عام ١٨٣٩ ، إلى احتلال فرنسا لتونس عام ١٨٨١ ، فاحتلال بريطانيا لمصر عام ١٨٨٢ فالسودان عام ١٨٩٦ ، فاحتلال إيطاليا لليبيا عام ١٩١١ ، وفرنسا للمغرب عام ١٩١٢ ، وبريطانيا وفرنسا للمشرق العربي أواخر الحرب الأولي عام ١٩١٧ . كما نشير إلي حادث خلع السلطان عبد الحميد الثاني عام ١٩٠٩ ، وتولي الاتحاديين السلطة في الدولة العثمانية ، وإلى حادث القضاء على هذه الدولة في أعقاب مؤتمر فرساي عام ١٩١٩ ، وإقامة " الدولة القُطرية " على نمط الدولة الأوروبية الحديثة في عدد من الأقطار العربية في مطلع العشرينيات ، وإلغاء نظام الخلافة عام ١٩٢٤ . ونشير إلى أحداث ثورات التحرير ضد الاستعمار الأجنبي في مختلف أقطار الوطن العربي في فترة ما بين الحربين العالميتين ، وإلى حادث قيام جامعة الدول العربية عام ١٩٤٥ ، وتدفق موجة التحرير في الوطن العربى ، ونيل عدد من الأقطار العربية استقلالها بدءًا من عام ١٩٤٥ ، ونكبة فلسطين عام ١٩٤٨ ، وقيام ثورات عسكرية في عدد منها أهمها ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ في مصر ، وما تلا ذلك من أحداث جرت في الوطن العربي تحت مظلة القومية العربية . ونشير إلى حادث ما عرف بنكسة حزيران - يونيو ١٩٦٧ وما تلاه من أحداث منذ عام ١٩٧٠ على صعيد الصراع العربي - الصهيوني بخاصة . كما نشير أخيراً إلى حادث اجتياح العراق

الكويت عام ١٩٩٠ وحرب الخليج عام ١٩٩١ .

كان لتحديات هذه الأحداث للفكر القومي العربي أثرها فيه وفي تطوره ، وكانت له استجاباته لهذه التحديات . وما الحرص على الإشارة لأهم هذه الأحداث إلاّ لاستحضارها عند النظر في تطور الفكر القوميّ العربي من ذاكرتنا التاريخية ، إذ إن من الملفت غفلة البعض عن ذلك وهم يصدرون أحكاماً على فكرنا القومي العربي، مستندين إلى أقوال ووقائع يتعاملون معها معزولة عن بُعدي الزمان والمكان والسياق التاريخي .

في ضوء ما سبق ، يمكننا ، أن نلمسَ هذا الفكر القومي العربي في كتابات أعلام عرب من مفكري الأمة تتالت حلقات، سلسلتهم منذ ما اصطلح على تسميته، بنهضتها أو يقظتها ، وفي برامج تنظيمات وأحزاب عربية ، وفي دساتير بعض الدول العربية التي قامت ،كما نتلمسُه في ميثاق جامعة الدول العربية ومعاهداتها وأنظمة المنظمات المنبثقة عنها ومحاضر أعمالها . وإذا كانت كتابات المفكرين قد حظيت بالدراسة إلى حد ليس بالقليل ، فإن المجال لا يزال واسعاً أمام دراسات تستهدف تأريخ هذا الفكر القومي العربي ، وتنظر في أثره على أرض الواقع في إطار النظام العربي وعلى صعيد الأقطار العربية فرادى ومجتمعة.

ثانياً - تطور الفكر القومي العربي

النظر في تطور الفكر القومي العربي يدعونا بداية إلى استحضار العوامل التي تتفاعل في تكوين الفكر، وما دام الفكر هو إعمال الفكر إعمال النظر في شئ أو أمر ، فإن هذا الشئ أو هذا الأمر ، هو عامل أوليّ أساسي ، ولما كان هذا الواقع قابلاً للتغيير وعرضة للتطور ، فإن الفكر تبعاً لذلك يتطور ، وما دام هناك من يُعمل النظر في هذا الواقع ، فإن القائم بإعمال النظر هو عامل الآخر عامل أساسي،وهو يقوم بذلك على هدى أهداف يضعها نصب العين بلورتها أحلام الجماعة وإرادتها وعملها . وهذه الأهداف عامل ثالث أساسي . وهي وأصحابها قابلون للتطور من خلال تعاملهم مع الواقع القائم مما يجعل الفكر يتطور . وتمثل الظروف التي تكتنف الواقع والمناخ الذي يحيط به عاملاً رابعاً أساسياً في تكوين الفكر ، لأن القائم بإعمال النظر

يتأثر بها ، وهذه أيضا تتغير فيتطور الفكر تبعاً لذلك .

يمكننا في ضوء استجابة الفكر القومي العربي لتحديات الأحداث الفاصلة التي مرت بالوطن العربي على مدى أكثر من قرن ، أن نميز ، تسهيلا للبحث ، بين عدة مراحل عبرها هذا الفكر ، يفصل بينها حدث انتهاء الدولة العثمانية ، وحدث نكبة فلسطين ، وحدث نكسة ١٩٦٧ ، وحدث حرب الخليج . وهكذا تكون مرحلة البدايات من استقلال محمد علي بمصر عملياً أوائل القرن التاسع عشر الميلادي إلى انتهاء الدولة العثمانية عام ١٩٢٠ . ثم تأتي مرحلة ما بين الحربين العالميتين إلى حرب فلسطين علم ١٩٤٨ ، فمرحلة " المد القومي " إلى حرب حزيران/ يونيو ١٩٦٧ ووقوف حرب الاستتراف عام ١٩٧٠ ، فمرحلة ما بعد النكسة إلى حرب الخليج عام ١٩٩١ .

لقد بقيت القضايا التي برزت أمام الفكر القومي العربي، منذ بداياته ، مطروحة في المراحل التالية ، وإن اختلفت درجة الاهتمام بكل منها بين مرحلة وأخرى ، كما اختلف موقع كل قضية في ترتيب أولويات الانشغال بها . وهكذا رأينا قضية التحرير تبرز في مرحلة البديات ، وتلح بقوة في مرحلة ما بين الحربين العالميتين ، وتأخذ بعداً جديداً يشمل الدائرة الحضارية في آسيا وأفريقيا في مرحلة المد القومي ، وتتكثف الجهود للحفاظ عليها حية أمام محاولات استهدفت طيَّها في مرحلة ما بعد النكسة ، ورأينا قضية الوحدة تناقش في إطار الجامعة الإسلامية وفكرة اللامركزية في مرحلة البدايات ، وتطرح هدفاً محددا في مرحلة ما بين الحربين يرفع شعاره ، وتُبحث أساليب الوصول إليها عملياً في ضوء محاولات وحدوية جرت في مرحلة المد القومي، ويحتدم الحوار حولها في مواجهة محاولات إنكار لها وحكم قاطع باستحالة تحقيقها في مرحلة ما بعد النكسة، كما رأينا قضية الشورى والديموقراطية تبرز بقوة في مرحلة البدايات في مواجهة مختلف أشكال الاستبداد ، ويجري البحث في كيفية الممارسة في مرحلة ما بين الحربين في ضوء تطبيق نموذج غربي من قبل سلطات الاستعمار الغربي واعتماد التعددية ، ويدور الحوار في مرحلة المد القومي حول الديموقراطية

السياســية و الديموقراطيــة الاجتماعيــة والعلاقة بينهما فى ظل غلبة فكرة التنظيــم السياسى الواحد ، ثم تعود هذه القضيــة لتأخذ موقع الأولوية فى مرحلة مــا بعــد النكسة ، ويبرز فيها بقوة بُعــد حقــوق الإنسان وتغلب فكرة التعددية والمشاركة . والأمر نفسه يصدق على قضيتى الكفايــة والعدل ، وقد رأينا الفكر القومي العــربي يعنى بالقضية الأولى عناية خاصة بعــد أن نالت أقطار عربية استقلالها، ويتحــدث فى مرحلة تالية عن " التنمية " ، ويتحــدث فيما يخص القضية الأخرى عــن العدالــة الاجتماعية ثم عن الاشتراكية في مرحلــة تالية ثم عن العدل ، كمــا يصــدق الأمــر نفسه على قضية التجدد الحضارى الذي سُمى أيضاً نهضة وإصلاحاً وارتقاءً ثم تقدماً ورسالةً .

مجموعــة مشكلات اتصلت بهذه القضايا عني بها الفكر القومي فى جميع مراحله الــتى مرّ بها ، ومنها مشكلة التوفيق بين الانتمــاء القطري والانتمــاء القومــي والانتمــاء الحضاري، ومشكلة العلاقة بين الوطــن- الدولة والوطن الكبــير العــربي ودائــرة الحضارة الإسلامية ، ومشــكلة التقــدم وكيفية الوصول إليه، ومشكلة العلمانية فى مواجهة الدين ، ومشكلة العلاقــة بــين "الأنا" ممثلاً بالهوية العربية و"الآخــر " فى عالمنا وبخاصة " الغرب " .

عُنى الفكر القومي العربي أيضاً بمجموعــة موضوعات تتصل بهذه المشكلات ، عــالج بعضها الآخر على صعيد التطبيق العلمــي ، ومنها موضوعات الشعب والأمة والدولــة والجنسية والمواطنــة القطريــة والقوميــة والأقوام ضمن الأمة والصــراع العــربي - الصهيوني ومداخل الوحدة والعلاقة بــين الوحدة والتحرير والوحدات الإقليمية فيما سمــي " بالإقليميــة " ، والاستشــراف، ودراسة المستقبل.

تعددت المدارس فى هذا الفكر القومــي العربي وتطورت هي الأخرى بين مرحلــة وأخرى . ففي مرحلة البدايــات رأينــا مدرسة ظهرت فى بلاد الشــام ردّاً علــى التتريك ، وعلى الاستعمار الغربي . كمــا رأينا مدرسة قامت في مصر تأثرت بكــون مصر " خديوية " وولاية لها نــوع مــن الحكم اللامركزي فى ظل الدولة العثمانيــة وقعت فريسة الاحتــلال البــيريطانى ورأينا مدرسة فى المغرب الذي اســتهدفته

أطماع الاستعمار الفرنسي ، وأخرى فى الجزيرة العربية ، وثالثة فى السودان وشرق أفريقيا تأثرت بالظروف السائدة .

عبَّرت عن هذا الفكر القومي العربي كتابات كثيرة، حقق بعضها انتشاراً من خلال تعبيره عن اتجاهات رئيسية في المرحلة التي ظهرت فيها . ونشير على سبيل المثال إلى مؤلفات ساطع الحصري فى مرحلة ما بين الحربين التي تناولت الوطنية و القومية وأكدت على العروبة ، وبحثت في اللغة والأدب ، وإلى مؤلفاته بعد نكبة فلسطين التي تناولت القومية العربية في مرحلة المد القومي ، ووقفت أمام ظاهرة " الإقليمية " عند انفصال وحدة مصر وسورية عام ١٩٦١ . كما نشير إلى مجموعة الكتب التي صدرت في نطاق الاستجابة لتحدي النكبة ، ومنها "عبرة فلسطين"لموسى العلمي ، و" النكبة والبناء" لوليد قمحاري،و"معالم الحياة العربية الجديدة " لمنيف الرزاز ، ثم مجموعة الكتب التي حاولت منذ أواخر الخمسينيات تقديم نظرية عربية شاملة رداً على نظريات غربية شاملة من بينها الماركسية ، ومن هذه الكتب مؤلفات عبد الله الريماوي وعصمت سيف الدولة ، ثم مجموعة الكتب التي شغلت بالنظر في عصرنا ، ومنها مؤلفات جمال حمدان ، وبخاصة استراتيجية الاستعمار والتحرير ، ومؤلفات قسطنطين زريق وبخاصة في معركة الحضارة . وقد قدم لنا ميثاق جامعة الدول العربية ومعه المحاضر التي تضمنت المناقشات التي أوصلت إليه ، وثيقة هامة لكيفية تجسد هذا الفكر فى عمل عربى رسمى مشترك . وجاء كتاب " فلسفة الثورة " لجمال عبد الناصر فى الخمسينيات وثيقة مهمة أخرى لرؤية قيادة سياسية ترفع شعار عروبة مصر والقومية العربية . ثم جاء كتاب " الميثاق الوطنى " للجمهورية العربية المتحدة معبراً عن تيار فكرى قوى تبنته دولة قوية فى الستينات . ونلاحظ فى مرحلة ما بعد النكسة ظهور الكتابات التى تتناول مختلف جوانب الحياة العربية بالدراسة الشاملة والمتعمقة . وقد قام مركز دراسات الوحدة العربية الذى تأسس فى منتصف السبعينيات بدور خاص فيها . كما نلاحظ بداية العناية باستشراف المستقبل ودراسته، وظهور أعمال رائدة وكتابات لافتة شارك فيها زكى نجيب محمود ،وقسطنطين زريق،

وكاتب هذه السطور وآخرون ، وتوجت بالمشروع الاستشراقي للمستقبل العربي الذى أنجزه مركز دراسات الوحدة العربية. ونلاحظ أيضاً قيام عدد من المراكز والمعاهد والمنظمات العربية المتخصصة التى أسهمت فى الفكر القومى العربى كل فى مجالها ، ومن أشهرها معهد البحوث والدراسات العربية ، وكذلك صدور عدد من المجلات والدوريات المعنية بقضايا الأمة العربية ، ومنها مجلة " شؤون عربية " .

هذا قليل من كثير نورده على سبيل المثال، لنؤكد على ضرورة كتابة تاريخ الفكر القومى العربي الحديث ، ولندعو من أصدر أحكاماً على هذا الفكر بدون الإحاطة به إلى مراجعة يعيد فيها النظر .

من الأمور التى تستحق أن يلتفت إليها تفاعل الفكر القومى مع التيارات الفكرية الأخرى التى ظهرت فى أوساط أمتنا العربية خلال القرن الأخير ، وما نجم عن هذا التفاعل من تأثير متبادل . وقد رأينا من أمثلة ذلك بروز بعد عربى فى الفكر الإسلامى الحديث فى مرحلة ما بعد الحربين ، وكذلك بروز بعد دينى فى الفكر القومى العربى ، أشارا إلى كون التيارين قد نبعا من تيار واحد كان يقرن بينهما قبل الغزو الاستعمارى الأوربى . كما رأينا حدوث تناقض مصطنع فى تلك المرحلة بين التيارين بفعل اتجاه علمانى برز فى أوساط الفكر القومي العربى ولّد ردّ فعل فى أوساط الفكر الإسلامى تمثل فى إنكار البعد القومى . ورأينا اتجاهاً آخر برز فى أوساط الفكر القومي العربي تبادل التأثير مع التيار الماركسي في مرحلة المد القومي . ثم رأينا اتجاهاً آخر برز فى مرحلة ما بعد النكسة عاد إلى التأثر بالأفكار " الليبرالية " للغرب الرأسمالى . ولعل أهم ما أثمره هذا التفاعل الذى تحقق على الصعيدين الداخلي والخارجي هو تقارب التيارين القومي العربي والإسلامي من خلال إدراك العلاقة بين العروبة والإسلام :الركنين الأساسيين فى هوية الأمة .

إن لنا بعد هذه النظرة العامة على تطور الفكر العربي خلال قرن ، أن نقف وقفة نتأمل فيها تأثير كل عامل من العوامل الثلاثة التي تفاعلت فى تكوينه .

لقد كان عامل " الواقع القائم " فى مرحلة البدايات محكوماً بحقيقة كون الوطن العربي جزءاً من أراضي الدولة العثمانية التى

جاءت امتداداً للدول المتتاليـــــة فى ديـــار الإسلام فى ظل نظام الخلافة . كما كـــان محكوماً بحقيقة تعرض هذا الوطـــن لغـــزو استعماري أوروبي . وهكذا رأينا الحقيقــة الثانية تتجه بمفكري النهضة إلى الدعــــوة للجامعة الإسلامية لمواجهة هذا الغـــزو ، ورأينا الحقيقة الأولى تحفزهم على مقاومــة الاستبداد الذى وقـــع فى أســـره الرجـــل المريض والعمل على شفائه ، ورأينا تفـاعل الحقيقتين يدعو هؤلاء المفكرين إلى النظــر فى اللامركزية . ولم يلبث أن حدث تغيـير فى ذلك الواقع على أرض الواقـــع فـــرض نفسه حين احتلت بريطانيا وفرنسا المشرق العربي ، وأعلنت الأولى فرض حمايتها على مصر التى احتلتها قبل ذلـــك ، ورسمـــت الدولتان حدوداً سياسية تفصل بين أقطـــار عربية شاركت إيطاليا التى احتلت ليبيـــا والصومال فى رسم بعضها . وهكذا أصبح على الفكر القومي العربي فى مرحلة ما بـين الحربين أن يتناول قضية الاستقلال والتحرر من الاستعمار ، وأن يرفع شعار الوحـــدة العربية فى مواجهة التجزئة المفروضة ليكون هدفاً يناضل من أجله يعود بـــالأمور إلى طبيعتها بعد التحرير . ويتداعى إلى الخـاطر

مثل على تأثير هذا العامل هو انعقاد المؤتمر السوري الفلسطيني قبيل اتفاقات فرســاي لبحث مشترك فى أوضاع مواجهة الواقـــع الجديد ، وتعذر انعقاده مرة أخرى بعـــد الفصل بين القطرين ووقوعـــهما تحـت التسلط الاســـتعماري لدولـــتي فرنســا وبريطانيا ، فكان أن تتالى انعقاد مؤتمـرات فلسطينية ، وأخرى سورية . وحدث تغيير آخر في ذلك الواقع فى أعقـــاب الحـــرب العالمية الثانية تمثل فى نيل بعض الأقطـــار العربية اســـتقلالها ، وفى وقـــوع نكبـة فلسطين ، ثم فى تدفق حركـــة التحـــرر العربي، فكان أن عني الفكر القومي العـربي بقضية الوحدة العربية وأعطاها أولويـــة ، وارتفع شعار الوحـــدة طريقـــاً لتحريـــر فلسطين . ثم لم يلبث أمام حدوث تغيرات أخرى دولية ، وإقليمية أن شغل هذا الفكر بالنظر فى العوائق فى ضوء ما بدا من وقائع عند القيام بخطوات وحدويـــة ، ورفـــع البعض شعار الوحدة المدروسة . وكـــان على هذا الفكر أن يُطوِّر نفسه فى مرحلـة ما بعد النكسة أمام تغييرات جذرية حدثت فى الواقع القائم تناولت موضوع الصـــراع العربي - الصهيوني وموضوعات داخليـــة

وخارجية . يمكننا أن نتتبع تأثير تغير الواقع على تطور الفكر العربي من خلال أهـداف الأمة وقضاياها و الموضوعات المتصلة بهذه القضايا .

يمكننا أن نلاحظ علـى صعيـد عـامل "جماعات الفكر " التي تقوم بإعمال النظـر في أن بعض المفكرين استجابوا لدواعـي تطوير الفكر القومي العربي وأسهموا فيه ، وأنهم أيضاً تأثروا بالظروف المحيطة بهم فبدا على ما كتبوه أثر شخصياتهم . ويمكن أن نتتبع هذه الاستجابة لدواعـي التطويـر والإسهام فيه عند عدد منهم شهدوا عـدة مراحل . فهذا أبو خلدون ساطع الحصري الذى تميز بين فترتين فى حياته ، كـان فى إحداهما عربيًّا مواطنًا عثمانيًّا وصـل إلى أن يعمل قائم مقام فى مقدونيا ثلاث سـنوات (١٩٠٦ , ١٩٠٩) ، وكان فى الأخرى عربيًّا تنقل بين عدة أقطار عربية ، يخلـف لنا تراثاً فكريًّا يقدم لنا مثلاً جليًّـا علـى ذلك. وقد كشفت الندوة الـتى أقامتـها مؤسسة شومان فى عمان آخر عام ١٩٩٣ -بمناسبة مرور ربع قرن على رحيله- عـن هذا التطور وهذا الإسهام فى الفـترتين وفى عدة مراحل ضمن الفترة الثانية . وهـذا عصمت سيف الدولة الـذى نشـط فى التنظير على صعيد الفكر القومي العـربي فى مرحلة المد القومي يتابع جهوده فى مرحلـة ما بعد النكسـة، ويكتـب فى العروبـة والإسلام وعن الديموقراطية ، وأمثلة أخرى كثيرة . ويبدو من خلال التأمل فى هـذا العامل ما يفسر لماذا لم يُعنَ ساطع الحصري بالبعد الروحي فى كتاباته وتجنب الحديـث عن الدين ، ولماذا أغفل النظر فى أوضـاع الدائرة الحضارية العربية الإسـلامية الـتى تشمل دول الجوار ، ولماذا اهتم عدد مـن المفكرين القوميين العرب بموضوع العروبـة والإسلام فى مرحلة ما بعد النكسة اهتماماً خاصا . ومن الملفت على صعيـد هـذا العامل بروز ظاهرة عمل الفريق فيه بـدءاً من المد القومي وتنامي هذه الظـاهرة فى مرحلة ما بعد النكسة ، إلى جانب استمرار ظاهرة المفكر الفرد . وقد نجح عمل الفريق فى إنجاز عدد من المشروعات البحثية .

بـدأ أثر عامل الأهداف واضحاً فى تطوير الفكر القومي العربي ، فى ضوء مـا طـرأ على ترتيبها فى قائمة الأولويات بحكم تغير الواقع القائم بين مرحلة وأخرى . وقـد رأينا كيف أن هدف الوحدة فى مرحلة المد

القومي تقـــدم علـــى هـــدفي التحريـــر والديموقراطية . كما بدا أثر عامل المنـــاخ المحيط واضحاً أيضاً ، وشتان بـــين روح العزيمة التي غلبت على هذا الفكـــر إبـــان تدفق حركة التحرير فى الخمسينيات وبـين روح الإحباط التى سيطرت على بعـــض المفكرين فى مرحلة مـــا بعـــد النكســة ووصلت بهم إلى البحـــث عـــن أسـباب النكسة فيما اصطلحـــوا علـــى تسـميته "بالعقل العربي"،فعمدوا إلى تحليله وتشريحه وخرجوا بنتائج وأحكـــام علـــى مســار حضارتنا عبر العصور بحاجة إلى اعادة نظر وتمحيص .ولم يلتفت هؤلاء إلى سنن نشوء الحضارات وازدهارها وانحطاطها وأفولها، وفاقم " أن العقل هو العقل حيثما كـان " كما نبّه حافظ الجمالي فى مقـــاله المتمـيز فى شـــؤون عربيـــة (مـــارس / آذار ١٩٩٤)، " وأن وظيفته دوماً هى تفسـير ما يجري حوله معنويًـــا أو ماديًـــا ، أمـــا الظروف فإنها هى التي تتحكمْ فى اتجاهـــه إلى أمر آخر "، وأوصلت روح الإحبـــاط بعض هؤلاء إلى دمـــغ اللســـان العـــربي بالقصور عن البيان وعجزه عن اسـتيعاب العلوم ، وإلى تفسير ظواهر فى تاريخنا مثـل ظاهرة الصوفية مثلاً تفسيراً لم يتعمق فـهم ما كانت تؤديه من وظائف اجتماعيـــة . وهكذا تكرر مع اللسان العربي ما حـــدث فى عهد شاعر النيل حافظ إبراهيم أول هذا القرن حين قال قصيدته الشـــهيرة الـتى تتضمن شكوى هذا اللسان وبيانه . وقـد رأينا كيف فعلت روح الانتفاض فعلـها فى الفكر القومي العربي فى الثمانينيـــات بمـا أشاعته من عزم من خلال ظاهرة الانتفاضة والمقاومة ، فعُني هذا الفكر بدراسة ظـاهرة الصحوة وعواملها .

مجمل القول أن الفكر القومي العربي مـــرّ بعدة مراحل ، وتطور خلالها بفعل عوامـل محددة . وقد كان له تأثيره علـــى مجـرى الأحداث فى منطقتنا ، واختلف درجة هذا التأثير بين مرحلة وأخرى . وتتبـــاين الآراء حول مقدار هذه الدرجة ، ولكنها تكـــاد تجمع على وجود أزمة فى العلاقة بين إدارة السياسة فى وطننا العربي وهذا الفكر.

ثالثاً - تطوير الفكر القومي العربي

نصل إلى النظر فى تطوير الفكر القومـــي العربي . وهذا النظر كما سبق أن قلنا وثيق الصلة بعلم دراسة المستقبل . وهذا العلم له منهجه الذى يدرس الواقع، ويســـتحضر

سنن حركة التاريخ، ويستشرف المستقبل مدخلاً عنصري الحلم وإرادة الفعل .

نلاحظ بداية أن " التطوير " يتضمن فى طياته وجود عنصر إرادي فاعل يقوم به . وهذا ما يميزه عن " التطور " الذى يتحقق تلقائيًا بفعل عوامل محددة . كما نلاحظ أن النظر فى هذا التطوير يأتي ليلبي متطلبات مرحلة جديدة تعيشها أمتنا والعالم من حولها بعد انتهاء الحرب الباردة على الصعيد الدولي وحرب الخليج التى جرت على أرض وطننا عام ١٩٩١ . وقد عني الفكر القومي العربي بالنظر فى هذه المرحلة مُدلياً بدلوه فى تحليلها ،فصدرت كتابات جادة تناولت هذا الموضوع . ونلاحظ أيضاً أن الحديث عن التطوير يعبر عن استشعار الحاجة إلى ما ينبغى تطويره . والحق أن الشعور بهذه الحاجة قوي فى الأوساط الفكرية العربية ، وهو وثيق الصلة بحديث عن أزمة يعانيها الفكر القومي العربي يتردد بين حين وآخر. هكذا تبرز أمامنا مجموعة أسئلة :

أين تكمن الأزمة؟ ومن المؤهل للقيام بتطوير هذا الفكر ؟ وفى أى اتجاه يكون التطوير؟

الواقع القائم فى وطننا العربى يشير إلى وجود أزمة على صعيد الفكر . هذا أمر لا شك فيه ، والأسئلة كثيرة فى حياتنا العربية اليومية على ذلك ، بدءاً من السياسات التى تحكم العلاقات بين الدول العربية وصولاً إلى الإجراءات التى تواجه الإنسان العربي فى تنقله بين أقطار وطنه الكبير أو فى معاملاته اليومية .ويمكننا أن نبحث عن مكمن هذه الأزمة على أكثر من صعيد . فعلى صعيد الفكر نفسه هناك أزمة بين أوساط اتجاه انغماسي فيه معلق النظر بإنجازات الحضارة الحديثة السائدة فى الغرب ، وجوهر هذه الأزمة التمييز بين الحضارة ونقلها . تماماً كما أن هناك أزمة بين أوساط اتجاه انكماشي فيه محكوم بعقدة تجاه الحضارة الحديثة تجعله يتخذ موقف انكماش كرد فعل . وعلاج الأزمة على هذا الصعيد هو بمتابعة الحوار بفكر متفتح وصبر ، والمؤهل للقيام به هو تيار الاستجابة الفاعل فى الفكر القومي العربي ، وهو تيار غالب . والأزمة أكثر ما تكون وضوحاً على صعيد علاقة الحكم بالفكر . وسببها الرئيسي انفصال قائم بين أهل الفكر وأهل الحكم – القلم والسيف – فى

أكثر مجتمعاتنا العربية . وهذا الانفصال ناجم عن نقص حاد في الديموقراطية والشورى ، وعدم إحكام آلية منتظمة فى صنع القرار بحثاً ومناقشة وبلورة . وعلاج الأزمة على هذا الصعيد هو بسيادة الشورى والديموقراطية واستكمال مؤسستهما وإحكام آلية العمل فيها وكفالة حرية التعبير للقضاء على مرض الحرمان الذى يصيب الجماعة فى غياب هذه الحرية. والأزمة واضحة أيضاً على صعيد علاقة الإعلام الرسمي بهذا الفكر . وسببها الرئيسي محاولة فرض الرؤية الرسمية فى غياب حرية التعبير . وعلاجها وثيق الصلة بعلاج سابقتها بسيادة الديموقراطية والشوري . ونستطيع أن نرى هذه الأزمة متجسدة على الصعيدينْ الثاني والثالث فى التعامل مع موضوع " العمل العربي المشترك والمصالحة العربية " فى أعقاب حرب الخليج الثانية .

المؤهل للقيام بتطوير هذا الفكر ، هم الذين يعلمون ، من القادة السياسيين المستنيرين ومن المفكرين الفاعلين . ولا غنى أن يكون عمل هؤلاء مؤطراً فى مؤسسات على الصعيدين القومي والقطري ، وعلى المستويين الرسمي والأهلي .

هذا التطوير لا يبدأ من فراغ ، ولا بد أن يستحضر تاريخ الفكر القومي العربي ، ليتابع جهوداً سابقة .واتجاهه هو إلى مزيد من تعمق فهم العالم المحيط بنا ، ومزيد من الإحاطة بواقعنا ورسم أطلس خرائط مجتمعنا العربي الخاصة بالأقوام والملل والشرائح الاجتماعية وأنماط الحياة ، ومزيد من استيعاب تراثنا وإدراك حقائق تاريخنا ، واعتماد النظرة النقدية فى القيام بذلك .

لابد أن تضع عملية تطوير الفكر القومي العربي فى اعتبارها محاولة قوى الهيمنة الدولية فرض نظام إقليمي جديد على منطقتنا ، وما يقترن بهذه المحاولة من تعميم فكرة تزعم انتهاء القومية العربية كان برنارد لويس من أوائل من طرحوها ، ومن تسوية للصراع العربي - الصهيوني تتبنى حلاً عنصريا صهيونيًّا وتسند دوراً خاصًّا للكيان الصهيوني فى المنطقة . كما لابد أن تضع عملية التطوير هذه فى اعتبارها ما يواجه العمران الحضاري فى عالمنا من أخطار بفعل الطغيان على المحيط الحيوي وعلى مجتمعات إنسانية .

تتحدد فى ضوء ا سبق الموضوعات الـتى يتناولها الفكر القومي العربي فى هذه المرحلة، وترتيب كل موضوع فى سلم الأولويات . وواضح أن موضوع حقوق الإنسان وسيادة القانون من أكثر الموضوعات إلحاحًا . وكذلك موضوع "المواطنة العربية " وما يتصل بها حقوق الإقامة والعمل والتنقل فى الوطن العربي الكبير . وهناك أيضاً موضوع التعددية السياسية والممارسة الديموقراطية ، شأن بقية الموضوعات المتعلقة بأهداف الأمة هدفاً هدفاً من تحرير وكفاية وعدل وتجدد حضاري .

إن من أهم ما يساعد على إنجاح عملية التطوير هذه ، توعية أبناء الأمة العربية بها. وهنا يبرز دور " إعلام الكلمة الطيبة " . وضروري أن تتضمن هذه التوعية رصداً لحال الأمة من منظور قومي للدائرة على هذا الصعيد ، ومنها تقرير حال الأمة الذى يناقشه المؤتمر القومي العربي فى اجتماعه السنوي ، وتقرير المنظمة العربية لحقوق الإنسان . وتبدو الحاجة ماسة إلى قيام مؤسسة عربية بحصر التقارير السنوية الصادرة عن مراكز معتمدة فى مختلف مجالات الحياة العربية واستخلاص عصارتها وطرحها على أبناء الأمة والقيادات السياسية على السواء . وتتداعى إلى الخاطر الأمانة العامة لجامعة الدول العربية التى يقع على عاتقها واجب خاص فى هذا التطوير، يقتضي فيما يقتضي تطويرها هى .

خاتمة :

وبعد ،

فإن الفكر القومي العربي بالمفهوم الـذى طرحناه حقيقة تفعل فعلها في حياتنا . وهو يتصف بحيوية مكانته من التطور . وإمكانية تطويره قائمة . وواضح أنه يواجه فى هذه المرحلة تحديات شديدة جعلت البعض يرى أنه " يعيش أزمة حادة ربما طالت وجوده بأكمله " - كما عبرت صحيفة عربية تصدر فى الخارج فى استفتاء نظمته صيف عام ١٩٩٢ .

وقد أوجزت رؤيتي لحاله ومستقبله : " بأن الفكر القومي العربي اليوم يشهد تعاظم مدرسة العمران الحضاري العربي الإسلامي فيه ، واشتداد ضعف مدرسة التغريب الانغماسي فيه . وإذا كانت هذه المدرسة الثانية تعيش بحق أزمة حادة ، فإن المدرسة الأولى تتصف اليوم بالحيوية، وتنهض

بمسؤولياتها فى النظــــر الفكــــري للواقــــع والاستجابة لتحياته ومعالجة مشـــــكلاته . وتيارها هو التيار المؤهل للاتساع والتعاظم فى وطننا العربي إبان هذه المرحلـــــة مـــن تاريخنا ، لأنه يجسد الهوية العربية بعناصرها الثلاثة: اللسان، والعقيدة، والتاريخ ، ويلبي متطلبات مختلف دوائر الانتماء فيها ، ويعبر عن الاستجابة الحضارية الفاعلة، ويتفـــاعل مع الحضارات الأخرى الإنسانية فى عالمنا .- وهذا هو شأن التيارات المماثلة له فى آســـيا وأفريقيا وأمريكــــا الجنوبيـــة وفى دائــــرة العالم الإسلامي بخاصة " .

أحمد صدقى الدجانى

عضو المجمع المراسل من فلسطين

إشكالية تعريب التعليم العالي

للأستاذ الدكتور محمود أحمد السيد

نحاول فى هذا البحث أن نتعرَف مَسْألة تعريب التعليم العالي في الوطن العربى ، وأن نتبين التعريب مفهومًا وأهدافًا وأشكالاً ، موضحين حجج المؤيدين له والمعارضين والمتريثين ، ومشيرين إلى مستلزمات التعريب حتى يحقق الأهداف المرسومة له .

أولا : التعريب مفهومًا وأهدافًا :

التعريب لغة مصدر للفعل عرَّب ، وعرَّب بمعنى أبان وأفصح ، وعرَّب عن الرجل إذا تكلّم بحجته ، وعرَّب منطقة إذا هذّبه من اللحن ، ويقال : عرّبت له الكلام تعريبا إذا بينته له ، وعرَّبه : أي علّمه العربية ، وتعريب الاسم الأعجمي أن تتفوه به العرب على منهاجها (١) .

ولقد تدرّج لفظ " عرَّب " بهذه المعاني المتقاربة بعض الشيء منذ القديم إلى معنى ترجمة النصوص الأجنبية ونقلها إلى العربية، وتعليم العلوم الأجنبية بالعربية .

والتعريب اصطلاحا إيجاد مقابلات عربية للألفاظ الأجنبية لتعليم اللغة العربية واستخدامها فى ميادين المعرفة البشرية كافة.

ويقصد بالتعريب حاليا استعمال اللغة العربية لغة قومية فى الوطن العربى للتعبير عن المفاهيم ، واستخدامها فى التعليم بجميع مراحله، والبحث العلمى بمختلف فروعه وتخصصاته، واستخدامها لغة عمل فى مؤسسات المجتمع العربى ومرافقه كافة(٢).

ومنهم من يوسّع دائرة التعريب ليرى أن للتعريب مفهومًا جوانبَ فنية وقومية واجتماعية وسياسية وحضارية ، وقد يتداخل مفهوم التعريب مع مفهوم الترجمة فتعرض قضايا فنية حول طبيعة اللغة وطاقاتها الدلالية والاستيعابية وآلياتها الذاتية وحول إعداد المترجمين وتدريبهم ... إلخ ، وفى هذا الإطار تكونُ قضيةُ التعريب قضيةُ علاقات فكرية وثقافية مع اللغات الأخرى أي قضية عربية أجنبية .

وقد يعنى التعريبُ دعمَ الوجود العربى والوحدة العربية بمعنى شمولية استعمال اللغة

العربية فى الوطن العربى نفسه على المستوى الجغرافي والقطاعي لقطاع التعليم والبحوث والإدارة وتوحيد المصطلح العربى .

وقد يعنى التعريبُ تعريبَ لغة الإدارة الرسمية بما فى ذلك أنواع النشاط المالي والتجاري والاقتصادي ، وقد يعني تعريبَ لغة التعليم والمجتمع معًا فى بعض الأقطار العربية التى كانت رازحة تحت الاحتلال الأجنبى واستقلت حديثا .

والتعريبُ من جهة أخرى قد يعنى كل ما يستوعبه المجتمع العربى ويحتويه فى نسخ حياته،مما يتلقاه بأي صورة من صور التلقي الفكري والمادي والاجتماعي من أهداف وقيم ووسائل ، والانطلاق منه كواقع جديد للتفاعل الجدلي إنتاجًا وعلاقات ، أخذًا وعطاء ، تأثيرًا وتأثرا ، من رؤية متكاملة للحياة وقدرة ذاتية على ممارستها.

والتعريبُ فى المستوى المباشر يعنى سيادةَ اللغة العربية على ساحة الوطن العربى بما يوحد المشاعر العربية ، ويجمعها حول تاريخها وواقعها ومصيرها، مما يجعله عاملا جوهريا في الخروج من دائرة التخلف السياسي المتمثل فى التجزئة إلى حرية الوحدة العربية فى الصورة التى توصل دور الأمّة العربية التاريخي والمصيري .

والتعريب فى معناه الأكثر شمولا يعطي للوحدة العربية مضمونها الحضاري المعاصر ويعينها على كسر طوق التخلف والتحرر من أنواع التبعات الاقتصادية والتقانية "التكنولوجية " والثقافية (٣) .

ومن هنا يكون للتعريب هدفان :

أولهما :

خلق شخصية إبداعية عربية تمتلك القدرة الذاتية على إنتاج العلم وصناعة التقانة " التكنولوجيا " ، وهذه القدرة ليس مناطها المعرفة العلمية وحدها ، ولكن المناخ العلمي الذي يستدعي عددا من الظروف المواتية لتملك القدرة الذاتية ، وهي ظروف متعددة الجوانب ، منها ما هو سياسي ، ومنها ما هو تشريعي ، وما هو تنظيمي ، وما هو اجتماعي ، وما هو مالي ، وما هو في الأساس علمي .

وثانيهما :

هو القدرة على المشاركة والتفاعل من منطلق متميز ذلك أنه يمكن للأمّة العربية أن تسهم فى الحضارة العالمية المعاصرة متجاوزة عقبات التخلف بضمّ قدراتها البشرية والعلمية والمادية واستنبات علمها

عربيا ، وتوحيد استراتيجياتها تنمويا، وأن تضع تقانة " تكنولوجيا " عربية ، والسبيل إلى ذلك هو الإنسان الذى يتلقى علوم العصر بلغته ، يتعلم ويعلّم ويبحث بها ، حتى يكون ذلك إغناء للثقافة العربية بين المتخصصين والمتعلمين وجماهير الشعب، بما يوسع من قاعدة المشاركة وصنع الوعي بالتقدم ودعم الشعور بالحاجة إليه والإسهام فى تطويره (٤) .

ثانيا : أين تقع الإشكالية ؟

غنيٌّ عن البيان أن لكل أمة لغة تعبر عن هويتها القومية وشخصيتها الحضارية ، وأن لغتنا العربية رمز لكياننا القومي وعنوان لشخصيتنا العربية ، وهى لغة قرآننا الكريم وحضارتنا العريقة الضاربة الجذور فى الأعماق ، وهى مستودع تراثنا الفكرى وموحدة المنهجية الفكرية بين أبناء الأمّة ماضيا وحاضرًا وتوجهًا نحو المستقبل ، بها نتفاهم ، ونعبر عن حاجاتنا وتطلعاتنا ، وبها نفكر ، وقد وحدت بين العرب فى مواضي الحقب بوساطة القرآن الكريم ، إذ لولا ذلك الكتاب العربي المبين الذي نزل به الروح الأمين على قلب الرسول العربي الكريم آيةً لنبوته، وتأييدًا لدعوته ودستوراً لأمته لكان العرب بدواً .

وما دامت اللغة العربية هويةَ المجتمع العربي رافقته منذ طفولته، وعبّرت عن مسيرته فى قوته وضعفه ، فى توثبه وانحساره ، فى حضارته وتخلفه كان الحفاظ على هذه الهوية واجبًا مقدّسا ، وكان الحرص على تبنيهًا والاعتزاز بها أمرًا لازبًا بكل المعايير والمقاييس دينية كانت أو قومية أو وطنية ، وان الإشكالية تقع فى إهمال هذه اللغة واعتماد لغة أخرى مكانها فى التدريس الجامعي ، ولا تتجلى الإشكالية فى التعريب لأنه الطريق الطبيعي والأمر البديهي، وإنما فى عدم استخدام العربية أداة للتواصل بين أبناء الأمّة فى معاهدهم وجامعاهم ، فقد " ابتُلينا - كما يقول يوسف الحاج فى كتابة فى " فلسفة اللغة " - بإهمالنا للعربية ، بغرورنا أن سواها أعمق وأبهى وأفتى وأقرب إلى مقومات الحضارة الحديثة ، أسمعنا هذه المعزوفات فابتلينا بعقدة التكابر حيال لساننا ،وبعقدة التصاغر حيال لسانهم ، والنتيجة صغرنا فى أنفسنا دون أن نكبر فى أنفس الحاكمين

حتى صرنا لا ننتمي لبيان عربي ولا لبلاغة عربية" (٥) .

ويتابع قائلا :" لا أبالغ إذا قلت إن معظم مشكلاتنا الاجتماعية سببه التنازل عن واحدنا الأحد ، عن تاريخنا الواحد ، عن لساننا الواحد ، عن أرضنا الواحدة ، عن تراثنا الواحد ، عن إرادتنا الواحدة . وإن كل أمّة عزيزةَ الجانب ، أبية الخلق ، ثابتة الإرادة ، تقدّم لغتها على لغة سواها ، ولا تتناول أشياء الأخرى إلا من بعد أشيائها القومية،أى من وراء حدودها الوطنية"(٦).

فاللغة رمز للكيان القومي وأمارة على شخصية الأمّة وذاتيتها الثقافية ، و " على التعليم العالي أن يقوم على أنه محور أساسي لرسالته ، على عملية تنمية الذاتية الثقافية التى تمثل الخصوصية الحضارية للمجتمع والتى هى مناط سائر أنواع التنميات الأخرى ، والتى هى بصفة خاصة سبيل الأمّة فى العطاء الحضاري للمجتمعات الأخرى وأسلوب التبادل الخلاق مع الآخرين ، ويتمثل ذلك فى الذاتية الثقافية ، فى خصائص المجتمع الأساسية، وفى تراثها الحضارى وفى مقدّمتها اللغة القومية التى ليست شكلا ولا رمزا ، ولكنها مضمون وطريقة تفكير ومستودع حضارة " (٧) .

وثمة من يرى أن لمشكل التعريب وجهين أولهما: كون لسان أجنبي يحلّ محلّ اللسان الأصلي ، وثانيهما: كون هذا اللسان الأصلي منقطعا عن اللغات بسبب جمود المجتمع (٨) .

إنهما وجهان لعملة واحدة ، ويبدو من السهولة أن يخفي الأول الثاني ، ولكن لا يمكن سبر عمق مشكلة التعريب إذا لم نميّز بينهما نظريا على الأقلّ ، فالوجه الأوّل ظاهرة اجتماعية تنشأ عن القهر والاحتلال الأجنبي بحيث يصبح اللسانُ الدخيلُ عنوانَ التقدّم والعلم والأناقة ، ويصبح اللسانُ الأصلي سمة كل ما هو بلدي متخلف ، فنرى الموظف يخاطب الزبون بلسان أجنبي ليظهر نفوذه ، والأمّ تخاطب ابنها باللسان نفسه للإعلان عن انتمائها إلى طبقة راقية ، والطالب يقحم الكلمات الأجنبية ليثبت ثقافته العصرية إلى آخر ما هنالك من المظاهر المؤسفة المضحكة التى نلاحظها اليوم فى المغرب العربي وفى بعض الأوساط المشرقية على حدّ تعبير الباحث المغربي عبد الله العروي .

ومن هنا كان للدعوة إلى التعريب فى هذا المجال مغزى سياسي واضح ، إنها دعوة إلى الوحدة الوطنية، ومحاولة لإيقاف تيار خطر يقسم المجتمع إلى تقسيم لغوي وثقافي ناقض الذى كان موجودًا أيام الاستعمار بين الجالية الأجنبية والشعب المستعمر يتحوّل إلى تناقض بين النخبة الحاكمة ذات النفوذ الاقتصادي وباقي الطبقات المحرومة، وفى هذا الوضع ما فيه من تبعية اقتصادية وسياسية للمجتمعات المتقدّمة .

والوجه الثاني للمشكلة يربطه بالمستوى الحضاري ، إذا أن اللسان القومي يزدهر أو يضمحل بحسب تجدد اللغات الاصطلاحية وتعدد الرموز العلمية .ويشخص العروي مشكلة التعريب حاليا فى الوطن العربي من خلال ردّه على التساؤل : ولماذا لا نرضى بما يؤول إليه التطوّر تلقائيا أى الازدواجية اللغوية ؟ لماذا لا نرحب بحالة مثل حالة الهند التى أحرزت درجة لا بأس بها من العلم والتقانة " التكنولوجيا " ؟ هل هناك مصلحة حقيقية فى طرح قضية التعريب سوى تعلق عاطفي بالتراث، وسوى مصلحة فئة قليلة من الفقهاء والأدباء والنحاة الذين لا يتقنون شيئًا غير اللسان القديم ؟

فيقول : " إن الاعتراض يبدو وجيها ، ويدفع المرء إلى كثير من التساؤل ، لكن لدى الفحص يتبين أنه مبني على مغالطة ، على افتراض شيء لا وجود له فى الواقع ، يكون الاعتراض مقبولا لو كان يتنافس بالفعل مشروع التعريب فى الوطن العربي ومشروع مضاد يستهدف تطوّرًا ثقافيًا بلسان متطّور غير عربي . فى الهند منذ ثلاثين سنة توجد سياسة تثقيفية مبينة على استيعاب اللسان الإنجليزي ونشره ، والكلام عن إحياء اللسان الهندوساتاني يعدّ من قبيل الدعاية السياسية . أما فى الوطن العربي فإننا لا نجد سوى الإهمال ، وترك الأمور تتطوّر كما كتب لها . ليس هناك قرار تعريب جدي ولا قرار مضاد . ولما كان إهمال الأمور يعني فى الحقيقة استمرار التخلف والتبعية والأمية ، فكل قرار يستهدف التقدم والتطوّر يتساوى منطقيًا مع قرار التعريب ، فمضمون القرارين واحد هو سياسة قومية تخطط لمستقبل عربي . ولما كان مشكل التعريب قائمًا حتى الآن فهذا دليل على أن القرار الوحدوي لم يتخذ فعلا فى الكيان العربي.

ويكتسي الأمر صفة مشكلة حادة عندما تحدث ظروف تمنع من اتخاذ القرارات لتحقيق الإصلاحات اللازمة ومنها انعدام الحكم القومي ، ولن يتمّ أي إصلاح في حال غياب سلطة لها نفوذ على المجموعة القومية. أما السلطات الخاضعة لمنطق الإقليمية فإنها لن تجرؤ على تبني الإصلاح، لأنها تعتمد الازدواجية سياسة ، تحافظ على اللسان القديم لتكسب قدراً من الشرعية ، وتفتح المجال لنشر لسان أجنبي لتحقق قدراً من التحديث ، وتترك الحرية للهجات لتضمن قدراً ممن الاستقلال الداخلي .

ومن هنا لابد للعرب من أن يفكروا بكيفية حديثة مع أنفسهم وبلسانهم لا مع غيرهم فقط وبلسان الغير (٩) .

تلك هي مشكلة التعريب في التعليم العالي في الوطن العربي : عدم اتخاذ القرار الحاسم لاعتماد العربية وتبنيها في التدريس الجامعي، وبقاء الأمور معلقة واستمرار التخلف والتبعية ، والأمية وعدم استنبات العلم عربيا ، وتسيب لغوي قومي وشعور بالتصاغر والتكابر ، التصاغر تجاه الثقافة الأجنبية ، والتكابر تجاه الثقافة القومية وتراثها الحضاري .

ثالثا : التعريب بين التأييد والمعارضة والتريث :

أ ـ المؤيدون :

يرى مؤيدو التعريب أن التدريس باللغة القومية يهدف إلى تحقيق ما يلي :

١- تقوية تماسك الوحدة الوطنية، وتنمية الشعور القومي، وتقوية الروابط الثقافية بين أبناء الأمّة : ذلك أن الحديث عن اللغة والعمل من أجل بقائها كان ميدانا من الميادين التي صارع فيها العرب أعداءهم ، فلقد كانت الهجمات الاستعمارية منذ بداياتها حريصة على أن تصيب هذا الوجود العربي في نقطة القلب منه : الدين واللغة .

ولم تكن الحملات التبشيرية التي رافقت أو مهدت أو جاءت من بعد هذه الهجمات الاستعمارية إلا تمكينا لذلك على نحو من الأنحاء . ومن هنا كانت قضية اللغة والتعريب في كثير من أشكالها ومظاهرها ردًّا على الحملات التي استهدفت الوجود العربي لا في صورته المادية : الأرض ، ولا في صورته الدولية: الاستقلال، فحسب بل في وجوده الذاتي بالدرجة الأولى ، أعني في أخص خصائصه وفي أبرز عناصر الأصالة

فيه . هل يمكننا أن ننسى حملة التتريك وإبعاد اللغة العربية عن أن تحتل مكانتها في الحياة ؟

إن الأحداث التي ألمت بالوطن العربي في مشرقه ومغربه بعد الحرب الأولى جعلت جناحي هذه الأمة في وضع مماثل : سلطان أجنبي قاهر لا يريد الأرض وحدها، ولا يريد المواد الأولية وحدها ، ولكنه يريد أن يحول بين هذا الشعب في هذين الجناحين وبين وظيفته الحضارية . يريد أن يردّ هذه الأمّة عن أن تعي ذاتها، وهو يتخذ إلى طمس هذه الذات وتذويبها كل الوسائل منفردة ومجتمعة ، الاستعمار الاستيطاني والاستعمار الفكري والاستعمار اللغوي والاستعمار الديني ...الخ.

وفي الواقع وجدت البلاد العربية نفسها من شواطئ الدار البيضاء إلى شواطئ الخليج أنها هدف لقوى مفترسة ، وأنها تعاني أوضاعا متشابهة ، وأن طريقها لتجاوز هذا الطغيان طريق واحد هو طريق الحفاظ على عناصر الأصالة الذاتية ، وهي ذاتها عناصر الوحدة .

وكان من تقدير الله للشعب العربي في أعقاب الحرب العالمية الثانية وحولها وقبلها أنه تخلص في كثير من أقطاره من التبعية السياسية الصريحة بشكل أو بآخر ، ولكنه ظل مستهدفا للتبعية الثقافية وظل الحكم الغربي في السطوة الفكرية يملأ قلوب المستعمرين الأوروبيين كما يملأ عقولهم ويوجههم في مجالات اللقاء كافة .

وظلت اللغة العربية مادة تفجير وتفجر: الغرب المستعمر يريد تفجيرها بطرائق لا تحصى من مثل : إحياء اللغات الميتة ، وتشجيع انتشار اللهجات المحلية ، ورمي اللغة العربية بكل نقيصة واتهامها بكل صعوبة ، وفرض اللغة الأجنبية ونشر المؤسسات التعليمية والتبشيرية ، ويؤيده في ذلك التقدم الحضاري للدول الغربية وضعف الحكومات العربية واستخذاء بعض عناصرها . وكانت الأمة العربية الإسلامية تحاول أن ترد ذلك في هذه الميادين ، وأن تحيل هذا التفجير الخارجي الذي يريد الإبادة إلى تفجير داخلي في ذات اللغة ينفي عنها ما علق بها من مظاهر الضعف ، ويحاول أن يردها حية على الألسنة والأقلام ، ويريد لها أن تكون كما كانت بالأمس لغة حضارة ، لغة علم ولغة أدب على السواء ، ويصدّ عنها كل ألوان

النقص الذى رميت بـه والعيـوب الـتى ألصقت بها ، ويحرص على أن تكون عاملا مزدوجا ، عامل تحرير فكرى مـن نحـو، وعامل وحدة سياسية أيضًـا مـن نحـو آخر(١٠) .

وها هو ذا التاريخ يعلمنا أنه ما وجـدت أمة من الأمم إلا كانت لها لغتها الخاصة ، وإن فقدانها لهذه اللغة يؤدي بها لا محالة إلى فقدان وعيها وإنيتها وذاتيتها، لأن المحتـل يحرص دائما على فصـل ضحايـاه عـن ماضيهم بقطع وسيلة الاتصال التى هـي صدى أسلافهم والقوة الطبيعيـة الحيـة لأمتهم ، إذ أن اللغة المكتوبة هي الأسمنـت الذى يضمن تماسك الوحـدة الوطنيـة ، وهى العروة الوثقى التى تربط بين الأحيـاء وتصل بالأموات ويكتـب بهـا سـجل الأمم.(١١) .

٢- الجمع بين الأصالة والمعاصرة :

ذلك أن العربية كانت طوال قرون عـدة لغة العلم والحضارة فى العالم المتحضر ، لقد عرفها وكتب بها العرب والمسلمون وغـير المسلمين حتى إن طائفة كبيرة من هـؤلاء العلماء قد ثقفوها ووقفوا على أسـرارها فأحبوها وهجروا لغاتهم، فجعلوها لغتـهم المفضلة وبها عرفوا لأنهم كتبوا بها (١٢) .

وإذا ألقينا نظرة على التراث العلمي لأمتنـا العربية الإسلامية فإننا نلاحظ غناه وتنوعـه فى مختلف الميادين، فها هو ذا الكندى يعـد أوّل من وضـع معجمًـا للمصطلحـات العلمية ، فقد وضع رسـالة فى حـدود الأشياء ورسومها اشتملت علـى ثمانيـة وتسعين مصطلحا فلسفيا جميعها من أصل عربي ما عدا مصطلحين اثنين فقـط همـا "فلسفة والاسطقس " .

ووضع العـالم العـربي الـرازي كتابـه "الحاوي"، ويقع فى ثلاثين جزءا جمعـت المعارف الطبية التى توصل إليـها العقـل البشري منذ أيام أبقراط ، وظـلّ هـذا الكتاب المرجع الطبي الأساسي فى أوروبـا مدّة تزيد على أربعمائة عام ، كما كتـب الرازي فى الكيمياء ، وهو أحد الأوائـل الذين جعلوا الكيمياء علماً يمارس علـى طرائق علميـة

وعملية وتجريبية .

وكتب " ابن سينا " فى عدة علوم ، ففـى مجال الطب وضع قواعد علـم الجراحـة والتشريح ، ومهّد السبيل للاكتشـافات

الطبية العظيمة التى حققها علـــم الطـــب الحديث ، ووضع كتاب " القـــانون " فى الصيدلة أورد فيه ما يزيد على الســبعمائة عقار .

وكان " البيروني " عالما بالفلك وفيلســوفا ورياضيا وجغرافيا ، وكتابـــه فى الفلـــك موسوعة تضمنت القوانيـــين الطبيعيـــة ، ووضع كتاب الجواهر الخاص بـــالأوزان النوعية للمعادن والأحجار الثمينة ، وعـالج فى كتابه الصيدلة أنواع الأدوية .

ويعدّ " ابن البيطار " من أعظم العبـلقرة فى علم النبات حيث شرح فى كتابيه " الأدوية المفردة " و " الأقرباذين " حـــوالي ألـــف وأربعمائة نبات طبي مع ذكـــر أسمائـــها وطرق استعمالها .

ووضع أبو القاسم الزهراوي كتاب "رسالة التصريف لمن عجز عن التـــأليف" ويُعَـــدُّ كتابا مدرسيا للجراحـــة يشـــتمل علـــى أشكال وصور لآلات طبية ساعدت علـــى وضع أسس علـــم الجراحة فى أوروبـــا، إذ كـــان مرجعا لقرون عديدة .

ويعّد جابر بن حيّان من أوائل الأسماء الـــتى يجدها الغرب ، ترجم كتبه إلى اللاتينيـــــة وكتابه " التراكيب " من أوائـــل الكتـــب العربية التى ترجمت إلى اللاتينية ، وظلـــت كتبه فى الكيمياء المرجع الأساسي لأوروبـا فى القرون الوسطى ، واستمر أثرها حـــتىَ القرن الثامن عشر .

كما يعدّ الحسن بن الهيثم من أعظم علمـاء الطبيعيات ، ويأتى على رأس قائمة علمـاء البصريات، وقد ترجم كتابه " المناظـــير " خمس مرات إلى اللاتينية ، ونقل كثير مـــن علماء أوروبا فى البصريات وعلم الضـــوء من مؤلفاته .

ووضع " الخوارزمي " كتابين هـــامين فى الرياضيات،حمل الأوّل منهما حساب الجبر والمقابلة لتصبح كلمة "الجبر" كلمة عالمية ، والكتاب الثاني فى علم المحاسبة شرح فيـــه استخدام نظام الأعداد والأرقـــام ، كمـــا شرح طرق الجمـــع والطـــرح والقســـمة وحساب الكسور . وترجم هذا الكتـــاب إلى اللاتينيـــة ، واســـتعاض الأوروبيـــون بالأرقام الرومانية المعقدة الأرقام العربيـــة البسيطة . والصفر يعدّ من الاكتشـــافات المهمة التى أشار إليها الخوارزمي ، وعـــن طريقه استطاعوا بناء الأرقام (١٣) .

تلك هى إشارات عابرة فقط تدل علـــى مساهمات العلماء العـــرب والمســـلمين فى

المجالات العلمية تأليفا وتعريبا ، ومازالت دور الكتب فى العالم تزخر بالوثائق والمخطوطات العربية التى تكشف كل يوم عن خباياها، وتضيف جديدًا لإسهامات العرب والمسلمين فى بناء الحضارة الإنسانية. وعندما يتعرف الدارس ما أسهمت به أُمته في إغناء الحضارة الإنسانية، وخاصة فى الميادين العلمية يدفعه ذلك إلى وصل الحاضر بالماضي والاستمرار في إعلاء صرح تلك الحضارة بحثا وإنتاجا وإبداعا .

وإذا كنا اليوم نروم استنبات العلم عربيا والتعبير عن العلم بالعربية فما ذلك إلا لاستمرار أمتنا العربية، وربط لماضيها المجيد بحاضرها الذى نوده مشرقا وبنّاء وفعّالا فى مسيرة الحضارة البشرية .

٣- تعزيز وشائج الربط بين الجامعة والمجتمع : إذ إن علينا أن نحكم الصلة بين ما نعلمه لأبنائنا وما نعدهم من أجله ، وأن على القيادات الجامعية أن تجعل من الجامعات ومعاهد التعليم العالي العربي مصانع لتخريج الرجال الذين استنارت بصائرهم وتأصلت شخصياتهم ، وتركزت دعائم انتمائهم إلى أمتهم،ولن يتحقق ذلك بإبعاد اللغة القومية، وإنه لتناقض عجيب أن نعلم طلابنا شرف لغتنا وكونها دعامة قوميتنا ، ونتحدث لهم عن مزاياها وسعة تراثها، ثم نباعد بينهم وبينها فنعزلها عنهم ونعزلهم عنها، مثبتين لهم عمليا أنها لغة قاصرة وعاجزة ، ولا تصلح للتعليم عندما ندرس باللغات الأجنبية ولا ندرس بها .

٤- توحيد الثقافة والجهود العلمي والفكري فى الوطن العربي: إذ أن عدداً من أعضاء الهيئة التدريسية تخرجوا فى جامعات فرنسية أو ألمانية أو روسية أو غيرها ، فهل يترك لكلّ طائفة لغة تختص بها فلا يكون بين علماء الأمّة الواحدة جامعة تضمّ أفكارهم وتجمع إنتاجهم ، إننا إن لم ندرس بالعربية نبدد جهود علمائنا فلا يفيد بعضهم من بعض ، ولا يطلع بعضهم على ما يؤلف بعضهم الآخر إلا إذا كانت بينهم لغة مشتركة واحدة، يصبون أفكارهم فى قوالبها،ويصوغون علومهم بها. ومن هنا كانت الدعوة إلى التدريس بالعربية دعوة إلى توحيد الثقافة وتركيز المجهود العلمي والفكري فى الوطن العربي.

٥- مساعدة الدارسين على الفهم والاستيعاب : ذلك أن التدريس باللغة

العربية يسهّل كثيرًا التحصيل العلمي والاكتساب التربوي ما دام باللغة الأم ، ويجعل من عملية التدريس عملية ممتعة للطالب والمدرس،فيشارك الطلاب أستاذهم بفهم المسموع وسرعة التدوين ، مما يوفر الكثير من الوقت للطرفين ، إضافة إلى أن الطالب لا يتهيب المادة كما هي عليه الحال باللغة الإنجليزية ، إذ أن من مقاييس التهيب للطالب مقدرته الذهنية واستعداده النفسي فى فهم المادة فى حدّ ذاتها . وقد أثبتت بعض الأبحاث أن اللغة العربية تساعد الدارس على الفهم والاستيعاب بصورة أفضل. والدعوة إلى استخدام اللغة القومية فى التدريس الجامعي ليست بدعا فى العالم ، ولا هى أمر عجيب بل العكس فيها هو الأمر العجيب ، إذ ليست هناك دولة فى العالم إلا اتخذت من لغتها القومية لغة للتعليم العالي في جامعاتها ، بل حتى فى جمهوريات الاتحاد السوفيتي سابقًا تدرس كل جمهورية بلغتها المحلية فى جامعاتها حرصًا منها على أن يطلع كل مواطن مثقف على ميادين العلم والمعرفة باللغة التى يتقنها ، وكان قادة الاتحاد السوفييتي سابقا قادرين على فرض اللغة الروسية الواحدة فى جميع الجمهوريات ، ولكنهم أدركوا الألفة بين اللغة التى يتقنها الطالب والعلوم التى يجب عليه الإلمام بها ، كما أدركوا الضرر الذى سيعود على العلم والثقافة لو أبعدوا اللغات المحلية عن التعليم العالي .

٦- تحقيق ديمقراطية التعليم ، إذ ما معنى ديمقراطية التعليم إذا لم يكن هذا التعليم باللغة التى يفهمها معظم أبناء الأمة، إن ديمقراطية التعليم ما لم يكن باللغة القومية شعار لا مضمون له، وصورة لا واقع لها ، وديمقراطية التعليم وكونه باللغة القومية طرفان متلازمان لا بد أن يؤدي أحدهما بالحتمية إلى الآخر ، وما إصرار بعض الجامعيين على استخدام لغة لا يتقنها غيرهم إلا تعبير عن شعور بالتميز والطبقية، وترفع عن المجتمعات التى أنشئت مؤسساتهم لخدمتها .

٧- استمرارية تعليم اللغات الأجنبية : إن الداعين إلى التدريس باللغة القومية يدعون فى الوقت نفسه إلى الاستمرارية فى تعليم اللغات الأجنبية ، ذلك لأن إتقان لغة أجنبية واجب لابد منه لمتابعة التقدّم العلمي، ولكن شتان ما بين إتقان اللغة الأجنبية وبين استخدامها بديلا عن اللغة

القومية . إن في إتقان اللغة الأجنبية دعمًا للثقافة ورمزًا لها في كل ميدان من ميادين العلم ، وأما استخدامها بديلا فنعزل للغة القومية ووأد لها .

٨-الإفادة من تجارب المجتمعات الأخرى: أدراك فلاسفة الغرب ومفكروه وساسته أهمية اللغة في البنيان القومي ، فها هو ذا "هردر " الألماني يقول : " إن لغة الآباء والأجداد مخزن لكل ما للشعب من ذخائر الفكر والتقاليد والتاريخ والفلسفة والدين، وقلب الشعب ينبض في لغته ، وروحه يكمن في لغة الآباء والأجداد " (١٤) .

وعندما سئل " بسمارك " عن أفظع الأحداث التي حدثت في القرن الثامن عشر أجاب: إن المستعمرات الألمانية في شمال أمريكا اتخذت اللغة الإنجليزية لغة رسمية لها " ،وهو يعني أنه كان في شمال أمريكا جاليات ألمانية كبيرة ، وعند حصول هذه المستعمرات على استقلالها اتخذت اللغة الألمانية بدلا من الإنجليزية كي يضمن ولاءها لألمانيا ، وأثبت التاريخ صدق نظرة بسمارك ، ففي الحربين العالميتين الأولي والثانية كان ولاء الولايات المتحدة الأمريكية لإنجلترا، على الرغم من كل خلاف بين أمريكا وإنجلترا . ومن مصادر هذا الولاء اللغة المشتركة التي تجمع بين الأمتين ، إذ أن لوحدة اللغة أبلغ الأثر في تقريب الاتجاه الثقافي (١٥) .

واعتمدت الثورة الفرنسية اللغة الرسمية الفصيحة انطلاقا من أنه لا حرية حقيقية من رواسب الإقطاع، ولا كيان للشخصية الفرنسية إلا بتمثل اللغة القومية ومعرفتها .

والقائد الفيتنامي " هوشي مينة " يرى أنه لا انتصار على العدو إلا بالعودة إلى اللغة والثقافة القومية (١٦) .

وهاهي ذي إسرائيل تقيم كيانها على إحياء اللغة العبرية ، إذ كانت لأغلبية المهاجرين اليهود إلى أرض فلسطين لغة في ألمانيا والنمسا وروسيا وبولونيا وأوروبا الشرقية عامة ، وكانت لهذه اللغة آدابها ، ولكنهم تركوها وآدابها ليحيوا لغة أخرى ماتت عمليًا منذ ألفي سنة، ألا وهى العبرية ، وشتان بين اللغتين: العبرية والعربية في مسيرة الحضارة الإنسانية (١٧) .

وها هى ذى فنلنده تدرس الطب باللغة الفنلندية ، على حين ندرسه في أغلب جامعاتنا بالإنجليزية، وأين الفنلندية من العربية ؟! وهل لها الرصيد الثقافي

والحضاري العربي العزيق ؟ وهل لها ما للعربية من تراث طبي مجيد ؟ نحن الذين علموا الطليان الطب فى عصر النهضة وها هم أولاء يدرسون الطب بلغتهم الطليانية، وأساتذتهم العرب يدرسونه بلغة أجنبية.(١٨)

ب - **المعارضون :**

يتجه المعترضون على التعريب إلى تقديم الحجج التالية :

١-إن لغة العلم فى عصرنا الحالى إنما هى اللغة الإنجليزية ، و(٩٨%) من المراجع والمصادر العلمية هى باللغة الإنجليزية ، وإذا لم نعلم الطلبة هذه اللغة فكأننا نمنعهم من الاطلاع على هذه المصادر و المراجع ونغلق عليهم نافذة العلم ، ونحول دون أن ينمو تحصيلهم لدرجات عليا فى الجامعات الخارجية لو أرادوا ذلك ، فضلا عن أن استعمال اللغة الإنجليزية فى تدريس العلوم يعدّ أسرع وسيلة للسيطرة على هذه اللغة. (١٩) .

٢-ضآلة توافر الكتب و المراجع باللغة العربية وركاكة الأسلوب وسوء الإخراج.

٣-قلّة الأساتذة المعدين للتدريس بالعربية .

٤-غرابة بعض المصطلحات العربية التى أصدرها بعض المجامع اللغوية ، ووفرتها، واستعمال أكثر من مصطلح تبعا لما يصدر عن كل مجمع لغوى أو جامعة أو مركز بحث ، وصعوبة فهم بعض المصطلحات العربية وشيوع المصطلحات الأجنبية التى أصبح بعضها متداولا حتى بين عامة الناس. (٢٠) .

ويروى آخرون أن فى كل علم عددا كبيرا من المصطلحات ، وأن أكثر هذه المصطلحات لم يترجم إلى العربية حتى الآن وقد لا يكون له مقابل فى اللغة العربية .

٥-النظر إلى التعريب على أنه شعار بلا مضمون .

٦-وجود مشكلة الرموز العلمية والأحرف والأرقام .

٧-وجود مشكلة النشر و التوزيع .

وفى دراسة ميدانية قام بها الدكتور سيد حامد حريز فى جامعة الخرطوم عام ١٩٨٣ وجد أن نسبة عالية من أساتذة جامعة الخرطوم لا ترى ضرورة للتعريب، وأن اللغة العربية الفصيحة بنحوها وصرفها قد اكتسبت صورة منفرة فى أذهان الصفوة من المتعلمين السودانين لا سيما الذين نالوا

تعليما أوربيا ، وأن عددا كبيرا من أساتذة جامعة الخرطوم تجيد اللغـة الإنجليزيـة ، وتعترف بعدم إجادتها اللغة العربية ، وأنهم يذكرون بشئ من الحسـرة أن تعريب المناهج فى المراحل الثانوية صحبه انخفاض فى مستوى اللغة الإنجليزية ، وأن الكتب والمراجع باللغة العربية غير متوافرة (٢١).

ج- الرد على المعارضين

الحجة الأولى : أن التعليم باللغة العربية يحرم الطالب المتخرج من متابعة الركب العلمى المتطور بسرعة .

الــرد :

إن علاج ذلك سهل وميسور ويتجلى فى تقوية اللغة الأجنبية، بحيث يتقنها الطالب أو يُلم بها إلماما كافيا يسمح له بالمتابعة فيما بعد ، و الدليل أن طلاب كلية الطب بجامعة دمشق الذين يدرسون الطب بالعربية عندما يتقدمون إلى الفحص الأمريكى اللغوى الطبى ، تفضل نتائج امتحاناتهم فى مرات كثيرة نتائج زملائهم الذين درسوا الطب باللغة الإنجليزية ، و لم يحل تعلمهم الطب بلغتهم العربية من اجتياز امتحانات اللغة الطبية الإنجليزية بنجاح .

الحجة الثانية : أن فى كل علم عددا كبيرا من المصطلحات لم يترجم إلى العربية حتى الآن ، وقد لا يكون له مقابل فى لغتنا بسبب عجز اللغة العربية .

الــرد :

إن استخدام اللغة العربية فى التعليم أمر واستعمال المصطلحات أمر آخر ، إننا ندعو إلى أن نكتب العلم بالعربية ونلقى دروسنا بالعربية ، وتبقى المصطلحات العلمية بأسمائها الأجنبية إلى أن تُعـرَّب أو تُحـلّ مشكلتها ، ليكتب المؤلفون المحاضرون الفيتامين و الهرمون و الكولسترول ، وكل مصطلحات العلوم غير المعربة بأسمائها الأجنبية ، ولكن ليتكلموا عنها وليتحدثوا باللغة العربية ، إننا نطالب باستعمال اللغة القومية، لأن اللغة كيان فكرى ونفسى رائع ، وأما المصطلحات فألفاظ وقوالب لفظية تدل على معان معينة (٢٢) .

ثم كيف نوفق بين ادعاء عجز اللغة العربية عن استيعاب المصطلحات الطبية كما يدّعى بعضهم وبين واقع الأمر وحقيقته وهو شمول اللغة العربية لكل مصطلحات الطب وغيره، كما ينطق به الواقع السوري

فى كلية طب دمشق،والتى كانت من أوائل الجامعات التى بدأت فى التعريب ، وكان لها الفضل فى نشر التعريب الطبي وغيره، حيث سادت لغة الضاد فى مدرجات هذه الجامعة تدريسا وامتحانا ؟ (٢٣) .

الحجة الثالثة : قلّة المراجع و الكتب .

الــرد :

إن هناك عددا من الجامعات فى الوطن العربى تدرس الطب و الهندسة والعلوم وغيرها باللغة العربية ، وفى هذه الجامعات كتب و مراجع فى مجالات الاختصاص ، كما أن هناك العديد من المعاجم والمصطلحات التى يصدرها مكتب تنسيق التعريب التابع للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، كما أن المركز العربي للتعريب والترجمة والتأليف والنشر التابع للمنظمة أيضا يصدر كتبا مترجمة فى المجالات العلمية .

الحجة الرابعة : التعريب شعار بلا مضمون .

الــرد : ليس التعريب شعاراً بلا مضمون ، ولكنه ضرورة قومية وحضارية لا بد منها، وهو موقف نفسي أولاً يدعو إلى التميّز الإنساني وتقوية الانتماء إلى هذه الأمّة ، وها هو ذا المسؤول عن التعليم الطبي فى منظمة الصحة العالمية يستنكر ظاهرة فى التعليم الجامعي فى البلاد العربية، ولا يستطيع أن يستسيغ هذه الظاهرة ، وهي أنه ليس فيها إلا جامعة واحدة تدرس الطب بالعربية ، وهو يرى أن التعليم بغير العربية ظاهرة تخلف ليس لها مبرر ، وتتنافى مع مقررات منظمة الصحة العالمية الداعية إلى التعليم الطبي باللغة القومية. (٢٤)

الحجة الخامسة : اللغة الإنجليزية هى لغة العلم ولابّد من تعليم الطب بها .

الــرد:

ليست اللغة الإنجليزية وحدها لغة العلم ، فهناك الفرنسية والروسية والألمانية واليابانية والإسبانية والصينية ... والبلدان الأوربية وغيرها تعلم طلبتها بلغاتها . وليس هناك شكوى من أن هؤلاء الطلاب ممنوعون من الاطلاع على المرجع ، وأن نافذة العلم قد أغلقت دونهم ، ويؤيد ذلك الأبحاث والمخترعات والمكتشفات التى ينجزها أبناء هذه الشعوب .

د- الداعون إلى التريث :

ثمة من يدعو إلى عدم الإسراع فى التعريب، وأن التعريب يستلزم مدى زمنيا ولا يمكن

أن يتم إلا بعد توفير مستلزماته ، ونظرًا لأن هذه المستلزمات غير متوافرة بصورة وافية كان التريث فى التعريب أمرًا تقتضيه الظروف الراهنة ، إذ أن المراجع بين أيدى الطلبة غير متوافرة ، كما أن الأساتذة المعدين إعدادا جيدا للتدريس بالعربية غير متوافرين على النحو المنشود ، إضافة إلى تأهيلهم إنما هو بالإنجليزية فى الأعم والأغلب ، يضاف إلى ذلك أن هناك معوقات فنية ومادية تستلزم التريث ، ومن هذه المعوقات (٢٥) :

-قلة الإمكانات الفنية وضعفها " رسم ، طباعة ، تصوير ... " .

-قلة القواميس والمعاجم المتخصصة فى مختلف المجالات .

-عدم وجود مصطلحات علمية متفق عليها.

-ضعف بعض أعضاء الهيئة التدريسية باللغة العربية مما يعوقهم فى عملية الترجمة والتعريب .

-إثقال التدريسيين بأعباء تدريسية وإدارية كثيرة تستنفد طاقتهم ، وتحد من تفرغهم للتعريب .

-عدم توفر المكان والجو الملائم داخل الجامعة للقيام بعملية التعريب .

-العجز فى الأطر التدريسية وارتفاع نسبة الطلبة إلى المدرسين .

-عدم اطلاع التدريسيين على ما يجري فى الأقطار العربية فى مجال التعريب .

-فقدان خطة عربية قومية موحدة للتعريب والترجمة .

-ضعف الإقبال على العمل الجماعي المنظم فى عملية التعريب .

-عقدة الخوف من المجهول حيث يظن الظانون أن التعليم بالعربية سيسيء إلى مستوى التعليم والبحث .

لهذه الأسباب مجتمعة يرى نفر من الأساتذة أن التريث فى التعريب أمر تحكمه الظروف الموضوعية ، وأن الإقدام عليه دون تهيئة مستلزماته قد يكون له آثار سلبية وانعكاسات خطرة على عملية التعريب نفسها .

رابعا : مستلزمات التعريب:

تجدر الإشارة إلى أن الأهداف المرسومة للتعريب يستلزم تحقيقها أمور متعددة منها:

١- القرار السياسي الملزم لاعتماد التعريب منهجا فى الحياة، وأن التسويف الذى سبقت الإشارة إليه لا يمكن أن يحسمه إلا قرار سياسي تمده جذوة من الحماسة

والإيمان ، وعندها فقط تذلل الصعوبات ولنتخذ من تجارب الآخرين معلما نستهدي به في مسيرتنا ، فها هي ذي جامعة الفيتناميين تستعمل اللغة الفيتنامية في تدريس العلوم كافة ، وعندما أصدر "هوشي مينة " أمره بالفتنمة الشاملة ، على الرغم من أن الفرنسية للمجتمع الفيتنامي دامت أكثر من ثمانين سنة ، طلب أساتذة كلية الطب في هانوي مقابلته ليخبروه بأن فتنمة الدراسات الطبية عملية مستحيلة، بسبب جهل أساتذة كلية الطب وطلبتها للّغة الفيتنامية ، وطلبوا إليه العدول عن قراره أو إمهال تطبيق الفتنمة على كلية الطب ، و استمع القائد الفيتنامي لهم ساعات ، ثم حسم المقابلة قائلا لهم: "يسمح لكم بالتدريس باللغة الفرنسية بصورة استثنائية هذه السنة فقط ، مع ضرورة تعلمكم وطلبتكم اللغة الفيتنامية الوطنية خلال أشهر الدراسة التسعة ، على أن تجرى الامتحانات في سائر المستويات في نهاية السنة باللغة الفيتنامية ، ثم تستأنف الدراسة في السنة المقبلة باللغة الفيتنامية"(٢٦)

٢- إلى جانب القرار السياسي الملزم بالتعريب لابد من توافر فئة من المدرسين تؤمن بالتعريب ، و تدعو إليه ، و تدافع عنه ، و ترتب تنفيذ ذلك، لأن المدرس هو أساس عملية التعريب ، ولا بد من توافر القناعه لديه بالتعريب ، و أن يكون مستعدا نفسيا له ، وذا عزيمة لتذليل العقبات .

٣- الإفادة من تجارب التعريب في بعض جامعات الوطن العربي " في سورية ، والأردن ، ومصر "

٤-انتداب أساتذة من الجامعات التي تنفذ التعريب، وذلك للتدريس بالعربية وإلقاء محاضرات بها لفترات كافية ، على أن يفيد الأساتذة المحليون من تجاربهم .

٥-تشجيع الأساتذة على مطالعة كتب التراث ذات العلاقة بتخصصاتهم، لمدّهم بمصطلحات علمية ومفردات تعينهم في إغناء في مجالات تخصصهم (٢٧)

٦-تشجيع الأساتذة على الكتابة وإلقاء الدروس والمحاضرات والمشاركة في الندوات باللغة العربية الفصيحة .

٧-تنظيم برنامج تبادل الزيارات بين مدرسي المادة الواحدة في الجامعات العربية.

٨-تنظيم دورات تدريبية مستمرة لتأهيل أعضاء هيئة التدريس في أثناء خدمتهم.

٩-الطلب إلى الموفدين العائدين ترجمة رسائلهم إلى العربية، واعتبار ذلك شرطا لتعينهم في عضوية الهيئة التدريسية ،كما هي عليه الحال في جامعة دمشق .

١٠-العمل على تخفيف الأعباء التدريسية والإدارية عن أعضاء الهيئة التدريسية، وتوجيه جزء من نشاطهم إلى التعريب الذى سيؤدي بدوره إلى رفع مستواهم العلمي بصورة غير مباشرة .

١١-عدم الاقتصار في عملية التعريب على الكتب الدراسية المقررة في الجامعات على أنها أمهات الكتب ، بل أن تشمل أيضا أمهات المجلات العلمية العالمية، ليكون الطالب على اتصال دائم بتقدم العلوم وتطورها على النحو الذى يفعله الإنجليز والألمان والفرنسيون والروس ... إلخ وإعطاء مستخلصات لآخر ما صدر عن الأمم الأخرى من بحوث .

١٢-الاستمرار في تحقيق التراث العلمي العربي وكشف النقاب عن المخطوطات العلمية العربية، إن في داخل الوطن العربي أو في خارجه كالمتحف البريطاني بلندن، والمكتبة الأهلية بباريس والأسكوريال في إسبانيا ... الخ .

١٣-تشجيع العناية بالترجمة الفورية التي تحتاج إلى تدريب ومران وسرعة خاطر، واطلاع على مادة الاختصاص مع رصيد كبير في اللغتين العربية والأجنبية (٢٧) .

١٤-دعم المركز العربي للتعريب والترجمة والتأليف والنشر، وتخصيص الإمكانات المادية الملائمة لمشروعاته وتخصيص جوائز للترجمة .

١٥-تشجيع كتابة البحوث بالعربية .

١٦-إصدار مجلات علمية متخصصة على مستوى عالمي تنشر بالعربية .

١٧-إصدار كتب علمية مبسطة للمستويات المختلفة بالعربية .

١٨-إصدار مجلات علمية مبسطة للمستويات المختلفة بالعربية .

١٩-الاطلاع على تجارب نقل العلوم إلى اللغات القومية في مجتمعات لا تملك لغة مرنة وواسعة،كالعربية واليابانية والكورية .

٢٠-الاهتمام بالدراسات العليا فى الوطن العربي وتطويرها .

٢١-العناية باللغة العربية فى مراحل التعليم العام قبل الجامعي، واستعمال اللغة العربية السليمة فى مرافق المجتمع، ووسائل الإعلام كافة .الاهتمام بتدريس اللغات الأجنبية ينبغي له أن يتم بصورة متوازنة مع تنفيذ التعريب .

٢٢-إنشاء وحدة معلومات تختص بالدراسات العليا والبحث العلمي فى الوطن العربي ، تتصل بشبكة الوحدات الفرعية المماثلة فى الجامعات ومراكز البحوث التربوية .

٢٣-توحيد المصطلحات فى الجامعة الواحدة وبين الجامعات ومراكز البحث فى الوطن العربي .

٢٤-توفير الاعتمادات المالية لتأمين المراجع والمعاجم غير المتوافرة باللغة العربية .

٢٥-وجوب التكامل بين سياسات التعريب على نطاق الوطن العربي،حرصا على الجهود المبذولة توحيدا للرؤية الفكرية.

خامسا ـ الخلاصة :

من يُلق نظرة على واقع خريطة التعريب فى الوطن العربى يجدْ أن ثمة جهودًا بذلت بعضها فردي وبعضها جماعي ، بعضها قامت به مؤسسات خاصة وبعضها الآخر قامت به مؤسسات حكومية ، منها ما قامت به مجامع لغوية ، ومنها ما قامت به الجامعات ، ومن هذه الجهود ما تم فى الوطن العربى ، وجهود قامت بها هيئات أجنبية .

إن تنوع هذه الجهود يرسم أمام الإنسان بصورة عفوية خريطة زاخرة الخطوط ، ولكنها خطوط متداخلة ومتشابكة تمثل تكامل الجهود وتقاطعها ، تواصلها وانقطاعها ، إقليميتها وقوميتها ، مشكلاتها الجزئية ومشكلاتها الكلية ، اتساعها وضيقها ، حذرها واندفاعها حتى ليتعذر أن تهتدي إلى الوحدة بينها (٢٩) .

تلك هى الصورة التى رسمها أستاذنا المرحوم الدكتور شكري فيصل لعملية التعريب فى الثمانينيات وما تزال هى هى ، ولنستمع إليه يقول : " كنا نتحدث عن التعريب ، عن إقراره أو إنكاره ، عن قبوله أو رفضه ، ولكن الجهد الأقل كان منصبا على التعريب ذاته ، وكنا نتحدث عن قدرة العربية وعبقريتها دون أن نستثمر على مقياس واسع هذه القدرة وهذه

العبقرية ، وإن الذي نلحظه فى الحياة السياسية من التنوع الذى يقترب من التخالف، والتكثر الذى يقترب من التكرار هو الذى نلحظه فى هذا اللون من العمل الثقافي العربي .

لقد كانت المؤتمرات والندوات فى كل قطر تبدأ عملها من الصفر ، ولكنها غالبا لا تتابع بعد ذلك من حيث انتهى المؤتمر السابق .

وكان من النتائج المنطقية لهذا التنوع والتكثر أن تبدو الجهود مشتتة ، وأن تكون نتائجها من الضآلة بحيث لا يمكن أن تكون متكافئة أو موازية لما أُعد لها وبُذل من أجلها ، وقاد هذا التشتت إلى نوع من الجهالة حتى أضحى طبيعيا أن يجهل بلد ما كان فى بلد آخر ، وألا تعرف جامعة ما يكون قد نُفذ فى جامعة أخرى .

إننا فى حاجة إلى أمرين :

أحدهما : منهجية واضحة فى العمل تجمع كل ما كان أولاً، وتفيد منه، وتضعه فى مكانة من البناء الداخلي ليكون مشاركة فى هذا البناء .

وثانيهما : برنامج زمنى يُراعي التزامه والتقيد به ، حتى لا تبقى حكاية تعريب التعليم الجامعى حكاية طويلة من غير حدود .

وها هى ذى تجربة الجامعات السورية تبقى الرد العلمي الموضوعي على كل حملات التشكيك ، إنها تجربة جديرة بكل تدبر ، جديرة بدراسة إيجابياتها ، وتعرف سلبياتها تعزيزًا للإيجابيات وتلافيًا للسلبيات فى انطلاقتنا الجديدة (٣٠) .

وها هى ذى الأمم صغيرها وكبيرها من حولنا فى العالم تحافظ على هويتها القومية، إذ تحت عنوان " إندونيسيا حريصة على لغتها " نقلت الأنباء أن الرئيس الإندونيسي " سوهارتو " ناشد شعبه يوم الخميس فى الثالث عشر من جمادى الأولى عام ١٤١٤هـ الموافق ٢٨ أكتوبر ١٩٩٣م بعدم الخلط بين اللغة الأم واللغات الأجنبية الأخرى فى إطار التخاطب والتواصل اللغوى اليومى ، ونقلت رويستر عن سوهارتو قوله فى خطاب له بمناسبة يوم الشبيبة الإندونيسية: إن الكثير من العبارات والكلمات الأجنبية أصبح يشكل تهديدا للغة الباهاما، وهى اللغة الأصلية والرسمية للبلاد، مشيرًا إلى أن ذلك يشكل تهديدًا للهوية الوطنية للشعب الإندونيسي ،

وأضاف: إن التقدم فى العلوم والتقانة "التكنولوجيا" يتطلب من الإندونيسيين إتقان لغات أجنبية، ولكن ذلك يجب ألا يتم على حساب اللغة الإندونيسية الأم .

وحريٌّ بنا أن نعرف قدر أمتنا ومكانتها فى مسيرة الحضارة الإنسانية ، فها هى ذى "زيغريد هونكة " تقول فى كتابها النفيس "شمس الله تسطع على الغرب " : " دبَّ فى الطب الغربي فجأة فى القرن السادس عشر شعور غريب بالخجل من تقليده للطب العربي ، وبقي قرونًا طويلة من الزمن نسخة منسوخة عنه ، وكانت معظم المخطوطات الأوروبية الطبية فى أوّل عصر الترجمة وحتى القرن السابع عشر تقليدًا للعرب ونقلاً منهم ، وقبل ٦٠٠ عام كان لكلية الطب الباريسية أصغر مكتبة فى العالم لا تحتوى إلا على مؤلف واحد ، وهذا المؤلف كان لعربي هو أبو بكر محمد بن زكريا الرازى " (٣١)

ولنستمع إلى قول شاعر إيطاليا الكبير "بيترارك " فى القرن الرابع عشر الميلادى يُندد فيها ببني قومه ، ويستنهض هممهم ويبث فى أنفسهم العزيمة والثقة قائلا : "ماذا ؟ لقد استطاع شيشرون أن يكون خطيبًا بعد ديموستن ، واستطاع فيرجيل أن يكون شاعرًا بعد هوميروس ، وبعد العرب لا يسمح لأحد بالكتابة ، لقد جارينا اليونان غالبًا وتجاوزناهم أحيانًا ، وبذلك حارينا وتجاوزنا غالبية الأمم ، وتقولون : إننا لا نستطيع الوصول إلى شأو العرب ، يا للجنون ويا للخَبال ، بل يالعبقرية إيطاليا الغافية أو المنطفئة " ! (٣٢) .

محمود أحمد السيد

عضو المجمع المراسل من سورية

هوامش البحث

١- معجم لسان العرب لابن منظور ، الجزء الرابع ، دار المعارف ، ص ٢٨٦٥ .

٢- الدكتور محي الدين صابر ، قضايا الثقافة العربية المعاصرة ، الدار العربية للكتاب ، تونس ١٩٨٢ ، ص ٨٧ .

٣- المرجع السابق .

٤- المرجع السابق ، ص ٨٨

٥- الدكتور كمال يوسف الحاج ، فى فلسفة اللغة ، دار النهار ، بيروت ، ١٩٦٧ ، ص ٣١١ .

٦- المرجع السابق ، ص ٦ .

٧- الدكتور محي الدين صابر ، دور التعليم العالى فى تنمية الذاتية الثقافية ، المجلة العربية للتربية ، المجلد الثاني ، العدد الثانى سبتمبر ١٩٨٢ ، ص ٥٢

٨- عبد الله العروي ، ثقافتنا فى ضوء التاريخ ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٩٨٨، ص ٢١٤ .

٩- المرجع السابق ، ص ٢٨ .

١٠- الدكتور شكري فيصل ، المؤتمرات والندوات التى عقدها المنظمات والهيئات العربية حول تعريب التعليم الجامعي فى مجالات المصطلح العلمي والترجمة والتأليف: " عرض ودراسة " ، ١٩٨٢ .

١١- مولود قاسم نايت بلقاسم ، إنية وأصالة مطبعة البعث بالجزائر ، وزارة التعليم الأهلي والشئون الدينية ، ١٩٧٥ ، ص ٦٨ .

١٢- الدكتور إبراهيم السامرائي ، فى التعريب بين ماضيه وحاضره ، مجلة المجمع العلمى العراقي ، مج ٢٩ عام ١٩٧٨ ، ص ٩٤ .

١٣- قاسم عثمان نور ، التعريب فى الوطن العربى ، جامعة الخرطوم ، ١٩٨٨، ص ١٣ و ١٤ .

١٤- أبو خلدون ساطع الحصري ، ما هى القومية ؟ ، بيروت ، دار العلم للملايين ط٢ ، ١٩٦٣ ، ص٤ .

١٥- الدكتور محمود أحمد السيد ، شؤون لغوية ، دار الفكر بدمشق ، ودار الفكر المعاصر لبنان ، ١٩٨٩ ، الطبعة الأولى ص٩.

١٦- مولود قاسم نايت بلقاسم ، إنية وأصالة ، مرجع سابق ، ص ٧٦ .

١٧- المرجع السابق ، ص ٧٤ .

١٨- الدكتور صفاء خلوصى ، تعريب الجامعات ، إحياء لكيان أكاديمي

عربي أصيل، مطبعة جامعة دمشق،١٩٨٢،ص٤.

١٩- الدكتور عبد المجيد نصر ، تعريب التعليم الجامعي " العلوم الطبيعية " أفكار ومقترحات ، جامعة اليرموك ، مطبعة جامعة دمشق ١٩٨٢ ، ص٤.

٢٠- المرجع السابق ، ص٥ .

٢١- الدكتور سيد حامد حريز ، تعريب التعليم الجامعي في السودان، المجلّة العربية للدراسات اللغوية ، العدد الأوّل المجلد الثاني ١٩٨٣ ، ص٣٧ .

٢٢-الدكتور مدني الخيمي ، التعليم العالي بالعربية في لبنان ، مؤتمر التعريب بدمشق ١٩٨٢ ، ص٤ .

٢٣-الدكتور أحمد محمد الحصري ، مسؤولية عضو هيئة التدريس والناشر عن جمود التعريب في الوطن العربي ، مطبعة جامعة دمشق ، ١٩٨٢ ، ص١٠ .

٢٤-الدكتور مدني الخيمي ، التعليم العالي بالعربية في لبنان ، مرجع سابق ، ص٥ .

٢٥-الدكتور حسين محمد رزق والدكتور حاتم عبيد جعفر ، معوقات تعريب التعليم العالي من وجهة نظر تدريس الجامعة التكنولوجية في العراق ، مؤتمر التعريب في دمشق ، عام ١٩٨٢ .

٢٦-عثمان السعدي ، العبرنة الشاملة والتحكم بالتكنولوجيا المعاصرة في الكيان الإسرائيلي وجامعة الكويت ، كلية التربية قسم أصول التربية ، ص٦ .

٢٧-الدكتور سلطان الشاوي ، تعريب التعليم العالي وسياسة الالتحاق به ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، تونس ١٩٨٤ ، ص٩٧ .

٢٨-الدكتور صفاء خلوصي ، تعريب الجامعات إحياء الكيان الأكاديمي عربي أصيل ، مرجع سابق ، ص٥ .

٢٩-الدكتور شكرى فيصل ، المؤتمرات والندوات التي عقدتها المنظمات والهيئات العربية حول تعريب التعليم الجامعي في مجالات المصطلح العلمي والترجمة والتأليف، مرجع سابق ، ص٥٠ .

٣٠-المرجع السابق .

٣١-نقلا عن الدكتور محمود أحمد السيد، شؤون ، مرجع سابق ، ص٤٧ .

٣٢-المرجع السابق ، ص٤٦ .

تأبين :

- المرحوم الأستاذ محمد شوقي أمين عضو المجمع
- المرحوم الأستاذ الدكتور حامد جوهر عضو المجمع

كلمة المجمع فى تأبين عضو المجمع الراحل الأستاذ محمد شوقى أمين
للأستاذ إبراهيم الترزى

أستاذى الجليل رئيس المجمع :

أيها السادة :

سلام الله عليكم ورحمته وبركاته،

وبعد

فإن لكل شيء معاييرَ يَتفاضَلُ بها أفرادُه. وكذلك الإنسان؛ يتفاضل أفرادُه فيما بينهم بمعاييرَ عديدة، يأخذُ بها الناسُ على مختلِف نَزَعاتهم، فقد يكونُ المالُ لدى بعضِ الناسِ هو المعيارَ المختارَ لبيان شأنِ الإنسانِ وقيمتِه، وقد يكونُ المعيارُ هو العلمَ، أو العملَ، أو قوةَ السلطان.. وغيرَ ذلك من المعايير التى تَنْبُعُ من ضمير المجتمعاتِ والشعوب، بما يَسُودُها مِن مُثُلٍ وقِيَم، وعاداتٍ ومعتقدات.

ولكن الناس إذا كانوا يَتفاضَلُون بهذه المعايير ـ فإن هذه المعاييرَ تَتفاضلُ هى كذلك فيما بينها بمعيارٍ آخر ينتظمُها جميعًا؛ لِتَدُورَ فى فَلَكِه، ذلك هو معيارُ الأخلاق، ولهذا عَدَّ الفلاسفةُ الأخلاقَ مِن أهمّ العلومِ المعياريةِ للإنسان.

فالمعاييرُ الإنسانيةُ كلُّها لا تنهضُ وحدها ـ دون معيارِ الأخلاق ـ لبيانِ شأنِ الإنسانِ وقيمتِه.

وفى القمة من معيار الأخلاقِ نَرى خُلُقَ الإيثار، وقد شَرَّفَه اللهُ تعالى بالثناء على أهله فى قوله الكريم :

" ويؤْثِرُون على أنفسهم ولو كان بهم خَصاصة ".

والحكمةُ البالغةُ تقول :

" ما استحقَّ أن يُولَدَ مَنْ عاش لنفسه فقط ".

وعروة بن الورد ـ على الرغم من جاهليتِه وصعلكتِه ـ خَلَّد مِن شعره هذا البيت المأثورُ، حيث يقول :

أُقَسِّمُ جسمى فى جُسُومٍ كثيرة
وأَحْسُو قَراحَ الماءِ، والماءُ باردُ

هكذا كان محمد شوقى أمين، وبهذا ولهذا عاش حياتَه كلَّها، أو عاش حياةَ الناس، بالتعبيرِ الصحيحِ الدقيق !

وإذا كان على كلِّ باحثٍ

* أقيم حفل تأبينه بدار المجمع فى ١٩٩٢/٥/٣ .

يَتصدَّى لدراسة الأفذاذ من أعلام الأدب والعلم والفن أن يبحثَ عن مفتاحٍ للشخصيةِ التي يَدْرُسُها، حتى يَتسنَّى له الدخول إلى عالَمِها الحافلِ بجلائلِ الأعمال _ فإنني حين أمعنتُ في النظر إلى شخصية محمد شوقي أمين، بأعوامِ عمرِه الثمانين، وجدْتُ مِفتاحَ شخصيتِهِ الجليلةِ النبيلةِ مُتمثّلاً في " الإيثار "، وقد تَطَوَّر "الإيثارُ " لديه حتى صار طبعًا وسليقة، ثم تَصاعَدَ حتى صار " إنكاراً للذات " !

وكم كنتُ حين أراه غارقًا في طُوفان من شواغِله بالآخرين، أصيح به في احتجاجٍ ودُود : أين أنت يا رجل ؟!

فكان يُجيبُني مازحًا على طريقة اللغويين والنحاة :

" أيٌّ هكذا خُلِقَتْ !"

وكان يُضِيفُ أحيانًا بعد أن يُجَلْجِلَ بضِحْكتِه المعهودة :

هذا قَدَرِي يا إبراهيم، وإني واللهِ لَراضٍ به، بل سعيد !

ولقد صَدَقَ واللهِ فيما قال .. فشوقي أمين قد تَخلَّى عن شوقي أمين منذ شبابه الباكر !

وكان والدُه الشيخُ " أمين العالم " من علماء الأزهر، له حلقةُ درسٍ ووعظ يَعْقِدُها في بعض مساجدِ القاهرة، ولكنه حين طَعَنَ في السِّنّ، ووَهَنَ العَظْمُ منه، وأدركَه عَجزُ الشيخوخة، وأقعدَه المرض، نهض ولدُه الأكبرُ شوقي، فحملَ عنه أمانةَ أُسرتِه، فكان راعِيَها، بل عائِلَها، وهو ما زال في غَضارة عمرِه، ونضَارةِ شبابِهِ، وكان بإيثارِه هذا راضيًا مرضيًّا.

وقد تجلّى هذا الإيثارُ السمحُ النبيلُ مِن بعدُ، حين تُوفِّيَ أخٌ له عن أولاد مازالوا في مَدْرَجِ طفولتِهم، فضَمَّهُم شوقي إلى كنفه، كما استظلَّ برعايته آخرون مِن أقربائه، وإني لأَعْلَمُ مِن هذا الكثير !

وليس هذا بعجيبٍ من شوقي، فقد كان نهرًا متدفقًا بالحب والحنان!

أيها السادة :

وُلد محمد شوقي أمين في منتصفِ العام العاشرِ من هذا القرن، والتحقَ في طفولته بكُتّابٍ في حارة الروم بحيِّ الدربِ الأحمر بالقاهرة، فتلَقَّى فيه مبادئَ العلوم، وأكملَ حِفْظَ القرآن الكريم، ثم التحقَ بالقسم الابتدائيِّ في الأزهر، حيثُ

تَفتَّحَتْ مواهبُه عن قُدرات لغويةٍ فـذّة، ونُزُوعِ عَرِم نَـهِم إلى الأدب العـربيّ، فانطلقَ الصبيُّ الطُّلَعَةُ إلى ذخائر اللغـة، ومصادر الأدب، يقرأ ويقرأ، حتى استوعبَ فى سنوات قلائلَ ما يسـتوعبُه غـيرُه فى عشرات السنين، ففاضَ مَوْرِدُه، واستَحصَدَ زرعُه، وصار مُؤَهَّلاً للعَطاءِ فى سخاء، وهو مازال طَرِىَّ العُود، غَضَّ الإهاب !

كان التعليمُ الأزهرىُّ قد بَدأ منهجُه يأخذُ بالعلوم الحديثة، كالحساب والجَـبْر والهندسةِ والكيمياءِ والطبيعة، وغير ذلـك من العلوم التى لم يكن للأزهرِ عهد بهـا مِن قبل، فضاقَ الفتى شوقى أمين بهـذه العلومِ البعيدةِ عن اللغةِ والأدب، والـتى يُرْغَمُ على استِيعابها واجتيازِ امتحانـها، حتى ينتقلَ إلى مرحلةٍ أُخرى من التعليم الأزهرىِّ الجديد.

وما كاد الفتى اللغوىُّ الأديبُ ينتقلُ إلى المرحلةِ الثانويةِ حتى آثَـرَ أن يختـار الدراسةَ الحُرَّةَ العِصاميَّة للغـةِ العربيـةِ وآدابها على هذه الدراسـةِ النظاميـةِ الجديدةِ التى انتهجَها الأزهرُ فى عـهده الحديث.

وقد قَوَّى هذا الإيثارَ لَدَيْه ما أخَـذ ينتظرُه مِن حَمْلِ أعباءِ أُسرته!

ولكنَّ الفتى شوقى لم يكن لَدَيْه مِـن عُدَّةٍ يُواجِهُ بها الحياةَ سوى ثقافتِه اللغويـة والأدبية، وقلمه الفتىِّ المُرْهَف، فخـاضَ غِمارَ الصِّحافة .. وكانت حينـذاك فى العِشرينيّات، وقد نَشأَ الكثـيرُ منـها فى أحضان السياسة، حيث الأحزابُ الوليدةُ تَخُوضُ تجربتَها الديمقراطية الطَّلِيعيَّـةَ فى عالمنا العربىّ، ولكلِّ شيء فى إبّانه حماسـةٌ وفَورة، وعَجيج وضَجيج !

نَأى شوقى بنفسه عن ذلك كلِّـه، حتى لا يُغيره ما تُثيره معاركُ الصُّحُـفِ السياسـيةِ فى جَوْلاتِـها وَصوْلاتِـها، وكَرِّها وفرِّها، وآثَرَ أنْ يَتَبَوأَ مَقْعَدَ صِدْقٍ على المَنْهَلِ الصافِى للصِّحافـةِ الأدبيَّـة؛ فأشَدُّ ما يُنْكِرُه شوقى أمين ما تَلْجَأ إليـه الصِّحافـةُ السياسـيةُ مِـن مُداهَنـةٍ ومُخاصَمة، ومُداوَرات ومُناوَرات، فـهو رجلُ علمٍ وأدب، والعِلْمُ بَحْـثٌ عـن الحقيقـة، والأدبُ غايتُـه الحـق، وكـم مِـن حقـائقَ وحقـوق تُسفَكُ دماؤُها على مَذْبَحِ السياسة !

أمرٌ آخرُ جَعَلَ شوقى يَعْزِفُ عن الصِّحافة السياسية؛ ذلك أنَّ جَوَّ السياسةِ قُلَّب، لا يكادُ يَصفُو حتى يَغيم، وتَيّاراتُها لا تَكادُ تَهدأُ حتى تسـتحيلَ عواصـفَ

وأعاصير، فكيف يَضَعُ مَصيرَ أسرةٍ ـ بل أسَرٍ ـ هو عائِلُها في مَهَبِّ هذه الأخطار ؟!

ولكن أمرَ السياسةِ في أواخرِ العشرينيّاتِ كانَ يَمُور بصراعٍ بين رجالِها الوطنيين الشُّرفاء والقَصْر، انتهى بأن دَفَعَ القصرُ بإسماعيل صدقي إلى رئاسةِ وزارةٍ عَطّلَتِ الدستور، وكادتْ تُجْهِزُ على التجربةِ الديمقراطيةِ في مَهْدِها، لولا أنَّ شبابَ مِصرَ هَبَّ في مظاهراتٍ عاصفة، تَعالى زَئِيرُها مُطالِبًا بعودة الدستور، وتحطيم اليدِ الحديديةِ التي تُمْسِكُ بخِناقِ الديمقراطية !

كان ذلك في العام الثلاثين من هذا القَرن، حين كان شوقي قد بلغَ عامَه العشرين.

ولم يكن بِوُسْعِه ـ وهو في عُنفوان شبابه ـ أنْ يُمْسِكَ بزمامِ غَضَبِه وهو يَرَى مظاهراتِ الشباب تجتاحُ مصرَ سخطًا ونقمةً على طغاتِها المُسْتَبدِّين، وكان مصيرُه ـ مع زعماءِ تلك الانتفاضةِ ـ الاعتقالَ والسِّجْن، حيث أمْضَى بعضَ أيام، خرجَ بعدها مِن سِجْنه ليكتبَ مؤلَّفَه الأول : " مشاهدات سَجين : عشرةُ آلافِ دقيقةٍ في سِجْن مصر ".

ثم أَصْدَرَ في العامِ نفسِه مجلّةَ "الشاعر" التي كان مَقرُّها في شارع حسن الأكبر بالقاهرة، بالقُرب من دار الكتبِ المصرية ـ مَنْهَلِه الثقافيِّ الذي لم يَنقطع عنه طَوالَ حياتِه ـ وقد كان مَقَرُّ هذه المجَلّةِ ـ التي لم تَعِشْ طويلا ـ مُنْتَدًى أدبيًّا لبعضِ الأعلامِ من الأدباء والعلماء .

ومن الذكرياتِ الطريفةِ التي حَدَّثَني عنها أن مَقَرَّ مجلة " الشاعر"، كان مِن الأماكن التي لجأ إليها الشاعرُ الشعبيُّ الكبير"بيرم التونسي "، ليُقِيمَ فيها بعيدًا عن أعيُنِ مُطارِديه من الشرطة، بعد أن صَبَّ على الملك فؤاد جامَّ أزجالِه اللاذعةِ الساخرة !

ومن مواقفه المشهودةِ المحمودة كذلك تَصَدِّيه ـ وهو الشابُّ الصغير ـ لِكاتِبَيْن كبيرَيْن هما : العقاد والمازنيّ، حين هاجما أميرَ الشعراء " شوقي " ـ وموقفُهما من شعره معروف ـ فكَتَبَ شوقي دفاعًا مجيدًا عن شوقي، رَدَّ على الكاتبَيْن الكبيرَيْن كلَّ ما رَمَيَا به شعرَ أميرِ الشعراء، باقتدارٍ فَذّ،

وجرأة باهرة، وقد عبَّر أميرُ الشعراء عن عرفانه وامتنانه لشوقى ببطاقةِ دعوة أرسلها إليه لشهودِ مسرحيته "مجنون ليلى" بدار الأوبرا، وبدعوة لزيارته فى داره (كرمة ابن هانئ)، ولكن هذا اللقاءَ الموعودَ لم يَتمَّ، لأن أميرَ الشعراء كان على موعدٍ آخرَ للِقاء ربِّه، حيث وافَتْهُ منيتُه !

أيها السادة :

لم يَمْتهِنْ شوقى الصِّحافة؛ لتكون مهنةً أو حرفةً أصيلةً يقفُ عليها رزقَه، فقد دخلَها من باب الهِواية لا الامتهان؛ فهو لغوىٌّ أديب، وَقَفَ قلمه على كل ما يتصلُ باللغة والأدب من بعيدٍ أو قريب، وهو صاحبُ رسالةٍ فرَّغ لها جُلَّ وقتِه وجُهدِه، وهى حمايةُ اللغةِ العربيةِ من كل لحنٍ أو تحريف، والدعوةُ إلى النهوض بها لِتُعبِّرَ عن الحضارة المعاصرة، بمستَحدثاتِها ومخترعاتِها فى العلوم والفنون.

فقد كان قلمُ شوقى أمين يُلاحِقُ ما يَشيعُ على الأقلام والألسنةِ من أخطاءٍ لغويةٍ ونحوية، حتى ذاع صيتُه بين شيوخ الفصحى وسَدَنَتِها حينذاك، ولكنه، وهو يُحاولُ أن يُطاوِلَ هؤلاء العمالقةَ فى عِلْمِهم، كان ينفردُ بينهم باجتذاب ألْبابِ القراء لِمَا يكتب، على الرغم من جفاء المَبْحَثِ اللغوىِّ ووُعُورَتِه لَدَى الكثيرِ من القراء، فقد كانت كتاباتُ شيوخِ الفصحى يَسُودُها وَقارٌ وصرامَةٌ وجَهامة، وهى تُؤاخِذُ المُخطِئين أو تُساجِلُ المُناظِرين، أما شوقى أمين فقد كان يَسُوقُ تصويباتِه ومُؤاخذاتِه ومُساجَلاتِه رَشِيقةً أنيقة، تَقْطُرُ مودة، وتَفْتَرُّ عن بسمةَ مَرحٍ ودُعابة، فتنزلُ بردًا وسلامًا على مَنْ يُؤاخِذُهم ويُساجِلُهم، وتُكْسِبُه قَبُولاً حَسَنًا لَدَى قارئيه !

أما دعوتُه إلى النهوض باللغة العربية لِتُعَبِّرَ عن حضارتنا المعاصرة، بعلومِها وفنونها وصناعاتِها ـ فقد تَمثَّلَتْ فى انضمامِه إلى كوكبةِ الدُّعاة لإنشاءِ مجمعٍ لغوىّ، وهى دعوةٌ تَنادَوْا بها منذ أواخِرِ القرنِ الماضى، وآتَتْ بَواكِيرَها فى مجمعِ البكرىِّ الذى أُنشِئَ فى شارع الخُرُنْفُش بالقاهرة فى العام الثانى والتسعين من القرن الماضى، وكان مِن أبرزِ أعضائِه

الشيخُ محمد توفيق البكــرى، والشــيخُ الإمام محمد عبده، والشيخُ محمد محمــود الشنقيطى، ثم توقَّف بعد أشهرٍ قليلـــة. وبعد عَشْرٍ من السنين نهضَ نــادى (دارِ العلوم) بتجديدِ هذه الدعوة، فى نــدوة امتدَّتْ أسبوعيْن، كان من أعلامها حفنى ناصف، ومحمد الخضرى، وحمزة فتــح الله،وطنطاوى جوهرى، وفتحى زغلول.

وفى سنة ستَّ عشــرةَ مــن هــذا القرن أنشأ أحمد لطفى السيد " مجمَــعَ دارِ الكتــب"، الــذى رأسَــه شــيخُ الأزهر،الشيخُ سليم البشــرى، وكــان لأحمــد حشــمت وزيــر المعــارف حينذاك محاولةٌ فى هذا السبيل، ولكـــن الثورةَ التى اجتاحتْ مصرَ عــام تسـعَةَ عَشَــرَ عَــلاَ صوتُــها علــى كـــل صوت،ووَقَفَ الجميعُ جــهودهم علــى إنجاحها حتى تبلغَ غايتَها مِـــن التَّحَـــرُّرِ والاســتقلال!

وظَهرتْ بعد الثورة محاولةٌ لإنشـــاء مجمعٍ لغوىٍّ أهلىٍّ، حين تَألَّفَ مجمـــعٌ فى دار " إدريس راغب " بحـــىِّ الظـــاهر بالقاهرة، كان من أبرَز أعضائِه محمـــد رشيد رضا، وأحمد العوامرى، ومحمـــد صادق عنبر، الذى أصْهَرَ إليـــه محمـــد شوقى أمين بالزواج من ابنتِه، التى كانت هى الأخرى أديبة شاعرة!

ثم حَمِيَــتِ الدعــوةُ إلى إنشـــاء مجمعٍ لغــوىٍّ فى أواخِــر العشــرينيَّاتِ وأوائلِ الثلاثينيّات، وخـــاض حَوْمَتَـــها شوقى أمين حيث امتَشَق قلمَــه الفَــتِىَّ الجــرىء، مُســتفزًّا غَــيْرةَ الأدبــاءِ والعلماء علــى لغتِــهم الــتى اســتباح حِماها العـــامِّىُّ والدَخِيــل، واعــترى هِمَّتَها قُصُورٌ قَعَدَ بها عن الوفاء بحقِّـــها فى أن تكونَ لغَة علم وفــنٍّ وحضــارة، وأن تستعيدَ مكانتَـــها المرموقــةَ بــين لغات العالم الكبرى، وتُراثُــها العلمــىُّ العريقُ خــيرُ شــاهدٍ علــى قُدرتهــا وجَدارتِها، حين انعقدَ لها اللــواءُ علــى سائر اللغات، وصــارتْ لهــا الســيادةُ والرِّيادةُ فى العلــوم والفنــون والآداب، عِدَّة من القــرون!

كتب شوقى أمين بجريدة الأهــرام فى أوائل العام الثانى والثلاثــين مقــالاً عنوانه "حاجةُ اللغةِ العربية إلى أكاديميَــةٍ" جاء فى مُستَهَلِّه قولُه :

"أشرقَ الأهرامُ ـ فى صبــاح اليــوم ـ حاليًا صدرَه بمقالٍ كــريم، مــن قلمِ حضرة صـــاحبِ الســعادةِ زَنانِــيزى

باشا، أعربَ فيه عن حاجةِ العصر الحالى إلى معهدٍ لغوىٍّ يأخذُ على عاتِقهِ أن يُوجِدَ مُستحدَثاتٍ من الألفاظِ العربيةِ الفصحى، تَدُلُّ على مُستحدثات المعانى العاليةِ العامة .

ولا أنسَى فى مُقْتَبَلِ حديثى أن أشكرَ لسعادة الباشا تنويهَه باسْمِى فى مُقْتَبل حديثِه، فلقد ذَكَرنى فى مَعْرِضِ ذكره لمن يقرأُ لهم تعليقاتِهم على أغلاطِ الكُتَّاب. ثم مضى يقول :

" والواقعُ أن الحاجةَ إلى المعهدِ اللغوىِّ حاجةٌ ماسَّةٌ لا يُمُدُّها إلاه ... فعند المعهدِ اللغوىِّ يُصيبُ الأدباءُ والصِّحافِيُّون ما يُذَلِّلُون به تلك العقباتِ التى تعترضُهم فى حياة الأدبِ والصِّحافة. ومِن العجبِ العاجب أن يبقَى المعهدُ اللغوىُّ إلى الساعة التى نحن فيها : فكرةٌ تتماوجُ بها الرؤوس، وأُمْنِيَّةٌ تختلجُ فى النفوس، ولا هو شأنٌ ينتطحُ فيه عَنْزان، ولا هى مسألةٌ فيها قولان .. ونضربُ فى خَطَلٍ : حين نظنُّ أن الجهودَ الفرديةَ التى يبذلُها أنصارُ اللغةِ تُورثُ كفايةً وغَناء، والحقُّ أن أثرَها وقتىٌّ إن صحَّ أن يكون لها أثر . فهذه الجهودُ الفرديةُ يُعْوِزُها النظام المعنوىُّ الذى يَسْعَى سَعيَه لَدَى الأدباء، وتنقصُها القوةُ الروحيةُ التى تُؤْتِى أُكُلَها عند الكُتّاب، ولن يكونَ ذلك النظامُ، ولا تلك القوة، إلا حيث المجامعُ النبيلةُ الموصوفةُ التى تترامَى إليها العيونُ، فى تقديرٍ لها، واعتداد بها".

ثم اختتَمه بقوله :

" أمامنا : المعهدُ اللغوىّ، وفينا ـ بحمد الله ـ رجالات : فى مُلْكِهم أن يُنْشِئُوه إنشاءً طَيِّبا، ويُنبتوه نباتًا حَسَنًا، فيُؤتِي أُكُلَه مرتيْن بإذن الله " إذن : فليس يَبْقَى إلا الجُودُ والعزم، فهلْ يَنْقُصُ رجالاتِنا هذان؟

ألاَ نفوسٌ أَبِيَّاتٌ لها هِمَمٌ

أَمَا على الخيرِ أنصارٌ وأعوانُ ؟"

ولم يجنح بقلمِه إلى انتظارٍ يَترقَّبُ فى ظِلِّه ثمرةَ دعوتِه، بل أخذ يُلِحُّ بها إلحاحًا فى مقالاتٍ متتابعة، منها مقالات عنوانُها:

" المجمعُ اللغوىّ ـ لماذا يُراد ؟ "

جاء فى إحداها بجريدة الأهرام :

" أُفْرِغُ الساعةَ باليراعةِ إلى استئناف الحديثِ عن المجمع اللغوىّ من جانبه العملىّ، بعد أن تحدثتُ عنه فى كلمتيْن

سَلْفَتا من جانبه الشكلىّ، والحديثُ ذو شُجون.

وإذا كان المجمعُ اللغوىُّ إنما يُعْقَدُ للنهوضِ بالفصحى إلى مكانَ عَلِىّ، فعندى أنه لن يُوفِىَ على الغاية إلا حينَ تَتوجَّهُ جهودُه نحو أُمورٍ ثلاثة لا مُنتَدَح له عن واحدٍ منها، وأولُ ذلك اشتقاقُ مُسْتَحْدَثات من الألفاظِ تَصِفُ مُستحدثات المعانى، والأمرُ الثانى تَبْيينُ ما شابَ كثيرًا من العبارات من أخطاء وأغاليط، وثالثُ الأُمورِ إصلاحُ منطقِ الألفاظِ على ألسنةِ الخُطباءِ والأدباء ".

ثم عرضَ لفوضى الجهودِ الفرديَّةِ فى معالجة الكُتّاب لِمَا جَدَّ على صعيدِ الحضارةِ الحديثةِ من مُستحَدثات تَقْتَضِى وضْعَ مصطلحاتِ علميةٍ وألفاظ حضارية .. فقال :

"والمجمعُ اللغوىُّ فى مَوْسُوعِه أن يُبيدَ هذه الفوضى ويسدَّ حاجةَ رجال العلمِ والفنِّ بتعريبِ المصطلحاتِ العلمية والفنية، ونُحِبُّ أن نُشيرَ إلى أن موقفَ المجمع من تلك المصطلحاتِ موقفُ سياسةٍ وتدبير، لا موقفُ تَعَسُّفٍ وتَعَصُّب، وليس من خيرِ العربيةِ أن نعتمدَ فى تعريبِ كلِّ المصطلحات على الاشتقاق؛ فيجب ألاَّ نُعانِىَ وضعَ اسمٍ للتَّرامِ _ مثلاً _ واسمُه كما تَرَى مصقولٌ عذب، فالسَّماحُ للدخيلِ قانونٌ مصطلحٌ عليه فى عصور العربية جمعاء، وجِدٌّ كاف فى كثيرٍ من المصطلحات العلميةِ أن تبقى فى وضعها العلمىِّ على شريطةِ أن تُنْسَجَ على مِنوالٍ عربىّ .. ذلك أوْلَى وأجدَى " .

ولم يَكَدْ هذا العامُ _ العام الثانى والثلاثون _ يُشْرِفُ على نهايته حتى صدرَ مرسومٌ ملكىٌّ فى الثالث عشر من ديسمبر بإنشاء مجمعِنا اللغوىّ، وإن كان العملُ به لم يبدأ إلا فى الثلاثين من يناير عامَ أربعة وثلاثين .

وقد حَدَّثنى أخى شوقى أمين أنَّ حلمى عيسى وزيرَ المعارفِ حينذاك هو الذى اختارَه للعملِ محررًا بالمجمع؛ وفاءً وعرفانًا بما بذلَه من جُهدٍ مشهود فى سبيل إنشائه !

أيها السادة :

نَوَّهْتُ من قبلُ بأن شوقى أمين كان خُلقُه الإيثار؛ آثَرَ أنْ يُفرِغَ نفسَه للغةِ العربيةِ وآدابها، بعيدًا عما تَقْتَضِيه فُصُولُ الدراسة، وما تنتهى إليه مِن

شهاداتٍ ودرجاتٍ علمية، وآثر أُسرتَه وعَشيرتَه على نفسه، ثم ها هو ذا يُؤْثِرُ المجمعَ على كل ما سواه، فوقَف عليه جُهدَهَ، وعكف عليه محرراً فى لجانه اللغويةِ وجلساتِ مجلِسه ومؤتمره، وبذلك افتقدتْ ساحةُ الصِّحافةِ فتاها اللغوىَّ الأديب، فكم كان يَصُولُ فيها ويَجُولُ بقلمِه المِغْوار، الذى آثَر أن يَجْعَلَه فى رِباطِ المجمعِ إلى آخرِ رمقٍ فى حياته!

عَمِلَ شوقى أمين بالمجمع محرراً، ثم تَرقَّى إلى المحرر الأول، فنائِب رئيسِ التحرير فرئيسِ التحرير، وقد عَمِلَ إلى جانب ذلك مديرًا لمكتب رؤساء المجمع الأساتذة: محمد توفيق رفعت، وأحمد لطفى السيد، والدكتور طه حسين.

وقد آثرَ ألاَّ ينتظرَ حتى تُحيلَه الحكومةُ على المعاش، فأَحالَ نفسَه قبل بلوغِه الستينَ بعام، واخْتِيرَ خبيرًا بلجان الأصول، والألفاظِ والأساليب، والمعجم الوسيط، ثم انْتُخِبَ لعضويةِ المجمع عامَ أربعةٍ وسبعين، حيث امتدَّ نشاطُه المجمعىّ إلى لجانٍ عديدة، فكان مقررًا للجنتىِ الأصول، والألفاظ والأساليب، وعضوًا بلجان اللهجات، والمعجم الكبير، والمعجم الوجيز، ولجنة الاقتصاد، ولجنة القانون.

وإنتاجه اللغوى المجمعى غزير متنوع يربو على مئة بحث، تتوزَّعها مجالاتٌ ثلاث: مجالٌ ينْحُو فيه إلى نحو العربية لتيسير بعض قواعدهِ وضَوابطه، ومجالٌ ثان يَعْمِدُ فيه إلى تصويبِ بعضِ ما شاعَ مِن ألفاظِ وأساليبَ معاصرة، أما المجالُ الثالثُ فقد أبانَ فيه فَصاحةَ الكثيرِ من اللغة الدارجة.

وقد أسهم شوقى أمين فى إعداد كثيرٍ من مطبوعات المجمعِ ومراجعتِها، منها: كتبُ أُصولِ اللغةِ، والألفاظ والأساليب، والقرارات العلمية، ومحاضر الجلسات، والمعجمان: الوسيطِ والوجيز، كما مثَّل المجمع فى كثير من المؤتمرات والندوات فى مِصر، وخارج مصر.

أما نشاطه خارجَ المجمع فقد كان مِن نافلةِ جُهدِه ووقتِه، حيث كان يلقِى محاضراتٍ فى معهد الدراسات الإسلاميةِ التابعِ للأزهر، ومعهدِ البحوثِ والدراسات العربية التابع لجامعة الدول العربية، ومعهدي: الخدمةِ الاجتماعية، والإدارةِ والسكرتارية للفَتيات. كما اختِيرَ عضوًا بلجنةِ الدراسات الأدبيةِ بالمجلس الأعلى لرعاية الفنونِ

والآداب والعلـــوم الاجتماعيـــة، وأسْهَمَ إسهامًا كبيرًا فى لجنةِ نَشْرِ المؤلفات التيموريـــة ؛ فحقَّق ديـوانَ عائشـة التيموريـة، وأشْـرفَ علـى إخـراج كُتُـب : الآثـارِ النبويـــة الشريفة، وأسـرارِ العربيـة، والقيـاسِ والسَّماع، والتّذكـرةِ التيموريـــة، وأعلام الفكر الإسلامىّ.

كما أفردَت مجلةُ الهلالِ بابًا لِطرائِفِـه الأدبيةِ والفكاهية، من العـام الثـالث والخمسين إلى العام الحادى والستين، وهى من ذخيرته الحافلةِ بكنوز اللغـةِ والأدب، المُعبِّرة عن الكثير من جوانب الحضـارةِ العربية، على امتداد عصورِها وبيئاتِـها. وقد صَدَرَتْ فى كتابٍ عنوانُه : " طرائفُ وفكاهاتٌ من تراثنا العربىّ ".

وقد صَدَرَ له مـن قبلُ: كتـاب "التشريعُ الإسلامىُّ للأحوالِ الشخصيةِ والتكـافُلِ الاجتمـاعىّ"، وكتـاب : "الكتابة العربية"، وشاركَ فى تحقيق ديوانِ بشارِ بن بُرد، كما شـارَك فى سلسلةِ المَطبوعاتِ التى تُصْدِرُها مطبعة الكيـلانىّ بعنوان : "سبيلُ الله"، فأخرَج فيها قُطوفًا من كتاب "إحياءِ علومِ الدينِ" للإمـام الغزالىّ، وقدَّمَ لقصيدةِ محمـود سـامى البارودى : " كَشْفُ الغُمَّة فى مدحِ سيِّدِ الأُمَّة ".

أيها السادة :

كنتُ أَوَدُّ أن أُحَدِّثكم عن شـوقى الشاعر، وهو صاحب مجلة " الشـاعر " وكم أسْمَعَنى الكثيرَ من شعره، وكـم أَلحَحْتُ عليه فى جَمْعِه، ولكنه كان يَمُدُّ فى حبالِ تسويفِه حتى تداخَلَتْ وتـاهتْ فى شَواغِله ـ أو شواغِلِ الناس ـ التى كانت تَأخُذُ عليه أقطـارَ حياتِـه، وإنى لأُهِيبُ بأُسرتِه أن تنهضَ بذلك، حتى يَرى القراءُ الجانبَ الإبداعىَّ مِن شـوقى أمين، وهو لم يُفلِتْ كذلك مِمّا عَـهِدْناه فيه من مرحٍ ودعابة اوإنِّى لأَذْكُرُ مـن ذلك أبياتًا له حـين عاجَلَـه الشَّيْبُ والصَّلَع، وكان قد أعدَّ صِبْغَة يَصْبُغُ بهـا شَعْرَه، فقال :

رَضِيتُ بالشَّيبِ تَعْرُونى مَواضِحُه
والسِّنُّ لَمَّا تَزَل لِلَّهْوِ إبّـانا
ما بالُ شَعْرِىَ قد جَفَّتْ مَنابتُـه
وارْتَدَّ مُنْجَرِدًا ما كان فَيْنانا
أَعْدَدْتُ للشَّيبِ صِبْغًا حين باكَرنى
يا لَيْتَ شَعْرِىَ ماذا أصْبُغُ الآنا؟!

ولعلَّ مِسْكَ الختامِ لكلمتى أبيـاتٌ قالَـها شوقى حين قَعَدَ به المرض، يُنـاجِى ربَّـه فيقول :

حَسْبِى دُعائِىَ (ياربَّاه) إيمانــا
فامْنُنْ بعفوكَ ياربَّاه إحسانــا
إن كان ذنبى عظيمًا فى مُساءلَة
فأنتَ أعظمُ (يا ربَّاه) غُفرانــا
الذنبُ : ذنبٌ على عَمْدٍ لمعصيــةٍ
وما تَعَمَّدْتُ يا ربَّاه عِصيانــا
النفس أمّارةٌ بالسُّوء إن ضَعُفَــتْ
والضعفُ عذرٌ لِمَنْ سوَّيت إنسانا
إنّى إلى رحمةِ الرحمـــنِ مُفْتَقِـــرٌ
وقد دَعَوتُكَ (يا رحمنُ) رحمانــا

روحى تَتوقُ إلى لقياكَ واثقــةً
بأن سَتَمْنحَنِى رَوْحًا ورَيْحانــا
أُخرَاكَ فيها خَلاصُ الرُّوحِ مِن كَبَدٍ
فيها التَّحَرُّرُ من أوهام دنيانا
هَبْ لِى رضاكَ فما أَرْضَى به بَدَلاً
يا واهبَ الفضلِ، كلّ الفضلِ رضوانا
جَزاه الله فى جَنته الجزاءَ الأوْفَى، بقدرِ ما أَعْطَى لأُمَّته ولُغتِه ولمجمعِه فَوَفَّى !
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاتــه .

إبراهيم الترزى

عضو المجمع

عاشِقُ الفُصحى

رثاء للصديق المجمعي العريق، الأستاذ شوقي أمين..
تغمده الله بواسع رحمته، وأسكنه فسيح جناتــه .

عزاءً، مجمعَ الفصحى، عزاءَ ... وكنتَ لكل من ترعى حميمًا
مضى "شوقي"، لقد لبّى النداءَ ... وللمَكروب أُنساً أو عَــزاءَ
خَبا ألق الفصيحة بعد شــوقي ... وللأبنــاء كــنتَ أبَــاً بَذولاً
وكان حِجاهُ يجلوها جَلاءَ ... وكم قد سُغتَ فى ذاك العناءَ
أشوقي كنتَ فى الفصحى مُحيطاً ... ويحسَبك الذى يلقاك بَدْهاً[3]
يفيض لكل مغترفٍ عَطــاءَ ... خَلِيَّ البال، موفــوراً ثــراءَ
عِصاميًّا بدُنْيا العِلمِ؛ لكنْ ... وأعرف كم صبرتَ على بلاءِ
بذذتَ ذوى الشهادات ارتقاءَ ... وكم أبليتَ فى الدنيا بلاءَ
وكنتَ إذا خطبت، فذوبيان ... وما جَهِمَ المحيّا منك يــومًا
كنور الشمس، يُبْهِرُنا بَهاءَ ... ولكنْ مُحسنٌ أبدًا لقاءَ
وفى نحوٍ وصرفٍ سِيبويه ... وكنتَ إذا مزحتَ، ففى رُقيٍّ
أحطتَ بكل شاردة ذَكاءَ ... وما جرحَتْ دُعابتُك الحياءَ
وفى أدبٍ ونقد كنتَ عَمْرا[1] ... خفيفَ الرُّوح كنتَ، وذا مِراحِ
جميل اللفظ والمعنى سَــواءَ ... كأنَّك لم تَذُق أبدًا شــقاءَ
وفى الإلقاء سَحبانًا[2]، فنونٌ ... عهدتُك يا أخى لم ترضَ ضيمًا
بلاغَتُهُ، وســاحرةٌ أداءَ ... ولم تبعِ الكرامة والإبــاءَ
وفى خُلُقٍ سموتَ، فكنتَ شهمًا ... نزيهًا كنتَ فى عمل وقولٍ
وصِدِّيقاً، وأخلصتَ الوفاءَ ... وأصلاً فى المبادئِ وانتهاءَ

---

(١) عمرو بن بحر الجاحظ كاتب العربية وأديبها الأكبر .

(٢) سحبان بن وائل : أشهر خطباء العرب (جاهليّ) يضرب ببلاغته المثل .

(٣) بدهًا : مفاجأة .

وذا عزم إذا ما جَدَّ جدٌّ
وأول من يُرى يُعلى اللواءَ
وَداعاً عاشقَ الفصحى، ومن كا
ن حاميها، ومخلصها الولاءَ
رحيلك يا أُخيَّ أصاب كَبْدِي
وفجَّعني، ولوَّعني بُكــاءَ

فيا شوقي،إلى جنَّات خُلدٍ
بما قدَّمتَ، تلقاها جزاءَ
ويا شوقي، لقد أوحشتَ ذاتي
فصارت بلقعًا، قفرًا، خَواءَ
ويا " شوقي أمين " متى لقاءٌ
فإني بتُّ أرجو ذا اللقـــاءَ

محمد يوسف حسن

عضوُ المجمع

٣- كلمة الأسرة

سيدى العالم الجليل الأستاذ الدكتور إبراهيم مدكور رئيس المجمع :

سادتى العلماء الأفاضل ، نائب الرئيس، والأمين العام، وأعضاء مجمع اللغة العربية :

السيدات والسادة أعضاء أسرة المجمع :

إنه يشرفنى أن أقف بينكم متحدثًا فى هذا المجمع الزاخر من العلماء العظماء شيوخ مصر وأعلامها المرفرفة دائمًا ـ تزهو بهم مصرنا وتباهي ـ وفى ذات الوقت يعز علي أن أقف متحدثًا عن والدي ـ زميلكم ـ المرحوم الأستاذ محمد شوقى أمين العالم، الذى أفنى عمره بين الأسرتين : عائلته التى تحمَّل كامل المسؤولية عنها، منذ فقد زوجته ورفيقة حياته المرحومة الأديبة وداد صادق عنبر عام ١٩٥٩م، التي لم يبحث بعدها عن بديل فعاش لأولاده، وكنتُ أكبرهم ولم أتجاوز السابعة عشرة من عمري، ثم شقيقاتي الثلاث فى مراحل الطفولة المختلفة ـ فعاش لنا راعيًا ومتفانيًا ، ليضفي علينا دفء الأم قبل حنان الوالد وليعبر بنا حياتنا الدراسية حتى تخرجنا فى الكليات المختلفة: التجارة، والطب، والهندسة، والعلوم ـ ثم يساعدنا فى تكوين أسرنا . هذا عن أسرته الصغيرة. أما أسرته الكبرى فكانت أسرة مجمعكم الموقر ـ هذا الصرح اللغوي الشامخ الذى انتمى إليه، منذ دورته الأولى عام ١٩٣٤م، فعين محررًا، ثم رئيسًا لمكتب رؤساء المجمع الثلاثة الأساتذة الرواد الأفاضل : محمد توفيق رفعت، وأحمد لطفي السيد، وطه حسين، ورئيسًا للتحرير حتى طلب إحالته للتقاعد عام ١٩٦٩م، ليصبح خبيرًا بلجان المجمع المختلفة ، حتى تم انتخابه لعضوية المجمع عام ١٩٧٤م. من هذا السرد الموجز -الذى لا شك أن حضراتكم أدرى به مني ـ يتبين أن صلته بالمجمع كانت صلة رحم وحب واعتزاز لرحلة دامت نحو ٦٠ عامًا، ومع هذا النشاط المجمعي كانت هناك كتاباته التى

بدأها منذ شبابه المبكر بعدد من المقالات التى كتبها فى جريدة الأهرام فى عامي ١٩٣٢ و ١٩٣٣ م، كان موضوعها " مجمع اللغة العربية لماذا وكيف يراد ؟ .. وهكذا كان داعيًا لمولد صرحكم اللغوي الموقر مما دعاه إلى أن يخصص جمَّ نشاطه للمجمع طوال حياته ــ وما بقي لديه من قدرة على النشاط،فقد كان فى مقالاته المتتابعة فى كثير من المجالات والجرائد المصرية والعربية، وبخاصة مجلة الهلال التي خصَّها بمقالاته المنتظمة منذ عام ١٩٥٢م حتى عام ١٩٦٤م وكانت تحوي أفانين الموضوعات .. فيها دين وتربية ــ وفيها أدب ولغة ــ وفيها خلق واجتماع ــ وفيها طرائف وأعاجيب ــ وفيها نوادر وفكاهات من التراث اللغوي العربي، وكلها مستمدة من جولته فى المكتبة العربية ــ قديمها وحديثها ــ ساعيًا ألاّ ينتقي إلاّ ما هو غير متعارف عليه أو متناقل ــ فكانت مقالاته رحلة فى أعماق التراث العربي والإسلامي، وكانت عصارة العصارة لخبرة الثقافة العربية فى مواجهة الحياة، أو فلنقل إنها رحلة فى لمعات الفطنة وحضور البديهة والتعابير اللغوية المبدعة.

كما أثمر نشاطه عمن كتب منها : مشاهدات سجين ــ طرائف وفكاهات من تراثنا العربى ــ الكتابة العربية ــ التشريع الإسلامى للأحوال الشخصية.

كما قام أيضًا بتحقيق بعض الدواوين وإخراجها مثل : ديوان بشار بن برد بأجزائه الأربعة، وديوان عائشة التيمورية.

كما أنه استمر لنحو ربع قرن - منذ عام ١٩٦٢ م - يلقي محاضراته على طلاب الدراسات العليا الإسلامية، ومعاهد الخدمة الاجتماعية، ومعاهد السكرتارية.ولعلّ مجلة مجمعكم الموقر خير شاهد على إنتاجه اللغوي بما حوته أعدادها من بحوث فى مجال اللغة، وكذلك مطبوعاتكم العظيمة : مثل: المعجم الوسيط،والمعجم الوجيز، وأصول اللغة، والألفاظ والأساليب، كلها كتب مجمعكم العريق التى عمل معكم وبينكم فى إعدادها وإخراجها. واسمحوا لي أن أستأذنكم فأستعير جزءاً من كلمة

العالم العظيم الأستاذ عبد الحميد حسن ــ يوم استقبال والدي عند انتخابه عضوًا بالمجمع التي قال فيها :" وقد عكف على التحصيل يطرق إليه كل باب ويتتبع كل مورد عذب ــ فينهل منه ما يروي ظمأه ــ واستمر ينقب، ويبحث، ويختزن فى ذاكرته اللامعة وذهنه الخصيب وقريحته الوقادة حتى صار بحرًا تتلاطم أمواجه ويحتفظ فى قراره المكين بقدر من طرائف اللغة والأدب وشوارد الحقائق ".

وإذا كان لي أن أتطلع إلى تحقيق أمر ــ لا تكريمًا لوالدي بقدر ما هو للغة العربية نفسها ــ فهو أن يسهم المجمع فى جمع ما تناثر من أبحاث ومقالات محمد شوقى أمين ــ ولا أقول هنا والدي ــ فلا شك أن فى جمعها ما يؤلف سفرًا تتكامل به رؤية عميقة واجتهادات لامعة فى مجال اللغة .

واسمحوا لى أيها العلماء الأجلاء أن أتقدم لكم شاكرًا باسمى وباسم أسرة فقيدنا الراحل محمد شوقى أمين العالم ــ أشكر لمجمعكم هذا التكريم، وشكرًا لفخامة الأستاذ الدكتور رئيس المجمع، والسادة : نائب رئيس المجمع، والأمين العام للمجمع، كما أشكر السيد العالم الأستاذ إبراهيم الترزي عضو المجمع على كلمته الطيبة، وأقدّم شكري للسادة الأفاضل الأعضاء، ولجميع أفراد أسرة مجمعكم الموقر ــ ودمتم لنا فخرًا وحماة أفاضل للغتنا الجميلة وتراثنا العربي العظيم.

والسلام عليكم ورحمة الله .

محمد شفيع محمد شوقى أمين العالم

كلمة المجمع فى تأبين عضو المجمع الراحل المرحوم الأستاذ الدكتور حامد جوهر

للأستاذ الدكتور محمد رشاد الطوبى

السيد الأستاذ الدكتور رئيس المجمع:

السادة الزملاء أعضاء المجمع:

سيداتى سادتى:

منذ سبع سنوات خلت، وبالتحديد فى اليوم السادس عشر من شهر أبريل سنة ١٩٨٦م (ست وثمانين وتسعمئة وألف) جلستُ أمام هذه المنصة مع زميلى الكبير المرحوم الأستاذ الدكتور حامد عبد الفتاح جوهر فى حفل أقامه المجمع لاستقبال ثلاثة من أعضائة الجدد هم:

المرحوم الاستاذ الدكتور محمد زكى شافعى رحمه الله رحمة واسعة .

الأستاذ الدكتور محمد نايل أحمد أمد الله فى عمره .

ثم شخصى الضعيف.

ومن تقاليد هذا المجمع العتيد أن يُقَدِّم كلَّ عضو جديد عضوٌ آخر من قدامى المجمعيين، وقد تطوع المرحوم الدكتور حامد جوهر للقيام بهذه المهمة بالنسبة لى، وأجلس اليوم أمام هذه المنصة نفسها هذا المجلس الحزين الكئيب ،لتأبين هذا الزميل الكريم، الذى امتدت زمالته إلى أكثر من نصف قرن من الزمان.

ولد الدكتور حامد جوهر بالقاهرة سنة ١٩٠٧ م (سبع وتسعمئة وألف)، والتحق بمدرسة الجمعية الخيرية الإسلامية الابتدائية، ومنها انتقل إلى مدرسة الأوقاف الثانوية الملكية (مدرسة الخديو إسماعيل فيما بعد). وهناك تتلمذ على يد الأستاذ عبد الله عفيفى، الذى كان ــ رحمه الله ــ من أعظم رعاة اللغة العربية، لغة القرآن الكريم، فقد كان يشجع تلاميذه، ويدعوهم إلى قراءة الشعر والأدب، والاطلاع على كتابات الأقدمين والمحدثين من أدباء العرب، تمجيدًا لتلك اللغة، والارتقاء بها إلى أعلى درجات السمو والنقاء، وأثمرت جهوده فى تخريج ثلاثة من أعضاء هذا المجمع الموقر، أولهم ــ كما ذكرتُ من قبل ــ الدكتور حامد جوهر، الذى عُرف عنه

* أقيم حفل تأبينه بدار المجمع فى ١٩٩٣/٢/٢٤م.

حبّه للغة العربية، والدفاع عنها فى جميع مناقشات هذا المجمع، وبعد ذلك بسنوات ثلاث تتلمذتُ على هذا المربى الفاضل القدير، ثم تبعنى بعد ذلك شيخ الصحفيين وعضو هذا المجمع أيضًا الأستاذ مصطفى أمين .

بعد حصوله على شهادة الثانوية العامة، التحق الدكتور حامد جوهر بكلية العلوم فى أول إنشائها، وتخرج منها بمرتبة الشرف الأولى سنة ١٩٢٩ م (تسع وعشرين وتسعمئةٍ وألف) ثم عين بعد تخرجه معيدًا بالكلية فى قسم علم الحيوان، حيث حصل على درجة الماجستير فى فسيولوجيا الحيوان سنة ١٩٣٢م (اثنتين وثلاثين وتسعمئة وألف). ثم عين بعد ذلك وكيلاً لمحطة الأحياء البحرية بالغردقة.

وقد أنشئت تلك المحطة فى بادئ الأمر لتكون مركزًا لجمع العيِّنات البحرية التى تستخدم فى الدراسات المعملية لطلبة الكلية، وأيضًا مركزًا للبحوث العلمية التى يجريها أعضاء هيئة التدريس بقسم علم الحيوان. أى أنها كانت فى الواقع تمثل إحدى الوحدات العلمية التابعة لكلية علوم القاهرة، وكان لها فى ذلك الوقت مدير بريطانى على دراية واسعة بمتطلبات المحطات البحرية، وذلك هو " الدكتور كروسلاند ".

وفى سنة ١٩٣٦ م (ست وثلاثين وتسعمئة وألف) انتقلت عمادة كلية العلوم إلى الأستاذ الكبير على مصطفى مشرفة رحمه الله. ووجد نفسه فى ذلك الوقت محاطاً بمجموعة من الأساتذة البريطانيين. فكان من أولى اهتماماته تمصير هيئة التدريس بالكلية، فأرسل إلى إنجلترا عشرة معيدين من الحاصلين على درجة الماجستير، لاستكمال دراستهم العلمية، والحصول على درجة الدكتوراة.

ولم ينس ــ رحمه الله ــ أن " محطة الأحياء البحرية بالغردقة " هى إحدى وحدات الكلية، ومن الضرورى تمصير إدارتها أيضًا، فعين لمدير المحطة " الدكتور كروسلاند "، وكيلاً مصريًا هو الدكتور حامد جوهر، وقد وضح من هذا التعيين فيما بعد أهمية " وضع الرجل المناسب فى المكان المناسب ". فقد كان الدكتور جوهر ــ رحمه الله ــ ميالاً للهدوء، عزوفاً عن الأماكن المزدحمة، المليئة بالضوضاء والضجيج، وما كان هناك أهدأ من مكان قصىٍّ، على شاطىء

مهجور، وتلك كانت الغردقة حين عرفناها لأول مرة.

ذهب إليها زميلنا المرحوم الدكتور حامد جوهر، فأعجب بهدوئها الشامل، وشطآنها الرملية المتعرجة، ومَرْجانياتها الحمراء والزرقاء والأرجوانية، تستقر تحت سطح الماء فى شموخ وهدوء، وقد وقع اختياره على إحدى تلك المرجانيات اللينة، لم تكن حياتها معروفة من قبل، وكان قدماء البحارة فى تلك المنطقة يطلقون عليها اسم " الزينة " (واسمها اللاتينى zenia)، اختارها للدراسة والبحث، وبعد سنوات أربع أى فى عام ١٩٤٠ م(أربعين وتسعمئة وألف) تقدم بحصيلة تلك الدراسة فى رسالة علمية، حصل بها على درجة دكتوراه العلوم (D.Oc.)، وكانت أول مرة تمنح فيها تلك الدرجة الرفيعة من جامعة القاهرة .

لقد كانت للدكتور حامد جوهر نشاطات متعددة، أختار البعض منها فقط، نظرًا لضيق الوقت، إذ كيف يتسنى لى أن أحيط بمثل هذا " المحيط " مترامى الأطراف، فى دقائق معدودات، كان ــ رحمه الله ــ فى مجمع اللغة العربية شعلة من النشاط والحيوية، فقد شارك مشاركة فعالة فى نشاط المجمع وإنتاجه العلمى، منذ انتخابه عضوًا بالمجمع عام ١٩٧٣ م (ثلاثة وسبعين وتسعمئة وألف)، حتى يوم وفاته عام ١٩٩٢م (اثنين وتسعين وتسعمئة وألف)، وذلك فى اللجان العلمية المتخصصة، وفى الجلسات الأسبوعية لمجلس المجمع، وفى مؤتمره السنوى. ففى اللجان العلمية اشترك ــ رحمه الله ــ فى أربع من تلك اللجان، وكان مقررًا لكل منها، وتلك هى لجنة علوم الأحياء والزراعة، ولجنة الكيمياء والصيدلة، ولجنة الجيولوجيا، ولجنة النفط.

وقد أصدرت كلٌّ من اللجان الثلاث معجمًا شاملاً لمصطلحاتها العلمية، ولا يزال معجم النفط قيد الطبع، ويصدر قريبًا بإذن الله، وكانت مساهمة الدكتور حامد جوهر فى إصدار تلك المعاجم الأربعة (مع باقى زملائه أعضاء تلك اللجان) مساهمة فعَّالة، وذلك بإشراف وتشجيع رئيسنا الكبير وشيخ المجمعين، الأستاذ الدكتور إبراهيم بيومى مدكور، الذى لا يسعده على الإطلاق أكثر من صدور تلك المعاجم

العلمية، وتداولها بين مختلف الهيئات العلمية فى مختلف أنحاء الوطن العربى.

وفى وسائل الإعلام تزامل الدكتور حامد جوهر مع عضو آخر من خيرة أعضاء هذا المجمع الموقر، هو المرحوم الدكتور محمد الطيب النجار، تزامل معه فى حديث أسبوعى لكل منهما فى " التليفزيون "، أولهما يدعو إلى الثقافة العلمية، والثانى إلى الثقافة الدينية، وكانت تلك الأحاديث الممتعة، تجتذب إليها كل راغب فى إحدى هاتين الثقافتين، كما كانت خير رسالة من المجمع إلى جمهور مصر العظيم، ومن المؤسف حقًّا أن يتزامل هذان العالمان الجليلان، فى الرحيل عن هذا العالم الفانى، فيفقدهما المجمع فى فترة وجيزة، وذلك فى وقت نحن أحوج ما نكون إلى قدرتهما الخلاقة، وبالأخص فى هذا الوقت بالذات، حيث اختلط الحابل بالنابل والغث بالسمين.

والواقع أن أحاديث الدكتور حامد جوهر الأسبوعية، قد استمرت ما يقرب من خمسة عشر عامًا متتالية، يتجول خلالها مع المشاهدين لمتابعة الحياة البحرية، وما بها من المفارقات والأعاجيب، ما ظهر منها على السطح، وما بَطَن فى الأعماق، وكان الجميع — متخصصون وغير متخصصين — يحرصون على مشاهدتها، والاستمتاع بما فيها من حقائق ومعلومات، توضح، دون شك، قدرة الله سبحانه وتعالى على الخلق والإبداع.

أما عن البحار نفسها، وهى التى تتنفس بها مدن وقارات، وقامت على شواطئها منذ القدم حضارات، فقد أصبحت لها فى عصرنا الحاضر ارتباطات ومشاكل، على أكبر جانب من الأهمية، بدءًا من تعريف المياه الإقليمية، ومدى امتدادها إلى داخل البحر، وانتهاءً بما تلقيه البواخر العابرة فى جنح الظلام من المخلفات الكيميائية، أو بقايا المواد المشعة، ولا يكون خطرها مقصورًا على الحياة البحرية فحسب، بل يمتد أيضًا إلى سكان البلاد المطلة شواطئها على تلك البحار، إن مثل تلك المشاكل قد عقدت لها لقاءات ومؤتمرات، على المستويين الإقليمى والعالمى، وذلك للحد من تلك المخاطر والأضرار.

ولم يكن هناك من يمثل مصر فى أمثال تلك المؤتمرات أكثر حماسًا وتألقًا

من المرحوم الدكتور حامد جوهر، وهو ما أدى إلى اختياره مستشاراً للسكرتير العام للأمم المتحدة فى علوم البحار، وكان للدكتور حامد جوهر، رحمه الله، اهتمام خاص بموضوع " النشر العلمىّ "، فأصدر لأول مرة نشرة خاصة باسم " محطة الأحياء البحرية بالغردقة "، يطل منها الباحث العلمى على كل ما يجرى فى تلك المحطة، من دراسات وبحوث تتعلق بأحياء البحر الأحمر، ولم يكن هذا النشر مقصوراً على المصريين وحدهم، بل امتد ليشمل العديد من علماء الغرب، ممن يقومون بدراسات متعمقة على تلك الأحياء، أذكر منهم على سبيل المثال عالمة الأسماك المعروفة " يوجينى كلارك "، فقد أقامت ما يزيد عن عام كامل فى " صومعة الغردقة "، وأخرجت لنا بعد هذه الإقامة دراسة شاملة عن " الأسماك السامة فى الشعاب المرجانية بالبحر الأحمر ".

سيادة الرئيس :

سيداتى سادتى:

تلك نبذة وجيزة عن الحياة العلمية والعملية لفقيدنا الكبير المرحوم الدكتور حامد جوهر، حياة كلها نضال وكفاح وتضحية، لم يبخل خلالها بتقديم النصح والإرشاد، لكل طالب علم كان يلجأ إليه، ترك وراءه مدرسة كبيرة من علماء الأحياء، فى مختلف الكليات والمعاهد، يشيدون بعلمه وفضله وإخلاصه فى كل مكان.

وفى ختام هذا الحديث المتواضع، أطلب لفقيدنا الكبير الدكتور حامد جوهر الرحمة والمغفرة والأجر الحسن، على كل ما قدم لعلمه ووطنه من إنجازات وتضحيات، كما أتقدم بخالص العزاء لجميع الأهل والأصدقاء والزملاء فى الداخل والخارج، وبخاصة إلى زملائه المجمعيين الذين عاصروه ردحًا طويلاً من الزمن، وعرفوا فيه الدقة والشهامة وحميد الخصال.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

محمد رشاد الطوبى

عضو المجمع

عاشق البحر

إلى روح رائد علم البحار فى مصر والعالم العربى، عضو مجمع اللغة العربية، ومن لُقّب بملك البحر الأحمر، المغفور له الدكتور حامد عبد الفتاح جوهر، طيب الله ثراه.

يا لَلنعيِّ وقد نعى لىَ جَوهرا
فكأنما الدنيا نعاها للوَرَى
والشّعر روَّعه النعيُّ وهالَهُ
فبكَت قَوافيه وفاضت أبحُرا
يا جَفنُ أسعفنِي بدمعٍ سافحٍ
هو لى المُعين لكى أصُوغَ الأَشْطُرا
لهفى على مُتبتِّلٍ للعلم أمـــ
ضى عمره يسعى إليه مُشمِّرا
قد كان للفصحى نصيرًا دائما
ومدققًا فى العلم لن يتكررا

* * *

يا لَلبحار وقد عَراها مأتمُ
أمواجها بنُواحها تتلاطمُ
الشّطُّ والأعماق تبكى جوهرا
وينوحه "متوسطٌ" و"القُلزُمُ"
فُجعت بعاشقها البحار وأعوَلَت
لرحيله كادت يفيض بها الدَّمُ
هذى عرائسها تبدَّدَ فرحُها
وتجــهَّمت حزنًا وقام المأتم
وحدائق المرجان صوَّح نبتُها
كمَدًا كأنَّ الماء فيه علقَمُ

* * *

نبكيك للمثُل العُلا يا جوهر
فى بحر دنيانا لأنت الجوهرُ
نبكيك للشيم الكرام أصيلةً
ومفاخرٍ فى العلم ليست تُنكَرُ
وتمسُّكٍ بالدين ترعى حَقَّه
وتُجلّهُ فيما تُسرُّ وتجهَرُ
يا رب غَمِّدهُ بغفرانٍ ووا
سع رحمةٍ، أنت الرحيم الغافر
عوِّضه عن دنيا البحار بجنةٍ
تجرى بها أنهارها والكوثرُ

محمد يوسف حسن

عضو المجمع



طبع بمؤسسة دار الشعب للصحافة والطباعة والنشر

٩٢ شارع قصر العينى - القاهرة - تليفون : ٧٩٥١٨١٠/٧٩٥١٨١٨



